خيول الشمس (ملحمة الجزائر)

الملائكة والعاصفة

جول روا

الجزء السادس

ترجمة : ضياء حيدر

نبذة عن المؤلف:

ولد جول روا في الجزائر 1907 في واحدة من عائلات المستوطنين الفرنسيين. وتابع دروسة الثانوية في المدرسة الإكليريكية. قبل أن يدخل إلى السلك العسكري في جند المشاة ثم الطيران العسكري في فرنسا لينتقل بعدها إلى بريطانيا ويشارك في الجيش الفرنسي للتحرير. في العام 1946 يغادر الجيش الذي اعتبر حربه في شبه الجزيرة الهندوصينية مخزية. ليتحول بالكامل إلى العمل الأدبي. حاز العديد من الجوائز الأدبية. وأصدر إلى أعماله الروائية والقصصية التي وصلت إلى أكثر من ثلاثين عملاً. أعمالاً مسرحية وشعرية. سنين حياته العشرين الأخيرة أمضاها متفرغاً للكتابة في فيزاليه. شمال شرق فرنسا وتوفي فيها 15 يونيو 2000.

من أعماله الروائية: "خيول الشمس". 1968 - 1972."صحراء ريتز". 1978. "موسم زا". غراسيه. 1982.

ومن أعماله القصصية: "سماء وأرض". 1943. "الوادي السعيد". 1948. "البحار". 1954. "الخائنة". 1955. "الحروب الصليبية الجميلة". 1959. "حرب الجزائر". 1960. "معركة ديان بيان فو". 1963. "رحلة إلى الصين". 1965. "موت ماو". 1969. "رقص شرقي على وقع المدافع". 1976. "بيروت. يحيا الموت". 1984. "حب ما بعد الحرب". 1995.

خيول الشمس «ملحمة الجزائر»

الجزء السادس

الملائكة والعاصفة

تأليف: جول روا

ترجمة: ضياء حيدر

الطبعة الأولى 1432هـ 2011م

ملحمة الجزائر : (خيول الشمس). الجزء 6، الملائكة والعاصفة
جول روا

PQ2635.O9654 T612 2011
Roy, Jules, 1907-2000
[Tonnerre et les anges]
ملحمة الجزائر : (خيول الشمس). الجزء 6، الملائكة والعاصفة / جول روا ؛ ترجمة ضياء حيدر.-ط.1.-
أبوظبي : هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011.
370 ص. ؛ 20x13 سم.
ترجمة كتاب : Le tonnerre et les anges
تدمك: 5-857-01-9948-978
1. القصص الفرنسية. ا. حيدر، ضياء. ب.العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:
Jules Roy
Les chevaux du soleil



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+



www.adach.ae
أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

الملائكة والعاصفة

إهداء

إلى زوجتي تاتيانا التي شاركتني أمل كل يوم وخيبته، على امتداد السنوات العشر التي استغرقها هذا الكتاب.

وإلى كل من ألهمني.

إلى الشخصيات الكبيرة التي جرفتها رياح التاريخ، من البارون دوبريه إلى الجنرال دو بورمون حتى ديغول، وأيضاً إلى أبناء ذاكرتي ومخيلتي، من الجد الأول مارجول إلى كل رجال دو رواي، من الكولونيل غرييه إلى أستاذ روفيغو الذي هو أبي.

إلى كل النساء اللواتي لهن اسم نجمة وقلباً من الماس، وكل اللواتي لا يهزمن، إلى ذاكرة أمي في ثورتها ثم في خضوعها، إلى دموع إليز.

إلى كل أهلي الذين دمرهم حبهم لأرض احتضنتهم، لمن اعتقدوا أنهم ماتوا عبثاً، كما لكل من سقطوا من أجل كرامتهم ومعتقداتهم، إلى أخي الذي أنهى حياته بالقرب من بيربينيان بهاجس أن تفوته اللحظة التي عليه أن يذهب فيها إلى عمله في محطة القطارات الجزائرية الرسمية.

إلى كل من حارب من أجل الحق، إلى أبناء البقّالين من القبائل وعمال المزارع الذين شاركوا في الثورة، إلى من ذبحوا وقتلوا وعذبوا، إلى كل من لم يجدوا أيّ عزاء بعد خسارتهم الجنة... وإلى من استعادوا كرامتهم بالألم والعنف.

أهدي عملي هذا.

جول روا

المحتويات



مقدمة المترجمة

غالباً ما يجري تناول البعد السياسي والاقتصادي أو حتى الثقافي للاستعمار، لكن قلما يجري تناول البعد الاجتماعي والآثار العميقة التي يحدثها الاستعمار - لا سيما ذلك الذي يستمر لأجيال مديدة كحال الاستعمار الفرنسي للجزائر - في حياة المجموعات والأفراد على حدّ سواء. وقد حقّت تسمية هذه الرواية بالملحمة، لا لامتداد أحداثها إلى زهاء مئة وثلاثين عاماً فحسب، بل بصورة أساسية لأنها تصحبنا في رحلة إلى تلك التحولات الاجتماعية التي ضربت جذورها عميقاً ليس في حياة المستَعمَرين ووعيهم فحسب، بل أيضاً في حياة المستعمِرين ووعيهم، أو كما يصف الكاتب نفسه ذلك:

«حملة العام 1830، ذلك الغزو الدموي الذي استمر مصهراً للاختبارات، صراع السلطة، التنافس السياسي، الطروحات الكولونيالية ونقيضاتها، الأوهام، ظهور الأفكار الجديدة، صراع الديانات، المسافة مع الوطن الأم، كل هذا يبدو لي حلقة هائلة. حرب 1870 مع ألمانيا، الحرب العالمية الثانية، الصراعات الكولونيالية في مكان آخر، صراع الأمم، مشاكل التوطين، الحنين، الممانعات العنيفة للاستيعاب المستحيل أو التساكن، الميول الانفصالية، العنصرية، الكوارث الطبيعية، كما تمجيد الأحلام الإمبراطورية، كل ذلك كان يزمجر كأنما في قفص للأسود. بالنسبة للعائلات التي كانت مركز اهتمامي الأول، والتي أتت من كل أوروبا وخاصة من البحر المتوسط، فقد تصادمت في طموحاتها وشهرتها،

بارتباطها أو ابتعادها عن الآخرين، وشكلت العناصر التي تحركت من خلالها عائلتي الخاصة ذات الأصول المتواضعة، ضمن شبكة مذهلة من العلاقات العاطفية والأحقاد والنكبات والانتصارات وكل ما يشكل حياة البشر لشعب كامل على امتداد الزمن. ثم يأتي المواليد الجدد، ويطرح الموت الذي يخطف شخصيات تعلقنا بها سؤال الوراثة. تغيب شخصية واحدة ويكون علينا إعادة توليدها بشكل آخر، في جيل آخر، لضمان استمرارية الحدث وتواصله مع الورثة في الدم وفي الروح. وعندما لا يكون هناك وريث مباشر، نخلق لاحقاً بعد عدة سنوات، براعم من غصن قريب».

هي رحلة مأساوية إذن نتعرف من خلالها على مصائر أجيال ممتدة، تكاد تكون حياتها صورة عن ذلك العنف الذي عصف بأرض الجزائر؛ ونقف وجهاً لوجه في الأثناء على الدعاوى الزائفة التي انطلق منها الاستعمار واستمرّ قائماً عليها، ولا سيما دعوى «تحرير الشعب الجزائري» من محتلّ آخر أو من حاكم جائر؛ كما نتعرف في ثنايا الرواية وتحولاتها وأحداثها على تلك الظاهرة التي يبدو أن لا مفرّ منها، وهي ولع المستعمرين أو المستوطنين بالأرض التي استوطنوها، حتى يستحيل ما بدأ كذبة أو خدعة إلى واقع سرعان ما يتشظى أمام واقع آخر، وولع آخر، هو ولع سكان الأرض الأصليين – مثلما اعتاد الفرنسيون أن يسمّوا الجزائريين – بأرضهم.

عندما بدأ جول روا كتابة «خيول الشمس» في العام 1966، لم يكن قد مضى على تحرير الجزائر سوى أربع سنوات، وهو ما دفعه كما يقول في مقدمة طبعة العام 1995 من الرواية إلى التردد، «لأنني لم أكن أملك الثقة

بالنفس»، بيد أنه تجرّأ أخيراً على خوض المغامرة، لتأتي روايته هذه ليس فقط من وحي زمنٍ معاش وإنما أيضاً من وحي تجربة عميقة للكاتب نفسه، الذي عاش التجربة الفرنسية في الجزائر بكل أوجهها، حتى تكاد تكون الرواية في أحد مستوياتها، سيرة ذاتية، بنيت على سيرة عائلتين، واحدة منهما هي عائلة الكاتب نفسه، على امتداد أكثر من قرنٍ من الزمن، منذ تاريخ الغزو في 1830 وحتى استقلال الجزائر في 1962، ولتغدو بذلك العمل الملحمي الأهم الذي تمكن من أن يغطي بالكامل مرحلة الاستعمار الفرنسي للجزائر، وذلك من خلال رصد أعقد تفاصيل الحياة اليومية وأبسطها على خلفية أحداث وشخصيات حقيقية، وغيرها متخيلة غير أنها مستقاة بدورها من شخصيات عرفها الكاتب وعايشها عن كثب.

والأهم أنه حتى التفاصيل اليومية متأتية من التجربة الشخصية للكاتب الذي هو نفسه «هكتور كونيغ» في الرواية، الذي ولد مثل «هكتور» في روفيغو (وهي التسمية الفرنسية لمدينة بوقرة خلال احتلال الجزائر) نتيجة علاقة غير شرعية بين أمه المتزوجة من شرطي، واسمها الحقيقي «ماتيلد» كما في الرواية، وأستاذ مدرسي هو أيضاً «ديماتون»، وهو والده الحقيقي. كما انه عاش في الحقيقة تجربة المدرسة الإكليريكية التي غادرها لينتقل إلى الجيش ويعيش تجربة الحرب الفرنسية في الجزيرة الهندوصينية في إطار سلاح الجو، وهي التي ولدت لديه تحولاً كبيراً، ليصبح واحداً من كبار المنتقدين لهذه الحرب وللحرب في الجزائر، ومن المؤيدين لحق الجزائريين في الدفاع عن أرضهم. وهذا ما أعطى هذه الملحمة التي كتبها على امتداد عشر سنوات القدرة على أن ترسم بموضوعية كاملة تجربة الاستعمار الفرنسي للجزائر.

بيد أن هذه الملحمة بنيت أيضاً على جهدٍ توثيقي هائل يمنح الرواية ثقلها التاريخي الضروري الذي يجعلها تأريخ حياتي حقيقي للتجربة الفرنسية في الجزائر. والجدير ذكره أن الرواية وضعت في البداية في ستة أجزاء منفصلة صدرت بالتوالي منذ العام 1968 وحتى العام 1972، ثم قام الكاتب بتلخيصها لتقدم عملاً تلفزيونياً عرضه التلفزيون الفرنسي في 1980 في اثنتي عشرة حلقة. ليعود ويجمع في 1995 الأجزاء الستة في مجلد واحد أسماه ملحمة الجزائر.

لم تكن ترجمة هذه الرواية بالعمل البسيط، ومثل الكاتب نفسه عندما بدأ بكتابة ملحمته، فإنني لم أكن واثقة من مقدرتي على خوض غمار مثل هذه المغامرة، خاصة وأن ترجمة مثل هذا العمل لابدّ من أن تقودنا إلى التاريخ بتشابكاته وتعقيداته، وأيضاً إلى الجغرافيا الجزائرية المعقدة، حيث يصعب في كثير من الأحيان العثور على اسم قرية أو شارع أو الوقوف على كافة تفاصيل واقعة تاريخية معينة، قد تمرّ في السرد بصورة ثانوية، غير أنها قد تكون عائقاً أمام الإحاطة بأحداث أكبر وأهم تأتي لاحقاً. هذا ناهيك عن التحدي الذي فرضه أسلوب الكاتب نفسه. ذلك الأسلوب المتسم بالتنقل بين عدة مستويات سردية، تبدأ وصفية مجردة أحياناً لتغوص الشخصية فجأة في رحلة من التداعيات المنفصلة عن السرد الواقعي للأحداث أو لمحادثة ما... غير أن هذا الأسلوب على تعقيده هو ما يمنح ذلك العمق الحقيقي للرواية، وكأنها النسخة المخبأة لها أو للواقع الذي تسرده، وهو وإن كبد المترجم، والقارئ بطبيعة الحال، بعض العناء، إلا أنه يمنحه شعوراً بـ «الأمانة التاريخية».

ضياء حيدر

من الأفضل أن تكون نهاية أسرة حاكمة وشكل حكم، وحتى نهاية وطن، لأنه يمكن لكل شيء أن يستبدل وأن يولد من جديد، من أن تكون نهاية كل فضيلة بين البشر.

ألفرد دو فيني

ملاحظات على «سانك – مارس»[1]

فخرج فرس آخر أحمر وللجالس عليه أعطي أن ينزع السلام من الأرض وأن يقتل بعضهم بعض وأعطي سيفاً عظيماً.

سفر الرؤيا، الإصحاح السادس

(1) «سانك – مارس» Cinq Mars هي الرواية الشهيرة لألفرد دو فيني Alfred de Vigny التي وضعها 1826 والمستوحاة من مؤامرة ماركيز «سانك – مارس» بوزير الملك الفرنسي لويس السادس عشر، أرمان جان دوبلاسيس دو ريشيليو.

الجزء الأول

أرض السراب

قدم لنا أعداء، أعداء حقيقيين، لا يقهرون،
أعطنا الكراهية غير العمياء، نار ليلنا، احمنا من الضغائن اللاإنسانية
التي تجعل كل معركة بلا حياة،
وكما القوة
أعطنا أعداء، أعداء لا يقهرون.

أندريان ميالتيف

الفصل الأول
رائحة النعناع البري

1

جبال الأوراس، العاشر من مايو 1958، في اللحظة التي يحاول فيها النقيب في قسم المظليين كزافيه - ماري دو رواي ضبط الاتصال عبر الراديو مع قائده الكولونيل ويفكر بلقائه مع رئيسة

إنها فتاة كما غيرها من الفتيات، ويمكن أن تمر. إذن لماذا لا تتوقف

صورتها عن الظهور جارحة، ولِمَ هذا الألم؟ ماذا يحبّ فيها؟ ماذا يتشاركان؟ تحديداً لا شيء. هل أنه يغار على بدوية؟

«هنا، رواي...».

الصوت الجاف الذي يختلط للحظات مع تكسر الهواء على الصخور، فقد صبره. فهل سيرد غراس؟ على الرغم من أنه يسمعه يتكلم إلى الآخرين، بصوته الناعم السوقيّ قليلاً، صوته المعدني المبطن في الوقت نفسه.

لا لقاء أكثر تفاهة من هذا. في شارع ميشليه، بالقرب من الكليات وسط زحمة الخامسة بعد الظهر. بلباسه العسكري الفهدي[1]، في شارع الشانزيليزيه، كانوا لينظرون إليه ككائنٍ من المريخ، أما في الجزائر فيعد بطلاً، منقذاً. في هذا اليوم، حاول التحرش بالفتيات. نادى فتاتين جالستين إلى طاولة في المقهى: «ماذا تكونان أنتما؟».

لو كانتا فتاتين أخريين، لتظاهرتا بعدم سماعه، أين هو الزمن الذي كانت تستخدم فيه صيغ كهذه كأنما في «أميرة كليف»[2]؟ الأولى ردت بسعال صلفٍ والأخرى نظرت إليه مباشرة في عينيه:

– احذر.

– لن تكونا...

– بالطبع.

تعبيرها بالرطانة العسكرية مع الضحكة السريعة. إنهما تسخران منه.

(1) Léopard أي البدلة الفهدية وهي البدلة التي اعتمدها الجيش الفرنسي لقواته المجوقلة في نهاية حرب شبه الجزيرة الهندية الصينية والذي استعمل في حرب الجزائر.

(2) La Princesse de Cleves هي رواية تاريخية نشرتها ماري ماديلين لا فاييت في 1678 تظهر دور المرأة في القرن السابع عشر.

ليست جزائرية بالكامل. نصف جزائرية. جزائريات، في *الأوتوماتيك*[1] الذي أعيد بناؤه للتو؟ من أولئك الفتيات اللواتي يضعن المتفجرات في حقائبهن المخصصة للشاطئ؟ بالطبع، هذا الشعر الأسود، هذه البشرة السمراء... أهما جزائريتان أم فرنسيتان، فمع الوقت، تجعلهن الشمس أو اللكنة جميعن متشابهات. لن تكلم جزائرية مظلياً، فهو العدو القاتل، جزار القصبة[2]. وبالطبع لن تقبل منه شيئاً. وعلى الرغم من ذلك... بالنسبة لإحداهما، فان في اسمها كل الكاثوليكية: رئيسة. والأخرى، اسمها جميلة، داكنة السمرة تكتفي بالابتسام أو القهقهة الخفيفة.

بعيداً جداً في الجنوب، تظهر الآن أنوار متوهجة غير واضحة. أهي نجمة منخفضة عند الأفق أم أضواء حاسي مسعود حيث يسيل النفط منذ ثلاثة أشهر[3]؟ رئيسة هي من عائلة بن عامر، والدها من «الماعز»، وعلى الرغم من ذلك فهو محام. لو كان من أبناء بني وي وي[4] كان لحس الأحذية مع استعداد تلقائي للخيانة. أما هو، والدها، فكان من المتمردين. أين شاؤوا أن يكون؟ في أي جهة كان ليكون غراس لو نعتوه بجذع التين[5] طوال حياته؟ إلا أن أمها كانت سليلة مستوطنين. «هناك بين

(1) Otomatic هو واحد من المقاهي المعروفة في السنوات الأخيرة من الاحتلال الفرنسي في الجزائر، خاصة مع المتفجرة التي وضعت فيه العام 1957، في اطار سلسلة متفجرات أخرى في مقهيي «لا كافيتيريا» و«لو كوك هاردي».

(2) القصبة هي المنطقة القديمة الفقيرة في مدينة الجزائر التي كان يسكنها الجزائريون، في حين كان يسكن المستوطنون في الأحياء الغنية من المدينة.

(3) حقل حاسي مسعود حو حقل النفط الثاني الذي اكتشف في الجزائر على مشارف نهاية الاستعمار الفرنسي.

(4) Beni oui oui وهو مصطلح كان يستعمل خلال الفرنسي للجزائر ويشار به للناس الخانعين الذي يقولون نعم (oui) لكل شيء.

(5) جذع التين، كما ذكرنا في الأجزاء السابقة، هي واحدة من التسميات التي كان =

المستوطنين، سترى...».

هنا، الحديث لا يدور عن زواج أساساً. هل يمكن تخيل رجل من آل دو رواي يمشي متباهياً مع امرأة جزائرية في حين أنه يكفي أن يذهب إلى سانت جورج كي يحتك بوريثات العائلات الكبيرة للحَلفاء[1] والقمح والخَمر، من أرستقراطية هذه البلاد؟ جزائرية وماذا إذن سيدي الكولونيل؟ ماذا لديك لتعترض عليه؟ فنحن نعلن بكل اللهجات أننا نحب المسلمين. ما هو حدود ذلك؟ أن نقاتل لكي يحصلوا على الحقوق والعدالة والمساواة. إذن ما الفرق بينهما؟ النقيب دو رواي لا يلوم الكولونيل غراس لتقديمه امرأة غسّالة للسيدة غراس في عيد ميلادها. فلكل خياره. فلو مارس «الأقدام السود[2]» والسادة الضباط الجنس أكثر بقليل مع الجزائريات، ولو كانوا مقلين أقل باصطحابهن للوقوف أمام رؤساء البلديات والكهنة... فالجزائريات حين يتأنقن يبدين أجمل من الأخريات! لأن فتيات سانت جورج لديهن الخياطين ومحلات الفضيات والتجميل والعشاءات على ضوء الشموع، في حين تملك الجزائريات فساتين بأربعة قروش ومصففي

= يطلقها المستعمرون الأوروبيون على الجزائريين تحقيراً، وفي ذلك اشارة لخمول وتبلد الجزائريين، الذي يمضون برأيهم أوقاتهم وهم مستلقون تحت أشجار التين.

(1) الحَلفاء هي نبات عشبي متوسطي من الفصيلة النجيليّة، يبلغ طوله حوالي المِتر الواحد، تستعمل الحلفاء في صناعة ورق الطباعة الجيّد، ويسمّى مكان انتشارها الحُلافيّ وأرضها الحَلِفة أو المُحْلِفة.

(2) الأقدام السود تسمية تطلق على المعمريين أو المستوطنين الأوروبيين الذين سكنوا أو ولدوا في المغرب العربي عموماً وفي الجزائر خصوصاً إبان الاستعمار الفرنسي ما بين 1832–1962. أغلبيتهم تنحدر من أصول فرنسية أو إيطالية أو إسبانية أو مالطية وحتى من أوروبا الشرقية. 80٪ من الأوروبيين القاطنين في «الجزائر الفرنسية» آنذاك بحسب إحصاء عام 1948 ولدوا فيها لأجيال متتالية. ونسبة 11٪ منهم فقط، أوروبية ولدت في فرنسا. أما النسبة المتبقية فتتكون من إسبان وإيطاليين وآخرين من دول أوروبية كسويسرا وألمانيا.

الشعر في باب عزون. وعلى الرغم من ذلك، وعندما نكلف أنفسنا عناء النظر إليهن... لو عرف هؤلاء السادة كيف يؤسسوا لعرقٍ آخر، ما كنا اليوم نتقاتل من أجل جزائر فرنسية أو جزائر عربية.

واضعاً مكبر الصوت على فمه، عاد النقيب ليردد بغضب «هنا، رواي، هنا، رواي...».

الدمدمة أصبحت زعيق غراب، صرخة مخنوقة، غاضبة، فظة تلفظ بحنقٍ لا يمكنه أن يكتمل. كان عليهم الانتظار ساعات قبل أن تنفجر رشقات الرصاص الأولى إلى الغرب، على بعد كيلومترين أو ثلاثة ربما، في عالم آخر تقريباً. ساعات دون حراك ولا تدخين ولا سعال، وتكاد تكون دون تنفس، كما لو أن الخمسة وثمانين رجلاً من الفرقة الذين يمكن الخلط بينهم وبين الحجارة، أصبحوا هم أنفسهم حجارةً سقطت من السماء وقد صقلها صمت الأبدية أو قذفتها القواقع، في مخبأ من الموت، خلف درعٍ يمكنه أن يتشظى تحت ضربات الرصاص.

وإذ بالأفق يتحول زهرياً، فيبدأون بتبين كتل من الصخور أمامهم، وخلفها الصحراء والسماء وكأنها ملت الاحتفاظ بالشمس في قعر حلقها، فبصقتها. النقطة الأعلى في جبال الأوراس، القمم الغارقة في الضباب حيث يستحيل تمييز البيوت (هذا إن كان بامكاننا أن نسميها بيوتاً) عن الصخور. العلامات البائسة للحضارة التي تفضي إلى هضبة عطشى قاحلة جرداء. بعد ذلك، ألف كيلومتر من الرمل والرق[1]، والأحجار السود مع أجمة من الحَلفاء أحياناً، بعض واحات حيث لم يمر المظليون يوماً، ثم بلاد

(1) الرق هي أرض لينة متسعة.

الحمم وتدرجات هقار[1]، ثم مرة أخرى الرمال، الصحراء الكبرى التي يحنّ الجميع إليها، ربما لأنه يمكن معها الاعتقاد أن لا شيء فيها ينتهي، أو ربما لأنه ليس من كثيب فيها يشبه الآخر على الرغم من تماثلها جميعها؛ جميعها على شكل أوراك وأرداف وأثداء وسيقان طويلة مذهبة. نعم، تماماً. مؤخرات وخدود وشفاه لمؤاساة المحاربين. أكان الموت هنا أكثر دعة مما هو في مكانٍ آخر؟ في الوقت الحاضر، يسيّر فيها عاملو النفط شاحناتهم على خطوط الأنابيب والشريط الإرشادي للطرقات.

تبدو تخوم الأوراس تحت السماء الشاسعة، معدنية هي أيضاً، بلور أزرق قد يرنّ إذا لمسناه. نهاية هذه الكتل التي أغرقها مطر الربيع وعواصف الشتاء حيث دفنت كل شيءٍ تحت ثلجها. بلاد الحزن التي تحضن دائماً الثورات. والدليل: في 1954 بدأ أهل الشاوية[2] من جديد ثورتهم. كيف يمكن الإمساك بهؤلاء الرعاة بجلدهم المحمص الذين يدفعون أغنامهم عبر الحجارة الرمادية وهذه البرانس التي بلون التراب، وهؤلاء العنيدون المفطورون على الرفض، هؤلاء الذين لا يقهرون ولا يتميزون بشيء عن تيوسهم، الذين ينامون في ظل صخرة منحوتة ويقتاتون من لا شيء، من الهواء والرمال ومن حصاد شعير بائس، هذه الأجساد التي لا تتعرّق، هذه البطون الغائرة، الرجال– البنادق، هؤلاء البدائيون الذين لا يسلكون أبداً الطرقات ولا يريدون الحضارة ولا الضرائب ولا المدارس ولا السيارات؟ لا تستطيع التقاء واحد منهم إلا بالخطأ. إذن الحجارة تصبح رجالاً يتحدثون

(1) جبال هقار هي سلسلة جبيلة شهيرة تقع في أقصى الجنوب الشرقي للجزائر (الصحراء) وهي ذات تاريخ عريق وأصبحت هذه المنطقة حظيرة لأهميتها في الجزائر والعالم وهي منطقة معروفة بمناظرها الخلابة وبجبالها المتدرجة الرملية اللون.

(2) الشاوية هم أمازيغ الشرق الجزائري.

بلغة يلزمك مترجمين خاصين لفهمها، ونساء ينبثقن من العدم، متدثرات بالسواد، حاسرات الوجوه، يبتعدن خلف حمير امتلأت فراؤها بشوك كرام– كرام[1]. نساء ذائعات الصيت يهجرن أحياناً أزواجهن في الربيع دون أن يشعرن بالخزي واللواتي، اليوم، يغنين في كل المرتفعات: «أنتم المارون، أخبروني عن حبيبي المقاوم معكم. قولوا لي إن كان ما زال حياً. وإن لم يعد يحبني، أخبروني أيضاً، فسأعمي نظري. وإن مات فسأترك الدموع تحرقني...».

ألا تتحدّر رئيسة من الشاوية؟

ضرب لهما موعداً في اليوم التالي في المكان نفسه وجاءتا. عمّ تبحثان؟ وإذ برئيسة تستفزه:

– كم من الناس قتلت وعذبت؟

– قتلت؟ القليل. كان يمكن أن أكون واحداً من القتلى أيضاً. التعذيب؟ لم أعذب أحداً. لا أفعل شيئاً كهذا.

– أنت مظليّ...

نظر إليها بشراسة.

– ما تقولانه ذكيّ. كم سأتفاجأ إن لم تكونا من البربر. ربما كنت مخطئاً لعدم استخدامي الأساليب نفسها التي تستخدمونها عندما تعاقبون أناساً أبرياء.

– فروجيه، رئيس بلدية بوفاريك، مثلاً؟ كم جزائرياً كلف موته؟ من

(1) Cram-cram نوع من النباتات الشوكية التي تلتصق حبوبها بالثياب وتتواجد في المناطق الحارة الجافة.

هم المتوحشون؟

– أنا أتحدث عن النساء والأطفال الذين قتلتهم قذائفكم. أما كانت ستسقط إحداها عليكم بالصدفة.

أشارت إلى حقيبتها المعلقة على كتفها والمسطحة بالكامل، لا قنابل فيها.

– عندما تقصفون القرى، لا تضربون سوى المقاتلين. إضافة إلى الأطفال الجزائريين أليس كذلك؟ إنهم حشرات طفيلية، أما أطفالكم فمقدسون.

– اسمعي لست هنا لأدافع عن المستوطنين.

– لَمَ لا؟

– لَمَ بلى؟

لن يستخدم مع هاتين الفتاتين الصيغ المعتادة. أطروحة بيجار: نحن نقاتل دفاعاً عن فرنسا لفرنسا. لا نناقش عندما نكون قد خضنا ديان بيان فو[1]. ما يفرّق دو رواي عن غراس وبيجار هي الوسائل. بالنسبة إليهم يجب استخدام الصيغة نفسها لمحاربة الشيوعية التي استخدمها ماو، والتي حولت عامة الناس إلى غالبين. بالنسبة إليه... ما كان يمنع الاحتفاظ ببيان ديان فو كقنبلة متشظية في الجسد.

نظر إلى برونو – حامل الصندوق المقدّس[2] – المضطجع إلى جانبه. وجهه البريء الذي تنحدر عليه بضع قطرات من العرق، ووجهه الرقيق

(1) Diên Biên Phù هي مقاطعة في فييتنام الشمالية واشتهرت بعد المعركة التي انتصر فيها الفيتناميون على الفرنسيين في 1954.

(2) أي الجندي المولج حمل جهاز الإرسال.

الذي لا يتنبه سوى لأزيز استقبال الإرسال وكأنه جريان المياه التي تحمل الحياة. متعلقٌ بنقيبه كتعلق الكلب بسيده، وربما بجهاز الإرسال أكثر. مسدس وخنجر وقنابل يدوية عند الحزام من أجل الدفاع عن هذه الخمسة عشر كيلوغراماً من البطاريات واللمبات والأسلاك والآلات على ظهره، وعن اتصاله بغراس الذي يتوقف كل شيء عليه. فهو لا يمزح بأمور كهذه، ولا يحب أن يشك أحد بقدرة أو فائدة مسماعه الذي يضعه غراس قريباً جداً، على بعد خطوتين منه.

ما أن أحرقت الشمس بوهجها الكبير المذهّب الكثبان، ساد الصمت لأربع ساعات، وفي الصمت الهواء. وفي الهواء تتعلق أجنحتها المشرعة، هي التي تكون أحياناً سوداء وأحياناً أخرى لامعة بحسب وضعيتها تجاه الشمس، أكانت بمواجهتها أو مديرة لها ظهرها؛ طيور جارحة، نسور، عقبان، كاسرة عظام؟ تراقب السحليات وفئران الحراج. ولِمَ لا؟ تنتظر نهاية المعركة.

على مستوى الأرض، يجب اشتمام النفحة القوية للهواء لكي نعرف إن كانت لا تحمل روائح جلد وشاش[1] ومرجل محترق بنار الخشب مع الرائحة الأخرى، هي نفسها ولكن أكثر حدة، التي نشمها مع اقترابنا من خيم البدو أو المشاتي[2]: الزيت النتن، صوف الأغطية من شعر الغنم، والسميد. الهواء ربما يفضح المقاومين، لكنه يشقق الشفاه. يمكننا أن

(1) الشاش هي الأوشحة الطويلة (من 4 إلى 8 أمتار) التي يلفها الطوارق على رؤوسهم والتي تغطي معظم الوجه ما عدا العينين.

(2) مشاتي جمع مشتى، Mechta هي التسمية التي استعملها الكاتب والمطابقة للفظ العربي، والمشتى وهي التسمية المعتمدة في تونس والجزائر للقرى الصغيرة المؤلفة من البيوت والأكواخ الفقيرة.

نشرب من المطرة ولكن من الأفضل الاحتفاظ بالماء للحظات العطش الحقيقي لاحقاً، والاكتفاء بمسح الشفاه بالغليسيرين.

حتى الآن، تمكن المتمردون من الهروب. حوصرت الأوراس وقصفت الوديان، هناك حيث تغور أوكار المتمردين في المنحدرات، كمياه معتمة في الحفر، أوكار يحفرونها بالفؤوس. ولكن لا يمكن لأحد أن ينجو من المظليين. عندما ينطلقون، يعرفون كيف يتسللون إلى كل مكان، ويهبطون حيث لا يمكن التوقع، متخذين لون الأرض نفسه أو الظل أو الضوء، يصومون، يأكلون الغبار، متبعين القوانين نفسها لمن يواجهونهم: لا أسلحة ولا رجال في الخلف أبداً، لا شيء على الظهر سوى مدفع رشاش وهاون وهوائيّ إرسال. المعاناة؟ نعم ولكن في نهاية الإنزال، هناك الشاحنات أو المروحيات، في حين يعدم الآخرون ذلك. ربما ولكن الآخرين هم في أرضهم، تحميهم المشاتي وتقيتهم وتضمد جراحهم وتخبئهم. السمك في الماء هم أهل الكتيبة[1] لا المظليين كما يزعم غراس. وبلفتة لبرونو، قال غراس: «بخصوص الراديو، صمت كامل حتى الهجوم الأول أو حتى الظهر. عند الظهر وإن لم يحدث شيء، فسأوجه لك النداء. سنكون قد قضينا عليهم. سأصفّر ثلاث نفخات، لثلاث مرات في المذياع فتجيب. ولكن حتى الظهر أو حتى أول هجوم، صمت كامل...».

وإذ برشقة رصاص مفاجئة من الغرب. يا للراحة! لقد بوغتت الكتيبة. وبسرعة علا في السماعات صوت الفرح الواضح لفاليون، قائد الفرقة الأولى، الذي ألقى القبض على طليعة المتمردين: «هناك جنديان من جبهة

(1) الكتيبة هي فرع من جيش التحرير الوطني الذي أنشئ في العام 1954 وهو الجناح المسلح لجبهة التحرير الوطني ضد الفرنسيين، وهو فرع مؤلف من فرق خفيفة من مئة وأحياناً من ثلاثين رجلاً وخاصيتها هي في سرية حركتها وسرعتها.

التحرير على الأرض، ماذا أفعل؟...»، لأن غراس لا يسمح للتابعين له بالقيام بأيّ مبادرة. وأيضاً بصوت جافٍ يأتي جواب غراس: «... لا تتحركوا. سأستدعي قسم الطيران».

تسلقت الكتيبة من جديد باتجاه الشمال كما توقع غراس. باتجاه موقع الإمداد، فيما اعتقد النقيب دو رواي أن الكتيبة ستحاول أن تنزلق بين الوهاد وتهرب مضحية بالرجلين الذي لم يسحبهما أحد، ولكن هل هما ميتان؟ لنتركهما بوجهيهما إلى التراب ينزفان دمهما وينوحان على مرأى من العقبان المحتشدة مثل طائرات صيد مستعدة للانقضاض، ولكنها محترسة حذرة.

وبعد نحو ساعة، الآخرون. ستة في صفٍ وكأنهم واحد، على بعد خمسين متراً في آخر التلعة المكشوفة، ستة لم يكشف أي شيء اقترابهم، يتقدمون حاملين المدفع الرشاش على أوراكهم وقبعاتهم فوق عيونهم، دون أن يحركوا بحصة أو نصل عشبة. رأى النقيب مسؤول فرقته الأولى يتابعهم في عدسة مدفعه الرشاش، ثم يرشهم بطلقات سريعة مخيفة مع وابل يتناثر من حزام الرصاص مع كل إرجاع للمغلاق إلى الوراء واندلاع للنار في ممر اللهب. لتطير بعدها من النبع القريب جداً القبرات وطيور الذعرة، ويرتمي المقاومون متراصين، أحدهم مقلوب إلى الخلف والآخرون على جنبهم، وقد تهشمت رؤوسهم.

ثم وبطواف كبير صامت، اقتربت العقبان تشدها المرتفعات ويثيرها الصخب.

«هنا رواي، هل تسمعني؟».

2

الطبيب باري، على الطريق القديمة المؤدية إلى المزرعة. التنامي المرعب للعرب. ماذا نستطيع أن نفعل في مواجهة النمل؟

فوق الهضاب التي يقع خلفها البحر، يختلج الهواء. رفع الطبيب قدمه عن دواسة الوقود، انحرف إلى اليمين وترك الشاحنة العسكرية المحمّلة بالجنود تتخطاه. رجال من الفرق العسكرية ينقلونهم من طرف السهل إلى الطرف الآخر، ومن مكتب لآخر، يلقون التحية للشارة الطبية الملصقة على زجاج سيارته. نعم، نعم، مرحباً.

بعد مزرعة شمبري، ترك الشارع باتجاه الطريق الترابية القديمة التي عبدت بالأسفلت بعد أن حفّرتها العجلات القديمة، خفف السير وتوقف دون إطفاء النور واستنشق محاولاً تمييز روائح الأيام الخوالي: البروق[1] الذي ذبل وصلصة الخل وأوراق الكرمة الكثة وذكرى زهور البرتقال من الشهر الماضي. لا شيء. ضباب النفط غطى على كل شيء[2].

الوقت يشير إلى العاشرة. وضع يده على مقبض السرعة. ينصح لمن يكون وحده عدم التوقف أبداً في أرض ترابية. لكنه هنا في دياره، على بعد خمسمئة متر من أمه وأخيه وكارمن والعرب الذين يعرفهم وكل ما كان منذ ولادته حقيقته الوحيدة، سماءه وتعطرها بزيت القبائل ونار الخشب. إلى اليمين، في الكرمة جرار يرش الحقل بالكيماويات، إنه السلام. إنه...

(1) البروق وهو نبات من الفصيلة الزنبقية.

(2) هنا تدور الأحداث في نهاية الخمسينات اي في فترة بداية استخراج النفط في الجزائر.

التعب؟ نوع من الإنهاك في عمره؟ الحياة تمرّ سريعاً. منذ بضعة أسابيع وجزء منه يتحرك بنوع من الخدر: مكوك بين المدينة والمستوصف، الاستشارات والحديث نفسه مع الناس أنفسهم، السيارة، الزيارات الرتيبة إلى المزارع، بالكاد يردّ على التحيات والكلام المكرر عن الأحداث، وحسناً ما هي الأحداث؟ دائماً هي نفسها أو تكاد منذ أربع سنوات. لا بل اعتادوا على المآسي. ما فرض نفسه بعد عاصفة 1954 [1] التي ما زالت فصولها مستمرة، هو مناقشة الوجود كما يتم تخيله منذ أجيال وأجيال بين سكان البلد الأصليين الذين لم يكونوا قد تحولوا بعد إلى أعداء.

ما يتغير وما يجعله أحياناً يفقد توازنه، هو صعود العرب الذي يبدو جلياً ما إن نخرج من المدينة، ونتقدم في الضواحي للوصول إلى السهل. قديماً كانت براقي[2] أرضاً واسعة مسطحة من المراعي والكروم مع أشجار كينا وطرقات مستقيمة. قرية بكل معنى الكلمة. اليوم، ترتفع المنازل في

---

(1) المقصود الأول من نوفمبر 1954، تاريخ بدء الثورة الجزائرية على يد جبهة التحرير الوطني وجناحها العسكري جيش التحرير الوطني. فقد اختارت الثورة ليلة الأحد الاثنين (فجر الأول من نوفمبر) موعداً لانطلاق عملياتها، وهي ليلة عيد جميع القديسين وهو عيد مسيحي، إذ كان عدد كبير من جنود الاحتلال الفرنسي وضباطه في عطلة. وفي هذه الليلة شن جيش التحرير ما مجموعه ثلاثين عملية خلفت 10 قتلى من الأوروبيين والعاملين مع الفرنسيين و23 جريحاً بالإضافة إلى الخسائر المادية الكبيرة. وقامت بذلك مجموعات صغيرة من الثوار المزودين بأسلحة قديمة وبنادق صيد وبعض الألغام في عمليات عسكرية استهدفت مراكز الجيش الفرنسي ومواقعه في أنحاء مختلفة من البلاد وفي وقت واحد. ومع انطلاق الرصاصة الأولى للثورة، تمّ توزيع بيان على الشعب الجزائري يحمل توقيع الأمانة الوطنية لجبهة التحرير الوطني. ودعا البيان جميع المواطنين الجزائريين من جميع الطبقات الاجتماعية وجميع الأحزاب والحركات الجزائرية إلى الانضمام إلى الكفاح. ويطلق الفرنسيون على هذه الليلة تسمية «توسان الأحمر» (Toussaint rouge) وتوسان هو الترجمة الفرنسية لعيد جميع القديسين أما احمر فبسبب دموية ذلك اليوم.

(2) براقي مدينة جزائرية تابعة لولاية الجزائر.

كل مكان بين شبكة من عواميد الكهرباء، مكعبات من الأسمنت الأصفر، ما إن تمطر حتى تغرق في الوحل الطيني. ومن ثم سيارات وسيارات، سيارات «رينو» بأربعة أحصنة، وأخرى بحصانين، «سيمكا» بمصدّات دفاعية، شاحنات صغيرة يقودها عرب، ويملأ عرب مقاعدها وسقوفها، أو يقفون على حوافها، حافلات مكتظة، عربات تجرها الجياد منذ ما قبل التاريخ مع عجلاتها المتأرجحة. إنهم يشغلون كل شيء ويأخذون كل شيء مثل الطوفان. أما هو فكان موقفه عادياً، يطبّبهم كالبقية، ولكن في حين يستدعيه الأوروبيون من أجل لا شيء ويلقون عليه الخطب عن وعكاتهم الصحية، ينوح السكان الأصليون قليلاً، ثم يسلمون أنفسهم له، يبتلعون كبسولة دواء أو يشربون جرعة، ثم يذهبون. فإن لم يرجعوا فسوف يقلق عليهم جيرانهم وأهلهم.. أين أنا يا ألهي؟ إنهم كالنمل.

لن يعود شيء إلى سابق عهده. لقد قدمتم الحماية والحقوق للنمل وانتهى الأمر بأن داسوا عليكم. عند المساء، الطريق مجدداً، النهر الأصفر لأضواء السيارات. فمنذ الأحداث وهو يعود لينام في الجزائر، فهو لديه الحق في العيش. ولكن حتى الآن لا يمارس سوى القليل من هذا الحق.

كانت لتسعد إميلي لسماع ذلك.

ارتمى على مسند المقعد. الحلم الذي رآه ليلة البارحة. من هي هذه المرأة التي لا وجه لها، ومع ذلك انشغل باله بها منذ شهرٍ كامل؟ ذلك الجسد بالغ النحول والرقة الذي دنا منه، ذلك العري العذب المذهّب، تلك الرغبة المجهولة، تلك النعمة، والخدر اللذيذ الذي لا ينتهي، الذي يتم التشويش عليه لكنه يعود، تلك المداعبات.. المداعبات... «يا إلهي...»

لم تغمره يوماً إميلي بهذه الرغبة. إميلي هي الوضع الاعتيادي، بجسدها الذي يشبه جسد أمها القصير البدين، وهي الزواج الذي يرفضه دون حسم، هي كل ما يربطه بآلاف الهكتارات من العنب والبساتين، والقرى المتصدعة بفعل دفع الطوفان، والجبال الزرق. من تكون امرأة الحلم إذن؟ ليست ليون، وليست النجمة المذنبة الذي لم يتسنّ له الوقت ليتصل بها؛ لكي لا يقول لها شيئاً مما يرغب في قوله ولم يخرج على لسانه؟

استقام في جلسته ضاغطاً على دواسة السرعة، فسمع أنين الإطارات على الحصى الملتصقة بالقطران. عشب يبس في الحفر، سياج سروٍ ومشملةٍ، مياه تجري في جدولٍ. وإلى اليمين، قبل أشجار القصب تماماً، تبدأ الطريق التي لم ترمم يوماً مع حفرها وشجر الرمان الأحمر على جنباتها ثم يظهر المخزن بسقفه القرميدي المنحدر، شجرة الدردار القديمة التي تزداد عرياً عاماً بعد عام، أشجار الجوز بجذوعها المتقشرة، شجرة التين السامقة الملساء، الكلب الذي ينبح أمام وجاره.

«إنه الطبيب...».

ظهرت كارمن عند الدرج ونزلت وعانقته. «قبلاتها الصغيرة العسكرية» فكر. العسكريون الذين يستعيرون أوسمة بعضهم بعض ويتبادلون القبل على الشفاه. خدود دون شفاه. خدود عفيفة. لا شيء مشتركاً مع المرأة المجهولة في الحلم. كارمن الصلبة.

«لم نرك منذ وقت طويل، لقد قلقنا عليك».

قام بحركة وكأنه يرسم جبلاً.

«العمل، يا للعمل! اليوم قلت لنفسي: سأذهب...».

بالغ في التباطؤ في لفظ الكلمات. لامبينوس[1]، هكذا لقبوه في الجامعة. هذا صحيح.

كارمن هي المرأة التي تزوجها أخوه دانيال منذ خمسة عشر عاماً. سكتة دماغية، جنون. فبنصائح حماه تحولت المزرعة إلى زراعة البقول. خضروات للبيع. تقود كارمن مفتاح والعرب بيد حديدية: الوصاية الإسبانية التي لا تعرف الرحمة كما أنها لا تحب أن يذكرها أحد بأصلها.

يقترب مفتاح مترنحاً قليلا، يمد أصبعاً رخواً تجاهي ثم يلثمه بنظرة منحرفة:

– ألستَ بخير؟

– بلى، بلى.

راقبت كارمن مفتاح يبتعد.

– هل سمعت الراديو؟

– أنا لا أسمع الراديو كثيراً، أنت تعرفين.

– ما زال الوضع نفسه، طُلب تشكيل حكومة جديدة، فيملن، اسم من هذا القبيل.

فصحح لها: «بفليملن[2] مع باء أمام الفاء، إنه ألزاسي».

(1) Dionysius Lambinus أحد أهم فلاسفة عصره (1516– 1572(عرف بفقهه باللغة، وبحسه الأخلاقي العالي وظرافته ودقته الشديدة، وهذا ما جعل زملاؤه يسخرون منه ليصبح اسم عائلته صفة تعني «التحرك ببطء».

(2) بيار بفليملن Pierre Eugène Jean Pflimlin (1907 – 2000) سياسي فرنسي، شغل عدة مناصب سياسية، وهو الذي شغل منصب رئيس الحكومة من 14 مايو إلى الأول من يونيو 1958، فوض رئاسة الحكومة عند الثانية والنصف من فجر 14 مايو من أحداث الإنقلاب، مما أعفاه من المسؤولية عن عدم تحركه ليل 13 مايو. في 28 مايو وأمام تهديد =

صعد الدرج خلفها. وصدح صوتها: «إنه أخوك الطبيب».

والتفت إليه: «إنها بخير وتتناول دواءها».

فقد تُركت الوالدة لكارمن ودانيال والولدين، صبي وفتاة في الثانوية في الجزائر في المدرسة الداخلية، تركت لهم غرفة الطعام والمطبخ وغرفتي جلوس في الجهة الأخرى من المنزل في الشقة المبنية فوق القبو القديم.

ظهرت رشيقة رغم سنها، تضيء وجهها سعادة مفاجئة.

«هذا أنت...».

احتفظ للحظة بشعرها الأشيب برائحة القرنفل على شفتيه. ابتعدت بوجه بالكاد وسم بالتجاعيد من جهتي الأنف وخطوط متجعدة حول العين، وفجأة اغرورقت عيناها بالدمع.

– أتعرفين هذا الاسم، أيتها الأم، بفليملن؟ تابعت تقول وهي تخرج من الثلاجة قناني نبيذ غشتها البرودة بسرعة: نبيذ وردي وماء. رئيس الحكومة الجديد، كيف نقول ذلك، المنتخب. يريد أن يفاوض. سيطير مثل غيره. يا لهذه الفوضى! وماذا بعد؟

– بعد ذلك سنعود إلى غاي موليه[1] وإلى السخرية، قال الطبيب.

– والعرب... ليسوا مثلك، دكتور، فهم يسمعون الأخبار. ماذا يعتبروننا؟ فرنسا وعلى الرغم من نصف مليون جندي تنشرهم هنا، فإنها عجزت عن التخلص من هذه القذارة. هل هناك ما اسمه

= بالحرب الأهلية قدم استقالته. وبعد أن تم تعيين ديغول مكانه، عين هو وزير دولة من 15 أبريل حتى 15 مايو 1962. اذ استقال مع وزراء آخرين من حزب الحركة الجمهورية الشعبية (التي كان عضواً فيها والتي كان لها توجه ديني ضد اليسار كما كانت ضد حركة ديغول) بسبب اختلافهم العميق مع سياسة ديغول.

(1) Guy Mollet (1905 – 1975) هو رجل سياسة فرنسي والذي شغل منصب رئيس الحكومة في الجمهورية الرابعة (1956 – 1957).

تفاوض؟ نحن ذاهبون إلى الدمار، إلى الهاوية.

لم يتوقف دانيال عن تكرار ذلك.

«والجزائر؟»، قالت الأم بخجل.

لم تتجرأ على سؤاله «كيف حال الآنسة روندا؟»، مدينة الجزائر بالنسبة إليها هي الأمل برؤية الطبيب يستقر. لماذا يتردد؟ ففتاة مثل إميلي روندا تمثّل الأمان والاستقامة. ربما لا تكون ساحرة الجمال، ولكن هل يعني الجمال كثيراً؟ بالنسبة إليه، سابقاً كانت الجزائر تعني أميلي. ولكن ومنذ شهر لا وجود لأميلي. كفنت، سحقت، ضمرت إلى...

«كنت أريد أن أتصل بها بالأمس ولكني كنت متعباً، فعدت إلى منزلي».

دخلت الأم إلى المكتب، وبورع أخرجت من أحد الأدراج ألبوم العائلة، الذي أهدته لزوجها مباشرةً قبل وفاته ليبدل في حينه الألبوم القديم الأرستقراطي بمعنى ما، المتكسّر والمستهلك. ألبوم ثقيل، مربوط بسحلية اصطناعية من الأخضر الداكن والمرقط بالذهبي. دائماً الطقوس نفسها عند وصول الطبيب.

لأن هناك عادات. مرة، وفي أحد المساءات مع نهاية العشاء، نهض رجل عن المائدة تناول بندقيته ورمى برنسه على كتفيه ومضى في وهج المغيب باتجاه أراضي العرب عبر المستنقعات القديمة التي ما زالت تحتفظ بأثار المياه والقصب والحصى والرمل (المجرى غير الأكيد للنهر) وعاد بعد ساعات مدندناً أغنيات عربية مع أرنبٍ في الجراب. وماذا في الروح؟ في الروح تحديداً السحر، الشيء الذي لا نتكلم عنه أبداً، الهواء، لقاء الظلال

التي تتعرف على بعضها بعض باللمس، والوشوشات والالتماعات السود.

3

دو رواي يلقي حكماً قاسياً على شخصية غراس. «ما سعر الكيلوغرام من الثورين؟»، تسأل رئيسة.

يقود السيد غراس المعركة على مزاجه، يدفع ببيادقه على رقعة الشطرنج ولا يقود سوى بصوته. من قائد لقائد. «لا أقبل أيّ غموض. الرسائل غير الشخصية وغير المهمة، من عامل هاتف لآخر، أتركها للآخرين». دائماً الأحكام القاسية لكل ما ليس الملازم - كولونيل غراس، قائد فوج المظليين الذي يلعب دور الأسياد مع نبرة مارشال فرنسي، هو العالم بكل شيء والمهووس بضمير الأنا: أنا، أنا، أنا... والآخرون؟ رجال بائسون عاجزون. فإن كان أعضاء جبهة التحرير الوطنية يعترضون على اسمه فسيعرفون بأنهم وقعوا عليه، غراس، الوحيد الذي يعرف الحرب الثورية، مع ازدرائه للمنظرين في شققهم الذي يستثمرون أفكاره بشكل خاطئ. «فمن خلال الصوت عبر جهاز الإرسال يمكننا أن نحكم على روح الفرد»، كما استنتج.

غضب النقيب. يجب طلب الأوامر أو التعليمات بخصوص كل شيء. أعضاء جبهة التحرير أولئك كانوا استكشافيين ولكن ماذا سيأتي بعدهم؟ مع فارق بسيط لكانوا وضعوا يدهم على المركز. أرخى يده عن زر مكبر الصوت ورمق برينو بنظرة شرسة. «... لا تشغل جهازك، لوجه

الرب!».

وإذ بصوت يتذبذب في مكبر الصوت: «قل لي إذن دو رواي، لستُ أصماً؟ هيا اقفز وانحنِ كما اتفقنا وأخبرني بما يحصل».

الأوامر إذن بهذه الطريقة الغاضبة. بلا تحفّظ. كلمة أخرى من غراس، كلام عام: «عندما تعتقدون أن ليس لديكم ما تخشونه...».

دسّ منظاره تحت حزام المطرة، قريباً جداً من الخنجر، نهض على ساعديه، وقدم رجلاً إلى الأمام ثم فجأة اندفع في ركض مجنون متعرج كي يتفادى الصخور على خطى فرقته الطليعية. بضع ثوانٍ من اللهاث خلف حقل من الشعير الذي كان من المفترض أن يحصد لكن سحقته قطعان الريح المتوحشة. يفترض أن الكتيبة ليست بعيدة. إنها اللحظة التي تذكر فيها رئيسة. «لن أفكّر بهذه الجزائرية.. عليّ أن أدافع عن نفسي...».

عند مجموعة من الصخور، خلف القمم التي ما زالت تخفيهم، تبدأ الصحراء. الكثبان الرملية التي يداعبها الهواء، الشعاع الذي يزداد سطوعاً، المساحة المفتوحة للغزلان عندما تأخذها الرغبة بالانتشار، ولكنها تعود بسرعة كطيور الذعرة نحو الجبل وعشب الحفر وحقل الشعير والشوك.

«هلا أخبرتني أين أنت كزافيه – ماري. لك...».

أجاب دون أن يبدو لاهثاً: «على بعد مئة مترٍ من نقطة انطلاقي. لا أحد أمامي».

غراس الذي لم يحصل على درجاته من المدرسة الحربية، لم يكن يحترم كثيراً طلاب المدرسة الحربية لسانت سير. بالنسبة إليه لا يمكن تعلم الحروب في المدارس. والدليل ليس إلا هو نفسه! فقد ولد من الطبقات الشعبية مع هوسه بالتحدي والاستفزاز وتحقيق المستحيل... شعاره: تصديق ما لا

يصدق.

في المنظار، رأى الرجال الستة ممددين في التلعة وقد احتشد عليهم الذباب بسرعة. ما عادوا يشكلون أي خطر. في مكان أبعد، ومن بين بدلات الفهود التي تشبه شقائق النعمان، تبدو أنقاض صخور منهارة، شجرة نحيلة بجذع متآكل ترتفع فوق الشمس المتلألئة، منحدر من الصخر الأجرد، وعلى الأرجح، الواحة حيث يمكن غسل الوجوه للتخلص من أفكار الليل. لأنه إن كان ممنوعاً التحرك والسعال والتدخين خلال فترة التربص، فليس من الممنوع التفكير. «وهذا»، قال غراس، «إنه لمؤسف...».

لا يفكر غراس إلا في مهنته ومنافسته مع بيجار. يريد أن يلحق ببيجار بأي ثمن، بأمل غامض أن يلقى هذا الأخير ولكن بيجار يبدو منيعاً. لبيجار خمس عشرة سعفة في شارته الحربية أما غراس فعشر فقط. أطلق بيجار اسمه على قبعة مثل بوجو[1]. أما غراس فلا، غير أن معركته لم تنته بعد.

(1) قبعة بيجو هي أغنية عسكرية لجيش إفريقيا وضعت العام 1846، ولكنها تعود لقصة الماريشال بوجو Thomas Bugeaud de la Piconnerie الذي تولى الحكم في الجزائر بين 1840 و1847، وقد عرف بسياسة القهر والعنف والإبادة للشعب الجزائر. أما قصة القبعة، فتعود إلى أكثر من رواية، الأولى انه وجد نفسه بعد انتهاء إحدى المعارك الشرسة والمباغتة في الجزائر، واقفاً والجنود جميعهم ينظرون إليه مبتسمين، فلمس رأسه واكتشف أنه فقد قبعته، فطلبها وهنا صرخ الجميع بصوتٍ واحد «قبعة، قبعة الماريشال» لأن قبعته الخاصة كانت دائماً تلفت نظر الجيش. وفي اليوم التالي، وعندما بدأ عزف الموسيقى العسكرية رافقها الجنود بالغناء «هل رأيت قبعة الأب بوجو». رواية أخرى يتم تناقلها من أن الماريشال رأى أحد جنود المشاة حاسر الرأس في قلب إحدى المعارك مع القبائل في أكثر الأيام حراً، فقدم له قبعته، وقال له بانه سيستعيدها عندما سيجلب له الجندي برنس رجلٍ من القبائل لكن الجندي عاد براية من عند القبائل، فاستلم بوجو الراية واستعاد قبعته.

أما مارسيل بيجار Marcel Bigeard وهو جنرال فرنسي كلف بالقضاء على =

مسلك بيجار مرن في حين أن خطوات غراس صلبة، طريقة بيجار هذه المزعجة بعدم وضع مؤخرته أبداً على المقعد لا بل يقرفص مرقصاً ركبتيه مثل قطة برية. غراس يدير عملياته بدقة الساعة، من هنا يأتي خوفه من المجهول، والغضب الذي يقع فيه بسهولة وهو ما يميزه عن بيجار. «لقد توقعنا كل شيء»، يقول بيجار، «ورتبنا ونظمنا كل شيء، ففي لحظة قد تأتي حبة من الرمل كي...».

خرير أليف ومطمئن: لقد حلقت طائرة موران فوق قمم الجبال ورسمت دوائر. وعلى موجة بثّ أخرى، غراس وهو، عليهما أن يتكلما ويرسلا لبعضهما تأكيدات أو نفي. كانت رئيسة لتبتسم بسخرية لمشاهدة كل هذا.

«تقدم أيضاً رواي. عليك أن تحدد لي...».

حركة من النقيب فتقفز الفرق ثم تنبطح أرضاً.

«هلا أجبتَ رواي؟».

دائماً هذا المزعج. سحقاً لك، غراس!

مد برينو مكبر الصوت للنقيب:

«هنا رواي، إنني أتقدم».

تقفز مثل ثعالب الرمل، هذه الكائنات الصغيرة بأجسادها الكهربائية وبآذانها التي على شكل هوائيات، تلهث كالخنازير، بانتظار ما يمكن أن يرديك إذا بالصدفة، صوّب أحد أفراد جبهة التحرير الوطني في لمح البصر على الرجل الموجود بجانب حامل جهاز الإرسال، أي أنت...

= الثورة الجزائرية، وعمل ضمن فرقة المظليين في معركة ديان بيان فو بشبه جزيرة الهند الصينية، وبعد عودته للجزائر عمل على شعار جديد للمظليين غير ذاك الذي اعتمد في ديان بيان فو، ثبت على القبعات وباتت قبعة المظليين تسمى بقبعة بيجار.

ماذا كان ليشبه ذلك؟ ضربة سوط أو سيفٍ، لطمة على حائط أو على الوجه؟ في المرة الأولى التي كشف فيها عن اسمه لرئيسة وهو ذاهب: «أنا من عائلة دو رواي...». بدت مستغربة ثم صفرت. فقد قايض آل دو رواي قصورهم بمساكن خاصة، وبحجة التكيف مع العصر وهبوا أنفسهم لشيطان الجشع. وعلى الرغم من ذلك، فمن وقت لآخر، يكون لديهم متنور يدرس في سانت سير ويجد نفسه في مخيم دكتاتوري أو في حرب. واليوم، مجنون هذه الذرية، هو نفسه. وهذا، ممّن تعلمه؟ في هذه العائلة التي يكثر فيها الجنرالات والمطارنة، يتفادون الكلام عن قائد لواء بسيط حطم سيفه وانتهى دون نسل في مزرعة رويرغ بجوار امرأة نابضة بالحياة. تزوجت أرملته مرة ثانية مع ثروة جزائرية كبيرة. أن نعلم بأن كزافيه – ماري وقع في غرام ابنة بهائم من بني عامر، هذا يتجاوز الحد! «يجب توقع كل شيء، وهذا جزء من اللعبة»، كان ليرد أحد أفراد هذه العائلة. فالتقليد يفرض أن يكون هناك دائماً دو رواي لكل شيء، إلى درجة أنه يتم الخلط بينهم أحياناً ويرجعون لأحدهم ما هو لآخر. كان عليهم التظاهر بعدم المعرفة بمغامرة هذا الأخير وإلا فهناك خطر انفجار ومن يعلم؟ بعض رصاصات في ضاحية سانت جرمان.

«هنا غراس. للجميع. وصلت طائرات تي 6. سوف ندميهم».

«ما سعر الكيلوغرام من رجال جبهة التحرير الوطنية؟»، سألته يوماً رئيسة. لن يعلمها دورة في الإمداد، ويحدثها عن حصص التموين الغذائية اليومية والتسلح والتجهيزات والنقل وعن الطرقات والمنصات

والاستقبال في المقر الصيفي ومقر المنطقة الخامسة الذي يشغله سالان[1] وزوجته، وعن إدارة السجون وكلفة السوقات العسكرية[2] المستقدمة من فرنسا لإقحام فرنسا بالمعركة رغماً عنها، ولإيهام الجنود ذوي المهام الحقيرة، بأنهم أبطال. فرد عليها «سعرهم غال...» وبخبث قالت: «نحن لا ندفع السعر نفسه».

بحركة واحدة منه مثُلَ أمامه الملازم أول في شعبة الاحتياط: كجبل أشقر.

«إذن، الرجال الستة الذين أسقطناهم للتو، أريدك أن تسحبهم».

انزلق الملازم أول لجهة الشمال وفجأة وبين الصخور ظهرت ثلاثة جياد عربية وفرسان كميتان وحمار مرقط دون صهوة ولا رسن، من أين خرجت؟ ظهرت وتوقفت متجمدة كالغزلان متأملة الرجال الممددين على الأرض والذين وبحركة مباغتة حملتهم...

«... لا تطلق النار، لوجه الرب!».

... ثم وثبت وكأنها لا تأخذ هذا الحشد على محمل الجد، وفي أعلى القمم، حيّت بالرفس الرعاة الذين من المفترض أنهم يتابعون العملية. وهناك ما أن تدخل الصحراء، ستجد الكثير من الغزلان والجياد والرعاة الأشبه بالمسلات والنساء الأشبه بالذئبات.

من المؤسف أن فتاته الجزائرية ليست هنا، وأنها لا تشرب مثله هذا الكأس. مجازة في الحقوق تعمل لدى محامٍ يسكن عند والدتها في شارع

(1) Raoul Salan (1899 – 1984) جنرال فرنسي، ورأس منظمة الجيش السري الفرنسي في 16 مارس 1961 بشعار «الجزائر فرنسية وستبقى فرنسية».

(2) السوقة العسكرية هي مجموع الفتيان المدعوين في يوم واحد لخدمة العلم.

بونييه بالقرب من منحدر الوادي. لقد ضجروا من اللقاءات على شرفة *أوتوماتيك* ومن البلومبيير[1]. في إحدى المرات، دعاها إلى فندق أِلتّي حيث استأجر غرفة تحرراً من الأفكار المسبقة لمعسكر زِرالدة[2] وأيضاً كي تأتي دون وصيفتها المصاحبة، جميلة، المزعجة. ولكن لا. فهي تخاطبه كغريب إلى درجة أنه قال لها يوماً ممتعضاً: «أتعلمين، إن كنت لا أهمك...» نظرت إليه مباشرة بنظرة جارحة كالسيف مستعدة للمسه بيدها: «وأنا، ألست أشعرك بالكثير من الخزي؟ زملاؤك في العمل، في العادة...».

وبسرعة شعر بألم عائلي قديم ينخره. النقيب كزافيه – ماري لم يكن سعيداً. سعيد، لماذا ليس على الجندي ألا يشعر بالحاجة لاختبار السعادة؟ أليس لديه سوى الواجبات؟ ولكي يرضي النساء، أوليس عليه ربما أن يحب نفسه أكثر؟ وجهه كوجه راهب، أنهكه السهر. ونحافته أهي نحافة أم هزال؟ وسخريته التي يعتبرونها غالباً ازدراء. رجال دو رواي الحقيقيون، أولئك الذين جعلوا لاسمهم الصغير أيضاً قيمة، كانوا يميلون للقصر. كيف يمكن أن تقود دون أن تظهر عجرفةً أمام رجالٍ أشداء تنظر إليهم شذراً من رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم؟ ليس من أي تبكيت للضمير أمام غراس فتحدي هذا الرجل يشعره بالفرح، ويرد على وقاحاته بحازوقات صغيرة. «السيد دو رواي، اسمي أنا لم يدرج بعد في القاموس، ولكن في اليوم الذي سيدرج فيه لن أعيد الفضل بذلك لأحد. ورغم ذلك، اسمح لي أن أضيف أننا نشعر بالإطراء بوجودكم بيننا. فهذا يؤكد أن

(1) plombières نوع من المثلجات بالفاكهة على اسم مدينة Plombières-les-Bains في فرنسا.

(2) زرالدة هي إحدى دوائر الجزائر التابعة لولاية الجزائر.

الأرستقراطية انتقلت من سلاح الفرسان إلى المظليين».

«أين تظن نفسك، بحق الرب؟».

عاد الملازم أول بخطى متمهلة جداً مع شعورٍ بالرضا. من يستفز بذلك؟ كل من أراد من النساء وذلك بفضل كتفيه العريضتين المزدانتين بشارته المخادعة، فهو في نهاية المطاف ليس إلا ضابطاً صغيراً. «وأنا؟»، قال النقيب لنفسه. النساء لا يلحظنه حتى. النساء يحببن الأقوياء ذوي الأكتاف العريضة، النزقين، الساخرين. بيجار وغراس لو شاءا...

وإذا بالملازم أول إلى جانبه.

«... اطمئن، سيدي النقيب. سنبحث عنهم لاحقاً. فقد استوليت على الأسلحة والقنابل اليدوية».

ابتسم النقيب: رئيسة، فتاته المنتسبة إلى جبهة التحرير الوطنية، عدوه الحميم. لماذا تأتي للقائه، لائقة، متحفظة في لباسها، تبدو شاردة، مديرة وجهها من وقت لآخر إلى الخلف؟ لو كانت تكرهه إلى هذا الحدّ، إن كانت تبدو منيعة إلى هذا الحد... «شاحناتك وطائراتك لا تجدي نفعاً معي. ستجد دائماً شعرة بيني وبينك». هذه اللغة اللاذعة وأحياناً الساذجة. «لماذا تهتم إلى هذه الدرجة بلقائي؟ ألأني حالة خاصة؟ أهذا ما يثيرك؟ هذا صحيح، أنت لست من هنا. لماذا لا تذهب إلى حفلات استقبال مدير ايكو داجير[1]؟ ستتاح لك هناك فرصة لقاء نساء يزحفن عند قدميك. لأني أنا يا عزيزي لا يهمني الارتباط. لا تعول على ذلك كثيراً. ألا يكفيك

(1) L'Écho d'Alger صحيفة يومية فرنسية كانت تصدر في الجزائر ما بين 1912 و1962، وكانت خلال حرب التحرير الجزائرية المدافع الشرس عن الجزائر الفرنسية.

أصدقاؤك؟...».

4

في المزرعة، تفتح آنجل ألبوم العائلة وتجد فيه صورة لهكتور.

الماضي كله في درج، مذبح الأشياء المقدسة التي نصبت كارمن حامية لها. هذه المرة، فتحت آنجل الألبوم على صورة مصفرّة بعض الشيء، مثبتة من أطرافها الأربعة في تجويفات الورقة عند الزوايا.

«انظر»، قالت، «الولد الذي تحمله أمه على كتفيها هو هكتور. الى اليمين، زوجي فكتور بقبعته القش وبنطاله المرقّع. وإلى اليسار، ديزيريه شقيق هكتور. وفي الوسط الجدة بالقرب من ماتيلد. من المفترض أن الصورة تعود إلى العام 1910، عند موت الشرطي، عندما وضع ديزريه شريطة كبيرة على ذراعه حزناً على والده. كيف يمرّ الوقت، يا إلهي...».

توقفت، قبضت قلقةً على الذكريات في يدها وضمتها إلى صدرها حتى لا تضيع منها. لو تخيلت زوجة ابنها ما كانت تكنه لمدرس من القبائل، ما كان ذلك، أكان حب حقاً؟ لدرجة أنها حاولت الانتحار؟ لدى كارمن، ماذا تخبئ هذه الكراهية المعلنة للعرب؟ كيف يمكن أن تدافع عن نفسها؟

قلب الطبيب الصفحات. الأخوات بويشو الأوائل في بوفاريك، مع مروحة مربعة في اليد؛ والده فكتور بلباس سلاح المدفعية خلال الخدمة في سطيف[1]، يجلس مقرفصاً على مقعد مخملي شابكاً يديه، ثم خلال حرب

(1) سطيف هي ولاية جزائرية تقع شرق الجزائر.

1914 بالأزرق السماوي معتمراً الطربوش، في إطار رومنسي: البحر والمئذنة وأشجار النخيل وتمثال أسد؛ فكتور أيضاً أمام دراسات الحنطة، الخال إيمي أمام كسّارة، المزرعة بكل أراضيها مع أشجار الجوز ومحراث في الواجهة، وفي مكانٍ أبعد الناعورة وأشجار التين البري التي تخبئ خلفها كوخ مفتاح وخلفه أيضاً أشجار كبيرة اختفت اليوم... لم يتغير شيء. أو أنها... ربما ليس المبنى ولا مظلة الباب بسقفها المعدني المتموج، وليس الباحة ولا التينة، ولكن الداخل حيث ما عاد فيه أي شيء بالنسبة للطبيب. فالمنزل يتحول أكثر وأكثر إلى شبه شقة في مدينة عمال مع الأثاث الذي حملته كارمن من محلات باربِس، ما عدا المكتب القديم الذي لم تتجرأ على لمسه. السماء ما زالت على حالها، الحظيرة تحولت إلى مرآب، وأحياناً يسمعون صوتاً يهدر على الطريق، وكأنها باتت أقرب إلى المزرعة. شيء ما غاب دون أن يتنبهوا لغيابه. ربما لأن دانيال ما عاد يصنع النبيذ؟ عندما لا نملك سوى عشرين هكتاراً من الكروم، لا يمكننا أن ننافس الحقول التي يعمل فيها كل شيء بطريقة آلية لإنتاج كميات أكبر بأسعار أقلّ. لقد كان دانيال محقاً في الانتقال إلى شيء جديد. هناك ما ضاع، ولكن ما هو؟ من يمكنه أن يسجل اللحظة التي لم يعد فيها أي شيء كسابق عهده.

انغلق باب السيارة التي لم يتنبهوا لوصولها. وظهر دانيال ببنيته القوية وشعره القصير. تعانق الشقيقان ونظر الطبيب إلى ساعته.

«أعود من الشبلي»، قال دانيال «التقيت مارتل، إنه لرجل مهم. يمكنه أن يجعل أربعمئة رجل يتحركون خلال ساعتين، وألفاً في يوم واحد».

— صوت رفيع، عالٍ جداً قياساً بعرض كتفيه.

– ليس من كبار المستوطنين، فجميع كبار المستوطنين ضده. أولاً هم يخشونه كما أن أموالهم ما عادت هنا. صغار مثلنا، صغار تجار وشغيلة وموظفين. سيلزمنا أطباء في حال الاشتباكات.

– مع القلب الأحمر وصليب الثوار الملكيين[1]؟

– كان ذلك شعار الأب فوكو[2]، بما كان لديه من تقوى، لم يتنكر لفرنسا. لدينا في جانبنا واحد على الأقل، السيناتور دوبريه[3]. قرأ لنا مارتل[4] في صحيفته لو كورييه دو لا كولير[5]. فهو يواجه بجرأة دون ألاعيب. كتب دوبريه بشكل كامل الوضوح، وقد أراني إياه مارتل: «أيها الجزائريون[6]، نحن نخدعكم، افعلوا كما فعل

(1) Chouans هم الثوار الملكيون في غرب فرنسا خلال الثورة الكبرى. والحديث يدور هنا هنا عن القلب الأحمر وصليب الثوار الملكيين اللذين اعتمدهما الاب شارل دو فوكو كشعار خاص لتبشيره، وهو الشعار الذي تبناه روبير مارتل في حركته.

(2) الأب شارل دو فوكو ولد عام 1858 بمدينة ستراسبورغ الفرنسية وهو قسّ كاثوليكي فرنسي. دخل المدارس العسكرية في صغره ثم اعتزلها ليبدأ حياة الرهبنة. استقر عام 1901 في بني عباس حيث أسس كنيسة ثم ارتحل عنها إلى تمنراست حيث توفي في 1 ديسمبر 1916.

(3) ميشال دوبريه هو سياسي فرنسي كان مؤيداً لديغول، وشغل منصب وزير العدل في حكومة ديغول الأولى العام 1985 بعد الانقلاب الذي جاء بديغول، ثم رئيساً للحكومة من بداية العام 1959 حتى منتصف 1962 عندما كان ديغول رئيساً للجمهورية.

(4) روبير مارتل فرنسي ولد في الجزائر وكان واحداً من المزارعين الملاكين. وقد أسس في 1955 حركة الاتحاد الفرنسي الشمال أفريقي وقد سمي «شوان المتيجة» وقد عرف بمحاربته الشرسة لكل الحلول التي يمكن أن تؤدي إلى خروج الفرنسيين من الجزائر، وهو من اقترح وأقرّ اعتماد القلب الأحمر والصليب (على طريقة الأب شارل دو فوكو) شعاراً لحركته السياسية، كما انه صاحب الكتاب الشهير «الثورة المضادة في الجزائر».

(5) Le courier de la colere هي الصحيفة التي أسسها دوبريه للدفاع عن الجزائر الفرنسية والمناداة بعودة الجنرال ديغول إلى السلطة.

(6) الجزائريون، طبعا هنا يقصد الفرنسيين في الجزائر وليس الجزائريين. لأن الفرنسيين كانوا يعتبرون أنفسهم أصحاب الجزائر ولا تنطبق تسمية «الجزائريين» سوى عليهم فيما =

أسلافكم في 1789 و1848[1]. انتفضوا علينا!».

– ما تبدل في المزرعة، ما مات، لم يكن أشجار الرمان بزهرها ولا أشجار الليمون بفاكهتها، ولا الجدران المتشققة. إنه مفتاح. فهو لا يشبه لا آباءه ولا حتى ما كانه هو نفسه. فالطبيب يلوم نفسه لأنه لم يره بشكل أفضل في السابق، فحتى اليد التي صافحها ما عادت حارة.

– مفتاح ليس على طبيعته، قبل قليل...

– لم يعد كسابق عهده، قالت كارمن. إنها البروباغندا أو أنهم هددوه، أو أنه يتخيل أفكاراً.

– ليس كما هو، قالت الأم. ليس مفتاح. منذ أن كانوا معنا منذ زمن، ونحن نعرفهم... أما كانوا يقطفون الكروم دائماً هنا؟

– والكرز؟ قال دانيال.

وبسرعة اكفهرّ وجهه.

حتى الآن، يمكن الاعتقاد أنه يردد أفكار الآخرين وأنه يريد أن يبدو قوياً. كلمات مثل «عصيان مسلح» أو «ثوروا» يقولها باعتيادية كاملة. ليس شجر الكرز ما تغيّر، إنما هو، لقد وصلوا اليه، أفسدوه. عشرات من أشجار الكرز المزروعة من قبل عائلة باري من فرانش–كونتي، أشجار بجذوع ملساء وبعض العقد، والدبق اللماع، والتي في بعض السنوات تنحني من كثرة حمولتها من الثمار. أمي محقّة: ما كان ليقدر مفتاح على ذلك. إنهم ليسوا من هنا، غرباء لا يضمرون سوى الضغينة. وعلى الرغم

= سموا الجزائريين الحقيقيين بـ «السكان الأصليين» (indigenes) بالإضافة إلى تسميات تحقيرية أخرى مثل «البيكو» (أي الماعز)، وجذوع التين...

(1) 1789 و1848 هما ثورتان فرنسيتان داخليتان.

من ذلك، فهذا المساء، فإن الكلاب التي كان نباحها حتى اليوم يغطي على صوت بنات آوى، كفت عن النباح.

«قطع أشجار الكرز»، تابع دانيال يقول، «ربما لم يكن الأمر موجهاً ضدنا، ولكنه في الواقع أسوأ من ذلك. أين قطعوا الكروم؟ لدى الآخرين، ولو قصدوا الكروم لكانوا حيدونا لأننا لا نملك كروماً. الأمر غير محسوب من وجهة نظر مادية. أرادوا أن يوجهوا لنا ضربة، كيف يمكن قول ذلك؟ في الصميم. وكأنهم يقولون لنا: أنتم أيضاً لن نسامحكم. إن لم تملكوا سوى أشجار الكرز، فهذه الأشجار كثيرة عليكم». وها نحن في الموسم: لا كرز على الطاولة.

– سأذهب، قال الطبيب. لِمَ لا يأتي صديقك دوبريه معنا، ها؟

نحته جانباً، بالقرب من السيارة.

«أهي الآنسة روندا التي تقلقك؟».

ابتسم.

«ولكن لا..».

استغرق بالتفكير في ليلته، هل يبدو عليه ذلك؟

– أتعلم فقط في أي يوم نحن؟

– بالطبع، العاشر من مايو 58.

– لا تفكر كثيراً. فالحب، كما تعلم...

ظلّ يلوح لها حتى أشجار القصب ومن ثم شغّل المذياع.

5

وصول هكتور فجأة، بعد أربع سنوات من الغياب، إلى منزل

أخيه ديزيريه وزوجة أخيه إليز. وما قاله بلقاسم للمدرّس.

«يا إلهي»، قالت إليز رافعة نظرها، «لست أحلم. إنه هو».

فجأة أشرق وجهها، مسحت يديها بالمئزر، وتقدمت بثقل وارتمت بين ذراعي هكتور ثم خرجت إلى المنصة التي على شكل مصطبة تطل على الحديقة والشمس.

«ديزيريه»، نادت عالياً، «تعال بسرعة».

أزيحت الستارة القصب المعلقة على الباب، مخشخشة فوق كتفي ديزيريه. تعانق الشقيقان. وجنتا ديزيريه كالصبار.

ديزيريه، صبار.

كان ديزيريه يرتدي ما كان يرتديه سابقاً إبان عمله في السكك الحديد، الأوفرأول الأزرق نفسه الذي هزل من الغسيل واللبس، من دون أن يعرف أين يخبئ يديه القاسيتين الضخمتين كالكلابات الحديدية. أما هي فقد أحاط شعرها الأشيب بوجهها الذي اكتسب غلظة.

ألقت نظرة سريعة على المطبخ حيث تقضي معظم وقتها: خزانة من الخشب الأبيض المطلي بالأصفر، كراسٍ من القش، اللمبة وظلتها العاكسة للضوء فوق الطاولة، الروزنامة المكتبية المعلقة على الحائط، الموقد الكهربائي، الثلاجة التي تعمل على الكيروسين من محلات الأدوات المستعملة، السلال فوق الصندوق، حوض المغسلة ذو الصنبور الوحيد.

صفقت بيديها:

إلى غرفة الطعام، قالت بلهجة آمرة. نعم، نعم، ما زلت قوية. لا لن نجلس هنا. إنه عيد، إنه عيد. هل جئت لأن هناك شيئاً ما سيحصل؟ ما

هو يا بني المسكين، ما هو؟ منذ عيد جميع القديسين 1954، التي ما زلت أتذكرها جيداً. منذ أن فارقتنا أمك المسكينة وكل شيء ينحدر من سيء إلى أسوأ. أناس لم نفعل يوماً معهم سوى الخير، أنقذتهم فرنسا من الهمجية. والدك لم يعرفهم. علم أولاد البقالين، في البداية بلقاسم ثم الآخر، انظر إلى أين أودى بنا ذلك. بمن بدأوا؟ في اليوم الذي بدأ فيه هذا، من أنزلوا من السيارة ليقتلوه؟ مدرّس. إنه الجواب على والدك.

– في منطقة باتنة، قال ديزيريه. في مضيق خراطة حضروا جيداً ضربتهم.

– لكي يظهروا اعترافهم بالجميل لكم. مستوطن يمكن أن أفهم. لنعتبر أن المستوطنين أخذوا لهم أرضهم. أما المدرّس... كان ديزيريه يقول له دائماً: سيد ديماتون، ستندم على ذلك... هو برأسه البروسي لم يكن يريد أن يسمع شيئاً. الآخر خطف مارغريت. العار للعائلة، كل هذا يذكرنا...

رد هكتور بإشارة تسامح. لقد حصل ذلك منذ وقت طويل، ما عاد ذلك يعذبه. هذا الألم القديم غرق في قعر البحار مثل سفينة ابتلعت.

– والآن، أين هو هذا؟ في تونس؟ في المغرب يعمل ضدنا؟ ما عادوا حتى بحاجة إلى مطالبتنا بشيء، فنحن نقدم لهم كل شيء.

– تونس حصلت على استقلالها، قال ديزيريه. والمغرب أيضاً. نحن إذن، قريباً؟

– هذا ما سيحصل، أضافت إليز. ستقول لهم الحكومة الجديدة: «أنتم في أرضكم، لذا سنترك لكم كل شيء».

– وعندما يقتلون أبرياء كما في باليسترو[1]؟ صرخ ديزيريه.

– نعم، قال هكتور، نعم، إذن ليس علينا أن نطلب منهم أن يقاتلوا إلى جانبنا في الحروب. فبعد ذلك سيكون لديهم حقوق.

– الخطأ يتحمله من وعدوهم بالكثير، قالت إليز. على رجلك ديغول في العام 43، هذا الرجل الفيلماني[2]. كان بالكاد قد وصل إلى هنا، وبالكاد استلم مكان جيرو عندما ركض إلى القسنطينة[3] ليعدهم بمنحهم الجنسية الفرنسية. أكان يعرف عمّ يتكلم؟ هل ولد مثلنا هنا؟

ثم تعجلت، فالطماطم كانت في الطنجرة. فتح ديزيريه قنينة نبيذ وردي. وفتحت هي علب تونة وعجينة كبدة وأعدت قطعاً جديدة من النقانق الإسبانية.

– في أعماقهم، هم شريرون. فقد قتلوا ستين مستوطناً، وربما أكثر...

– واغتصبوا النساء، قال ديزيريه.

(1) Palestro هي مدينة الأخضرية الجزائرية اليوم نسبة إلى الشهيد رابح مقراني المدعو «سي لخضر». وقد سميت باليسترو خلال الاحتلال الفرنسي للجزائر. أنشأت كمستوطنة في 1869 .بموجب مرسوم صدر من بلاط قصر الإطبراطور الفرنسي نابليون الثالث وكانت تسميتها في ذلك الوقت «باليسترو»، تخليداً لذكرى معركة باليسترو وهي مدينة في شمال إيطاليا. في العام 1871 هاجم مقاومون من الثورة التي تزعمها الشيخ محمد المقراني المدينة مستغلين حالة الفوضى التي كان تعيشها فرنسا بعد الهزيمة أمام بروسيا. أسفر الهجوم عن مقتل 46 شخصاً وفقدان العديد من الأشخاص وتدمير شبه كامل للمدينة مما إستدعى إعادة بنائها لاحقا.

(2) الفيلماني أي الرجل كبير الجثة.

(3) خطاب القسنطينة الذي أطلقه الرئيس الفرنسي شارل ديغول في العام 1943، مع الإشارة إلى انه القى خطاباً ثانياً في القسنطينة في 1958، خطاب قسنطينة 1943 هو الذي وعد فيه الجزائريين بإعطائهم الجنسية الفرنسية، ولكنه قدمها في النهاية لستين ألف جزائري مسلم فقط.

– كان من الطبيعي أن ندافع عن أنفسنا. أغاتي كانت في سطيف. تخيل... لقد جئت من هناك. أنت تعرف كل شيء.

– أعرف، نعم، قال هكتور. كانوا يتظاهرون خلف الأعلام الفرنسية عندما بدأ ذلك. أطلقوا النار عليهم. لذلك تركت الجيش في أندونيسيا. فعندما رأيت كيف كانوا يحرقون القرى...

– أيها المسكين، هذا ما نقوله بيننا أنا وديزيريه: أنت ما عدت تفهمنا. ما لا تعرفه، أكملت إليز، هو ما قاله بلقاسم لوالدك، أن «البيكو» ضاق ذرعهم وأصابهم السعار. كما لو أن أباك لم يقضِ حياته يعلمهم، وكما لو أن آل باري وبويشو... هل لوثنا يوماً أيدينا بالدم؟ هل نحن أثرياء؟

ثروتهم الخاصة هي هنا: تقاعد من العمل في سكة الحديد، بيت بفضل قانون لوشير[1]، ألف متر من الحدائق وبعض أشجار عنب المسكات، شجرتا برتقال وثلاث من الليمون. وفي الأسفل في المخزن الذي يستخدم كغرفة غسيل ومرأب، دراجة من الزمن الذي كان فيه ديزيريه يشارك في السباقات وعربة يجرها حصانان.

«إنها أمي التي حدثتني عن ذلك لاحقاً. بلقاسم قال لأبيك...».

اليوم يقولون بشكل عادي «أبوك» عندما يتحدثون عن المدرّس لأنه مات. فهذا الشذوذ أمسى جزءاً من تاريخ العائلة. وهكذا بات كل شيء واضحاً، وكلٌّ يعلم ما يعود له.

قال بلقاسم لأبيه: «لقد جئت تحمل الحضارة إلى برابرة، إنه إعلان

(1) قانون لوشير نسبة لوزير العمل والشؤون الاجتماعية لويس لوشير بين 1926 و1930، والذي قضى بإنشاء مساكن شعبية

المارشال برمون المنقوش على النصب التذكاري في سيدي فرج. فأنتم تتباهون بأنكم كنت كرماء بعد النصر. لنتحدث عن ذلك. قدمتم لنا المبادئ. آه، بالنسبة للمبادئ، يا أستاذي العزيز... كل البشر يولدون ويعيشون متساوين في الحقوق، كل البشر ما عدانا نحن، السكان الأصليون في شمال أفريقيا، المضطهدون، التابعون... وإن ثرنا سُحقنا...».

لقد كان هناك آلاف من مقابر «الماعز» في كاسينو[1]، قال هكتور، لأن ديغول أطلق خطابه الشهير في القسنطينة. قليلاً قبل الخطاب الآخر في برازافيل[2].

هناك حيث عانق رجلاً أسود، الحاكم إيبوي، فيليكس كما يسمونه، أكملت إليز. وهذا ما جعل بلقاسم يقول لنفسه إنه إذا كان ديغول نصّب زنجياً حاكماً، فمن الأحرى أن يحكم البرنس في المقرّ الصيفي.

بدت مترددة، بيد أن الغضب حملها على الكلام.

«ما عدت تعرفه جيداً منذ رحيلك. لديك أوهام حوله. لقد اتهم

(1) معركة مونتي كاسينو اي جبل كاسينو وهي معركة من معارك الحرب العالمية الثانية حدثت بين القوات الألمانية وقوات الحلفاء في جبل كاسينو جنوب مدينة روما – إيطاليا ما بين يناير إلى مايو 1944، وانتهت بانتصار قوات الحلفاء، والتي شارك فيها السباهيون وكانوا القوة الأخطر التي قاتلت مع الفرنسيين والتي ضمت تونسيين وجزائرين وسنغاليين.

(2) برازافيل عاصمة جمهورية الكونغو. وفيها عقد «مؤتمر برازافيل» في العام 1944 والذي دار حول مصير المستعمرات الفرنسية، واتخذ قراراً بإلغاء ما كان يسمى بـ «نظام الأهالي» وهو النظام الذي طبق على السكان الأصليين في المستعمرات الفرنسية من منتصف القرن التاسع عشر حتى العام 1940 – 1947 (حسب المستعمرات)، كما طرحت في المؤتمر مشاريع دمج المستعمرات. ويشار إلى أن برازافيل كانت في العام 1940 عاصمة «فرنسا الحرة» التي كان يترأسها ديغول نفسه وكانت تضم كل المستعمرات الفرنسية. كما يذكر أن الجنرال شارل ديغول كان يملك منزلاً في باكونغو في الكونغو تحول اليوم إلى منزل للسفير الفرنسي في الكونغو.

بلقاسم أباك بأنه مذنب أكثر من غيره ورحل دون حتى أن يقبل شرب فنجان قهوة وحتى دون أن يغلق خلفه الباب. قالت أمك لأبيك: «ألا تريد أن تنتقم من هذا الساذج...» لم يجب. هبط الليل ولم يرد إشعال النور ولا أن يتناول الطعام. مكث في العتمة. وبينما ينام قال لأمك: «آمل ألا يشبهني هكتور...» كانت تلك آخر كلماته، المسكين. في اليوم التالي وجدته أمك بارداً في سريره، وأرسلوا لك برقية».

انتقلوا إلى غرفة الطعام. خزانة أدوات المائدة والطاولة الصغيرة طراز هنري الثاني، علامات النجاح الذي كان يحلم به كل أصحاب «الأقدام السود»، كراسي مقششة بمساند منحوتة موروثة من شارع مونتانْي مع البيانو الذي لم يعد أحداً يلمسه. من طرفي المدفأة، صور في إطارات زجاجية، هما يوم زفافهما، إليز مع تاج من أزهار البرتقال وفستان أبيض مكشكش، ديزيريه بشاربيه الصغيرين وأطرافهما المعوجة مثل سقف معبد بوذي، قفازان أبيضان في يديه الضخمتين. عندما كانا شابين، يا لتلك السعادة في عيني إليز! يا لتلك الابتسامة على شفتيها! كانا يملكان عزة النفس والنزاهة والإخلاص. وصورة للأم قبل أشهر من وفاتها، هنا. فقد استقبلها ديزيريه وإليز في منزلهما لأنها لم تعد قادرة على العناية بنفسها. الوجه المنهك للأم المصدوم من الألم، سرطان تفشى في جسدها، ولم يستطع شيء أن يخفّف آلامها. ذلك الفم المتهدّل، والعينان الشاحبتان، الكابيتان أصلاً والوجنتان الجافتان كما التراب بعد طوفان أو أنه بفعل الغلطة التي أنجبت هكتور.

أكملت إليز:

– أقولها لك: كان المدرسون أول من اعتدوا عليهم: هل هذا أمر يمكن

اغتفاره؟

– هناك طيبون رغم ذلك في كل مكان، قال ديزيريه محاولاً التوفيق بينهما.

– لدينا جيران في الجهة المقابلة، نرى دارتهم من هنا، هي نفس دارتنا. لم نسمع منهم يوماً كلمة بحق فرنسا، فهم يعرفون من هم. قالوا لي، لأننا لا نحتك ببعضنا أبداً، لأننا لسنا من العالم نفسه والدين نفسه ولكننا نتبادل تحية الصباح والخدمات لبعضنا، قالوا لي: سيدو كونيغ، الآخرون مجانين. لولا فرنسا لكانوا ما زالوا يعيشون في الأكواخ ويأكلون العشب...».

تتكلم بصوتٍ عالٍ لأنها كانت تتنقل بين غرفة الطعام والمطبخ بحيوية كبيرة على الرغم من ضخامتها. على شرف هكتور وضعت مفرشاً أبيض طرز عليه حرفا م. ب (ماتيلد باري) من جهاز عرس الأم والفضيات المقلدة من شارع مونتِنْي. أسكرها الكلام وكأنها تعوض شهوراً من الصمت، لأن ديزيريه المتكتم مارس هجراً متواصلاً وغرق في حالة من الإرباك. هل حقاً هناك ما يستدعي القلق؟ هل كان يمكن تخيل أمر كهذا؟ يستمع إلى أخبار أوروبا وإذاعة لوكسمبورغ محاولاً أن يفك لغز التهديدات والشكوك. واليوم، يلتقي هكتور بمشاعر من القلق والفخر: هكتور كولونيل سابق في قسم الطيران في حين أنه لم يصل هو يوماً لأكثر من رقيب في جند المشاة، هكتور الذي يصدر الكتب وهكتور الذي أرسلته صحيفة باريسية...

«أتشعر بالألم؟ لقد أخبرتك بذلك لكي أضعك في الأجواء. من فرنسا، لن يكون لديك فكرة صحيحة. قل لي ما حجتهم للانتقام. ما عاد أحد

يتجرأ على السير في الشوارع ليلاً. فعند المساء نتحصن. يطلقون النار أحياناً على النوافذ المضاءة ويختفون. عند المساء يثبت ديزيريه سبائك من الحديد على مصاريع النوافذ. أتريد أن ترى؟ دروعنا نحن وأسيجتنا نحن. هل يعقل أن نضع نحن الدروع والأسيجة. أحياناً ينتابني البكاء. أيعقل هذا؟ لن نسيء إليهم شريطة أن يتركونا بسلام، وإلا فسندافع عن أنفسنا. لدينا بعض الرجال في الحي الذين قد يتنادون وقت الحاجة. وفي ما بينهم ما زالوا على حالهم كما في السابق، يتلصصون على بعضهم بعض ويتبادلون التهديدات ويقتلون بعضهم بعض من أجل لا شيء. جبهة التحرير الوطنية تستغلهم جميعاً خاصة الأغنياء. قد تتخيل ربما أنهم فقراء؟ نحن نعرف من هم الذين يقودون سيارت المرسيديس في حين أننا...».

ضربت مرة أخرى بيدها:

«إلى الطاولة! أعتقد أن طبق الطماطم جاهز. سأحتفظ به ساخناً. هكتور ابدأ بالكبدة. لو كنت مكانك لا أذهب إلى المزرعة، ما عاد بإمكانك أن تتعرف عليها. منذ الأحداث، لا تفكر الخالة آنجل سوى بترك كل شيء لكارمن، هذه المرأة ذات الروح الانتقامية. فهي ودانيال يؤيدان القمع، ويشعران هناك بالتضامن ما بين المستوطنين».

6

في جبال الأوراس، يعطى غراس الأوامر بالهجوم. تندفع الفرقة وتطلق النار.

دورية من طائرتي تي6 تحلق فوق القمم، لا شيء استثنائياً. طائرات

صغيرة سريعة، يمكنها التحليق على ارتفاعات منخفضة جداً بمستوى أزهار الأقحوان بهدوء في أي وقت كان، ومستعدة دائماً لإطلاق صواريخها ورشاشاتها، إنها آلات آمنة، بغال سلاح الجو، التي لم تدمر يوماً، تتحاور مع طائرات موراني التي تحلق أعلى منها:

القائد الأصفر، لديك في ك.إكس. 25. ب. 03... تأكيد، أحمر تانغو، تصويب جيد...

- غراس للجميع، هنا غراس...

- هل تسمعني، كزافيه - ماري؟ أجب.

- هنا رواي، أرسل.

مع كل «أرسل» يشعّ وجه رئيسة. رئيسة تراقبهم من تحت رموشها الطويلة كرموش فرس برية.

كل فرقة دو رواي على الخط، ستنطلق بإشارة من غراس وتقصف بكل حمم أسلحتها. فالطريدة المحاصرة يجب أن تسحق. رشاشان ثقيلان يطلقان ثمانمائة طلقة في الدقيقة وطائرات تي 6.

«إلى الأمام كزافيه، اضرب».

نهض النقيب، في البداية أطلق الرجال نيرانهم بطريقة عشوائية قليلاً، ركضوا وصرخوا وظهرت بقعة الواحة بين أجمات الدفلى وأطرافها الطينية المتشققة. وفوق الرؤوس، يا لتلك النجوم التي تناثرت، تقافزت فوق الصخور، وانزرعت في الرمل مع غيمة من الغبار، ما هي هذه الشهب المتفجرة التي تنفث من فوق الأكتاف زوابع اللهب؟ خمسة وتسعون رجلاً قفزوا، تشتتوا، تجرعوا الموت، واحد، اثنان، ثلاثة، ثلاثة آخرون أيضاً انهاروا قبل أن يقفوا، وقعوا بالمقلوب أو على بطونهم مقطّعين...

كما تلمع الشمس فجأة، وكما يلفح الهواء مؤخرة العنق، وكما يسقط البرَد مدوياً! كل شيء يجري بسهولة بالغة عندما لا نفكر به. فوق الأجساد التي يقفز فوقها وسط صفير القذائق، كان دو رواي أيضاً يزعق. ماذا؟ لم يكن يعرف. «هيا، هيا» يزعقون كي يخففوا عن أنفسهم ويتقدمون. قبل قيادة غراس، لم يمر عليهم صباح بمثل هذين الجلاء والهدوء حيث يستطيعون أن يكمنوا لطرائدهم في الشمس. تقتلع الروح، هذه الرشقات النارية. في غيوم الغبار الأصفر، ظلال تسدد ضربات بأكعاب البنادق والتماعات دم حمراء. لو سقط أكان سيترك على فمه ابتسامة كالتي يحكي عنها شاتوبريان، تلك التي يتركها البرابرة على شفاههم عندما يموتون. كم كان كل شيء سهلاً، ويا لذاك الشعور بالخفة عند اجتيازهم رشقات نار سريعةٍ كالبرق.. خلف الغيوم كانت الصحراء البيضاء. قبلها، ثقب الماء الخضراء حيث لن تعود طيور الذعرة قبل الليل، عندما لن يبقى شيء على الرمل ولا في الصخور سوى فراغات الرصاص النحاسية، بعض علب المؤونة وقد انسكبت منها محتوياتها ولم يتمكن نسناس من حملها إلى جحره، فردة حذاء عسكري ضائع، وعلى التراب بقع مشبوهة، وجلود دبقةٍ قليلاً ستستشقها الثعالب الأفريقية هذه الليلة بحذر. وفجأة ووسط وهج الظهيرة، حرب ثورية تجفف الفم وتترك طعم...

هذا حصل في الليلة الماضية.

فرغ المقهى. وكان الليل قد هبط والناس يتعجلون العودة إلى منازلهم. ولشدة انشغاله بها لم يلحظ حتى إن مرافقه غائب، ولكن الحارس سيأتي، فلننتظر.

«لا أعرف متى سأراك ثانية».

عند الرصيف ولحظة الوداع، انحنى عليها متسائلاً إن كان سيجرؤ، وفجأة التهمت فمه، وتقريباً بحقد. الحقد عليه أم على نفسها؟ بأسنانها الحادة، هذا العنف، وأخيراً لحظة رقةٍ لم تدم. وعندما تركته وبدأ يركض باتجاه السيارة العسكرية كان فمه يتقطر دماً وللدم طعم النعناع البري.

7

يمضي الطبيب على الطريق مرة أخرى وسط حرارة تنذر بالشلوق[1]. كيف تمكن من الاعتياد على غياب الحب؟

غطى الضباب قمة جبل البليدة[2] وشعر الطبيب بحرارة ثقيلة تنذر بريح الشلوق.

هل لأنه سمع دانيال يتحدث عن شجر الكرز؟ فجأة شعر بأن الأمر الأساسي ينقصه. ولكنه يمضي حياته على الطرقات، ماذا كان ليفعل بامرأة؟ بحضور امرأة، سيكون لديه منزل يعود إليه في المساء، بدلاً من عش العزوبية والسرير البائس، وسيكف عن التسكّع في المطاعم.

فقط لو كانت إميلي تشبه كارمن بتعلقها بالأرض... فقط لو توحي له بشيء آخر سوى الأمل بالذرية... امرأة الأمس المجهولة التي لا وجه لها، كم شعر بالخفة بالقرب منها! معرشة[3] رطبة، مغوية، محتضنة، مناضلة في

(1) الشلوق هي الريح الجافة الحارة.

(2) البليدة تقع في شمال الجزائر على سفوح جبال الأطلس إلى الجنوب من سهل متيجة، ومدينة البليدة عاصمة متيجة.

(3) المعرشة هي نبتة تسمى أيضاً العارشة والمعترشة.

الحب مثل نضال كارمن في الحياة. مناضلة لشخص قليل الشغف مثله. لماذا سكن في الجزائر؟ آه، هو لم يتخل بالكامل. فهو يقلد المستوطنين الأغنياء، هؤلاء الذي يعفون أنفسهم من البقاء وسط كرومهم ومزارعهم. عندما نحب حقاً مزارعنا لا نتركها لمن يديرها. الأحداث هي التي سرّعت هذا الابتعاد. إميلي أيضاً هربت من ريفيه[1] من أجل شقةٍ في حي الكليات في شارع ميشليه، طابق كامل هو الأخير مع شرفة كبيرة، إنها لاستثمار حقيقي. ولكن أهلها رفضوا ترك مزرعتهم.

لديه أسبابه للعودة إلى سيدي موسى كل مساء: بداية هو يوفر طاقته، وبذلك يمكنه أن يستجمع قواه كل صباح. ومن ثم تحت ضغط تكاثر العرب، ما عادت القرية مثل السابق: عدد الأوروبيين (أصحاب الأقدام السود كما يسمون اليوم دون أي سبب) تناقص أيضاً. شيء ما اختفى. في اليوم الذي حصل فيه على شهادة طبيب، أقسم على أن يقدم خدماته للجميع دون تمييز، دون أن يدخل المال في حسبانه. من كان صاحب فكرة مستوصف لا يقدم خدمات سوى للعرب، سواه هو، ابن المستوطنين، ومقابل أيّ مزايا؟ فقد حاولوا كثيراً ثنيه عن ذلك: «لن يعترفوا أبداً لك بالجميل...» أما هو فيفعل ذلك لأنه يشعره بالرضا. وليس حتى على سبيل الإحسان. فالطبيب باري ليس لديه أي نواقص عليه إخفاؤها، هل يطبب الناس تعويضاً عن شيء ما؟

ماذا أراد أن يقول لأمه من خلال جملته الصغيرة عن الحب؟ امرأة الليل المجهولة ليست سوى رمز، صورة. إن كان الحب هذا الاهتزاز القوي في

(1) Rivet هو اسم أعطاه الفرنسيون لمنطقة في الجزائر تيمناً بجنرال فرنسي مات في معركة سيباستوبول.

الروح وفي الدم، وهذا الخبط الكبير للأجنحة، وهذا الغوص في هاوية السعادة الصوفية، كيف أمكنه أن يعوّد نفسه على غياب الحب حتى لقائه مع ليون فوكر، في فندق أَلِتّي، على طاولة دو دومون، مدير طواش[1] الذي ينادونه بسبب أنفه وحيد القرن؟ كانت إميلي متوارية، هذا المساء، هي التي بالعادة تستقل سيارتها وتلحق به. راح يردد في داخله الكلمة التي خطرت له على طريق المزرعة: «إني ضائع». لكن ما إن عاد – يا لجرأته ووقاحته غير العادية! – اتصل بليون (مدام فوكر تسكن في طواش، قال له ديمون) مع خطورة أن يصلوه بشقة وحيد القرن. وعندما سمع صوت الألتو[2] اللاهث قليلاً والمتعب بعض الشيء، بدأ يتلعثم: «لا شيء، سوى أن أسمعك. لأقول لكِ... حماقات. ها هو الأمر، العفو...». سألها إن كان بامكانه أن يستضيفها فلم ترفض. فهي بلا شك مشوشة، بعد الإثارة في آلِتّي، ادارت مدينة الجزائر المظلمة الفارغة في الليل رأسها، نشوة الظلال الخفيفة والبحر، أضواء المرفأ، الجادات حيث تسير مركبات الشرطة، الطرقات اللزجة من الرطوبة، النجوم غير الواضحة وزينة الأضواء على كتف الخليج.

لا شيء يشبه المرأة المجهولة في الليلة الفائتة؟ كم كان عمرها؟ ثلاثون، ربما. أحياناً تخيل له ذات شقرة فينيسية تميل إلى الحمرة، وأحياناً ذات سمرة دافئة. كم من الرجال أغوت؟ كان يكفي أن تظهر مدام فوكر في حياته حتى فجأة... كأنما في أرض برية، أو في صحراء حيث ليس هناك ما يلفت النظر، شيء ما أضاء، اشتعل وتوهج. نار بدوي، نجمة شاردة؟ ماسة

(1) Touache هي مؤسسة نقل بري كانت تعمل بين الجزائر وتونس وفرنسا.

(2) ألتو هو أخفض الأصوات في غناء النساء.

سوداء. إغراء. سراب سقط من الشمال. أهي مدام فوكر أم الوهم؟ ماذا يعرف عنها؟ ولا حتى إن كانت فعلاً قد تطلقت، ولم يتجرأ على سؤالها. فهي أشبه بأفقٍ حيث لا شيء يشير لا إلى بداية أو نهاية سماء أو أرض أو بحر، حيث يطفو كل شيء ويتداخل.

هو الذي لم يعرف يوماً عذاب الحب، يشعر بقلبه يخفق عندما تطل. دائماً متأخرة: توقفت ساعتها، جرى توقيفها في اللحظة الأخيرة. هل تقول الحقيقة؟ ما هو الأكيد على هذه الأرض، حتى في الطب حيث يجري كل شيء سريعاً جداً؟ ليون فوكر، أليست صورة المزرعة مغمورة بالثلج في ذلك الزمن الذي لم يكن قد ولد فيه بعد؟ الثلج الذي يسقط كل ثلاثين عاماً على متيجة ولا يدوم طويلاً. ولكن لهذا معنى، هذا موجود كظاهرة عارضة دون أن يكون له علاقة بشيء. مقاربة باطلة! ثلج، في حين أنه عندما يفكر فيها لا يلبث يردد بنوع من الهذيان «شمسي، شمسي...».

ربما يعود ذهوله هذا إلى شعوره بالحاجة إلى التجديد. فقد تعب من البلاد والعنف ومن الدراما نفسها التي لا يتوقف عن استعادتها، مشاكل سكن والدته مع كنتها في المزرعة، و«البيكو»، وأضف إلى كل ذلك إميلي. كل هذه الأسئلة ومنذ لقائه ليون، فتاة مدينية، امرأة من «باتوس[1]» تكتشف الجزائر، توقفت معها.

8

يشعر هكتور بالشفقة على إليز وديزيريه، المتعلقين بأرضهما

(1) Patos مدينة في البرازيل.

وروائحها ومقابرها.

- ديزيريه، اسكب لي، قالت له إليز.
- بالنسبة إلي، قال ديزيريه، لقد أخطأنا لأننا لم نطلق النار على فرحات عباس[1]. لكانوا الآن راكعين أمامنا، يقبلون أقدامنا، كل أفعال الخير هذه من أجل لا شيء. هؤلاء الكسالى، لقد أعطيناهم كل شيء.
- ما عدا الحقوق. لماذا إذن ليس هناك رؤساء بلديات عرب، قضاة، جنرالات؟ ليس هذا المقدام فرحات عباس هو من أطلق شرارة الثورة. فهو لم يلتحق بها إلا أخيراً. لا يمكننا أن نستوطن على أي حالة ونحن نرفع في الوقت نفسه الإعلان عن حقوق الإنسان. أو كل شيء أو لا شيء. أنتم تؤيدون اللاشيء، ربما أنكم محقون.
- ألا تريد أن نجعل منهم فرنسيين؟ قالت إليز، سينزعجون كثيراً من الحياة مثلنا، لديهم عاداتهم، لا ينامون في الأسرة ولا يحبون ما نأكل، ولا يدخرون. ماذا سيفعلون من دوننا، يا إلهي؟ من سيقود القطارات والطيارات، من سيعرف كيف يعمل في الأرض؟ من دوننا ستغرق البلاد من جديد في البؤس والفوضى، سيذبحون بعضهم بعض، كل شيء سيكون مهدداً بالقتل والحرق.

التزم هكتور الصمت.

(1) فرحات عباس ولد عام 1899 في الجزائر وتوفي في ألمانيا، في 1985. زعيم وطني جزائري، ترأس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بين 1958 و1961. وهو الذي شهد خلال حياته السياسية على امتداد ثلاثين عاماً تحولات في رؤيته. فمن تأييده لفكرة الاندماج الفرنسية إلى فكرة الاستقلالية ومن ثم الإصلاحية واخيراً الثورية. وقد توصل ليلعب دوراً سياسياً كبيراً وأجبر الفرنسيين على التفاوض معه، عندما ترأس الحكومة المؤقتة الجزائرية التي كانت مسؤولة أمام المجلس الوطني للثورة الجزائرية.

تابعت إليز:

«ما عدت تعتبره وطنك إذن؟ لو سمعتك أمك...».

في الحقيقة حذرته أمه مراراً من العرب. ولكن أمه ثارت أيضاً على الأعراف. يا لألمه عندما عاد إلى هنا تحديداً لكي يغلق لها عينيها، ويسدل الستارة على وجه كان الضوء...

وإذا به يشعر فجأة بالشفقة عليهما. أهمل الغداء الذي أعدّته إليز احتفالاً بعودته، طبق الطماطم المحشوة الذي لم يتذوقه أحد. كان ينظر إليهما ماضغاً فتات الخبز الذي يلتقطه عن شرشف الطاولة، غارقاً في الحزن والمرارة.

– سرقوا لهم كل ما لديهم، ما لا يمكن تعويضه، قال ديزيريه.

– عمّن تتكلم؟

– عنا نحن.

– إنها أيضاً أرضهم هم، يا ديزيريه...

– لقد سرقوها هم أيضاً من آخرين. نحن ولدنا هنا مثلهم.

بمَ يمكن التحدث؟ فكر. فديزيريه تلفظ للتو بالحقيقة الوحيدة التي تجعل قلبه يخفق إلى جانب حب النساء. لن يستعين بهذه الأشياء التي تجلب الدموع: رائحة الطبخ في السهل، رائحة أزهار أشجار البرتقال، أشجار الكرمة والزيتون أيام الشباب. سهل جداً. مقبرة سيدي موسى حيث ترقد أمه وأسلافه، المزرعة التي تنصحه إليز بعدم العودة إليها. فهم أنهم يفضلون هذا على كل شيء آخر، حتى على المبادئ. فلماذا إذن يسبب لهم الألم ويعاني هو التمزق أيضاً؟

«يا الهي»، قالت إليز، «أي حرارة هذه في شهر مايو... الصحيفة

تحدثت عن جراد في الشمال».

بالنسبة إلى ديزيريه، الجراد موجود في كل مكان ويلتهم كل شيء. وبالنسبة إلى هكتور، أين هي الحقيقة؟ أن يتخلى عن أخيه، أن يتبنى الجانب الأكثر مرارة؟ حتى اليوم، كان قد تفادى الاصطدام بهذه المشكلة.

نظر إلى أخيه الذي رفع خصلة عن جبينه؛ أخوه المنهك بالعمل على سكك الحديد الجزائرية التابعة للدولة، المنبوذ الذي لم تعطه أمه وهي على قيد الحياة، سوى إكراهاً، حصته من الورثة التي تقلصت بفعل قروض الأب، والذي لم يظهر يوماً سوى الطيبة. علامَ سيعاقبه؟ فديزيريه لا يتساءل أيهما وطنه. إنه هنا، في هذه الأرض، وهو يرفض أن يحرم مما حصل عليه حجراً فوق حجر وقرشاً بعد قرش. إنه يدافع عن حياته.

نهض هكتور وعانق إليز ثم جلس ثانية ومد صحنه باتجاه الطماطم التي بردت.

«البيانو... منذ زمن طويل، سيكون بحاجة للدوزنة. رغم ذلك سأعزف عليه الآن».

9

يصل الطبيب إلى سيدي موسى. ما عادوا يقولون «العرب» بل «المسلمين»، أصحاب الأقدام السود ما زالوا ينادونهم بالجرذان، لكن دون خبث.

عند مدخل القرية، خلف سياج من أشجار السرو والنخيل، يمكن أن نتوقع أحراش البرتقال النموذجية، والسقوف الهرمية لقصر ومزرعة. وفي

الساحة؛ الكنيسة بلون سكر البنات حيث قام الطبيب بحفل قربانه الأول، والتي تعمد كل أهلها تحت الأغطية المخرمة وتزوجوا بالردنغوت ورُشوا بالمياه المباركة في نعوشهم من خشب السنديان؛ والمكتب الذي عملت فيه إليز فيرتو قبل أن تتزوج ديزيريه كونيغ، والمنازل الصغيرة بقرميدها الروماني التي ما زالت على حالها منذ بنائها.

عند شرفة مقهى إسبرانس، يجلس جنود بعد ليلة حراستهم. هناك حيث ما زالوا يلعبون لعبة الورق الإسبانية، كل شيء حُدِّث كما في باب الوادي، منضدة المحاسبة من الفورمايكا، الكراسي من البلاستيك والكروم، آلة إيطالية للقهوة السريعة. لقد كسبت سيدي موسى أهمية، وبالقرب منها الصيدلية وصليبها الأخضر. وفي مكانٍ أبعد على طريق الكاليتوس، أعلى من المقبرة والميدان، معامل تصنع قوالب طوب للبناء وأخرى للبسكويت وغيرها للكرتون. وقريباً جداً لن يعود ممكناً التعرف على شيء. على طريق لاربعاء شيدت مدينة للعمال. عرب في كل مكان. للتحدث عن العرب، لا أحد في سيدي موسى في السابق، ما عدا البلديات، كان ليستعمل كما اليوم التسمية الرسمية: «الفرنسيون.. مسلمو الجزائر»، إذ كانوا يستعملون تسميات أليفة مقرونة بالسخرية: الأنيقون، عصافير الدوري، الشمّام، الجبن الأحمر أو القناني المختومة. أما الأقدام السود فكانوا يستخدمون مصطلح الجرذان. وبالطبع كانوا أيضاً يعودون إلى صيغ التحقير الهزلية: جذوع التين و«البيكو».

أمام المدرسة، ومقابل مركز البلدية زاد سرعة السيارة كي يظنوه مستعجلاً ثم أوقفها بشكل مفاجئ أمام مربع الإسمنت الرمادي تحت شعار المستوصف وكشطت دواليبها الحصى.

في بعض الأيام، يصل المرضى حتى الرواق وحتى إلى عتبة الباب. اليوم لا أحد تقريباً في غرفة الانتظار.

وقف الممرض على عتبة الباب برأسه المختال:

– صباح الخير دكتور. إنه الوضع نفسه.

– يوم سيء بالنسبة إليك إذن.

– هل سمعت، سيكون لدينا حكومة.

– من هم؟ جبهة التحرير الوطني أم فرنسا؟

– أنت تمزح دكتور.

كاد يقول: «لو كنت تعرف كم أن حكومتك هذه لا تهمني...» لكنه استدرك الأمر. فالممرض مصدوم بما يكفيه. أما هو فمغمور بمشاعر التسامح – من نتائج الليلة الفائتة.

ساعده الممرض على ارتداء قميص العمل الذي يغسل ويكوى كل صباح. وجه الممرض كحقلٍ أجرد، دون آثار معركة ولا أحلام ولا هذيان، مسطح من الرمل والصمت. يقوم بالمهام الروتينية ويرتب ملفات الضمان الاجتماعي ويرد على الاتصالات الهاتفية ويصنف الحالات ويحكم إن كان الأمر يتعلق بحمى المستنقعات المزمن، التهاب المعدة والأمعاء أو مرض السل الرئوي. ومن خلال الترانزستور الذي يشغله طوال الوقت لسماع الأخبار، يبقى مطلعاً على كل ما يحصل. إنه مواطن ثانوية أولى، محارب قديم، وكان يطمح إلى أن يصبح مستشاراً بلدياً. شخص رجولي، لا يمكن لأحد أن يلومه على شيء، لا الفرنسيين على عدم استقبال حالاتهم لأنه مستوصف مخصص للعرب ولا الآخرين على عدم مساعدتهم. كان عليه أن يعالج الخارجين عن القانون وتقديم الدواء

لهم لأنه لم يشك يوماً بأنه تم تهديده. فهو المستفيد الوحيد من المستوصف الذي حصل على مهمة ممرض مشرف فيه. مشرف على ماذا؟ أي من المرضى لم يترك له بقشيش؟ جميعهم متشابهون، لا أحد بريء بالكامل، جميعهم يتغاضون عن النزاهة، مدفوعين بالخوف من الحاجة لكل شيء، مثل الكلاب التي تدفن العظام لزمن المجاعة. برانس الممرض الذي يستفيد من هذه الامتيازات ويعيش في مسكنٍ شعبي في الطريق التي تنزل باتجاه النهر، يعود إلى منزله كل مساء ليأكل وجبة تعدها له زوجته ويستمع إلى المذياع ثم ينام. هل يصلي؟ في سيدي موسى، قرية المستوطنين التي أنشئت من قبل السلطات العسكرية زمن الحملة، لم تبنَ المساجد ولكن لاحقاً ومنذ حكومة فيوليت وبحجة الليبرالية أو لكي يسيطروا أكثر على مفتين يقبضون رواتبهم من الدولة ويديرون المذاهب الرسمية، بدأوا ببناء مساجد. بالنسبة إلى الممرض فالجزائر فرنسية منذ أكثر من قرن، وهذا ما لا يعني له شيئاً. الثورات المحلية لم تؤد يوماً إلى الاستقلال. فبسبب الثورة، حصلت فرنسا هناك على ملياراتها وشبابها وقواتها وصناعتها ولكنها لن تتخلّ أبداً عن حقول البترول التي بدأوا باكتشافها. لن يكون لديهم الحق بالسلطة مثلها ولكن شيئاً فشيئاً سيتحقق التساوي بين الجميع. شيئاً فشيئاً تحت ضغط الأعداد المتزايدة من العرب والأحداث، أصبح المسلمون متساوين مع الأوروبيين، والفجوة القديمة ردمت. وحتى إنهم باتوا أقل توجهاً لجزائر فرنسية لصالح فرنسا جزائرية ربما في المستقبل غير المنظور. لماذا لا يعمل ابنه الذي يتابع دراسته في ثانوية البليدة، على دراسة الطب؟

المرض كان على حق: إنه الروتين اليومي. حمى سخيفة، حالات إجهاد. في قسم الاستشارات، وجه أخير مجهول عابس وجسد نحيل، إنه

في الثامنة عشرة على الأرجح.

– من أين يأتي هذا؟

– من أولاد علال، أتعرفها؟ المشاتي بين وادي جمعة والحراش. لقد سبق وعاينت شقيقه مرةً. إنه يسعل.

وضع الطبيب السماعة الطبية على صدره واستمع إلى خرير رئتيه مثل أمواج تتكسر عند الشاطئ، ثم خفقان قلبه المتلاحق والذي فاجأه: كطبل أفريقي حقيقي مع زيادة قوية في الانقباضات تقطع للحظة الإيقاع المسعور للقلب، وهذا ما يحصل للقلب بعد جهدٍ مضنٍ أو استثارة عاطفية. بالنسبة للطبيب، الحب، إن كان مثل حب ليون فهو أيضاً له عوارض المرض: حمى باردة حيناً وساخنة حيناً آخر مع ارتعاشات. لقد تمكن من معالجة هذا المرض. والدته: «الحب أنت تعرف...».

«كشف إشعاعي».

انتقل الممرض إلى الغرفة حيث الآلات وأدار المفاتيح الكهربائية.

«اتبعني»، قال الطبيب للرجل المجهول مديراً ظهره.

وبعدها مباشرة تقريباً، وفي ضوضاء كضوضاء الانفجار، شعر الطبيب بارتجاج مباغت سريع كالبرق في ضلوعه، توكأ إلى الحائط ثم انزلق فوق مقعدٍ وترك نفسه يقع.

دون أن يفهم، نظر إلى يده التي كانت على رئتيه المليئة بالدم.

10

غراس يهنئ كتيبته بالنصر الذي حققته في عشر دقائق من دون خسائر.

«أيها السادة»، قال غراس بصوته الذي لم يعد يحاول إخماده، «لدي أخبار لكم. في البداية بما يخصكم أود أن أقول لكم: مرحى لكم. حسب ساعتي، استغرق الهجوم عشر دقائق، خمس دقائق كانت كافية. كان بإمكان ذلك أن يكون أكثر دقةً ووضوحاً لكن كان هناك ضباب. أنا متفاجئ بعدم وجود أي أضرار...».

لدى النقيب دو رواي، دائماً هذا الإحباط من مواجهة خرافة صورة غراس. يجب مراجعة حالة غراس، فالفكرة المأخوذة عنه كانت محترمة، وتكاد تكون سامية عن بعد. مع لسانه ذاك والإمبراطويرية التي يملكها كان بإمكانه أن يكون رجلاً مهماً. كان بإمكانه، بنهاية معركة سعيدة، أن يترك مجالاً للتسامح أو الرقة. لا شيء. غراس الذي لا يلين. غراس المرعب. الجاهز دائماً لفضح أي علامات فتورٍ أو إنكار والذي لا يتحمل المعارضة. غراس الأوتوقراطي، المستبدّ.

أعيد تنظيم الأمور في كتيبة المظليين. نداءات إنذار شكلية. تم تنظيف المكان. على المرتفعات، دفنت النسوة أنفسهن في البيوت المبنية بالحجر الطبيعي. أما الرعاة فكانوا يراقبون صامتين مروعين مخبولين، انتصار غراس وهزيمة رجالهم. في المجموع العام، اثنتان وأربعون جثة للثوار، الاستيلاء على ثمانية عشر بندقية بينها «12 بي. أم» إنكليزية وواحدة 9 ملليمتر «فافور» إسبانية، عشرون بارودة من عصر ما قبل التاريخ، كاربينة واحدة «موزِر 7,92» موديل «ك.98» متينة، طيعة، دقيقة، أفضل ما يمكن أن يحمله الثوار في العالم كله والتي صنعت في المناسبة في الاتحاد السوفياتي. ثلاثة أسرى. أما القائد المساعد فقد تكفل بدفن الجثث.

«حسناً، ما هي الأخبار؟ يبدو أن السيد بفليملن (لا أضمن لكم لفظ الكلمة) نجح في تشكيل الحكومة وسيقدّمها خلال أربعة أيام لمجلس النواب».

غراس يبدو أكثر توتراً من أي يومٍ مضى وأكثر شدةً. القيادة الصارمة، المشية التي تنحرف قليلاً لجهة اليمين بعرج صغير (ساق مكسورة في قفزة خاطئة) وهذا ما كان يمنعه من أن يقطع مثل الآخرين أربعين كيلومتراً مشياً على الأقدام في اليوم، مع عكازة حديدية للمشي ودواء في حالة الألم الشديد.

«من جهة أخرى، بيان رسمي لحركة التحرير الوطني صادر من تونس يعلن أنه تم تصفية ثلاثة جنود فرنسيين أسرى.. لا أريد تعليقات لو سمحتم، أضاف أمام إجفال الضباط. إنه على الأرجح جوابٌ على رغبة الحكومة الجديدة بالتفاوض. نعم أيها السادة، لقد نفذ المسلحون ذلك في الخامس وعشرين من أبريل الماضي. ودعونا لا نتهمهم بالقتل والاغتصاب والتعذيب، فنحن لدينا أيضاً ثلاثة أسرى. أيها السادة سلام».

نهض غراس وألقى التحية العسكرية بيده الغليظة في حين رد الضباط بخبط القدمين.

«النقيب دو رواي، لحظة».

«خاصة»، قال النقيب لنفسه وهو تحت خطم غراس الهائل، «خاصة ألا يحاول أن ينظر إليّ بتعالٍ وإلا...»، وكأنه التقط ما يفكر به دو رواي، ابتعد لبضع خطوات عنه ونزل إلى المنحدر وترك النقيب يشرف عليه.

«كزافيه- ماري أنت من قاد الهجوم، الفخر لك. أريد أن أعرف أين

هم الثوار الآخرون. أما هؤلاء الرجال الثلاثة، أوكلك بهم، بعد أن...».

تصلب النقيب.

– لا يمكنك أن تطلب مني ذلك، سيدي الكولونيل.

– لماذا؟

– لأني لم أوافقكم الرأي يوماً في هذا الموضوع.

– ولا حتى الآن؟

– أنت أول من قال إننا رجال أنقياء.

– وهم برابرة. إذن فلنعاملهم كبرابرة. قطع يوليو قيصر أيادي الغوليين[1] الذين يقاومونه. هل أنك مع التقاليد سيد دو رواي؟ بالنسبة لمعاهدة جنيف، إنها النقاشات أمام طاولة قمار مع الأصحاب، هل تتخيل مثلاً أن بيجار... لم أكن أعتقدك ساذجاً إلى هذه الدرجة. ما يعلنه بيجار شيء وما يطبقه شيء آخر.

لم ينسَ غراس كلماته خلال معركة الجزائر.

«أتتذكر القصبة، سيدي الكولونيل...».

طُوقت القصبة. تم حصر كل زعماء العائلات وكل مسؤولي المجموعات والمجمعات السكنية الصغيرة. وحدد رقم على الهوية الشخصية لكل ساكنٍ، وحرفٌ ورقمٌ على باب كل منزلٍ، فكل فردٍ منهم كان مسؤولاً عن شيء ما والجميع مشبوهون. المداهمات وفرت أسماء جامعي التبرعات وأسماء صانعي الأسلحة وزارعي الألغام. من الذي بدأ؟ هل أرادوا أن ينتهي الأمر بالإرهاب؟ من أجل فرض السلام

---

(1) الغوليون هم سكان ما أطلق عليه الرومان اسم «الغول» وهي منطقة كانت تمتد على شمال إيطاليا وفرنسا وبلجيكا.

لا يجب أن نحرج باسم عفة النفس. يجب أن نكون صارمين. استمرت السيطرة عليهم لأن الشعب يحب الأقوياء. هل يجب إيقاف الاعتقالات لأن السجون امتلأت؟ لذا فتحوا مراكز فرز. عندما يختفي أحد زعماء العصابات، يُعثر عليه أحياناً على أحد الشواطئ وقد قضم الروبيان نصف جسده، أو في الجبال وقد رمته مروحية... هل تفضل أن ترى نساء وأطفال وقد بقرت القنابل بطونهم؟

هذا لا يمنع أن النقيب دو رواي لا يوافق غراس وبيجار بخصوص الوسائل والتي كانت، حسب بيجار، «الصيغة الوحيدة المتاحة». بخدمتكم، سادتي، بخدمتكم! النقيب كزافيه – ماري دو رواي له مفهوم آخر عن الحرب، حتى التدميرية والثورية، يختلف عن ذاك الذي لموظف قديم في مصرف أو مدرّس قديم. لنسمع جيداً، نحن لا نحتقر أحداً ولا حتى الإرهابيين. هؤلاء الذين يسمهيم بيجار «القاتلون الضعفاء» هؤلاء الذين يتهمهم بالجبن، لو كان النقيب مكانهم... أما بيجار وغراس، فإن لم يكونا فخورين، هما في أسوأ الحالات مضطرين لأن يكونا شرطيين. لكلٍ طريقته في محو ديان بيان فو[1]. النقيب دو رواي لا يحتمل أن يكون شرطياً، هذا كل ما في الأمر، وليس بسبب امرأة جزائرية لم يكن يعرفها في زمن ديان بيان فو.

– أنت تتعبني بقصتك تلك عن القصبة، قال غراس. لم يسمعك أحد. لقد قضينا على الإرهاب. لقد ربحنا.

– حتى الآن.

(1) Dien Bien Phu هي مدينة فييتنامية، والمقصود هنا المعركة الشهيرة التي خسر فيها الفرنسيون في الحرب الهندو صينية الأولى في العام 1954.

ضيّق النقيب عينيه. إلى الجنوب، وفي مكان منخفض جداً عند الأفق، في الضباب، التمع سطح بحيرة وحرك الهواء مياهها والنخلات على ضفافها. أي بحيرة؟ من هذا الجانب كان من المفترض أن نرى المسطح الأبيض لشط الملغير، مسطح مائي مالح قبل واحة الوادي ذات الألف قبة. ولكن أي نهرٍ وأي رياح متخيلة ابتلعتها فجأة؟ أي مركب شراعي قديم خرج من الرمال وسبح فيها؟

السراب الذي رآه غراس قبل النقيب بدا وكأنهم وصلوا اليه، وبدأوا يقتربون من جبال الأوراس الجرداء.

– هذه، قال غراس، هي فكرة من اختراعك. اذهب هيا، بسرعة. لن تملأ مطراتك سوى من هذا السراب. لا يمكننا أن نعامل هؤلاء الناس كأسوياء لنا. فقط لو كانوا يمثلون شيئاً ما، ولديهم تاريخ، لو كانوا دولة... الفيتناميون لم نسيطر عليهم بهذه السهولة. رجال جبهة التحرير الوطني غير كفوئين، رجال مزيفون. انظر لهؤلاء، أضاف وهو يشير بعصاه إلى الجثث التي سيتركونها لبنات آوى وإلى القمم الفارغة. ظلال وهواء، لا شيء آخر.

– كلا سيدي الكولونيل. لا يمكننا أن ننكر أن الرعاة وكل رجال القرية سيأتون ليقبلون ثيابهم كشهداء. وسيتلون سوراً من القرآن ويلعنوننا. سننجح بأن نقدم لهم قصة، بمَ سينفع ذلك؟

«ما الذي يحصل لي، أنا أخرّف» بحث في فمه عن طعم النعناع المسحوق. لم يبقَ منه شيء.

«ألن تنفذ ذلك؟ لن أجبرك. أنت حر، ولكن عليك أن تسد أذنيك. في البداية سأقتل اثنين. وسأترك حتى النهاية من يبدو بينهم أنه يملك

معلومات أكثر. سيعتقد أن أحداً ما عاد قادراً على الوشاية به. وبعد أن يقدم معلوماته، لن أعود بحاجة إليه. وربما بذلك سأنقذ حياتك».

ثم أدار غراس ظهره ومضى بساقه المتصلبة، بات يعرج أكثر من المعتاد.

وبنظرة من فوق كتفه:

«هذا لا يمنع أني أحبك كزافيه – ماري».

«أنا لا»، تمنى النقيب الصراخ بها، ولكنه تراجع.

الفصل الثاني
الأنقاض

1

سالان[1] في مكتبه، الأحد 11 مايو 1958

كلمة واحدة. لا تنقص سلطة سالان سوى كلمة واحدة. شيء ما صغير، صيغة ما، هي بالنسبة إليه عالم كامل. ألم يكن مخزياً أن يقبل بمسمى «قائد أعلى منسق»؟ عندما قدموا له هذا اللقب قبل ثمانية عشر شهراً، ألم يوافق بسرعة؟ أما كان عليه أن يفرض شرطاً واحداً على الأقل؟ قائد أعلى... صيغة مبهمة ومطمئنة، كي يخفوا حقيقة وجود حرب في الجزائر. داخل الأقاليم الفرنسية ما وراء البحار، لم تكن سوى أحداث وقد أعيد الآن فرض الهدوء.

حرب الجزائر، كلمة يمكن أن توحي لصحيفة بمكان للغنائم.

كل يوم يختار الجنرال توقيت تأمله، ويفضل أن يكون صباحياً بعد نظرة سريعة على برقيات الليلة الفائتة وقبل أن يستقبل مساعده السياسي.

(1) راؤول سالان (1899– 1984) هو جنرال فرنسي وقائد القوات الفرنسية في الحرب الهندوصينية. شارك في انقلاب 13 مايو 1958 الذي قاده جاك ماسو، والذي طالب بتسلم الجنرال شارل ديغول الحكم عل رأس الجمهورية الفرنسية الخامسة وذلك بأمل إنقاذ الجزائر الفرنسية، بعد فشل حكومات متوالية في حل قضية الجزائر التي بدأت المقاومة الجزائرية تغير معادلتها، ومع اتهامات للجيش بعدم الإمساك بالوضع. لكنه اختلف لاحقاً مع ديغول بسبب ما اعتبره تخلٍ منه ومن الحكومة الفرنسية عن الجزائر، وأسس منظمة الجيش السري التي كانت تهدف للقضاء على الثورة الجزائرية، وشارك في عملية الانقلاب على ديغول في 1961، وقدم على إثرها للمحاكمة ثم أبعد من الجيش.

هو الذي كان يتهم بأنه ماسوني وبروتستانتي، ولكن ما الذي لم يتّهم به أساساً؟ فهو يسمي هذا التأمل، كما يفعل رجال الدين «رفع الدعاء». يقفل بابه على معاونه الشخصي ويقفل هاتفه ما عدا الخط المباشر مع الوزير. ودائماً في بداية تأمله، وخزة الكرامة هذه التي ينسبها إلى حركة القدر.

قبل خمس سنوات، كان سيداً على أرواح مئات آلاف الضباط ومساعدي الضباط والجنود، حمل اللقب الكبير اللامع المرعب لقائد أعلى لقوات الحملات العسكرية في الشرق الأقصى. لقب كان يخوله أن يطلق كتائبه ودباباته ومقاتلاته ورجاله وحديده وناره على العدو. ولكن الأمر أصعب هنا حيث يسير عبر حقل من الألغام السياسية، حيث أي خطأ يرتكب يعلم به عاجلاً الجميع ويكون عليه دفع ثمنه. لا ليس هناك أي كرامة. إنه الممكن والمخادع، عدم المخاطرة بشيء، عدم الهجوم على أي أحد وحماية موقعه. ففي المهمة التي نكلف بها، لا يجب أن نظهر سوى اللامبالاة.

مع كل عودة إلى مكتبه، تعاوده ذكرى الليلة عندما عاد لاهثاً بعد الانفجار الذي هز حي إسلي. تاريخ لا يمكن أن ينساه: 15 يناير 1957. المقر غارقٌ في العتمة والمصابيح بالأسيتيلين تضيء الشبابيك المكسرة والمصاريع المهشمة والستائر المحروقة وقطعة هائلة من الغرانيت سقطت من الجدار على مرفقةٍ ورقه. وعلى السجادة، شظية صاروخ تحترق مع لهب مخضرّ. دم في كل مكان وجسم القائد روديِه، قائد ديوانه العسكري مشطور إلى نصفين. في مدينة الجزائر التي كانت مرتعاً للإرهاب كان من المفهوم الانتقام من ماسو[1]. ولكن لأي نتيجة بائسة كان يريد الثوار

(1) Jacques Massu هو عسكري فرنسي (1908–2002) قاد الإنقلاب الذي جاء =

أن يقتلوا القائد الأعلى[1]؟ اليوم نعرف من هم المحرضون على الاعتداء: عضو مجلس شيوخ متعصب وجنرال ذو دوافع عنفية.

إذن كلما عاد إلى مكتبه، نظرة سريعة إلى الشرفة حيث ثبتت بطاريات البازوكا[2]. لم يغير غرفته ولا حتى أزاح طاولته. على بعد خمسين متراً من الجهة الأخرى من الساحة، تقع الشرفة التاريخية. وقريباً جداً منها الهواتف. علق قبالته خريطة الجزائر بتصغير نسبته واحد على مليون. في الأسفل، في الساحة، تمثال بيجو البرونزي الذي يصل ارتفاعه حتى ذروة أشجار النخيل. ليس هناك من قائد أعلى وإنما مقر للجنرالات في قيادة قوات الجزائر في المنطقة الخامسة. منذ الاحتلال، كم من المارشالات جلسوا هنا! كم من الانتصارات دوت!

نهض وعلى الأرضية المصنوعة من الخشب الهنغاري، والتي تطرطق قليلاً تحت قدميه، في الغرفة الطويلة التي تتصدرها لوحة لدوق أورليان بكامل قامته، تقدم باتجاه المرآة القديمة التي نجت من القنبلة والتي تمتد من

= بشارل ديغول رئيساً للجمهورية في 1958، وعين في نهاية العام نفسه قائداً للقوات العسكرية في الجزائر. وبعد انتقاده سياسة ديغول في الجزائر في مقابلة ألمانية، أستدعي إلى باريس وجرد من مهمته في الجزائر في يناير 1960 ليسمى بعدها حاكماً عسكرياً في ميتز (فرنسا) 1962. وكان ماسو يتمتع بشعبية كبيرة بين المستوطنين نظراً لمعارضته سياسة تقرير المصير في الجزائر وهو ما جعله مؤثراً في أحداث 1958. وقد اشتهر بقبضته الحديدية وممارسة التعذيب والتنكيل بحق الجزائريين. سمي ماسو قائداً عاماً منسقاً في الجزائر في 1956 وتعرض لمحاولة اغتيال في العام 1957 التي ذهب ضحيتها القائد روديه. أما مخطط العملية فكانا المعارضين للتعذيب فيليب كاستيل وميشال فيشوز.

(1) القائد الأعلى يقصد به هنا، هو، سالان.

(2) البازوكا (بالإنجليزية: Bazooka) سلاح أمريكي قاذف للصواريخ يحمله الأفراد كمضاد للدبابات. لمقذوفاته الصاروخية قدرة اختراق الجدران الصلبة ومن ثم الانفجار الشديد لتدمير الدبابات أو إعطابها. دخل الخدمة أثناء الحرب العالمية الثانية عام 1942 وكان فعالا في الميدان. وقد اكتسب اسمه من آلة موسيقية تشبهه في الشكل.

المدخنة حتى السقف إلى جانب شمعدان زيتي طراز نابوليون الثالث.

بدأ يتخيل نفسه صلباً في بزته الكتانية المكوية للتو، مع بطن أبرزه قليلاً الحزام المشدود، والأكمام مرفوعة حتى المرفق، خمس نجوم على شارة الكتفين[1]، وعند الصدر درع واقية كبيرة ومتعددة الألوان متوّجة بشريط أحمر على خلفية مذهبة. الضابط الذي يحمل أكبر عدد من النياشين في الجيش الفرنسي. اختصار تسعة وخمسين عاماً في شهرٍ واحد. جعل يتخيل نفسه: الشعر ناعم، ويبدو بعد أكثر بياضاً مع اللون المحروق للعروق المتفسخة في خدوده، ذقن يعرف كيف يجعلها مربعة، فم يمكنه أن يكشف عن أسنانٍ متوحشة، نظرة حليمة في العادة. وجه أكسبه العمر الهيئة الكلاسيكية لقنصل روماني. صورة مخادعة مبهمة بعض الشيء في ديكور من الخشب الرمادي الفاتح والمذهب الأطراف. أما جانبياً فيبدو أنه اكتسب سمنة: إنها كثرة الأكل.

ليس عليه أن يشكو من مهنته.

سر النجاح الاستثنائي لم يكن من الصعب اختراقه: المواظبة، أن يكون حيث يجب أن يكون، ألا يكون حيث لا يجب أن يكون. أتركوا الأغبياء يندفعون ليقعوا في الأشراك ويتقطعوا، وتفادوا الكمائن، لا تستسلموا لإغواءات الصعود إلى رتب أعلى بأي ثمن، ولكن لا تهملوا الفرصة إن توافرت. أن يصبح ضابط معاون للجنرالات اللامعين، أن يخضع لأمزجتهم وغضبهم وقلة صبرهم واحتقارهم. أن يبدو شخصاً لا يمكن الاستغناء عنه. انتقم لنفسه بجلوسه على كنباتهم. بعد دولاتر ولكلرك، كان جوان هو المارشال الوحيد الحيوي، جوان الرائع، المسالم المنهك،

(1) خمسة نجوم هي للقائد الأعلى.

الذي لا يسبب المشكلات. المشرف الأعلى للقيادة العامة، الجنرال ألي، المخلص وحسن التربية ولكنه خضع لاختبارات وعاش حالات قلق، هل يحلم بأن يحصل على العصا بالنجوم؟ أمضى ألي حياته مختفياً خلف الكبار ورابطاً مكانته بخدمتهم. لاعباً دور الظل، كان يبدو دائماً على حافة قبره. لا يشكل أي خطر ولكن ربما محيطه.

بالنسبة للاتر ولوكليرك، كانا مطرودين أو متقاعدين. التهديد الوحيد يأتي من البائس بكتفيه الشبيهين بكتفي عارض أزياء في البزة العسكرية الذي أشارت إليه برقيات الليلة الماضية عن الحكومة التي في طريقها للتشكل، وعنه كوزير دفاع وطني محتمل. غير معقول! هذا المتباهي الذي يعتبر نفسه مريداً ووريثاً لدولاتر، وينسى أن يتحدث عن الإهانات التي أغرقه بها في الوقت الذي كان يعمل خادماً لديه، هذا الحسود لم يأخذ من السلطة غير الهوس والغرور، لم يتنقل يوماً دون نساء غاويات ولا مرافقين، يوظف كل سلطته للحصول على طاولة في مطعم، يرهق نفسه بضحكاته الفاجرة، وبتقطيب الحاجبين والانحناء. نجاحاته؟ بالإضافة إلى مجموعة تفاهات، المشاركة في كارثة ديان بيان فو. أسلحته: التشهير. الهدف المرتجى لهذا الشرير: مقر المنطقة الخامسة في الجزائر. من هنا ربما يأتي تعجله هو، سالان، بقبول المهمة.

شعر بالاشمئزاز فأدار ظهره للمرآة الفضية وعاد إلى مكتبه. يتراجع هدير الحافلة الكهربائية التي تمرّ بشارع إسلي. تهبط وجنتاه قليلاً بفعل شعور ما يطرده. هل تقوده مهنته إلى أعلى من أكبر رتبة سيكونون مجبرين على تقليده اياه في باحة إينفاليد[1]: الميدالية العسكرية، المكافأة الكبرى

(1) Invalides وهي مبنى عسكري كبير في باريس تعددت وظائفه منذ إنشائه في العام =

لا بل النهائية؟ لم يستسلم لمشاعر المرارة أو التعب. فالعبقرية لم تكن سوى مسألة فرص. أن يحسن قياس شهية المحيطين به وميولهم، ويسيطر على العقبات التي يفرضونها، وعليه أن يؤمن بأهمية المركز الذي يمكنه أن يقوده إلى مصيره المنشود.

لو أمكنه فقط، ومن أجل أن ينسى حاضره، ومع الحرية نفسها التي كان يمتلكها سابقاً، أن يتمدد على ضفة من الضوء الذي يرشح ويفقد إحساسه بثقل جسده. من هم السذج القائلون إن الأفيون يجعلنا نمتطي الأوهام؟ بالطبع، بالطبع، عندما نبالغ عندما نتخلى عن بعض الميول، عندما نمضي الليالي مبحرين عبر الضباب... لو أحسنا استخدامه، يمكن للأفيون أن يقدم لنا صورة عارية وواضحة للحقيقة، خفيفة وشفافة، لا يلغي المخاطر بل يصوّب عليها كشافاً ضوئياً. مناظر وشخصيات تظهر بوضوح قاسٍ ورغم ذلك رحيم. تسقط الأقنعة وتتهاوى الخدع. كم من الضباط في جيشه، ما عدا ضابطه المساعد، يمكنهم أن يقدروا أهمية هذه الرقة وهذا الغوص في السرمدية! بالنسبة إليهم الفتنة لا يمكن اجتراحها. لكان ظن بيجار أنه فقد صلابته الجسدية وحدة نظرته. ولنتخيل الأمر مع رجال السياسة. رجال مثل بفليملين أو السيناتور دوبريه يدخنون الأفيون؟ ربما غاي موليه، ذلك اللاعب المنافق، لو كان متأكداً من كتمان أسراره. أما بالنسبة إلى البربري الكبير الذي كنا قد بدأنا الحديث عنه والذي ألمحت إليه برقية الأليزيه، لا يمكن لأحد تخيله مع سيجارة أفيون.

فهو لم يعد يشاطر أحداً رغبته في العزلة التي يستسلم لها تحت حماية

= 1670 من قبل لويس الرابع عشر، إذ أنشئ بهدف إيواء معوقي الحروب بين صفوف الجيش، وتحول لاحقاً إلى مركز عسكري ويضم أيضاً عدة متاحف عسكرية وايضاً مقبرة عسكرية.

زوجته ومساعده الشخصي ما إن يشعر بالحاجة إليها مثل هذا الصباح. «الجنرال يرتاح»، حجة لا يصدقها أحد. نوع من مخدع مشغول بالستائر والحاجبات، أرضية من خشب الأرز، سجاد، الشيء الثمين الضروري الذي يخرج من الصندوق وهو رداء الحرير الداكن. لا شيء يشبه الطقوس الدينية القديمة. تعوم الجزائر على بحرٍ مذهب وتتخلص سماؤها من الغيوم. فيتبدد تعبه ولا يعود راغباً في شيء، يطوف في دهليز الأبدية، وفي فضاءات شبه الجزيرة الهندية الصينية. المركب الذي يحمله يمضي متمايلاً نحو النجوم فوق صفائح خشبية خضر.

بعد الليل الذي عاشه، شعر للحظة بوجود اللاوسية[1] الجميلة النشيطة التي أنجبت منه طفلاً، تقف بالقرب منه. مأخوذاً بما يمكن أن يحرك البشر، الثورات أو قمع الثورات، شعر بالأسف لأنه لم يعد هناك بالنسبة لمن يتحاربون هذه الفسحات المضيئة في الغابات حيث يمكن أن يلتقطوا أنفاسهم.

نظرة سريعة على معصمه جعلته يزمّ شفتيه. ربع ساعةٍ من الدعاء، هذه المرة! صحيح، إنه يوم الأحد. وكأنه ما زال هناك أيام آحاد.. الحادي عشر من مايو.

ضغط على زر.

(1) نسبة لـ لاوس وهي الدولة التي تقع جنوب شرقي آسيا وتجاور الصين لجهة الشمال وفييتنام من الشرق وتايلند من الغرب وكمبوديا من الجنوب.

2

في اليوم الثاني بعد الاعتداء على أخيه، يجمع دانيال باري عماله خلف المزرعة ويهددهم.

«إني أحذركم»، قال دانيال.

في اليوم الثاني بعد الاعتداء، جمعهم شقيق الطبيب خلف المزرعة، بالقرب من القبو القديم المصنوع من سعف النخيل نصف المتفسخة، مقابل حقل الطماطم والفليفلة الذي نظفه للتو من العشب. شمس قوية تضرب السهل مثل أتون. يخيل للمرء سماع صوت زيز يثقب السماء من جهة وادي هوارة بين أشجار الزيتون.

في البداية مفتاح.

خلف هيئة المهزوم التي يتقمصها، يمكن استشعار شيء من الاستفزاز. من أين يخرج مفتاح هذا الذي لا يشبه والده إلا قليلاً ما عدا في نحافته؟ من أين استقى نقطة الدم الزنجية هذه التي تلطخ جلده؟ الوجه ليس بأي شكل وجه مفتاح. خطوط منتظمة، أنف مستقيم، عينان غامقتان، شفتان مكتنزتان تكشفان عن أسنانٍ رفيعة سليمة، وجه أمير أسود.

الاثنان الآخران هما رجلان من العشيرة المجاورة يعيشان قدر ما يستطيعان خلال الأسابيع التي يشتغلان خلالها ويأكلان القليل من فطائر الشعير التي يضعونها في سلالهم المصنوعة من سعف النخيل الصغيرة. يكادان يكونان غير مرئيين مع وضع اجتماعي غير محسوم فهما من غير المسجلين وبالتالي من المحرومين من التأمين الاجتماعي. في نهاية المطاف إنهما شخصان مثيران للقلق..

هو، دانيال برأس مكشوفة تحت شمس النهار اللاهبة. على الرغم من بداية صلعه ونظرته النارية مع يديه في جيبي بنطاله القطني وكتفيه العريضتين اللتين ورثهما عن أبيه، على الرغم من ذلك كله يبدو رقيقاً إلا عندما يتعلق الأمر بالمال والعمل.

«لا أقول لكم ذلك في لحظة غضب»، أضاف لهم بالعربية، «فأنا هادئ. وحتى إني لم أشرب فأنتم تعرفونني. ها أنا أحذركم إن مات أخي، سنأتي أنا وأصدقائي مع الرشاشات...».

ليس من ترجمة عربية لميترايت. إنها الكلمة الفرنسية التي يفهمها الجميع جيداً، مع اللهجة الواضحة والحاسمة. ميترابيت[1]...

«أينما ذهبتم سنعثر عليكم. ولا ضرورة لأن تخبروا عائلاتكم بذلك. أنا أيضاً لن أقول شيئاً. لا لزوجتي ولا لوالدتي..».

ابتسامة حزينة مريرة ارتسمت على وجه مفتاح. أهي ابتسامة أم نظرة ساخرة؟

«لماذا؟ *عليش؟*».

بحركة حادة رد دانيال:

«لأنه هكذا. إن مات الطبيب... لقد حذرتكم».

أدار ظهره وابتعد باتجاه المخزن.

3

ماريني المراسل في أوروبا 1، يتناول الغداء في مطعم مصري برفقة هكتور. لم تعد الجزائر بالنسبة إلى هكتور أكثر من مقبرة،

(1) Mitraillette أي المسدس الرشاش.

وهذا أكثر ما يدافعون عنه

«في النهاية لم يقتلوه»، قال ماريني بصوت منخفض، «أأنت واثق من أنهم قتلوا آخرين من بعده؟».

ماريني، مراسل كبير في أوروبا 1، دائماً مستعد للانقضاض على الحدث وعلى الثروات الكبيرة. يميل إلى النحافة مع وجه حاد التقاسيم ساخر وشعر يميل إلى الحمرة. شخص عادي مخيب للظن.

«يريدون أن يعتدوا على طبيب»، مضى يقول، «لماذا؟ ليقولوا: حتى أطبائكم كما طرقاتكم ومستشفياتكم، يمكنكم أن تحتفظوا بهم. نفضل أن نعيش دون طرقات ولا مستشفيات ولكن بين بعضنا بعض، في أرضنا». انظر إليهم. يدّعون أنهم لا يروننا. هل تعتقد أنهم يحبوننا؟ قديماً ما كانوا يعرفون. ولدوا مع فرنسيين كانوا أسياداً عليهم، كما ولدت مع العرب كخادم لهم. لقد نورناهم وعلمناهم الدفاع عن أنفسهم. ولكن الكسكس طبق جيد».

كسكس بالحبة الرفيعة مع قطع من لحم الغنم المعطّر. ربما كانت نكهة اللفت فيه مبالغاً فيها بعض الشيء.

– كانت تُطبخ بشكل أفضل قديماً.

– لقد ورطناهم في فخ ديان بيان فو. الفييتناميون ليسوا أغبياء: لقد أطلقوا سريعاً الأسرى العرب، والعرب.. ماذا أقول.. العرب؟ أقصد، إخوتنا المسلمون رووا ما شاهدوا. وإذن... فقط ولأن ليس لديهم جياب[1] كي ينظمهم، وبما أنه ليس بمقدورهم أن يتدربوا في

(1) Võ Nguyên Giáp هو جنرال فيتنامي خلال حرب شبه الجزيرة الهندية الصينية، =

الصين ولم يطوروا حتى روحية التضحية لديهم...

ينغلق العرب على أنفسهم في القصبة والفرنسيون في المدينة الأوروبية. هنا لا يمر سوى اليهود الذين يديرون المحلات في الحي حيث يزورون الكنيس القريب جداً.

– يقومون بما يمكنهم القيام به: الإرهاب. لكن لا شيء يتهددنا فالفرق العسكرية في كل مكان. يمكن للمظليين أن يتدحرجوا من فوق القصبة إلى هنا. أترى، فإن ماسو يحمينا. من أراد قتل طبيبك؟

– شخص مجهول.

– اشرب.

– نبيذ وردي من سطاوالي، «بورجو، شغل خاص» لاذع مع طعمٍ خفي للرمل والكينا.

«أنت تشبه»، تابع ماريني يقول، بصوته الدافئ الذي حقق له شهرته عبر الأثير كصوت من يعترف، «أنت تشبه الأرمل؛ أرمل حديث لم ينهِ عزاءه بعد. أرمل من مدينتك الجزائر التي لا تعرفها؟ من العرب؟ معك أستعمل دائماً هذه الكلمة في الإشارة إلى إخواننا المسلمين الذين تعلموا أن أباءهم كانوا من الغاليين[1] وأنهم اليوم مدعوسون. أنتم تثورون يا أصدقائي؟ وتزرعون القنابل في الحانات والترولي[2]؟ سيسألكم ماسو.

= وهو معروف بانتصاره في المعركة الشهيرة في ديان بيان فو التي أدت إلى انسحاب القوات الفرنسية من البلاد.

(1) نسبة للغال (بالفرنسية: Gaule، باللاتينية: Gallia) هو الاسم الذي أطلقه الرومان على المنطقة التي يسكنها الغاليون وهم شعوب سلتية. كانت تمتد على شمال إيطاليا وفرنسا وبلجيكا.

(2) الترولي هو باص كهربائي أخترع العام 1882 وكان يعمل موصولاً باسلاك كهربائية في خطوط سير محددة.

كيف ذلك؟ اتركوا لنا إذن حرية استعمال الوسائل المناسبة. سنرد على إرهابكم بإرهاب منظم، إرهاب المتحضرين. في كل قرية، على حدة، هناك بين السكان المحليين مختصون سيهتمون بأمر المشبوهين الذين سنتخلص منهم لاحقاً. نريد أن تبقى الجزائر فرنسية. نحن نحلّ السلام يعني أننا سنقتل كل من يقاوم. حكوماتنا تفكر في التفاوض لأن الحرب مكلفة ولأن الرأي العام بدأ يتذمر. هل قرأت المقالة في «إيكو داجير»[1] في عددها الأحد؟ عن عودة ديغول إلى الساحة. لننهِ قنينة النبيذ هذه من الصديق بورجو الذي لديه الكثير ليخسره. ما هي الجزائر بالنسبة إليك؟ لا تقل لي إنها مقبرة...».

بالنسبة إلى هكتور، فقد تهالكت الجزائر مثل مقاعد المطعم المصري، باتت حقودة كنظرات الندل والزبائن. في هذه المدينة حيث الحواجز الباطونية عند الميناء ما زالت تحتفظ بآثار شعار المارشال بيتان[2]: العمل، العائلة، الوطن، كل شيء بات منتهكاً.

«لأنه إن كنت تقول لي ذلك لكي تكسب تأييدي»، مضى ماريني يقول، «فإن المدافن هي أكثر ما يتم الدفاع عنه، إنها مأوى عظامك! هيا لندفع ونذهب. أيها السادة، سلام!».

(1) Echo d'Alger هي صحيفة فرنسية في الجزائر وترجمتها العربية «صدى الجزائر».

(2) Philippe Pétain لقب بمنتصر فردان إذ استطاع أن يدفع الهجوم الألماني على هذا الموقع في معركة فردان التي دامت من فبراير 1916 إلى ديسمبر من السنة نفسها. ثم عين قائداً للجيش الفرنسي وقمع التمرد المنتشر فيه سنة 1917 إلا أنه كسب احترام الجنود وامتنانهم لأنه كان يعطف عليهم ويحاول أن يرفع معنوياتهم. بعد هزيمة فرنسا سنة 1940 تقلد منصب رئيس الدولة في فيشي، وصار مجرد رئيس شكلي للدولة، إذ اعتمد النظام الجديد سياسة ممالئة وتعاون مع ألمانيا النازية. عقب الحرب العالمية الثانية حكم عليه بالموت بتهمة الخيانة العظمى في 1945، ولكن شارل ديغول استبدل الحكم إلى السجن مدى الحياة. ليظل محتجزاً حتى فارق الحياة سنة 1951.

كم هو مريح الشارع يوم الأحد حين يكون الناس يتناولون غداءهم! حواجز حديدية تتحضر لقطع الطريق، مكتب حراسة عند بداية حديقة بريسون، تحت لحاف الشمس اللاهب. عند واجهة الأوبرا حيث يقدمون *أنت هو أنا*، يقام حفل وداع للجولة الفنية.

«هذه الجادة»، قال ماريني، «حتام ستحتفظ باسمها جادة الجمهورية؟ ستقول إن لدينا ما يكفي من الجمهوريات. إني أفهم فرنسيي البلاد هنا. هل يمكنك أن تتخلى عن هذا، أنت؟».

أسفل الميناء المزدحم بالسفن، ترتفع هضاب قبل أن يبدأ السهل المحتشد بالقوافل والمدرعات.

«إني أتساءل» تابع ماريني يقول.

بالنسبة إلى هكتور، تتدافع الذكريات مع كل خطوة يخطوها. تخرج مارغريت مع حسن من دار الأوبرا. من شارع باب عزون إلى غانْي - بيتي، تشتري أمه القماش من السيدة بلعيش ويروح أبوه يستنشق الروائح الدافئة لمحل حلويات «فِيْ». في ساحة الحكومة، الأسوار المغربية للكاتدرائية تذكره بالإكليريكي الذي كانه. وفي مكانٍ أبعد، في باب الواد، كنيسة سانت - كروا وثانوية بوجو وثكنة بيليسيه وحديقة مارنغو وجادة بوزريعة وكنيسة سانت فنسنت دو بول ومدرسة شارع روشامبو، يذكرونه بشارع مونتِنْي. تبدل المستأجرون في شقة والديه. في 1930 قدم عرضاً مع فوج المشاة أمام رئيس الجمهورية، من كان رئيساً في ذاك الوقت؟ يا لذلك الإعصار! دار البلدية من حيث خرج تحت الشمس متأبطاً ذراع عروسته أغاث مع قبعة من اللباد الأسود بحواف عريضة، باللباس المدني، لأنه لم يكن قد أصبح بعد ضابط ميدان ولم تكن لديه بزة

ضابط مهمة. وبعد ذلك تتابع كل شيء، سانت–ميكسنت–ايكول، فرساي، مخيم ساتوري، باريس، ميوله الأدبية الأولى، كتيبة المشاة التي آلمه مفارقتها للانتقال إلى سلاح الجو والحرب والدمار، ومدينة الجزائر التي عاد إليها بأمل أن يستأنف كل شيء منها، ولكنه لم يسمع بنداء ديغول ثم أن تفجيرات المرسى الكبير حدّت له مجال تحركه. وحدة جوية في سطيف حيث التحقت به أغاث، مارشال ها نحن، الشيخ الذي خدع الجنود الألمان، ويغان، شقيقه روبير بقبعة فرقة المحاربين، القصائد الأولى المرسلة لجان أمروش وأرمان غيبر اللذين نشراها في صحيفة تونس، الناشر شارلو في الجزائر، ماكس– بول فوشيه ومجلة فونتين، وصول الحلفاء، في اليوم الذي خذله المحرك وكاد ينسحق في الجبل، واحة في الجنوب حيث لحق بهم سانت–إكزوبيري[1]، وأيضاً مدينة الجزائر حيث أمروش على خطى أندريه جيد[2] يؤسس مجلة آرش[3]، رحيله إلى بريطانيا، القوات العسكرية الجوية البريطانية، القصف الليلي على ألمانيا، ربيع 1945 في باريس، أمروش وكامو، صحيفة كومبا[4]، طلاقه من أغاث، طلاقه من الجيش، خمسة وعشرون عاماً من حياته مثل لمح البصر.

في كل مرة مدينة الجزائر حيث يستعيد أنفاسه. الجزائر ما عادت شارع

(1) أنطوان دو سانت–إكزوبيري (Antoine de Saint-Exupéry) (ليون 1900– 1944) هو طيّار وكاتب فرنسي. حاول في رواياته أن يعثر على معاني السلوكيات ويحلل القيم الأخلاقية في أوساط المجتمع المتحول بسبب التقنية الحديثة.

(2) أندريه جيد (André Gide) (1869 – 1951) هو كاتب فرنسي شهير، أسس مع أصدقائه La Nouvelle Revue française سافر إلى الجزائر سنة 1893م واكتشف هويته المثلية عن طريق علاقات جنسية مع مراهقين جزائريين. وأثناء رحلة ثانية إلى الجزائر تعرف على أوسكار وايلد واقتنع نهائيا بأنه ينبغي أن يعيش «حسب طبيعته».

(3) Arche أي سفينة نوح بالفرنسية.

(4) Combat أي معركة.

مونتِنْي ولكن فندق ألِتّي مع جان، الإنكليزية الجميلة، حب مدمر في لحظة انفجار أحداث سطيف[1]، موت الوالد يتبعه بعد أشهر موت أخيه روبير. لحسن الحظ فإن جان الإنكليزية كانت مرتبطة كما أنها لا تحب الجزائر ولم تكن تحبه هو أيضاً. نقطة على السطر. كم مرّ من النساء في حياته، لمؤاساة هذا المحارب الذي يعيش عزاء الحملات العسكرية، ولكي ينسى نساء آخريات، ولكي يدفئ روحه، ويرفض أن يصدق الموت؟ باري، انتصار كامو، الشجارات مع أمروش، كتابه الجديد، ثم موت والدته، ميله للوحدة ومن جديد مدينة الجزائر... لا نقطة على السطر مع جزائر قلبه، جزائر حياته.

صمت ثقيل. خطاهما ترن تحت الأروقة المقنطرة، على طول الطريق الفارغة تقريباً التي تطل على البحر، شاحنات شرطة تمر مسرعةً. فندق ألتّي كان ما زال قائماً كشائعة فحسب.

«أتركك»، قال ماريني وهو ينظر إلى ساعته، «علي أن أقابل أحدهم».

(1) يسميها الجزائريون مجازر سطيف. وهي عمليات قتل واسعة النطاق حول بلدة سطيف التي تقع غرب قسنطينة في عام 1945. وذلك بعد خروج مجموعة من الجزائريين احتفالاً بانتصار الحلفاء (وبينهم فرنسا طبعاً) في الحرب العالمية الثانية، باعتبارها فرصة للجزائريين أيضاً للمطالبة بالحرية والاستقلال كون انتصار الحلفاء كان يعني انتصار الديمقراطية على الديكتاتورية. وكان رد الفرنسيين على المظاهرات السلمية التي نظمها الجزائريون هو ارتكاب مجازر 8 مايو 1945، وذلك بأسلوب القمع والتقتيل الجماعي واستعملوا فيه القوات البرية والجوية والبحرية، ودمروا قرى ومداشر ودواوير بأكملها. ودام القمع قرابة سنة كاملة نتج عنه قتل أكثر من 45000 جزائري، دمرت قراهم وأملاكهم عن آخرها. ووصلت الإحصاءات الأجنبية إلى تقديرات أفظع بين الخمسين والسبعين ألف قتيل من المدنيين.

4

غربية يدفع سالان ليحدد موقفه كمدافع عن الجزائر الفرنسية

من بين الأسماء التي خطرت له فيما يتعلق بالولاء، نسي سالان الكولونيل. ذكاء عادي، تغذيه عقائد من المدرسة الحربية ومبادئ الحرب النفسية. رشيق على الرغم من طوله. له وجه حذر. براعة ومهنية وروح وطنية. متزوج من فتاة من مستوطني وهران. لا شيء من لهجة الفرنسيين هنا. شيء من تكلف أرستقراطيي المال والكروم.

حتى الآن، يبدو الكولونيل غربيه وفياً، واهتماماتهما متطابقة. لخص له الكولونيل الوضع بلهجته الواثقة:

«في نظر الجميع أنت المدافع عن الجزائر الفرنسية، واللحظة مناسبة لكي تدفع أكثر بانتمائك».

استنشق الجنرال الهواء مصاحباً ذلك بصفرة خفيفة.

«يا عزيزي، يا عزيزي، نحن ندخل بذلك في المجال السياسي. أعترف لك بأننا تطفلنا عليه، ولكن الدخيل لا يجب أن يقيم طويلاً في أرض غريبة».

اقترب منه الكولونيل أكثر كي يراه بشكل أفضل. إن كان الجنرال يجهل أو يتظاهر أنه يجهل النداء الذي وجهه هذا الوغد سِرينيه[1] لديغول

(1) Comte Alain Le Moyne de Sérigny هو صحافي وكاتب فرنسي كان واحداً من الأقدام السود، ولد في فرنسا ولكنه انتقل إلى الجزائر قي سن الثالثة. استلم في العام 1941 صحيفة Echo d'Alger (صدى الجزائر) التي جعلها الصحيفة الأكثر قراءة وتأثيراً في الجزائر. وقد كانت هذه الصحيفة في البداية صوت اليسار في الجزائر ولكنها تحولت لاحقاً في حرب الجزائر لتكون المدافع الشرس عن الجزائر الفرنسية والناطق أيضاً باسم قادة الانقلاب في العام 1958 الذي جاء بشارل ديغول رئيساً للجمهورية =

فلديه أسبابه.

حرك الجنرال يده وكأنه يستجلب الهواء، لا هواء في المكان.

«هل برأيك أيضاً..».

تردد الجنرال في طرح الاسم، ثم أخذ المخاطرة مع أمل أن يعترض الكولونيل:

«ديغول؟».

لفظ الاسم «دي غُل» مع تخفيف التنوين لتكاد تكون «غال» كما يلفظونها عنده في تارن[1]. الكولونيل غرِيه يمكنه أن يحذر الأسباب التي تجعل مسؤوله بعيداً عن ديغول. في حالته هذه عليه أن يكون حذراً دون أن يؤذيه هذا الحذر.

غاب الكولونيل للحظة وعاد مع ديمانش- ماتان[2]، الملحق الاسبوعي لـ *إيكو دالجِر* حيث احتلت افتتاحية المدير آلان دي سيرينيه مساحة واسعة من الصفحة الأولى مع عنوان صاعق: «تكلم ولكن تكلم بسرعة سيدي الجنرال». بلمح البرق، وصلت الفكرة التي تقترحها المقالة إلى سالان، فبما أنه قفز إلى السطور الأخيرة من المقالة، فهم. سيرينيه، هذا البيتاني[3] العنيد، هذا الفيشي البليد، هذا الذي يحن لويغان والذي بدل انتماءاته بسهولة. *اليوم وضع الجزائر، وبالتالي فرنسا، هو وضع دراماتيكي بشكل ايجابي*... أسلوب بقال. فهو أيضاً يستحضر مخاوف من ديان بيان فو ديبلوماسية، والمكائد الأنغلوسكسونية والسوفياتية في السياسة العالمية،

= الفرنسية الخامسة.

(1) Tarn إقليم فرنسي تابع لمنطقة ميدي بيرينه.

(2) Dimanche-matin.

(3) نسبة لبيتان (Philippe Pétain) 1856 – 1951.

وإغراءات أغنياء الصحراء للأجنبي، معركة الجيش – كلها حقائق تافهة وحشو كلامي. في النهاية يطلق نداءه طناناً:

اليوم وأنا أتوجه إليكم، أكتب: أتوسل إليكم، تكلموا، تكلموا سريعاً، سيدي الجنرال، فكلماتكم ستتحول إلى أفعال.

ترك سالان الصحيفة تقع على الطاولة التي تذكر الآن أنه رآها في غرفته. كيف يمكن للملحق الإعلامي ألا يلفت نظر القيادة العامة لهذه المقالة اللافتة؟ لا يمكن لأي رقيب أن يمنع نصاً متملقاً لهذه الدرجة، ولكن ماذا يعني صمت وزير الدفاع؟ أيكون متواطأً هو الآخر؟ فعندما كانت تطبع الصحيفة هذا الليلة، لم يتجروٴا على إيقاظه. وهذا الصباح، عندما كان يدخن... تذكر نظرة مساعده الشخصي لحظة دخوله المكتب. لا يمكن للمرافق الشخصي أن يفترض أن الجنرال لم يقرأ الصحيفة التي حملت له مع تأطير بالأحمر لأهم ما فيها. عادات السرية والصمت التي يغرق فيها عند الإعلان عن حدث مهم، هي التي تسببت بهذا الالتباس.

هزّ الجنرال كتفيه قليلاً. فالموقف يتطور بطريقة لا تبدو مناسبة ولكن يجب التريّث للحكم على نتائج هذا النداء. في الجزائر لم يكن ديغول شخصية شعبية. فبالنسبة إلى الأقدام السود يبقى صاحب خطاب القسنطينة، وهو رئيس الحكومة الذي عين وزراء إشتراكيين، فهو يمثل بالنسبة إليهم التخلي والخيانة.

– هل يمكن للأقدام السود أن يبدلوا آراءهم مثل سِرينيه؟

– عند غالبيتهم، قالها الكولونيل بلهجةٍ محايدة، ديغول هو الأقل سوءاً، كأمر واقع، كآخر احتمال.

فكر الجنرال: «ملجأ أخير» وهنأ نفسه لإقلاعه عن كونه ديغولياً أكثر

مما هو بيتاني. وبالرغم من ذلك، بالنسبة إلى فيشي... تغضن جبينه قليلاً. مهما كانت حظوظ ديغول بالعودة إلى السلطة ضعيفة فلا يجب الاستهتار بها. عندما ذهب، قبل عام إلى بيشار[1] ليلقي السلام على ديغول الذي كانوا ينزهونه في الممتلكات الفرنسية، بدا فخامته حساساً جداً لحركة القائد الأعلى المنسق. قال له فخامته: «يوماً ستكون البلاد ممتنة لك لما تقوم به لأجلها ومن أجل الجزائر...». أكان ذلك تملقاً؟ احتراساً؟ أيتذكر ديغول أنه قلّد وسام الشرف لجنرال اللواء الشاب سالان في ميلوز[2] تحت ثلوج شتاء 1944، هيا فلننسَ ذلك...

بطريقة آلية، تلمس الجنرال تمثال بوذا العاجي الصغير الذي يضعه دائماً في الجيب الأعلى لقميصه تحت شاراته الاثنين والثلاثين وهذه ليست كل ما لديه أساساً. الحياة تنطوي على سخرية كهذه. عليه أن يعامل حظوظ ديغول بدبلوماسية. من يدري، بالنسبة إليه قد تكون الفرصة الكبرى...

ديغول في السلطة؟ يكاد يكون كأيّ مدني. فالمدنيون لا يشكلون خطراً.

نظر الكولونيل إلى مسؤوله. هذا الوجه الذي يهبط فجأة، هذه الشفة السفلى الضخمة، هذا الظل في العينين الزجاجيتين الزرقاوين يجعلانه يبدو كبرجوازي صغير وقد صدمه خبر سيء. لقد كانت فظيعة داكار[3]

---

(1) بيشار هي مدينة جزائرية.

(2) Mulhouse مدينة شمال شرق فرنسا على مقربة من الحدود السويسرية الألمانية. وهي من المدن التي تنازع عليها الفرنسيون والألمان وشهدت احتلالاً ألمانيا متقطعا وفي 1944 استعادها الفرنسيون من الجزائريين.

(3) ويقصد معركة داكار (داكار هي عاصمة السنغال) التي قادها وشارك بها شخصياً شارل ديغول من أجل ضمها إلى «منظمة فرنسا الحرة» في سبتمبر 1940، والتي أقنع القوات البريطانية بمساندتها (بهدف حماية غرب أفريقيا من الألمان) والتي تصدى لها =

في 1940. أكان سالان ليقدر إذن من خلال دقة معلوماته أن يساهم في تحطيم المؤسسة الديغولية؟ وهل أنه، بهدف تحقيق الهزيمة بشكل أفضل، حضر لحظة إنزال قوات ديغول في الميدان[1]؟ إنها جريمة لا يمكن لديغول غفرانها. عليه أن يطمئن سيده.

«سيدي الجنرال، ديغول لم ينهِ بعد عزلته[2]. دخل فيها منذ اثني عشر عاماً، من يفكر به بعد؟».

خبط سالان بعصبية على صحيفته.

«وهذا؟».

رن الهاتف.

متخفياً، عاد الكولونيل فجأة بعد ثلاثة أو أربعة أيام إلى حانة ألتّي، وجه هذه المرأة إلى جانب الطبيب باري الذي تعرض للاعتداء. ألقى سلاماً سريعاً على الطبيب الذي هو قريب بعيد له. ومن خلاله كان يمكنه

= السنغاليون كما القوات الفرنسية التي كانت تابعة لحكومة فيشي الفرنسية (المؤيدة للألمان)، ولذلك انتهت بالفشل، وكادت تهدد مستقبل ديغول السياسي لولا وقوف تشرشل مع ديغول ودعمه الكامل له.

(1) كان راوول سالان قد عين قبل معركة داكار في يوليو 1940، كمقدّم في «قوات فرنسا لغرب أفريقيا» (والسنغال جزء منها كونها كانت من المستعمرات الفرنسية آنذاك) التي كانت تابعة لحكومة فيشي المؤيدة للألمان، أي التي كان يخوض ديغول حرباً ضدها تحت «اسم منظمة فرنسا الحرة» (وهي المنظمة التي أنشأها ديغول بعد رحيله من فرنسا إلى لندن في يونيو 1940، وخاض من هناك حربه لتحرير فرنسا من الألمان ومن حكومة فيشي، لكن سالان كان قد غادر السنغال قبل وقوع المعركة بين قوات ديغول وقوات فيشي، وبذلك يكون قد نجا من احتمال أنه كان قد شارك يوماً في خسارة ديغول لتلك المعركة.

(2) يقصد هنا العزلة الطوعية التي اختارها ديغول، بعد انتصار حربه على الالمان وعودته إلى فرنسا التي دخل فيها السلطة، ولكن مع خسارة حزبه الكبيرة في الانتخابات عام 1954، اعتزل السياسة ودخل في عزلة طوعية في داره في كولومبه.

أن يعرف رأي السهل. تأمل وجه المرأة. لم يكن الكولونيل من أصحاب المغامرات فزوجته تكفيه كما أنه بعد ثمانية عشر عاماً من العيش معاً... في بعض الأيام، وربما لأن عمله يكون مضنياً ومضجراً، يندفع في ماذا؟ التفاهة ليست الكلمة المناسبة. للحظة تتقاطع نظراتهما، ثم تدير المرأة المجهولة رأسها. يتذكر الكولونيل غريبه أنه شعر بالرغبة المفاجئة وغير المنطقية للارتماء في أحضانها كما في مياه مقدسة.

رفع الجنرال المجمّعة[1] إلى أذنه ثم أعادها.

«كنت أريد أن أنبئك»، قال الكولونيل، «الجنرال ألي[2] يرسل لك مساعده كي يعلمك بتفاصيل عملية البعث[3]».

5

ديزيريه بعد رحيل هكتور وتثبيت الألواح الحديد على النوافذ لحماية المستوطنين

«ديزيريه، ثبت الألواح»، قالت إليز.

انحنى ديزيريه وأخرج ألواحاً حديدية كانت مخبأة تحت خزانة المطبخ وثبتها واحدة تلو الأخرى خلف المصاريع المقفلة، حيث يمكن أن تنفجر قنبلة. هل يمكنها أن لهذه الألواح أن يرد القذيفة، أو إن اخترقت النافذة هل يمكن لهذا الدرع البائس أن يمتصها.

(1) المجمّعة هي آلة هاتفية بمجهار وسماعة مجموعين معاً.

(2) Paul Ély (1897 – 1975) القائد العام للقوات المسلحة ثم وزير للدفاع الوطني من 1953 إلى 1961، إضافة إلى قيادته في 1954 و1955 القوات الفرنسية في الهند الصينية.

(3) عملية البعث يقصد بها الانقلاب الذي كان سالان جزءاً منه والذي انتهى بتسلم شارل ديغول الحكم كرئيس للجمهورية الفرنسية الخامسة.

لو رآك هكتور تضع الألواح، ولكنه لم يشأ أن يبقى، لكان فهم لو عاش في الجزائر، كل أفكاره الجميلة هذا المسكين... الآن لن يأتي ثانية إلى هنا إلا من أجل الأحزان.

لديه حياته هناك.

عبر ديزيريه عن حركة قدرية. ماذا نستطيع أن نفعل في مواجهة القدر؟ هل أمكنه فعل ذلك، هو؟ هزت إليز رأسها. أطفأ ديزيريه للتو المذياع، ذلك الجهاز القديم. كل ما نسمعه. كل هذا البازار. أوروبا 1 التي يمكن التقاط أثيرها بشكل أفضل عند المساء أعلنت أن التشكيلة الوزارية ستقدم في الثالث عشر من مايو أمام البرلمان. ماذا الذي سيحصل إذن؟ هكتور لم يقم بهذه الرحلة من أجل لا شيء. لقد رأت القلق على وجهه وبدت عيناه خضراوين قليلاً مثل عيني أمه واللتين تنحرفان دائماً مع التماعة صغيرة سريعة. غريب عن أهله، هذا ما بات عليه. مراوغ. وشعره الأبيض الأشعث القصير، كثيف كالأجمة يمرر فيه يده العصبية.

«تظهر عليه أكثر وأكثر ملامح أبيه»، قالت. «ما عدا أنه ليس أصلعاً».

هل يمكن مغادرة الجيش عندما يكون لدينا رتبة رفيعة بسبب المبدأ؟ جنون الأب وحماسته. ومثل أبيه فقد شاخ قبل أوانه كما هو واضح. ربما أنه ملعون والخطيئة تلاحقه. كيف أمكن للأم أن تستسلم لرجل مثل المدرس وتحطم علاقتها بالشرطي؟ غيرة خفية غمرت إليز. ألماني مغفّل[1] أيضاً نجح في كل شيء ما عدا في حياته الخاصة. طلاق وطبع صعب إنما

(1) يستعمل الكاتب الكلمة الفرنسية boche وهي كلمة تحقيرية يقصد بها الألمان، ومستقاة من albosh. al ويقصد بها الألماني وbosh أي المغفل، لتصبح الكلمة «الألماني المغفل».

شهرة ويسر ما. يمكن لهكتور أن يحكم على العرب بتجرد. هذه البلاد ما عادت بلاده. بالكاد زارها خلال الحرب. يدافع عن العرب أمامهم، ويشرح لهم هم، العرب وكأنهم لا يعرفونهم أكثر منه.

كل ما يطبع في صحف باريس وتنقله *إيكو دالجير* مستنكر. رجال يناقشون بدمٍ بارد فكرة التخلي عن السيادة على الجزائر. الحقيبة أو النعش، يردد العرب. الرحيل من هنا؟ للذهاب إلى أين؟ الرحيل عن هذا المنزل وهذه الحديقة التي زرعوها، الرحيل عن هذه السماء والشمس والهواء الذي يتنفسونه، للعيش أين؟ أن يحرموا من رؤية البحر ثانية. ففرنسا بلاد باردة في الصيف الذي تتخلله الأمطار، وهو ما لا يمكن احتماله. بالنسبة إلى آل باري وفيرتو المستقرتين في سيدي موسى منذ زمن طويل، فإن المتيجة هي وليدتهم الخاصة وحبهم الوحيد. لا حقائب بل ألواح تحميهم من المصير الأسود عند المساء ولكن إن شاء الآخرون الحرب فسيحصلون عليها، بالرشاشات والبنادق والمدافع. ما حققناه هنا هو جنة. وهو كذلك بالنسبة إلى العرب أيضاً الذين كانوا يموتون قديماً كالذباب، والذين سخينا عليهم بالعطاء في الصحة والحياة والتعليم. حقوق جديدة؟ ولكننا بتنا نوقرهم ونكلمهم باحترام بصيغة الجمع ونسميهم سادة. السيد بن ضيف الله والسيد بن عامر، ولنتكلم عن هذا السيد بن كسكس. إن كان هذا المطلوب، فلقد تمّ إذن. أعلينا أن ندرّس في المدارس أن وجود فرنسا هنا كان غير عادل؟ هل يعد ما جناه ديزيريه بعرق جبينه سرقة؟ ألم يخض حرباً طويلة في العام 1914؟ أليس من الجزائر انطلقت تلك الفرق لتحرر تونس وإيطاليا وفرنسا حتى الألزاس؟ ألم يكن يسقط موتاهم في السهل بين أشجار السرو والبروق؟ مثل الآخرين، مثل العرب.

– بالنسبة إلي، قالت، أرى أن هكتور لا يحبنا.

– لو لم يكن يحبنا لما جاء يزورنا. إذن لا يجب أن...

– لست أتهمه ولكن هذا لا يمنع أن نتساءل. وأنت أخوه أول من عليه أن يتساءل. ألن يتم التخلي عنا باتفاق؟ فيوماً ما سيقولون لنا، لا أعرف من، أهل البلاد هناك، الناس الذين يعرفهم هكتور: حسناً، هيا لقد انتهى كل شي عليكم أن ترحلوا. فما كان لكم لم يعد لكم...

خبط بيده الضخمة على جبهته.

– مع كل ما لدينا من أسلحة؟ مع أنني أنا لا أملك شيئاً، مجرد بندقية. لكنّ الآخرين يملكون مخازن كاملة لن تستخدم للصيد. ولدينا الجيش، هل تعتقدين أنه سيكون بإمكاننا أن نقول له ذلك، هيا التحق بالجيش؟

– أعترف لك بهذا، لكنه في النهاية فقد فهم وغنّى لنا لا مير غاسبار[1]...

في النهاية، بدا هكتور سعيداً. وكأنه عاد إلى سابق عهده، عندما كانت العائلة مجتمعة وسط نعيم القلوب النقية متمتعة بالرفاهيات الأساسية: هواء لطيف جداً وسماء سخية...

«نسيت ان أقوله له شيئاً»، تابعت إليز، «خطر لي لاحقاً: هذا البيانو الخاص بك، هكتور؟ هل ستتركه لـ«البيكو»؟».

ندمت لأنها لم توجه له هذه النصيحة: بيانو روفيغو، وعين طاية وشارع مونتِنْي الذي حملناه إلى هنا ولكنه يعود إليه، لأنه يأتي من جانب

La mere Gaspard (1)

أبيه، يمكنه أن يحمله معه إن شاء. فهذا البيانو «بلايال» أما عاد يعني له شيئاً؟ بما أنه تحدث عن تقاسم... لا يجدر أن نتعاطى بالطريقة نفسها مع الأشياء التي تخصنا.

«معك حق»، قال ديزيريه.

هذا البيانو الذي كان طريقة لإغواء أمه، من المفترض أن ديزيريه أراد التخلص منه عن قصد. ولكن ليس سيارته ذات قوة الدفع بحصانين، الأعز على قلبه، الأهم من سيارة دي. أس أو جاغوار أو مرسيدس. حتى لو تخيلنا للحظة ما لا يمكن تخيله، يبقى هناك ما لا يمكن تخيله. لا يمكن تخيل هذه السيارة اللامعة والتي تُعامل كأميرة، مع الإطارات التي يُفحص ضغطها يومياً والمكابح الجديدة وغطائها المنظف بالفرشاة والزجاج اللامع والمقاعد المحمية بفرش عربي، والبطارية التخزينية التي تبدل كل شهر، المحرك الذي ينطلق بسهولة، الزهور الإصطناعية على الحاجب الزجاجي، مضغاط ومقياس الزيت المضافين إلى لوحة القيادة، نعم هذه العربة بحصانين لا يمكن تخيلها بين أيدي العرب؛ عربي على مقودها وعرب مكدسون في الخلف، هيكل السيارة بمساواة الأرض، وحشرات طفيلية نشرها العرب في كل مكان...

قريباً سيموت. ألم يترك نفسه يتأثر بما يقال؟ هل سيملك القوة للقتال؟ هذا المساء سينام كما كل المساءات، متأبطاً بندقيته.

6

هنا يعلم القارئ كيف نجا الطبيب باري من الموت

إن لم تتوقف الرصاصة عند العظمة الحرقفية، لكان الطبيب حرم للأبد من هذا: الشمس في طرقات الجزائر، الشمس على البحر، التماع الضوء، هذا الوميض في أعالي السماء، هذا التوهج الذهبي، انفلاش الحرير الأزرق. «عزيزي»، قال له تيسيه بعد العملية الجراحية، «الرجل الذي حاول اغتيالك رجل عبقري...»، ولمس في جيبه الرصاصة التي استخرجها الجراح. «احتفظ بها، ستحمل لك السعادة...». أسطوانة صغيرة من الرصاص والنحاس الأصفر بالكاد مخدوشة بطول ظفر الأصبع الصغير. 7,65.

«بهدوء أميلي».

مع أن إميلي تقود عادة بحذر، لكنها ودون أن تضغط على المكابح انعطفت يميناً بسرعتها العالية. إميلي امرأة معطاءة، فعندما نحتاج إليها نجدها قربنا من دون أن تطلب شروحات. مغادرة المستشفى بعد خمسة أيام من حادث كهذا... لا يهم. فهو يعرف ماذا يفعل. فليتحرك ويحرك هواجسه. فهو يتحرك أساساً ليتأكد من أن العامود الفقري ما زال سليماً.

كاد أن يموت لكنه ما زال حياً. يتكئ بكتفه على هيكل السيارة كي لا يثقل على الضمادة والجرح. الشمس والزهور. يشعر بسعادة لا تصدق. الكثير من الدكاكين مقفلة والقليل من الناس في الشوارع.

– أيّ عيد هو اليوم؟

– ما زال الإضراب، قالت أميلي. اليوم سيذهبون جميعاً إلى نصب الموتى.

غرور فظيع. آه! نعم لقد أعدم الأسرى. سيكون هناك مواكب من

المتظاهرين وضوضاء أبواق وهياج. فاليوم بات يفهم بشكل أفضل الغضب والاحتجاجات. لن يتركوا كل شيء ينهار هكذا. سابقاً، كان يعتقد أن لا نفع للحذر. رجل نبيل، يستقبل جميع الناس ويعالج الجميع. يتلقى ضربة قاسية إذن ماذا عن الغفران والليبرالية... مرة أخرى، عاد إليه وجه مفتاح صباح الاعتداء في المزرعة. سأل نفسه إن كان مفتاح لم يكن يعرف. كل شيء وارد. تحذير لدانيال وكارمن. «الطبيب أولاً. ثم أنتما...». عندما رأى وجه مفتاح هذا الصباح كلم نفسه: «إنه ليس على ما يرام». كاد أن يفحصه. لو فقط خدشت الرصاصة الحبل الشوكي... وفي حال تضررت أحشاؤه؟ شكراً أيها السادة، أنتم فعلاً أخوة. نرغب في...

«هل تعرف أن ابن عمتك هكتور كان في في الجزائر العاصمة؟».

نعم إنه يعرف فقد التقاه في إحدى الليالي في فندق ألتي. ولكن بلى، لقد سبق وقال ذلك. ليس مهماً على أية حال. لقد عاده هكتور في المستشفى أيضاً.

خرجت السيارة من نفق الكليات وصعدت طريق برتيزين[1] باتجاه جادة مارشال– فوش حيث يسكن الطبيب في الشارع السابع. في اليوم الثالث، نعم، لقد تكلم، إذ تخلص تقريباً من الحمى وبدأ يحرك ساقيه. ظهرت كارمن في لمح البصر بعينين مشتعلتين. كارمن، والدته، دانيال، رئيس البلدية، كاهن سيدي موسى وزملاء. كانوا لينظموا له مأتماً رائعاً

(1) شارع في الجزائر على اسم قائد فرنسي شارك في الحملة على الجزائر في العام 1830 وعين حاكماً عاماً للجزائر في 1831 وهو بيار برتزين Pierre Berthezène. وجادة مارشال فوش هي أيضاً على اسم فرناند فوش Ferdinand Foch وهو جنرال وكاتب عسكري فرنسي. خدم في الجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى، واختير مارشالاً لفرنسا في 1918 وعرف بتصديه الشرس للألمان.

مثل مأتم فروجيه. من جاء أيضاً، لا أحد؟

«بالنسبة إلى من حاول قتلك»، قالت بعد لحظة، «ربما أنك تعلم أيضاً؟»

لم يفكر به يوماً. رجل ما اسمه محمود بن المقراني لا يعرفه. أخرق. مجنون نفذ على الأرجح أمر قتل طبيب أوروبي لأن طبيباً جزائرياً هو الطبيب عمر شريف اشتبه بأنه يعالج الفلاقة[1]، قد قتل. ولكن لماذا اختاروه هو؟ هل لأنه كان ابن مستوطنين؟ إنه لغبي. ألم يكن يعلم أن آل باري من المساكين؟ لو حاولوا قتل فروجيه، رئيس بلدية بوفاريك، لكان هذا مفهوماً. والأمر نفسه لو هاجموا رئيس بلدية سيدي موسى. ولكن طبيب المستوصف الذي تقبل النساء الجزائريات يديه...

ركنت إميلي السيارة وشدت المكابح اليدوية ونزلت وفتحت الباب من جهته وساعدته على الانحناء ثم الوقوف على رجليه.

– ماذا...

– لقد قتل خلف مركز البلدية وبقيت جثته يومين في مكانها.

اتكأ على مدخل المبنى.

«أكنت تريدنا أن نقدم له الكسكس؟»، قالت له أميلي.

لم يجب، مشى بخطى رجلٍ آلي باتجاه المصعد متكئاً على الحائط.

(1) الفلاقة هو المقاتل الجزائري او التونسي الذي دخل في حرب دفاعٍ عن وطنه تحت الاحتلال الفرنسي.

الفصل الثالث
العاصفة

1

في الثالث عشر من مايو[1]، الضوضاء والشمس بين البريد المركزي ورأس الجادة. الحشد يشتم الحكومة

ولولة أبواق، مفرقعات نارية، ضوضاء وشعارات، المقطع الأول من النشيد الوطني الفرنسي، أغنية الأفارقة[2]، الصرخات الأشبه بالنباح الموزون، كل ذلك يشكّل بحراً هائجاً... كم يحبون الضجيج، كم يتلذذون به! شيئاً فشيئاً صعد الصخب إلى رؤوسهم، وأسكرهم، بحت أصواتهم وراحوا يهتزون كالزنوج ضاربين على الطبول الأفريقية أو هازين صنوجهم دائرين حول أنفسهم... السؤال ما الذي سيوقفهم: التعب، الجوع، الليل، المطر؟ لم يكن ذلك هو المساء الذي من المفترض أن تمطر فيه.

الحشود تتقاطر من كل مكان وتتكدس على الأدراج أمام البريد

(1) وبقصد هنا انقلاب 13 مايو 1958 في الجزار، الذي اندفعت فيه جماهير المستوطنين الفرنسيين إلى مقر الحاكم العام في الجزائر العاصمة، مطالبة بالجنرال شارل ديغول لاستلام الحكم في فرنسا، على اعتقاد انه سيجلب لهم الحل للثورة الجزائرية المتصاعدة ويحمي «جزائر الفرنسية»، وهو الانقلاب الذي أدى إلى عودة ديغول إلى الحكم وتسلمه رئاسة مجلس الوزراء ثم رئيساً للجمهورية في بدياة 1959.

(2) أي النشيد الذي اعتمده ما يسمى بجيش أفريقيا الذي عمل على تحرير فرنسا ومستعمراتها الأفريقية من السيطرة الألمانية، ولكنه اعتمد لاحقاً خصوصاً من قبل الأقدام السود في الجزائر لتأكيد الانتماء لفرنسا ولجزائر فرنسية.

المركزي وتدوس على التراب ومساكب الزهور، وتتعلق بأشجار التين وبجذوع النخيل والأسيجة وعواميد المصابيح وقاعدة نصب الموتى المحفور بالصخر الأبيض، هذا المجسم الكبير للنصر لحصان يحمل جثتي سباهي بالعمامة وجندي خيالة بقبعته العسكرية، وثلاثة يرفعون سواعدهم إلى حيث يضطجع الفرنسي والعربي اللذان سقطا للسبب نفسه: إنهما بطلان. كالحشد على مدرجات ملعب في يوم مباراة، حاملين الأعلام واللافتات، أصوات النساء الحادة تشبه ضربات السوط، تندفع وتتلوى في السماء. يا لهذه الضوضاء، يا لهذا العيد! كم كان عددهم؟ خمسون ألفاً؟ مئة ألف؟ يتدافعون ويتعلقون بكل شيء ويهتفون سوستِل[1]، سوس– تِل، ماسو، ما– سو، يشتمون بورقيبة، مندِس[2]، مورياك[3]، جميع هؤلاء إلى

---

(1) Jacques Soustelle (1912 – 1990) عالم فرنسي بعلم الأعراق البشرية وقد دخل السياسة من هذا الباب، كان معروفاً في البداية بماركسيته وميوله السلمية، ليعود ويأخذ موقف المدافع عن جزائر فرنسية وعن سياسة مؤيدة لإسرائيل ويعين حاكماً عاماً للجزائر بين يناير 1955 ويناير 1956، وقد عرف بـ «مشروع سوستل» الذي حاول استمالة الفقراء والجزائريين لصرفهم عن دعم المقاومة الجزائرية. وقد عمل بقوة لعودة ديغول وتسلمه السلطة في انقلاب 1958، وليعين وزيراً للإعلام في حكومته في 1958، ليعود ويصطدم مع ديغول وينضم إلى منظمة الجيس السري الفرنسية التي كانت تعمل ضد تحرير الجزائر والمسؤولة عن أعمال العنف التي سبقت استقلال الجزائر، ينفى إلى روما بتهمة اعتدائه على أمن الدولة في 1962 وحتى العام 1968 عندما يعفى عنه.، ويعود ثانية لممارسة العمل السياسي وينتخب نائباً في 1973.

(2) بيار مندس فرانس (Pierre Mendès France) 1907 – 1982. سياسي فرنسي شارك في منظمة فرنسا الحرة التي كانت تحارب من أجل حرية فرنسا، كما عرف بمناهضته للحرب الفرنسية الهندو صينية وكان مع إعطاء الحرية لتونس وكذلك كان مع إعطاء الحرية للجزائر، وكان بالتالي من الاعداء اللدودين للأقدام السود. شغل منصب رئيس مجلس وزراء من 1954 إلى 1955. كما شغل منصب وزير دولة من 1956 إلى 1958، ومنصب وزير الشؤون الخارجية 1954 – 1955.

(3) فرنسوا مورياك (François Mauriac) 1885–كاتب فرنسي حاز على جائزة نوبل =

الموت ويطالبون باستقالة الشجاع النزيه الطيب السيد كوتي[1]، رئيس الجمهورية. أي هستيريا! من مكبر صوت في سيارة صوت يلهث: «القتلة الحقيقيون للجنود الفرنسيين... ليسوا الثوار بل المثقفون والساسة...». نجا بفليملن من الشجب بسبب اسمه[2]. عند نهاية بعد الظهر هذا، رشح كرئيس لمجلس الوزراء أمام الهيئة العامة لمجلس النواب لكن قضية الجزائر دفعته إلى فقدانها.

كل موجة غضب في الجزائر تهز فرنسا، كما حفلة التحقير عام 1956.

أعلى الجادة، ثلاثة كتلٍ من الإسمنت تثقبها شبابيك في صفوف متقابلة بينها بيوت المصاعد الكهربائية، إنه مقر الحاكم العام، أما مكتب الحاكم العام فيقع في طابقين من المبنى. في الساحة حيث يحرك الهواء سعف النخيل، أساطيل من سرايا مكافحة الشغب[3] بالعلم الأزرق الكبير والبنادق القصيرة معتمرين خوذاتهم في هذا الحر.

كان الطبيب يتساءل دائماً إن لم يكن قد اقترف خطأً بترك المستشفى باكراً. «لن يصلوا حتى هنا»، فكر، «يمكنني أن أنام...». هذا الضجيج المجنون للحصى التي تدور تحت الأقدام يتعبه. ولكن ليالي المستشفى كانت حارة جداً وثقيلة لا يمكن احتمالها، كان يسمع خلالها قلبه يضخ

= العام 1952 عام صدور روايته غاليغاي. انخرط في النقاش الدائر حول الحرب الهندو صينية، ووقف مع استقلال المغرب ثم الجزائر وأدان اعتماد التعذيب من قبل الجيش الفرنسي. وقد دعم لفترة بيار مندس في ظل الجمهورية الرابعة.

(1) رينيه كوتي (René Coty) 1882 – 1962. ثاني رئيس وآخر رئيس للجمهورية الفرنسية الثانية من 16 يناير 1954 إلى 8 يناير 1959، عندما أخلى مكانه لشارل ديغول.

(2) ورد ذكره في هامش سابق. أما لماذا أعفي من الشتائم فبسبب صعوبة لفظ اسمه.

(3) التي كانت معروفة باسم C.R.S.

الدم مع صدمة الصمامات التي تنغلق، ويطارده وجه ليون بالتناوب مرة غارقاً في الظلال ومرة مغموراً بشعاع المصابيح المعلقة في الرواق. هل عليه أن يزعج الممرضة الليلية من أجل مهدئ؟ سيحرك ساقيه. كان ذلك مؤكداً: خلال شهر سيتمكن من المشي كما في السابق.

من شرفة الطابق السابع فوق السطوح والقبب وصواري سفن المرفأ الداخلي، يظهر البحر حتى الأفق. يا للأسف إن الواجهة الهائلة لمبنى الحاكم العام تحجب المرفأ الرئيسي ووصول السفن!

في الحقيقة لو شاء العودة إلى منزله، أليس من أجل أن ينتظر اتصال ليون أو ليتصل هو بها؟ ليون، في الوقت الذي تتواجد فيه إميلي هنا؟

عند عودته، وجد شقته في الحالة التي تركها بها صبيحة يوم الاعتداء. لماذا لم تأتِ الجزائرية بالرغم من أنها تملك المفتاح. في غرفة الجلوس، السرير غير مرتبٍ، وعلى طاولة المطبخ غلاية القهوة فارغة وفنجان وسكرية، وقطعة خبزٍ يابس. رتبت إميلي السرير ونظمت الكراسي وغسلت سريعاً الصحون وجففتها. أما هو فزحف إلى الشرفة ليراقب من حيث جلس منحرفاً على مقعد قابل للطي، الحشد حيث من المفترض أن يكون دانيال وكارمن طالما أن المنشورات التي رميت من الطائرات منذ الصباح فوق السهل كله كانت تدعو إلى الثورة. وإذ بالأبواق تقرع. التعب يسحقه والجرح يشد على ظهره. «ما عدت قادراً على الاحتمال» قال لنفسه. ضجرت من التمدد وتأمل السماء وشرب أطنان من المياه.

كانت إميلي محقة، جثة القاتل الممددة في ساحة القرية، رسالة لمن يعنيهم الأمر. إذ لجأ الكولونيل القائد لقسم لاربعاء وهو رجل قصير جاف بجبهة متغضنة ونظرة كئيبة إلى ذلك، متأكداً تماماً من حقه ومقتنعاً بمبدأ تحقيق

العدالة السريعة، هو منظّر الحرب المدمرة الذي يدافع عن الحرية الغربية.

«أين أنت أميلي؟».

«لو سمحت، لو سمحت...».

انزلق هكتور خلف ماريني الذي كان يصرخ. صوت ترانزستورات اختلط فجأة بحشد اثنين الفصح الذاهب من أجل المونى في مرفأ مادراغ[1] في سيدي فرج أو في غابة بينام. يا لهذا الحر! النساء في تنانير صيفية قصيرة، بعضهن برفقة أولاد، وفي السلال وجبات سريعة. الرجال في قمصان طويلة الأكمام، ما عدا الموظفين الذين يرتدون السترات، وحاملي الأعلام. سوق خيرية، حيث التقى أهل باب الواد وبلكور[2] أهل شارع الكليات، وجعلوا يتسلون بتحطيم البلاط وأسيجة الحديقة العامة وكأنها غزوة إرهابية[3] ولكن ضد من؟

ليس هناك عرب ما عدا أربعة حركيين[4] بقبعات ريفية ومرافق ملازم

(1) Madrague وهو اسم المرفأ في مدينة عين البنيان الجزائرية والذي تبدل بعد تحرير الجزائر إلى مرفأ الجميلة.

(2) Belcourt وهو الاسم الذي أطلقه الفرنسيون على حي بلوزداد في مدينة الجزائر.

(3) غزوات ارهابية وهي الحملات التأديبية الشرسة التني كان يشنها الفرنسيون على الجزائريين.

(4) الحركيون (بالفرنسية: Harki) وهما نوعان : الفئة الأولى وهم الجزائريون الذين كانوا مجندين في صفوف الجيش الفرنسي إبان الثورة الجزائرية 1 نوفمبر 1954– 5 يوليو 1962 استعملتهم فرنسا لقمع الثوار الجزائريين والتجسس عليهم، حيث عند انطلاق الثورة التحريرية كانوا ملزمين بإتمام الخدمة الوطنية في الجيش الفرنسي، والفئة الثانية هم مجموعة من الجزائريين اختاروا الانضمام إلى الجيش الفرنسي طواعية، أي دون إكراه وكان معظمهم قد شارك في الحرب العالمية الأولى أو الثانية أو حرب الهند الصينية إلى جانب فرنسا.

أول مظلي، ملتحٍ وذو شعرٍ أصهب أشعث. أيكون مظلياً حقيقياً؟ يحمل شارة الجدارة العسكرية مع ميدالية تذكارية، لا قيمة لها تقريباً، بربروس ذاك[1]؟ إنه لاغايار[2] مسؤول الطلبة في كلية الحقوق الذي يعمل والده كمحامٍ في البليدة. هل هؤلاء حراسه، هل اتخذ حراساً شخصيين من العرب الحقيقيين؟

هؤلاء نحن نريدهم ونتبناهم. أرأيتم بأن هناك من يمكن تبنيهم. لماذا الآخرون ليسوا هنا؟ لأنهم يكذبون عليهم بخصوص الآخرين ويضللونهم. لو عرفوا الحقيقة سيكون هؤلاء الآخرون هنا يطالبون بالجزائر الفرنسية. جزائرهم هم، لا تصدقي كل ما يقال في الصحف، سيدتي، فما هي جزائرهم هم؟ أتعلمين ما ينقصهم: التجربة. لنترك لهم الجزائر لستة شهور فقط مع السلطة المطلقة شريطة ألا يمسوا الأوروبيين. وخلال هذا الوقت سنذهب نحن إلى الشواطئ وهم سيعملون، وسنرى كيف سيسيّرون البلاد. وإذن في غضون ستة شهور، سيعودون ويقولون لنا: «استعيدوا مكانكم» وسيتوسلوننا. فحتى إنهم لن يعرفوا كيف يستخدمون الكهرباء، ستفرقع في كل مكان. والماء؟ والسلامة الصحية العامة؟ سيطلبون جميعهم الانخراط مع الحركيين، هذا هو رأيي. ورأيك أنت أيضاً؟ إذن لماذا هذا ليس رأي المفرنسين؟ هل سمعت للتو على الراديو أن... أنا لا يمكنني لفظ اسمه. في مجلس النواب، سيدتي، وفي

(1) بربروس هنا هو اسم عائلة فرنسية.

(2) بيار لاغايارد (Pierre Lagaillarde) هو محام فرنسي، نائب عن الجزائر من 1958 =

= إلى 1960. وكان من المحرضين على التظاهرات من أجل الجزائر الفرنسية، وكان له يد أيضاً في انقلاب 1958 الذي أطاح الجمهورية الفرنسية الرابعة وأتى بديغول وكذلك في ما سمي بأسبوع الحواجز الذي شهد اعمال عنف من قبل المستوطنين. كما كان أحد مؤسسي منظمة الجيش السري في المنفى في مدريد.

إعلان تنصيبه[1] قال إنه يعتمد على المغرب وتونس – تونس حيث قتلوا ثلاثة جنود فرنسيين أبرياء، شهداء – في مفاوضات وقف إطلاق النار. اسمعي سيدتي، اسمعي...

قفز بربروس على كتف نصب الموتى، تماماً تحت الجياد الحجرية. وبالقرب منه علم كتب عليه: «كرامة، إرادة ووطن» ولوح بذراعه طالباً الصمت. وكان قد هتف للتو من شرفة: «إنه اليوم الذي...»، وسأل الحشد الهائج وهو يقرع الجرس: «أأنتم مستعدون للذهاب حتى النهاية..».

واستنشق.

– ... لتحافظوا على الجزائر فرنسيةَ؟

– أجل، أجل... هتف الحشد مع صوت نساء أشبه بصوت الصرير.

يصفوننا بالمتطرفين. متطرفون بحب الوطن، موافقون. الجزائر، هل تتركونها؟

– لاااااا.

استدار في قلب الضجيج ورفع ذراعه وباسم الجميع أدى القسم. أبقوا أوفياء لهذه الأرض الدافئة وهذه السماء الذهبية وهذا البحر. موجة الحشد العالية تتحطّم عند الجدران العالية للبريد المركزي ولمقر الصحيفة القديمة ديبيش *ألجيريين* القائمين في قصر عربي وجامع قديم، ثم تعود الموجة لتصعد الجادة حتى خطط سكك الحديد الجزائرية ثم ترتد مع دويّ المفرقعات النارية ونداء للمخلص ماسو، ما – سو، ملك الجزائر، أمير التعذيب

(1) وعلى الأرجح يقصد الكاتب رئيس مجلس الوزراء الذي عين في الليلة نفسها للانقلاب بيار بفليملن.

والقصبة[1].

السيارات الرسمية لم تعد قادرة على الوصول. من مدخل شارع إسلي، وكما مشى هكتور خلف ماريني حاملاً آلة التسجيل الصحفية الثقيلة في حزامه مخترقاً سوراً من الرقاب المبللة بالعرق، هكذا وصل الجنرالات إلى النصب مشياً على الأقدام في صفٍ هندي[2]: في البداية سالان، قرمزياً ثم جوهو[3] شاحباً وماسو بالقبعة الحمراء والذي بدا متحمساً جداً. «الجيش... إلى الحكم... ما-سو، ما-سو!...». توقف سالان خلف العلم الحريري المثلث الألوان الذي يخفق مخفياً وراءه نحتاً لجنود بالخوذات ونساء يبكين. وضع حزمة من زهرة سيف الغراب والورود، المغلفة بالسيلوفان، على النصب ورفع يده المتدثرة بقفاز قطني، إلى قبعته العسكرية الملتوية قليلاً وكأنه يتقي بها الشمس التي تتوسط السماء. قدمت الثلة التحية العسكرية، ليسود بعد ذلك الصمت شيئاً فشيئاً وتخفض

(1) يقصد هنا التعذيب الذي مارسه بحق أهل القصبة من الجزائريين لأن القصبة أي البلد القديمة في مدينة الجزائر كان يسكنها الجزائريون ولا سيما الفقراء منهم. اما بالنسبة إلى التعذيب فاستعمل الكاتب مصطلح «Gégène» وهو من المصطلحات العسكرية الفرنسية والتي تستقي مصدرها من كلمة generatrice أي توليدي أو مولد كهربائي، ويقصد هنا الأسلاك الكهربائية التي كانت توصل بكافة أطراف الجسد في عمليات التعذيب التي نفذت بأوامر ماسو وإشرافه.

(2) صف ينتظم فيه الواحد خلف الآخر.

(3) الجنرال إدموند جوهو Edmond Jouhaud هو جنرال فرنسي (1905 - 1995) ولد في الجزائر، وحقق نجاحات كبيرة في الطيران الحربي، وكان أحد الجنرالات الأربعة الذين شاركوا في انقلاب 1961 الذي طالب بعودة ديغول إلى السلطة. وحكم بالإعدام في العام نفسه ثم تم العفو عنه في العام 1968. تنقل بين الكثير من المهمات العسكرية الجوية في تونس وأفريقيا والشرق الاقصى، ثم عين في العام 1957 قائد المنطقة الجوية الخامسة في الجزائر وأصبح معاوناً منسقاً لدى الجنرال سالان الذي كان يشغل حينها منصب القائد الأعلى المنسق للقوات الفرنسية في الجزائر.

الأعلام في تحية للأموات مع قرع متواصل للطبول يدوم ويدوم... إلى يسار سالان، ماسو في بزة مرقطة، وحذاء عسكري عال وحزام جلدي، مرافقاً تمتمة النشيد الوطني الفرنسي. وخلفه رجل ضخم فتح فمه بنشوة كالضفادع مثبتاً نظره على المصورين الفوتوغرافيين ومصوري التلفزيون وامرأة تضحك بملء فمها، ها هي الجزائر، هل تسمعون! في قرانا أولئك هؤلاء العسكريون الشرسون يزأرون؟ كلمات النصر هذه أوليست مستوحاة مما يحصل هنا؟

إلى سلاحكم أيها المواطنون...

اندفع شباب باتجاه الحشد أمام مبنى الحاكم العام واصطدموا بجنود سرايا الأمن الجمهورية.

شكلوا كتائبكم...

ابتعد الجنرال سالان تتبعه قبعة جوهو ورأس ماسو الذي تيبس من إلقاء التحيات. «الحاكم، الحاكم!...» ماسو المرعب، ماسو البطل صعد سيارة البيجو 203 بلونها الرملي والتي اشتراها من السويس.

«تابع ذلك السيد المحافظ»، قال سالان لشخص لم يتنبه له أحد. «أبقني في جو ما...».

وإذا بقنابل مسيلة للدموع أخمد الهواء دخانها اللاذع، وأناس يبكون في الشمس التي أضيفت إلى قسوة الدخان الذي اختلط برائحة المفرقعات النارية، وأمهات يحتضنّ أولادهن، يا إلهي أليس كل ذلك خطيراً؟ أليس من الأفضل العودة إلى المنزل؟ من أين؟ كل المنافذ مسدودة. كيف يمكن للحكومة الفرنسية المستعدة لعقد التسويات في كل شيء، أن ترد على تظاهرة سلمية قوامها الرايات والأناشيد بالسلاح، مسقطة الكثير من

الجرحى. في بون[1]، أمر سالان الجنرال المسؤول عن منطقة شرق القسنطينة بتنظيم احتفال يجري خلاله وضع الميدالية العسكرية وميدالية الصليب مع السعفة على ثلاث وسائد من المخمل ليحملها رفاق الضحايا، على أن يحتشد الناس، في الساعة نفسها، في كل أنحاء الجزائر...

هل تسمي ذلك حشداً، سيدي الجنرال؟ يتدافعون من كل الاتجاهات ويهرعون إلى رصيف محطة القطار، حيث وتفادياً للتصادم مع هؤلاء المسعورين، تراجع عناصر مكافحة الشغب إلى ما وراء أسيجة الحاكم العام... والرايات ترفرف فوق الرؤوس.

– أين يذهبون؟ سأل أحدهم.

– ليفرضوا الحاكم بأنفسهم.

استدار ماريني عائداً، تاركاً هذا السجال الداخلي الذي بلغ حائطاً مسدوداً. يا للخسارة.

2

في المطبخ يجد الطبيب إميلي تبكي. سالان يتوجه إلى مقر الحاكم العام. وفي مناخ فتنة، يحاول أن يلقي خطبة في الجمع الذي يشتمه مطالباً بماسو

«اين أنت أميلي؟».

لا جواب. هل ذهبت إلى البقّال أم الفرّان؟ ولكن كل دكاكين الحيّ مقفلة. كما أنها لن تخرج وسط هذا الهرج والمرج، مهما بلغت درجة

(1) Bône هي التسمية الفرنسية لمدينة عنابة الجزائرية.

تأييدها للمتظاهرين. نظرة سريعة أخرى على الشرفة. حمام يطير في السماء ويدور. المزيد من القنابل مسيلة للدموع أطلقها عناصر مكافحة الشغب، تصعد متلوية خلف مقر الحاكم العام الذي يشبه علبة الشوكولا، وتحاذي شوارع مجاورة وتنهمر فوقها.

«تعالي انظري، أميلي!..».

أين هي؟ إميلي أنت تعلمين أني أعاني في المشي وأنت تجبرينني على البحث عنك، لحسن الحظ أن الشقة ليست كبيرة، إنها مجرد شقة صغيرة من غرفة واحدة ومنافعها... ماذا تفعلين هنا جالسة ورأسك على طاولة المطبخ مثل خادمة جزائرية، بمَ تفكرين؟ ألم تسمعي هذه الضوضاء؟ وماذا لو أصابني مكروه، وماذا لو كنت أطلب مساعدتك؟

ناسياً فجأة الألم الذي ينخر رئتيه ارتمى على ركبتيه. هل ظن يوماً أن إميلي قادرة على جعله يركع أمامها؟ بلا شك تملك إميلي روحاً، ولكنها روح قد تبدو قليلة الحساسية تجاه الصراعات الداخلية؛ روح قوية قادرة على مقاومة كل شيء. ما يحبه لديها: توازن مزاجها، صلابتها، عدم تطرفها، نظرتها العقلانية للحقائق. وتحديداً لأنه هو، جان بيار باري، يشبه قليلاً أمه آنجل، لديه ميل للحلم في حين أن دانيال يشبه والده، في تعلقه بالأشياء الحقيقية وبقيمتها المادية وما تتطلبه من كدّ. إميلي هي أيضاً مثل دانيال إلا أنها أقلّ فظاظة. فعائلتها روندا تملك أرضاً وجيوشاً من العمال ومشرفين يتقاضون أجوراً كالموظفين، مخازن للنبيذ أشبه بالمعامل، ومقابر من الرخام. إنها ابنة سهل حقيقية، إميلي هي أشبه بكارمن هادئة، كئيبة بعض الشيء، محترمة، نتعلق بها، هذه هي أميلي.

ودموع أيضاً، يا إلهي... نحن نعلم أنهن يبكين أحياناً بسبب أمر

سخيف، كلمة أو حركة، لأنهن يكن في فترة عادتهن الشهرية التي يبدو لهن العالم خلالها باهتاً، يمكن أن تفلت دمعة من أكثر النساء قوة، أما هذا النهر من الدموع! عينان ووجنتان غارقتان في الدمع، وجه منكوب، كآبة أضفت على وجهها فجأة جمالاً وحشياً نقياً؟

«حسناً، حسناً...».

أمسك وجهها بين يديه ورفعه. فهو لم ينظر إليها يوماً كما ينبغي، أميلي. لم ير يوماً هذا الوجه الذي أعاد الحزن تشكيله، هذه الكآبة. أطبق شفتيه على هذه البحيرة من الأحزان وأسند جبهته على ركبتيها، رفع فستانها الكتاني الأبيض واشتم فخذيها الناعمين الرطبين، نذل حقيقي. بدأ الهاتف يرنّ فأمسك بها، انسي، قد تكون أمي تريد أن تطمئن عليّ أو الممرض أو أحد المرضى، لا أهمية لذلك كله، إني خارج الخدمة، فأنا شخص كاد يفقد حياته. ألم تتصل ليون؟ ألم تأتِ لتتفقده في المستشفى؟ أوهام، هذيان. إلا إذا كان وحيد القرن ديمون قد جهز مركباً لينزه به الجميلة فوكر ويريها الجزائر في فورة غضبها... دعي الهاتف يرن، سيتوقف في النهاية. اسمعي أميلي، اسمعي يا ملكتي، ألا تسمعيني؟ إنها الثورة. ألا يهمك؟ كلمات كهذه بالنسبة لك...

وفي الأسفل...

في الأسفل، وكأن حصل بالصدفة، تماماً قبالة مقر الحاكم العام، أمسك أحدهم مقود شاحنة دودج كبيرة تركها المظليون، وشغّل المحرك ودفع بالمركبة باتجاه الأسيجة. في المرة الأولى انبعجت وفي المرة الثانية وقعت. لم تتجرأ قوات مكافحة الشغب على الضرب ولم يكن لديها

أوامر بإطلاق النار، وكأنها غير موجودة. سيارة سوداء اندفعت وكسرت الأبواب الزجاجية، فاندفع إلى الداخل شباب وأطفال ورجال. عقيد في الجيش، لا شك في أنه يمثل مؤسسة الجيش أو ديوان الوزير الذي رحل إلى باريس، أخذ يصرخ: «أنتم مجانين!». أما العقداء الآخرون ففقدوا الوعي. انفجر صراخ، فمن خلف الحركيين الذين لم يبدوا فخورين جداً بأنفسهم على الرغم من رشاشاتهم، تسلل لاغايار إلى تحت الشرفة واختفى ثم ظهر ثانية فوق أفريز ونادى الجمع ملوحاً بيديه. وفي أعلى السطح، كان أحدهم يلوح براية. تدفق الحشد إلى الرصيف زاعقاً مكسراً الواجهات برمي الحصى. ومن النوافذ جعلوا يرمون الملفات التي تبعثرت في الهواء، وأطلت رؤوس من فوق الشرفة الخاصة للحاكم. أين هو سالان؟

سالان، القائد الأعلى المنسق الذي عمل في جهاز المخابرات طيلة حياته تقريباً ويعرف من خلال معلوماته أنهم يريدون السيطرة على مقر الحاكم العام. وعنوةً عاد إلى مقر المنطقة الخامسة من حيث تلقى للتو تحذيراً.

السلطة المدنية ما زالت بيد السيد لاكوست الوزير المستقيل والنائب الاشتراكي، الجالس في هذه اللحظة في الجمعية العامة يستمع لبيانات الأحزاب حول سياسة رئيس الحكومة الجديد. كلمه مدير ديوانه عبر الخط المباشر مع باريس وتوسل إليه أن يعود. رفض. ما عادوا إذن يعرفون في باريس ما الذي يجري في الجزائر سوى من مركز القائد العام. من يريدون أن يوهموا أن باريس ستعلم قبل سالان أن قصر الحكومة مطوق؟ اتصال آخر أعلم سالان بأن الوضع في مبنى الحاكم العام يتحول أكثر فأكثر إلى «غير مريح». إنها مسألة دم بارد. أليس هناك عدة سرايا من قوات مكافحة

الشغب؟ ألم يرسلوا بشكل عاجل فوجين من المظليين؟

«سجّل التوقيت»، قال سالان لمساعده الخاص. السادسة وخمس وثلاثون دقيقة مساء. ولمعرفة المزيد من التفاصيل، هل يسأل سالان عبر جهاز اللاسلكي مسؤول شعبة المظليين العاشرة أو القائد العام لقطاع مدينة الجزائر – السهل، أو مسؤول سرايا مكافحة الشغب أو قادة أفواج المظليين؟ هل طلب أحد أوامره هو القائد الأعلى المنسق، إزاء هذا الوضع المتدهور؟ بعد خمس عشرة دقيقة، عند السادسة وخمسين دقيقة مساء تمتم صوت قلق أنهم اجتازوا الحواجز المشبكة. في قاعة الجمعية العامة، عندما يهمس أحدهم في أذن رئيس مجلس الوزراء أو أحد الوزراء بأخبار كهذه، فإنها لا تسبب سوى فقاقيع صغيرة في الجو الثقيل. ستكون هناك عما قريب فترة استراحة. أما التصويت على التنصيب[1] فسيتم في وقت لاحق من المساء.

صعد سالان إلى سطح مركزه. من هنا، وليس أبعد حتى من مئتي متر، يمكنه أن يرى الجهة الخلفية لمبنى الحكومة العامة مضاءً بالشمس الآخذة في الغياب خلف بوزريعة. ثلاث كتل إسمنتية ترمى منها أوراق وأشياء ثقيلة تتحطم على السقوف والقباب. يستحيل عدم التدخل. ألن يطلبوا النجدة؟ ألن يلام لاحقاً على عدم التحرّك؟ دون حماسة، قرر أن ينزل إلى الساحة. ولذلك من غير المفيد أن يسلك الشارع. من المركز المحصّن، الذي يحوي مقسم الهاتف، ممر يمتدّ تحت الأرض إلى أقبية مبنى الحاكم

(1) هنا يقصد تنصيب بيار بفليملن وكما سبق وأشرنا في هامش سابق، عند الثانية والنصف بعد منتصف الليل في باريس، في ليلة الانقلاب، ليستقيل بعد أسبوع مخلياً المكان (رئاسة مجلس الوزراء) لديغول تحت ضغط خطر وقوع حرب أهلية.

العام ولكن ضابطاً من فريق شابان[1] تسلل أساساً من هنا وأزلج خلفه الباب المدرّع. يلزم عشر دقائق لتأمين مفتاح آخر. مع مرافقيه وزوجته التي كانت تتقدم وهي تعرج، دخل سالان أخيراً الرواق الطويل الشاحب الإضاءة، ليصل إلى أقبية مبنى الحاكم العام وأخيراً يتدافعه حشد من الناس غير المعروفين الذين يدورون حول أنفسهم، في الطابق الأول حتى مكتب الوزير حيث جلس مسؤول ديوان الوزير مروعاً على كرسيه. كان السكرتير العام مقرفصاً تحت الطاولة لحماية الآلة، يرسل تقاريره إلى باريس. «سجل التوقيت» قال سالان لمرافقيه. إنها السابعة وثلاثون دقيقة. نور النهار بدأ بالانحسار.

أين هو مسؤول القيادة العامة؟ أين هو غريبه؟ أين هو المحافظ؟ في بيوتهم أو مكاتبهم أو في الغوغاء؟ سالان لم يستدعِ أحداً. أحد المحرضين على التظاهرة هو مدني عبر عن قلقه: بدأ الوضع يفلت من أيدي المنظمين. يجب التحرك. فتح باب الشرفة وإذا بالهدير يتحول إلى جنون، إعصار، كيف يمكن أن يسمعوا بعضهم بعض في هذه الضوضاء؟ آه لو رأوا بزة الجنرال القائد الأعلى المنسق ووجهه... وجهه...

لفحت وجه سالان ريح الفتنة الحارة، وصرخاتها المدوية: «الجزا-ئر... فرن - سية، ال - جزا - ئر...». هستيريا جماعية، جائحة، هزة أرضية. لو كان لدى الطبيب باري منظاراً مكبراً لكان أرى ملكته إميلي التي عاد إليها الأمل، لأنه طيب، وعيناه زرقاوان تسبح فيهما - كما الحال

(1) جاك شابان دلما Jacques Chaban-Delmas (1915—2000) رئيس مجلس النواب لثلاث دورات ورئيس مجلس وزراء من 1969 إلى 1972. ووزير الدفاع في حكومة غايار (أي لحظة الانقلاب في العام 1958) وهو من أنشأ مركز تعليم وسائل الحرب المدمرة بما فيها أساليب التعذيب والتي أوكل رئاستها إلى مارسيل بيجار.

مع آل باري – أحلامه، وهو اليوم بطل نجا بأعجوبة، طبيب كاد يقدم حياته لمرضاه... لكان أراها الناس المحتشدين على شرفة مبنى الحاكم العام ولكانت رأت إميلي الجنرال سالان يلوح بذراعه. وفي الصراخ الذي يرتفع بشكل أعلى، لكانت رأت حركة شفتي الجنرال الذي لم يكن زعيماً شعبياً ولكنه يصرخ دون مكبر للصوت في هذا الجمع: «انا هنا مع الجيش من أجل حمايتكم...». ولكن لا أحد يسمعه. لكانت ميزت ظله يترنح تحت الشتائم: «حقير مُباع، ديان بيان فو، فاسد..». لماذا أرادوا أساساً قتله بضربة بازوكا؟ تراجع تحت وابل من الشتائم والسخرية شاحباً ويكاد ينفجر بالبكاء. لو تجرأ أولئك المتوحشون لكانوا رجموه. سقط اسمه ليصعد اسم آخر وينتشر على امتداد الساحة ويجعل الحشد يهذي، هو الاسم نفسه الذي كان يتردد عند نصب الموتى: «ما – سو، ما – سو». ماسو الذي منعته الأحداث من الذهاب إلى العشاء لدى حاكم مصرف الجزائر في الأبيار، نزل من السيارة ولم يكن يعرف إن كان عليه الاستمتاع بهذا التأليه أو الخوف منه. امتدت الأذرع نحوه، وكادوا يقبلون معصمه حيث تلمع السلسة الفضية. بفمه الساخر وجبهته المتغضنة ونظرته الشريرة: «ما نزل الدعارة هذا؟» تمتم. رجل النظام هذا لا يحتمل الفوضى. في فناء المبنى، تخبط بين كتل الأوراق وتجاوز آلات كاتبة محطمة، وفي الداخل تحاشى حطام الزجاج والأبواب المخلعة وقشارات برتقال وفراغات القناني. وفي الزوايا المعتمة رأى فتيات وفتية يتغازلون. يدخنون ويشربون ويأكلون، في حين انشغل رجال الإطفائية بإخماد بداية حريق.

برأس محنية دخل في الغوغاء. دلبيك الذي لا يعرفه همس له بأنه يجب تشكيل لجنة السلامة العامة، آخرون يرددون له أنه الوحيد الموثوق به

والقادر على قيادة الآخرين. ها هو في العاصفة. اشتاق لزوجته التي كانت تنتظره في هذا العشاء عندما رأى السيدة سالان. دائماً هنا هذه النعجة. رئيس مجلس الوزراء السابق الذي ما زال يسير لغاية الآن الأعمال العاجلة هو نفسه الذي أعلن لسالان للتو تفويضاً بالسلطات المدنية، ليتلقى بعد ذلك مباشرة اتصالاً من باريس من الجنرال ألي. «إنهم مجموعة سفلة وقطاع طرق»، قال سالان. «هل علي أن أطلق النار؟ أنتم تعلمون أن هناك نساء وأطفالاً...». «لا، إلا هذا»، أجابه ألي، «لا نريد قتلى فرنسيين الآن». أقفل سالان الخط وعندها طلب منه ماسو موافقته. لماذا؟

متجمداً في مقعده ويداه على المسندين، ساكناً، أخذ سالان ينظر بطريقة مبهمة إلى ماسو الذي قال له إن لجنة للسلامة العامة يمكنها درء الفتنة. فمخلص الجزائر يصبح مرة أخرى هو ماسو. هل ينظر ماسو لنفسه في المرآة معجباً وهو يحلق ذقنه؟ هل يجد في نفسه هذا المنقذ؟ كان هناك آخرون غيره، كافينياك، بولونجيه نعلم كيف انتهيا. ولكن من غيره إذن؟ لجنة سلامة عامة يقودها ماسو، لِمَ لا؟ فالأحداث تدحرجكم على جماجمكم دون إنذار، تحطمكم أو تحملكم إلى القمة.

انقلب النهار وأضيئت المصابيح. عليهما أن يقررا بالمضي قدماً. في ماذا؟

3

غراس[1]، الذي استُدعي من جبال الأوراس يلتقي ماريني مطوقاً بهكتور. الحشد في مواجهة المظليين.

(1) غراس هو الكولونيل غراس في الرواية المسؤول في سلاح المظليين والذي يرأس النقيب غربيه.

توكّأ غراس على حاجز الشرفة ولوى ساقه اليمنى لكي يريحها وأخفض قليلاً القبعة فوق عينيه.

أضيء وجهه الحجري ببهجة لم يحاول إخفاءها. عندما استدعي فوجه أخطأ في إظهار انزعاجه. الطائرات المروحية بدأت تهدر فوق القمم وذهبت لتحط فوق الهضبة كخنفساء ثقيلة متهاوية. ولم يتسنّ للجنود حتى الوقت لإحضار الحقائب ومستلزمات التخييم والتي نقلتها لاحقاً الشاحنات. أما كان بالإمكان انتظارهم حتى ينهوا تمشيط الأوراس؟ إلى الجزائر العاصمة بسرعة. الجزائر هذه بدأت تسبب له مشاعر بالضيق. شائعات متنقلة: بدأ الانقلاب الكبير، فهل سيمكنهم اجتياز البحر المتوسط على متن مجموعة من الطائرات في حال الطوارئ. هذا كان أفضل. لا بأس بتكسير بعض الرؤوس، كلم غراس نفسه.

«انظر، أهو ماريني؟ دائماً هنا عندما يتلبد الجو، أنت...».

صحيح، إنه المراسل الحربي القديم. الشجاع. الذي لا يملك شيئاً ضده. ماريني هو هانوي وفندق العاصمة وسايغون والكونتيننتال والكؤوس الطافحة بالويسكي، إنما أيضاً الأدغال، وحقول الأرز والحصارات، وتتويجاً لذلك كله ديان بيان فو حيث مرّ مع أجهزته وميكروفونه.

«... لقد وصلت في الوقت الخطأ يا عزيزي».

لوح ماريني للحشد. كان عليه أن يرفع صوته كي يُسمع.

«تماماً في قلب التاريخ، سيدي الكولونيل».

أمام الواجهة الأساسية لمبنى الحاكم العام، جمع غاضب ولكن من الشرفة حيث وقف غراس مع كتيبة كاملة بالقرب من أجهزة إرساله، يبدو

أن عند أسفل أشجار نخيل الزينة حيث تعشعش عصافير الدوري التي أزعجها الضجيج، ليس هناك سوى القليل من الناس، إنهم بالأحرى مجموعة من الفضوليين، فتيات ومتسكعون مستعدون للانسحاب. على أية حال فقد هدأ الوضع، وتراجعت الحمى والليل سيعيد هؤلاء إلى بيوتهم، في الوقت الذي ما زال فيه راديو الجزائر يبث دون توقف نشيد الأفارقة، لترفع بعدها اللهجة معلنة الوصول الوشيك لسوستِل ودوبريه مع دعوة للتجمع أمام الميدان. «الفرون»[1] كما يقولون هنا.

التاريخ، هو كما ترسمه أنت!

إذا كنت قد فهمت الوضع جيداً، قال ماريني، فقد أوشكنا على الفتنة.

بدا غراس مستاء، لكنه في الوقت نفسه كان ينصت. هذا الهيجان أمام شرفة مقر الحاكم العام، هذا العواء المتوحش الذي يطالب بماسو.

ألن تتدخلوا؟ قال هكتور.

يجب أن يطلبوا منا ذلك. نحن هنا، هذا كل شيء. لا تستّجل يا ماريني وإلا رميت جهازك هذا في البحر.

ما هي حربكم هنا بالضبط؟ قال هكتور.

صياح هائل منع غراس من الإجابة. أمواج بشرية جديدة تسللت إلى الباحة، وأغرقت الحشود المتعبة، فتدحرج الجمع باتجاه المساحة الفارغة حيث وبشكل مفاجئ سد المظليون الساكنون الساخرون وبشكل مباغت الطريق. تراجع الرجال مذهولين.

(1) Foroun وهي تحريف لكلمة forum الفرنسية التي تعني الساحة، وذلك في إشارة إلى اللكنة الخاصة للفرنسيين في الجزائر.

«يا لبيت الدعارة هذا»، قال غراس. «حربي أنا؟ سأتركك للحظة. اذهب واسأل النقيب دو رواي عن ذلك إنه هناك. لابدّ من أنه قادر على الشرح أفضل مني. إنه رجل مهذب، أنت تعتقد...».

نهض ماسو. من قال إن لجنة السلامة العامة لم تراهن كثيراً؟ هذا الرجل هناك أو ذاك الآخر ببزته المرقطة والمسدس عند الفخذ؟ يا لهذه اللجنة الغارقة في الفوضى حيث الجميع يريد أن يقود! تقدم ملاقياً غراس الذي ظهر.

– أكنت على علم بما يجري؟ بالنسبة إلي، ليس لدى العسكريين ما يفعلونه هنا.

– وعلى الرغم من ذلك سيكون وجودهم أفضل، قال أحدهم.

– من تكون أنت؟ سأله.

أشار هذا الآخر باتجاه الضجة.

«انظروا».

أدار له ماسو ظهره وأحاط بذراعه كتف غراس.

«هلاّ كنت لتقترح اسمك للجنة السلامة العامة؟».

«ها نحن»، كلم غراس نفسه «في قلب المؤامرة. مع ماسو بالطبع، المستعد دائماً للذهاب بعيداً وليحل مكان أحدٍ آخر مدعياً التردد، هذا المخادع. هو سيد الجزائر الكبير لم يعرف بسيطرة الحشد على مبنى الحاكم العام إلا بعد حصول ذلك. بالنسبة إليه هو العالم دقيقة بدقيقة بما يجري في الجزائر العاصمة، حصل كل ذلك دون علمه. تتآكله الحماسة، لمَ لا؟ فقد

أنقذ الجزائر مرة، فلم لا ينقذها مرة ثانية؟ فبورروس[1] يتساءل إن لم يكن بإمكانه أن يغدو إمبراطوراً».

«اسمي أنا؟ بكل سرور».

بالنسبة إلى ماسو ربما تكون قد دقت الساعة. لحظة رعبٍ أمام الخلاء. وإن لم تفتح المظلة؟ لا يجب التفكير بالأمر. لا يجب إظهار أي شيء مما يقضم الأحشاء قلقاً. إنه قائد هذا القدر وأداته. والضحايا؟ لابد من وقوع بعضهم. واحد، اثنان، ثلاثة... يجب أن يرمي نفسه وأن يكون أول من يغوص في الأرض الجرداء الحمراء، ويترك نفسه لصفعات الهواء القوية، ويرى ظل الطائرة التي جرها الهواء إلى الأعلى ويظن نفسه ضائعاً بين السماء والأرض إلى درجة أن تسحبه قبضة رهيبة إلى الخلف، ودون أن يتسنى له الوقت حتى لمناجاة ربه. لماذا إذن لا يعصم بالفرس من شعره الكثيف؟ لماذا لا يقفز على ظهره؟ لماذا لا يلبي الدعوة لهذا الغضب، والتعبير عن مشاعر الجيش؟ لا مزيد من التنازل ولا مزيد من الضعف ولا مزيد من المساومات. الثورة.

«هل تسمح لي سيدي الجنرال؟».

في الجلبة، بنظرة شاردة، رفع الجنرال سالان بالكاد يده. ماذا يعني ذلك؟ هذه الحركة الكهنوتية؟

دلبيك، لاغايارد وآخرون يخربشون أسماء على ورقة دافعين صحن السجائر الذي فاض بالأعقاب. في أعلى القائمة، اسمه: ماسو. عليه أن يسيطر على ذلك ويوقف هذه الفوضى ويتخلص من حكومات

(1) بورروس هو قائد الجيش لدى الإمبراطور الروماني نيرون.

الاستقالات هذه[1] ويفرض الأمن الوطني. ربما هذا يسمى جرأة. إلامَ يؤدي ذلك؟ هل يجب حساب المخاطر؟ لا يجب الاستسلام للدوار. يجب إيقاف هذه الزوبعة الداخلية. لحظة من التاريخ يجب التعلق بها أو سيقال عنه: ماسو، إنه الرجل الذي كان قادراً على كل شيء ولم يجرؤ...

4

النقيب دو رواي يرى رئيسة بين الحشد. نشيد الأفارقة. وفجأة يسود الصمت. «أنا، الجنرال ماسو...».

عندما رأى النقيب رئيسة بين الحشد، غمرته حرارة مباغتة مع ذكرى النعناع، سعادة تدفعه إلى التساؤل إن لم يكن عليه أن يشعر معها بالخزي. «لا تتحركوا. أتركوها تقترب». وإن تظاهرت بأنها لم تره؟ وإن ابتعدت؟ انتظرت أن ينظر إليها، بخطوات صغيرة، ومن دون تعجل، كأنها تمشي في طابور، كانت تتقدم أمام المظليين، كما حيوانات السيرك. أسفت لانشغال فكرها إلى هذه الدرجة ودون كراهية بعدوٍ كانت لترغب في تمزيقه إرباً. لو تخيل نفسه يأتي إليها عن طيب خاطر... فالمرأة لا يمكنها أن تخذل أبداً. إضافة إلى الوسام على صدره والمسدسه والخنجر على خصره، فقد كان النقيب دو رواي رجلاً عاشقاً. أما هي... «انتبهي يا فتاتي، انتبهي...» لطالما نبهتها أمها. لا يجب التعلق برجل هو على هذه الدرجة... على هذه درجة مم؟ مع كل ما يمثله من عقبات بكل ما يحمله من شكوك ومستقبل محتوم. هل سيسامحونها على هذه الخيانة حتى ولو

(1) تعاقب على فرنسا في تلك الفترة عدد من الحكومات التي كانت سريعاً ما تسقط او تتبدل، وذلك وفي المقام الأول تحت ضغط القضية الجزائرية.

كانت لاواعية؟ «ها، أنت يا صغيرتي، لمن تسلمين نفسك؟» سيسألها قياديو ثورتها. على أية حال، ألم يكن للنقيب شكوكه أيضاً؟

«هل تستمتع جيداً بذلك أيها السيد؟».

سخريتها نفسها. ماذا تريد، هذه المرأة الصعبة المراس التي يجري ترويضها؟ بينهما هوة، عوائق وتحصينات وحواجز، وبإمكان كل شيء أن ينقلب إلى كارثة.

ظهر ماريني ماداً يده للمصافحة يرافقه هكتور.

«داخل معمعة جديدة، سيدي النقيب؟ هل أزعجك...».

ردّ بحركة نفي.

– الآنسة جزائرية، تقريباً.

– كيف تقريباً؟ قالت وهي تعيد شعرها إلى وراء كتفيها. أليس اسم عائلتي بن عامر؟

بدأ قلب هكتور يخفق. أيعقل هذا؟ عشقه لمارغريت لم يؤدِ سوى إلى ذلك اللقاء في ليل غريبٍ كهذا؟ لقد سبق ورآهما هي والنقيب. وماذا يملك ليفعل هو؟ إن كان كل شيء تغير فلمَ لا تنجب الحرب أقداراً جديدة؟ يهيء له أن شيئاً ما جديداً نبت من أرض آلامه، لا يعرف أي قدس مقدسة، وكأن كل شيء قد جرى أفضل مما رغب. فلو أنجبت منه مارغريت بناتاً، لما كان لهن هذه الرموش السود الطويلة وهذا الشعر الكثيف ولا هذا الوجه بالخدين الناتئين قليلاً: عينا الأب ووجهه وفم الأم.

نظرت إلى هذا الشخص المجهول الذي يسألها عن نفسها في الوقت الذي علا صياح مد باتجاهه ماريني ميكروفونه وفجأة، ومن خلال الوصف الذي كانت قد قدمته لها أمها تعرفت إليه. شعره الناري تحول

إلى كومة من الرماد وفي عينيه طفا نوع من الرقة الساذجة قليلاً.

- هذه أنا، قالت له.

- حسن، هل يعني هذا الاسم حقاً حصاناً؟

فاجأها سؤاله.

«حسب، يجب لفظه ح صان، مع تفخيم للصوت. والكلمة لا تنطبق إلا على حصان مؤصّل أو رجل حسن».

لاحتواء الحشد أمسك المظليون بأيدي بعضهم بعضاً كما في عرس.

- سيدي النقيب، قال ماريني تخيل، نصحني غراس أن أسألك.. ستضحك. حربك، ما هي؟

- لقد سخر منك غراس. أي حرب؟ نحن نتبع الأوامر.

غناء الحشد الذي تجعله مكبرات الصوت صاخباً

نحن نأتي من المستوطنات

للدفا ع عن البلا- د

ولو أحدٌ ما...

ملأ الغناء الساحة ومصابيحها الخضر. رائحة شحم تعبق من الجادة والمرفأ والمدينة تحت النجوم.

خبزت إميلي عدداً من الفطائر وفتحت علبة لحم خنزير. وبسبب الضجيج أغلقت شرفة النافذة، فأمسى الطقس خانقاً.

للحظة فكرت بأن تنزل لتركن سيارتها خلف الجادة في شارع أستونيا، فالتأمين لا يغطي الأضرار الناجمة عن الاضطرابات. لكنها تأخرت كثيراً. منذ متى لم تزر جادة المارشال فوش؟ ثلاثة أسابيع على الأقل. كان يلزمه

هذا الاعتداء. فالطبيب ضعيف وكما يفعل الضعفاء فقد هرب منها. ولكن ماذا الآن؟ أليس لهذا السبب تحبه؟ فهو الآن مستغرق في نوم خفيف ويبدو كأنه يبتسم. لمن؟ عليها أن تجعله ينتقل إلى الجزائر وستجد له هناك عيادة.

أيقظه صوت الجرس الصغير. ذهبت لتجد الأم آنجل التي أخذت تعتذر. في وقتٍ كهذا. لم تتمكن من الاتصال به ولكن في الجزائر من يتصل كي يعلن عن وصوله؟ عانقت ابنها.

«ذهبنا بداية إلى المستشفى. هل تتألم؟».

ثم راحت تتأمل حولها الصندوق الجزائري والصينية النحاسية الكبيرة ولوحات البحر وجبل شينوا وعلى منضدة السرير الصحف والهاتف.

- ستتناولين شيئاً معنا، قالت إميلي وهي تضع المفرش. بلى، بلى، فأنت متعبة.

- يا لفكرتي الجنونية - أليس كذلك - بأن آتي إلى الجزائر؟ لم أشأ البقاء وحدي. كيف يمكن أن أشرح ذلك؟ دانيال ما عاد يأتي وإن أتى فلزيارة قصيرة جداً. كل شيء تغير وحتى العرب. حتى أولئك الذين أعرفهم جيداً، وحتى مفتاح.

بدت فجأة وديعة جداً ومكسورة.

«إني خائفة»، قالت.

ما زال الوقت نهاراً، مع الضوء... ولكن عند المساء، ما إن يرتفع صوت بنات آوى، حتى تدفعه أي خربشة إلى القفز في مكانه... بين ليلةٍ وضحاها أبيدت مزارع وذبح أصحابها.

- ماذا فعلنا لهم، قل لي؟

- لقد أعطيناهم الكثير.

أميلي محقة، لقد جعلناهم يبالغون في الظن بأن على فرنسا أن تقدم لهم كل شيء: التعليم والحياة الأفضل والحب. لقد أثملناهم ومن هنا فإن آنجل ومن جهتها تعتبر نفسها مسؤولة... كان يجب منحهم القليل... لحظة ضعف، لحظة إرباك وكل شيء ينقلب، قد يدفعون وجودهم كله ثمناً لخطأ في التقدير.

نظرت بحنوّ إلى ابنها. لأي سبب أرادوا قتله؟ أهي مخلفات العمليات الجراحية التي خضع لها؟ أم أن وجهه يحمل آثار عناق؟ وكأنه سارح في مكانٍ آخر، ولكن أين؟

«بسبب خوفي هذا، جزئياً، لحقت بدانيال»، تابعت الأم تقول، «كل هذا الحشد! كارمن قالت لي: أيتها الأم، اصرخي، أنت أيضاً...». أهذا هو ما أريده؟ الجزائر فرنسية، نعم وهل أردنا يوماً ما شيئا سوى هذا؟ كما أن هؤلاء البذيئين. لقد سمعت بينهم من يشتم فرنسا وآلمني ذلك. في النهاية فرنسا شيء كبير....».

من مبنى الحاكم العام، حملت مجموعة من المتظاهرين تمثالاً نصفياً للعذراء ووضعوه على الرصيف وغطوا الرأس بسلة مهملات.

«أين هو والدك؟»، سأل هكتور رئيسة.

ردت عليه بحركة غامضة.

«ما نعرفه أنه حي، هذا كل شيء. فهو»، مضت تقول مشيرةً إلى النقيب الذي ذهب ليضبط حاجز المظليين بمواجهة ضغط الحشود، «ليس حصاناً... إنه أسد. أسد هزيل...».

عاد بوجه متجهم وجبهة مشدودة.

– تتركون الجمهورية تنتهك، تابع هكتور بهدوء مشيراً إلى سلة المهملات فوق رأس التمثال الفضي.

– الجمهورية، أنت تعلم... لو أمروني بكنس كل ذلك، لكنست كل شيء. لم يقولوا لي شيئاً. لذا لم أتحرك.

بدا النقيب عدائياً متوعداً. دو رواي، هذا الاسم يقول شيئاً ما لهكتور بالإضافة إلى وقعه التاريخي. لقد سمع هذا الاسم في العائلة. أسطورة؟ ترتبط بمن؟

«إلى الشاطئ»، صرخ فجأة النقيب بصوت غاضب.

هكتور أيضاً تراجع.

وإذا بصوت مكبرات الصوت يتوقف فجأة ويسود الصمت.

ما زال هناك ضجيج بعيد يتخلله نقرٌ على الميكروفون. «أتعتقدون أنها الثورة؟»، قالت آنجل، «لقد روت لي حماتي أنه في عصر درومون، حصلت اضطرابات بسبب اليهود. كان ذلك منذ أكثر من نصف قرن. لقد خافت كثيراً هي بالتأكيد. لابدّ من أنه كان شبيهاً بما يحصل الآن. ولكن الآن بسبب ماذا؟ يقال إننا في طريقنا لفقدان كل شيء وإننا ما عدنا شيئاً...».

نفخ في مكبر الصوت ثم صيحة: «ستستمعون الآن إلى الجنرال... ماسو!».

زوبعة من التصفيق في الساحة، تردد صوتها عند الجادة ثم ارتد في الليل ثم سقط ثانية فوق الساحة المضاءة بالكثير من الأضواء التي كانت

تكشف حتى كثبان النمل. نهض الطبيب وخرج إلى الشرفة وتوكأ على الحافة بين إميلي وأمه. يا للأسف، لا يملك منظاراً مكبراً. كان بالإمكان التمعن في وجه ذلك الظل بالقبعة الحمراء المحاط بغراس بطاقيته وأعضاء من اللجنة التي تشكلت للتو: رجال حاسرو الرأس، بعضهم بالقبعات العسكرية وبعضهم الآخر بقبعات الشرطة، وعسكريون بقمصان البحرية، مدنيون بالسترات والقمصان طويلة الأكمام. إنه مارتل ربما، لحية لاغايار الصهباء، أنف تومازو الذي يبدو اصطناعياً، والمظهر الجانبي المروس لديلبك؟

وفجأة وباللكنة المبتذلة قليلاً والتي تحبها الجزائر في كل مرة تدخل فيها بحالة ذعر، انطلق الصوت الناري، الحاد والصخري، مدوياً: «أنا، الجنرال ماسو...».

وغرق الباقي في قعقعة ورعد متواصلين لم يسمع منها الحشد شيئاً. ما يهم ما يقوله ماسو؟ لقد حصل الانفجار وحماه الجيش. لقد أنقذت الجزائر. هبوا يصفقون من جديد صارخين منشدين، إنه هدير البحر الهائج الذي التقطه ميكروفون ماريني وكل مراسلي محطات الراديو، هدير وصل حتى باريس.

وفي أنحاء الغرب بدأت ترن التقارير الإخبارية.

الفصل الرابع
المقدّس

1

في سيارة هوتشكيس قديمة مكشوفة، في الرابع من يونيو الملك يحيي الحشد.[1]

وقف متمسكاً بدرابزين سيارة هوتشكيس قديمة مكشوفة، وسط جنون أبواق السيارات وهدير السفن، مستنشقاً الهواء المعدني. بيديه اللتين كان يتناوب على التلويح بهما، كان يصافح الجمع متمتماً كلمات لم يكن يسمعها أحد ما عدا السائق وبونيفال[2] الذي قدّم له كتفه كي يستند عليها.

«شكراً، شكراً فرنسا...».

في الصف الأول الكهنة باللحى والرجال بالأسلحة وخلف أعلام الفرقة الموسيقية ولواء المطافئ، كان الناس يتدافعون، مخترقين بأكواعهم الحواجز البشرية التي شكّلها الجنود. أناس من الفئات الشعبية، ومن الفئات الدنيا، وأولئك المتشدقون الذين كاد ديغول يصفهم بالذكاء لأنهم كانوا يصرخون: يعيش ديغول! ضمن صرخات أخرى متضاربة غطت عليها الأبواق والطبول.

حشدٌ كهذا، في حين أنه لم يمضِ وقت طويل على القحط الكامل مع

(1) الملك يقصد به هنا شارل ديغول.

(2) الكولونيل غاستون دو بونيفال هو المساعد الشخصي الذي كان ديغول يثق به.

بعض المريدين: بومبيدو[1] هذا الفاشل في الفلسفة الذي تحول إلى خبير مالي، وذلك الشمندر السكري غيشار[2] الذي لا تحبه إيفون، فوكار[3] (كوش هي شهرته الحقيقية)، وذاك القليل الفائدة سوستيل، وذلك الديك البري لشابان- دلما[4]، لويس فالون[5]. هل يمكن أن يكون أكيداً ممن يدعونه «الأب ديغول» ويأتون إلى شارع سولفيرينو كأنهم ذاهبون إلى المقبرة مع مزهرية من الأقحوان؟ دوبريه الذي لا ينفع معه سوى التهديد. لا يجب أن نترك أنفسنا نخدع بالتوسلات والعواطف. الأوفياء يجب أن يخنعوا، يجب كبحهم.

«شكراً فرنسا...».

بالنسبة إلى النقيب دو رواي، فإن ديغول، هذا الجنرال القديم النازل

(1) جورج بومبيدو Georges Pompidou (1919 – 1974) مدير عام سابق لمصرف روتشيلد. شغل منصب رئيس مجلس الوزراء لاكثر من ولاية في عهد ديغول، كما تولى رئاسة الجمهورية التاسعة عشرة من 1969 حتى وفاته.

(2) أوليفيه غيشار Olivier Guichard هو رجل سياسة كان السكرتير الاول لدى ديغول بين 1951 إلى 1958 خلال ما سمي بسنوات القحط في حياة ديغول. وإن ذكر هنا الشمندر السكري مع غيشار، فللإشارة إلى موجة تحويل الأراضي الزراعية التي كانت تسمى «حقول شمندر السكر» إلى مشاريع عقارية في تلك الفترة من نهاية الخمسينات في فرنسا.

(3) وهنا يقصد Jacques Koch-Foccart (1913 – 1997) وهو السكرتير العام للأليزيه للشؤون الإفريقية والمدغشقرية

(4) Jacques Chaban-Delmas (1915– 2000) وهو رجل سياسة فرنسي مهم وشغل منصب رئيس مجلس النواب لثلاث دورات، ورئيساً لمجلس الوزراء لمرة واحدة. سماه ديغول ممثلاً عسكرياً وطنياً وشارك في تحرير باريس عام 1944.

(5) Louis Vallon (1901– 1981) عضو في الحزب الاشتراكي وعضو مؤسس في «تجمع الشعب الفرنسي» التي أسسها ديغول وفي الاتحاد الديمقراطي للعمال، ثم في الاتحاد الديمقراطي للجمهورية الخامسة الذي أنشئ لدعم عودة ديغول للسلطة العام 1958.

من مركب كبير وكأنه آت من العصر الحجري، في الرابع من يونيو 1958، يوم أربعاء في الحادية عشرة والنصف، يمشي باعتزاز يتقدّمه كرشه، ماداً يده لسالان المكتسي بمظهر ورع حذر، ثم للآخرين، في صورة تشبه قليلاً صورته الرسمية: ديغول في بزته الرسمية يوم المؤتمر الصحفي في قصر أورساي، ديغول وهو يلوح بأصبعه متوعداً أمام الميكروفونات شاجباً السلطة المسحوقة، ديغول ذو النظرات المهددة، ديغول حاسر الرأس، والشعر الممهد الخفيف الأشيب، ديغول ذو الكلمات المتوعّدة والقبضة الحديدية، ديغول العائد إلى جحره في شمبانيا[1]، المحشور في ذيل سيارته «سيتروان» ذات الخمسة عشر حصاناً، ثم ديغول الجالس وحيداً على رأس الحكومة فاركاً حاجبه الكثّ، وهو يستمع إلى خطابات مندس وميتران.

صور المجلات والصحف لا تقدّم مسيرة الوحش الساخر، التبدلات الكثيرة في وجهه، التي تفضح الاهتزازات العميقة لروحه. البرنتصور الذي ظهر للتو، متخلياً عن أسلحته. فقد كان على خياط من شارع بوسكيه أن يخيط له وخلال يومين بزة تمسك جيداً بكتفيه وتفتح قليلاً عند الحزام. فبالنسبة إلى جنرال محاربٍ منذ اثني عشر عاماً، كان من الطبيعي أن يسبب له التقاعد كرشاً. هذه القبعة الكبيرة العالية جداً، هذه الجيوب المنتفخة، هذا الرأس الصغير على الجسم الضخم لحاكم يمكن وصفه بالمتسامح طالما لم نرَ بعد تلك النظرات وذاك التعالي، والحركات العصبية لليدين الطويلتين المرتجفتين الدقيقتين والبالغتي الأنوثة. قبالة الراية، يصبح البرنتصور سيفاً صليبياً مزروعاً في التراب، كائناً فضائياً في استراحة، آخر

(1) شمبانيا (champagne) وهي منطقة فرنسية.

العواصف والزواحف من حقبة الميزوزوي[1] الشارد بين الرجال الذين نصبوه للتو ملكاً. الإبهام مقحم في عروة الجيب، ضارباً بعرض الحائط اللياقات والسخافات والنميمة، «تسعدني رؤيتك» قال لماسو، صامتاً أمام سوستيل، مقدماً لجنة السلامة العامة، «آه هذا أنت لاغايار؟» لأن لاغايار قص لحيته، ثم أشاح عنه وكأنه يترنح في الضباب، متحسساً نظارتيه أو متظاهراً بالشرود عنه. أمير يأتي في نهاية كل شيء لأنه كان وحيداً وأراد أن يبقى وحيداً.

في اللحظة التي أراد فيها الصعود إلى سيارته، قدم له سالان النقيب. نظر إليه متفاجئاً - كرة خارج الهدف. من أين نبشوا هذا الضابط المساعد القصير؟ «جيد، إلى اللقاء بعد قليل...»، مع إشارة لبونيفال. نزل بعده دو رواي وجلس بجانب سائق، محظوظاً حتى أكثر من بعض وزراء لا يجدون مكاناً لهم سوى محشورين قرب رجال المباحث. «ها قد أصبحت واحداً من حاشية الملك»، قال له غراس صباح اليوم نفسه عندما علم أنه تم اختياره. «أنت وليس أي شخص آخر. لابد من أن تكون من سان سيري[2] ومظلياً أيضاً لو أمكن. ستحمل له الحليب إلى سريره في الصباح. إنه نصيبك يا عزيزي حنونّ. كزافييه - ماري، ترقيتك مضمونة في حين أني أنا، سترى، سأقع على ظهري...».

خمسة وسبعون دقيقة للوصول إلى مفترق شارع الآغا. تقدم الموكب في خضمّ هذيان النصر على الطريقة الأمريكية. فحتى من شرفات

(1) حقبة الميزوزوي أو الحقبة الوسطى أو حقبة الزواحف هي الحقبة التي ظهرت فيها الديناصورات والثدييات والتي تمتد من 251 مليون سنة قبل الميلاد حتى 65,5 مليون سنة قبل الميلاد.

(2) نسبة لسان سير Saint-Cyr وهي مدرسة حربية فرنسية.

موريتانيا[1] رموا قصاصات الورق.

شعر بأن الدم تجمّد في ساقيه، فتمشى قليلاً، وجعل يلمس أحياناً طرف قبعته كتحية حانياً رأسه لمجموعات من البرانس ثم، مجدداً، استراح جالساً في مواجهة العرض ككتلة صماء، نصب إمبراطور روماني أو صورة ضخمة منحوتة لماو في العروض الصينية، مجمداً في النصر الأبدي، مفجراً موجةً عاليةً من الذهول تحت الشمس التي تضرب الرايات الصغيرة وصلبان لورين[2] المزينة بالزهور، وأقواس النصر الصغيرة الهزيلة التي تكدست حولها كؤوس نبيذ أبيض سخنتها الشمس، لجان السلامة العامة في الأحياء، قدامى إيطاليا أو الرين والدانوب، أولاد المدارس والمناصرون والعسكريون بالبيريه الباسكية[3]. وأحياناً كان يصله في الضجيج رائحة يانسون أو مشاوي أو كلمات غريبة: «ها هو، إنه هو العجوز...»، تعليقات تتكهّن حول طوله بالسنتيمترات، شتائم للعرب. ترمى بكل سهولة «يا ابن العاهرة، أتريد أن تهتف، أنت؟...». يا لهذه اللغة. فرنسيو الجزائر لطالما كرهوا ديغول. أيعود الفضل في هذا التحول إلى ناشطي الثالث عشر من مايو، مع الطلبة بالسترات الجلدية الهاتفين بحماسة يعيش سوستيل، يعيش ماسو؟

(1) موريتانيا هو نفسه البلد الإفريقي، وقد تحدث عن شرفات موريتانيا للإشارة إلى ضخامة الاحتفالات وكثرة القصاصات الورقية التي رميت احتفالاً بديغول، والتي يمكن رؤيتها حتى من شرفات موريتانا، التي تحاذي الجزائر من حدودها الجنوبية الشرقية.

(2) صليب لورين هو صليب مزدوج.

(3) البيريه الباسكية Beret basque هي البيريه الخاصة بالجيش الفرنسي، والباسكية هنا ليست، عكس الاعتقاد الشائع، نسبة للباسك (شرق اسبانيا) وإنما للبيارن وهي مقاطعة فرنسية Bearn.

سالان يجلس إلى يساره. على أي رصيد يعتمد هذا الرجل ابن الدولة الذي نعلم إلامَ يطمح إليه؟ وسوستيل جالس خلفه ما كان ينقصه سوى هذا! أن يكون خلفه سوستيل! أن يحلم بعظمة مع الرؤساء القدامى لمجالس الوزراء في عهد الجمهورية الرابعة الذين استدعوا كرهائن وشهود على انتصار ديغول؛ الراديكاليون والاشتراكيون وأعضاء الحركة الجمهورية الشعبية[1]، الساسة الناجون من الإعدام، الجديون والهزليون، النزيهون والسفلة، الحاذقون والقميئون، المستبصرون والأغبياء، أولئك الذين يمشون باتجاه الشهرة لا القتال ويستميتون في الزحف، قائلو الحقيقة والمستعرضون، الكتبة والثرثارون، المدّاحون والشتّامون، المتفاخرون والجبناء، المتشدقون والمراوغون، دوقات الاحتيال وبارونات البؤس، جميع المتعلقون بأذياله، مع بعض الأوفياء الذين يعدون على أصابع اليد.

فلنرَ، فلنسمع، فلنتذوق. نعم، شكراً! الجزائر بالطبع فرنسية. في كل الأحوال، ما فعلته فرنسا هنا كان قوياً جداً ومؤثراً. شكراً، شكراً. عادته تلك بالابتسام بوجهه الملكي. في النهاية صاح أحدهم: تحيا فرنسا! فقد صدمه خلال كل فترة زيارته للجزائر العاصمة درجة تجاهل تاريخ الجزائر. فبالنسبة لمن يُسمون اليوم الأقدام السود، يتلخّص تاريخ الجزائر في بيجو وفرحات عباس وسوستيل. كم منهم يعرفون أن حملة 1830 التي أطلقها شارل الخامس، دون الحديث عن الدوافع، قادها وبشكل بارع السيد بورمون الذي لم يطلق اسمه ولو على جادة واحدة؟ وماذا عن ذلك القرصان دو كلوزيل[2] والضربة القوية التي تلقاها في القسنطينة،

(1) الحركة الجمهورية الشعبية المعروفة بـ M.R.P. أسسها جورج بيدو Georges Bidault في العام 1944، وكان يهدف بها استمالة المقاومين الديمقراطيين المسيحيين.

(2) برتران كلوزيل Bertrand Clauzel (1772 – 1842) الذي عين حاكماً عاماً للجزائر =

والذي كان بإمكانه أن يحكي عن الإنجازات العسكرية لسانت أرنو وبيليسيه وكافينياك ودوق روفيغو وبورباكي أو لامووريسيير، دوق أومال أو راندون؟ من يتذكر سياسة نابوليون الثالث، التي وإن ذكرها أحد ففي معرض السخرية منها؟ من يمكنه أن يناقش فضائل كامبون وجونار وفيوليت الذين لم يفعلوا سوى إعادة تطبيق خططهم؟ الآخرون معدومو القيمة وإن لم يكونوا كذلك فهم استغلاليون، رجال يصابون بضربة شمس ما إن يرفعوا قبعتهم أو تدور رؤوسهم ما إن يعتمروا قبعة ورق السنديان[1]. ثم العاصفة المتزامنة مع أسئلة المصير: احتفالات الذكرى المئوية للاحتلال والحركة المطلبية لمصالي الحاج[2]، الهدنة المخزية عام 1940[3]، إلغاء مرسوم كريميه[4] وثورة الشعب الجزائري. منذ متى كانت الجزائر ستغرق في الدم

= بعد احتلالها، والذي عرف بجرائمة البشعة في الجزائر كما عرف بخسارته لمعركة القسنطينة الشهيرة في 1836.

(1) المقصود هنا القبعات العسكرية التي تزين بنقوش بورق السنديان التي يضعها الضباط العامون.

(2) مصالي الحاج (1898 بتلمسان – 1974 بفرنسا) مؤسس حزب الشعب الجزائري، والملقب بـ «أبو الأمة». طالب منذ العام 1924 بالاستقلال التام للجزائر. جند في الحرب العالمية الأولى ثم استقر في فرنسا حيث أسس مع رفاقه سنة 1926 حزب «نجم شمال أفريقيا» ثم «حزب الشعب الجزائري» في 11 مارس1937. سجن مرات عديدة في فرنسا والجزائر كما نفي إلى برازافيل سنة 1945. أسس حركة الانتصار للحياة الديمقراطية في نوفمبر 1946. انسحب من الحياة السياسية بعد الاستقلال وانكب على كتابة مذكراته. مات بفرنسا في 3 يونيو 1974.

(3) يقصد بها الهدنة التي وقعت بين الفرنسيين والألمان والتي تم بموجبها خضوع الأراضي الفرنسية لسلطة فيشي الموالية للألمان.

(4) نسبة لإسحق كريميه وهو وزير العدل الفرنسي في 1870 من أصل يهودي. وعرف بقانون كريميه الذي منح الجنسية الفرنسية لليهود في الجزائر.

والنار، لو لم يطلق خطاب القسنطينة[1]؟ أما سطيف[2] فذكرى سيئة. فما إن يتعلق الأمر بالقمع، حتى يتقدم كثر ويكرسون أنفسهم لهذه المهمة بكل سرور. أيّ كوارث كلفها رحيل ديغول: ديان بيان فو، فرنسا الممزقة، انهيار هيبتها في العالم! وفي ساعات الإخفاق تلك أصبحت الجزائر القضية العظمى. ألم يشاؤوا أن تكون فرنسية قبل ذلك! وبما أنها بنيت بعرق الجميع ومهرت بدم الجميع! ألم يفت الأوان على ذلك، على الرغم من تآخيهم الذي لم يؤمن به مالرو[3] والذي أدار له سالان والآخرون آذاناً صماء؟ ديغول الذي أوصله إلى الحكم عشرة ملايين من الفرنسيين أو عشرة ملايين من العرب، عشرة ملايين من السكان الأصليين أو الدخلاء، ديغول أخيراً!...

عندما ضاع كل شيء، كان قدره، فاتوم[4] حظه، هو القوة الوحيدة التي يمتلكها ولكن التي لا يمكن مقاومتها. لولا تراكم النكبات، لما كان ديغول نهض يوماً من جديد. إذن... الجيش كان جائعاً للنصر، والمسلمون

(1) خطاب القسنطينة هو خطاب ديغول الذي وعد فيه باعطاء الحقوق المدنية للجزائريين ومنها الجنسية.

(2) المقصود هنا انطلاق الثورة الجزائرية بعد عمليات القتل الواسعة بحق الجزائريين.

(3) الكاتب صاحب جائزة غونكور الأدبية الفرنسية جورج أندريه مالرو، الذي حارب الفاشية وعارض الحرب الفرنسية في الهند الصينية، كما حارب من أجل استقلال فرنسا، وشارك كذلك في الحرب الإسبانية. ولعب دوراً سياسياً ثقافياً كبيراً وتسلم أيضاً منصب وزير الإعلام من 1959 حتى 1969. أما بخصوص الجزائر فكان ضد التعذيب، لكنه لم يتخذ موقفاً واضحاً ضد احتلال الجزائر لا بل خاصم ابنته التي وقعت على بيان الـ 121 ويقصد هنا المائة وواحد وعشرون مثقفاً الذين وقعوا على بيان يساند حق الجزائريين بالنضال لاستقلال بلادهم العام 1960. لكن يشار ايضاً إلى مساندته القوية لإسرائيل وذلك بتأثير كبير أيضاً من زوجته الأولى التي كانت يهودية.

(4) Fatum كلمة ألمانية تعني الحظ.

للكرامة، والأقدام السود تطالب بمخلص.

توقفت السيارات أسفل البريد المركزي فتوجه بونيفال إلى باب السيارة.

توصية: لا تتركوا الجنرال خطوة واحدة، تخطوا بونيفال واخترقوا الحشد حيث كان يبحث النقيب عن وجه. لم تعد ذكرى النعناع ولكن ليل الثالث عشر من مايو.

بعد الخطبة الرسمية لماسو، والتي كانت في الميدان، هذه الهستيريا وهذا الهذيان المرتعش، سببا له نوبة غضب مفاجئة. ولكن ما يمكن فعله أمام إعصارٍ أو موجة عارمة كهذه؟ ذهب ماريني وكونيغ للبحث عن غراس الذي دفعته الفوضى للوصول إلى رئيسة.

عن الضحكة التي رمته بها عندما قرّب وجهه من وجهها قال لنفسه: «أين ضعت يا كزافييه - ماري؟ إنها تسخر منك، الجزائر قطة متوحشة تفوح منها رائحة صمغ جاوة». ثم إلامَ استجاب؟ أي دو رواي آخر يسكنه؟ لم تعد تقاوم بعد ذلك. الاثنان، في مخيلته هو، هربا إلى الغابة في الليل فقتلها بمسدسه، ومن روحه هو خرجت شبه صرخة دوت في عتمة الجزائر الرقيقة المليئة بالصواعق والبروق حيث ما زال يصدح صوت ماسو. أويظن غراس وماسو أن الناس هربوا من كل الجهات وأن المظليين يدربون الفتيات تحت الورديات[1] على الأرض الحارة، وأن المدينة تمارس الحب تحت القمر؟ مفرطة الحشمة متظاهرة بالعفة، تحولت المدينة إلى ماخور. ليس بالنسبة إليه بالطبع، وليس مع امرأة متوحشة كرئيسة. وليس

(1) Rhododendron أو الورية وهي نباتات مُزهره من فصيلة الخلنجيات.

أمام هذا الجدار من الرفض. إنها الهاوية.

وفجأة، اقتُلعت منه فأعاد جمع سريته المشتتة. ممتلئاً بها، دائخاً كأنما بعد قفزة. بأيّ أبدية ثمل؟ مهزوماً، مقتلعاً من كل شيء، مرر يده المضطربة على فمه. «أنت، أيها الساذج الصغير»، قال لنفسه، «بمَ تلعب؟ بالمشقات؟ تلعب دور مقبّل الجزائريات الذي لم يقبّل سوى الهواء؟ الساخر، البريء، دور رواي الباحث عن النعناع؟ دم الأوراس، صخور الأوراس، بؤس الأوراس وسرابها، هذا نعم... هيا فلنعد إلى الأرض. برنتصورنا يبدو وكأنه خارج من بئر، هو أيضاً. فلنتبع هذا الظهر الذي يحجب السماء، هذا الحصن، هذا الجدار، جزيرة القيامة هذه القائمة فوق رؤوسنا، التي تنظر إلينا من مرتفع شاهق وكأنها تريد اكتشاف إشارات...».

مشى بشكل مستقيم، ضخماً رافعاً رأسه. مد يده في البداية مصافحاً العمامات التي تفوح منها رائحة الأرض الجافة، العمامات التي أحاطت به وخنقته، تقلب من موجةٍ إلى أخرى حتى وصل إلى نصب الموتى الذي لم يفعل شيئاً سوى التفرج عليه، أثناء زيارته الجزائر في 1943.

أما اليوم، فقد وضع على النصب إكليلاً كبيراً من الورد والزنبق. النشيد الوطني الفرنسي يؤديه الكورس في قلب الدوامة التي تغرق فيها قبعته البيج. جميعهم يريدون ديغول؟ المظليون الجاهزون للقفز فوق باريس قدموا أسلحتهم لديغول أمام جنرالاتهم العاجزين؟ حسناً كان ديغول هنا، التفتَ نحو الحشد الهائل الذي تغص به شوارع المدينة وصولاً إلى المرفأ، إلى البحر الهائج تحت الشمس، وبأصابع مطوية على راحة اليد ما عدا الإبهام، جعل يلوح بذراعيه وكأنهما سيفان يقتلع بهما صرخات الحب

والايمان به. بغموض أسرار الربّ! لم يفقد في أي من فترات حياته، ولا حتى في أكثرها حلكة، يقينه بأنه سيعود لينقذ الوطن.

سوستيل المحشور إلى يساره الآن يبدو قصيراً جداً، «نو نوبي، دومين، نو نوبي[1]... ليس هذا نصري سيدي الجنرال، إنه نصرك، ولكن من دوني...».

«قل لي إذن يا بونيفال، لقد بدأوا يزعجونني بهتافهم هذا يعيش سوستيل...».

2

فطور وخبز محمص في المقر الصيفي. وسالان في مزاجٍ سيء

قدم السباهيون عرضاً بالسيوف أمام المارشالات والطاولة المزينة بالزهور. هنا يتمثل كل زهو الجزائر: جبال من شجر البرتقال وعنب المسكات، أفخاذ الغنم برائحة الثوم، الخرشوف وهليون السهل، أواني سافرْ الأنيقة للمائدة، نبيذ سطاوالي ومليانة والمدية الفاخر، الأغطية القرمزية ما بين أزهار الجهنمية[2] والشمعدانات... وهو، الملك الضائع في أفكاره، الغائب في خضمّ مشاعره المشوشة، الذي ما زال صدى الهتافات يرنّ في أذنيه... وجه متيقظ، لا يسمع سوى ما يريد سماعه ويصم أذنيه عن الباقي، متغافلاً عن النظرات التي تراقبه، تهزه أحياناً ارتجاجات في مؤخرة العنق، كما لو أنه سيقذف بشيئ إلى الخلف... خطابه كان عند

(1) Non nobis, non nobis, Domine هو نشيد ديني قصير يتلى في «عيد الشكر» والمستوحى من المزامير. والتي تعني «ليس لنا، سيدي، ليس لنا، وإنما لاسمك».

(2) الجهنمية (bougainvillier) نوع من زهور الزينة المعترشة.

السابعة مساء... في داخله كان يكرره ويصححه وينقحه. مختطفاً سراً قطعة خبزٍ طازجة، واضعاً شوكته على الطاولة بحركة حاسمة. وإلى جانبه بونيفال الذي يعتريه القلق.

المقدم! غاستون دو بونيفال يسهر على كل شيء، على ارتفاع وصلابة كرسي ديغول، على صنف المياه المعدنية، على البسكويت. رمى نظرة سريعة تحت المفرش، وقاس المسافة من الأبواب، استعلم مسبقاً عن عدد الدرجات التي سيتم صعودها أو هبوطها. فهو في خدمة أميره منذ ثلاثة عشر عاماً ولا يتخيل حياته من دونه، يسجل له مقابلاته لدى طبيب الأسنان، يحتفظ بمذكرات جلسات المحاكمة، يسهر على حرارة الغرف، يطرد الذباب ويعد نقاط جرعات الدواء، ويحضّر الخفين. هنا كان قلقاً من طول السرير البالغ مترين وعشرة سنتميترات ومن الذباب. أصحيح أنه لم يعد هناك ذباب في الجزائر؟ يقال إنه ردّ يوماً على سيده: «نعم، يا عزيزي...». لا نبيذ أبيض. الأحمر فحسب.

«ليس إلى هذه الدرجة سيدي الجنرال، ليس إلى هذه الدرجة...».

هزة كتفه. دعني وشأني بونيفال.

تم بسرعة تحضير هذا الغداء دون حضور النساء. «الجنرال لا يحب أن يبقى طويلاً إلى الطاولة...». كان مسؤولو الخدمة في الفندق يدورون حوله بستراتهم البيض.

«فلنرفع النخب...».

رفع نخب كل المجاورين له ما عدا سيريني. مفاجئ هذا النبيذ من منطقة لا تراب الفرنسية. وجه سالان الخجول، التوتر الداخلي لسالان المحشور في قميص ضيق ليس معتاداً على لبسه. خيل للنقيب دو رواي

الجالس إلى الطاولة أن الجنرال سالان يحاول بشبكه ذراعيه على صدره أن يخفي صدارته الواقية.

رأى سالان عن كثب الكثير من الوزراء والمارشالات ورؤساء الجمهورية والملوك والأباطرة. ودائماً كانت تأتي لحظة يتولد فيها، وبعد السخافات، شيء ما: ثقة ولطف بين الطرفين، وغالباً ما هو أفضل من ذلك. هنا، لا شيء. لم يفته التقاط أيّ التفاتة تبدر منه. ولكن هل نظر إليه فعلاً؟ حكّ صدره وذراعيه وكتفيه وجبهته ونادى مساعده الجنرال أَلي الضائع بوجهه ذات الابتسامة الشبيهة بابتسامة الموتى. في كل مرة كانت النظرة تنحرف. لا يمكن على أية حال وضع حدود للنظر عبر تأمل ياقة أو قميصٍ عارٍ أو شبه عارٍ: علامة واحدة، صليب لورين المشبوك فوق الجيب اليمين. لدى هذا الرجل شيء ما صارم ومقدس يجعل الآخرين على مسافة منه. ألا يتحدث عن نفسه بصيغة الغائب؟ أيقول «أنا» عندما يكلم نفسه؟ وإن فتحت القلعة الجسر المتحرك المؤدي إليها، لا يمكن الوصول حينئذ سوى إلى قاعة محكمة أمام كرسي عرش.

جنون هذا اليوم أيضاً، الخامس عشر من مايو، في هذا اليوم بدا متالقاً، منتشياً بسماع اسمه يتردد على ألسنة الجماهير. زار للتو لجنة السلامة العامة، فصل نفسه قدر المستطاع عن الناس الذين قادوه إلى النصر، وعرض ما يفكر به. كيف لا يمكن الخضوع لما يهيء له في كل مكان باسم المصلحة العليا والتصدي للشيوعية، والفرصة وحيدة للوحدة؟ ونتيجة كل ذلك الهتاف «يعيش ديغول» هتاف عفوي شخصي إلى درجة أن يطلب منك

دلبِك أن تعلنه في الميكروفون[1]. الجو مكهرب، بمَ نحن مسكونون؟ تتقدم إلى الشرفة متعجلاً مدعوماً فيعلنون عن وصولك وكأنها الثورة تعلن على راديو لندن[2]: «الكرامة والوطن، هذا هو الجنرال سالان!». وبعدها كل شيء سهل وينطلق من المنبع، استحضار ذكرى طفلٍ ميتٍ يرقد في هذه الأرض والحديث عن الحرب وعن المسلمين التواقين إلى الأخوة، إدخال كلمات تثير الحماسة: النصر، الجيش، العلم، الطريق المقدسة، العظمة. وللنهاية هتافات، كانت قبل يومين ترميك في غياهب الظلام، وها هي اليوم تعبير عن الحب. ولكن دلبِك موجود هنا، يلكزك، تشعر بأصبعه في ظهرك. أصبعه أو فوهة مسدسه؟ أليا جاكتا أس[3]. في العاصفة، في الإعصار، تطلق مع لكنة ألبي[4] صرخة تتردد كانفجار حتى مقاعد الجمعية العامة وصالونات الأليزيه: «يعيش ديغال!» يمكننا أن نسخر من الطريقة التي تلفظ بها الاسم، لا يمكن لأحد ان يخطئ بلفظ هذا الاسم، كان عليك أنت وحدك، أكثر منهم مجتمعين، أن تعمل على عودة ناسك كولمبي[5]. وستعود إلى الحقيقة لتسمع زوجتك تسألك إن لم تكن مجنوناً.

---

(1) ليون دلبك leon Delbecque (1919 – 1991) هو رجل صناعة وسياسة فرنسي. كان من مؤسسي لجنة السلامة العامة في انقلاب 13 مايو 1958 ورئيسها أيضاً. وهو الذي أقنع راؤول سالان بالهتاف من على شرفة مبنى المحكومية العامة وأمام الجماهير «يعيش ديغول».

(2) يقصد هنا النداء الشهير الذي أطلقه ديغول من على إذاعة بي بي سي من لندن في 18 يونيو 1940 والذي دعا فيه إلى المقاومة لإنقاذ فرنسا.

(3) alea jacta est. وهو تعبير لاتيني يعني أن اللعبة بدأت وما عاد بالإمكان التراجع.

(4) Albi هي مدنية فرنسية.

(5) Colombey هي المدينة التي اختارها ديغول ليقضي فيها أيام عزلته أو ما سمي بسنوات القحط أو ما أطلق عليه بـ«عبور الصحراء». وذلك بعد خسارة حزب تجمع الشعب الفرنسي (وهو الحزب الديغولي الذي كان قد تأسس في 1947 والذي هدف ليكون =

وعندما، وبعد ساعة من ذلك، سأله رئيس مجلس الوزراء عبر الهاتف وبصوتٍ جاف عن أسباب انفجاره ذاك أجاب: «لأنه وحده الجنرال ديغول يمكن أن يعيد لفرنسا مكانتها كأمة كبيرة». جملة جميلة فارغة بعض الشيء. والآن هل يمكن لديغول ألا يظهر كقديس؟ «لم تفعل إلا ما يصبّ في مصلحته»، قالت له زوجته «لقد تلاعب بك ديغول. أنتم تنصبون الثعلب الذي سيطردكم...». لماذا اتخذت حتى الآن هذا القدر من الحيطة وترددت كثيراً لتخطو ولتدمر في النهاية كل شيء بكلمة واحدة؟

الرد على هذا السؤال الوحيد الذي يهم، جاء بعد ثمانية عشر عاماً، من الثالث والعشرين من سبتمبر 1940.

ولكن أيضاً من كان بإمكانه أن يتوقع مصير جنرال الفرقة هذا الذي لم يكن ذا أهمية سابقاً؟ هذا لا يمنع، أنه وبعد استيعاب الفاجعة تمّ التفكير ملياً بالرد على ندائه: من دون المرسى الكبير ومن دون تفجيرات ريشيليو، ربما... فقط لو تمكن هذا الجنرال أن يضمن سر تحركاته! سالان، الذي كان يعمل مسؤول الاستخبارات في وزارة المستوطنات لدى فيشي، لم يكن لديه أي مشكلة في أن يعلن أن الأسطول البريطاني سيظهر أمام دكار، الثالث والعشرين من سبتمبر 1940 عند الفجر. مواجهة دموية: 166 قتيلاً في تبادل لإطلاق النار. عند التاسعة صباحاً تراجع الأسطول البريطاني مع

= حزباً خارج تصنيفات اليمين واليسار) في 1953 نصف مقاعده في مجلس النواب الفرنسي بالإضافة إلى إخفاق الحزب في تأمين النصاب لموافقة الفرنسيين على الانضمام إلى الوحدة الأوروبية للدفاع العام 1954. وتلا ذلك حل تجمع الشعب الفرنسي في 1955. وخلال خمس سنوات من 1953 وحتى 1958، دخل ديغول في عزلة طوعية اختار لها قرية كولومبه الفرنسية النائية نسبياً التي كان يملك فيها دارة كبيرة. كما اختارها ليدفن فيها أيضاً.

ديغول.

الرجل، الذي وبعد مرور سنوات، يتذكر أبسط كلمة وأقل حركةٍ أو ترددٍ أو حتى صمتٍ، هل يمكنه أن ينسى مواجهة كان بإمكانها أن تقضي على مستقبله؟ ألم يفكر في ذلك الوقت أن يطلق النار على نفسه؟

لا جبن، بل بوظة وفواكه. وشمبانيا لإذابة الثلج في هذا الجو، نعم، في هذا الجوّ الحار. فنجان قهوة؟ دون سكر.

«حسناً، ما رأيك سيدي الجنرال؟».

انتفض سالان عند سؤال سوستيل الماكر؛ هذا الحنين لنصرٍ تلاشى.

استعاد وعيه أمام الرواق حيث اختفى البرنتصور، يتبعه بونيفال والنقيب الصغير دو رواي...

«رأيي؟...».

3

على شرفة مبنى الحاكم العام حيث يتخبط سالان في السخافات، كان ديغول يفكر بربيع كولومبه. ثم توجه للجزائريين وصرخ: «لقد فهمتكم[1]...».

(1) يقصد هنا الخطاب الشهير للجنرال شارل ديغول الرابع من يونيو 1958، الذي توجه به إلى الجزائريين والمستوطنين الفرنسيين والأوروبيين في الجزائر، عبارة في غاية الدهاء السياسي بقيت مموهة غير واضحة من تعني، الجزائريين أم المستوطنين الذين كانوا في الواقع وراء عودته للسلطة في 13 مايو من العام نفسه. يقول فيها: «لقد فهمتكم، إنني أعرف ما الذي حدث هنا...». وعدا ذلك وهي وكما قال المؤرخ د.صلاح بلحاج «هي عبارة لا تخلو من مغالطة. بلغة الصراحة، كان على ديغول أن يقول لهم: افهموني جيداً لأن هذا هو المقصود الحقيقي».

مشرفاً على الجميع، ماداً يديه فوق الأكتاف، ترك ديغول نفسه للحماسة القصوى. الدروع البشرية التي شكلها المظليون حوله تتأرجح بفعل التدافع، حشد غير مسبوق. تدافع عند لحظة نزوله من السفينة الحربية دو غراس حيث ذهب لزيارة القوات البحرية، وتدافع عند تقدمه بين الحشد. المهرجان يشتعل، صبية صغار متنكرون بفرقة جوقة شرف كانوا معدين لاستقباله بدأوا يبكون خوفاً من هذا التدافع، ونساء يغمى عليهن، حتى وصل الموكب أخيراً إلى مدخل مبنى الحاكم العام.

تحررت رئيسة بعد أن ابتلعتها الدوامة للحظة. وإذا بها ترى النقيب فتهزها مشاعر قوية. ما الذي حصل له ذاك المساء؟ وما الذي حولها هي أيضاً؟ لماذا هربت منه ثم عادت إليه؟ أهو الحب الذي يمزقها عندما تفكر به أم المأساة التي يتشاركان بها؟ على الرغم من الأخوة الموصى بها، ومن التنورة والقميص اللذين يجعلانها لا تتميز عن الأوروبيين، فهي تشعر بالرفض والإهانة عندما يكتشفون من تكون. أما هو... فهل سبق وأن تزوج ضابط فرنسي من فتاة جزائرية؟ وماذا تعرف هي عن نواياه.بما أنه لم يفصح لها يوماً عن شيء؟

فوضى وعذاب ومحنة واضطراب. وفي الحد الأقصى للأمور، وبافتراض اللامعقول معقولاً وانتصار المصادفة، لم تكن رئيسة متأكدة من مقدرتها على التصدي للممنوعات في داخلها والارتباط بواحد ممن أقسم فلاحو معسكر[1]، مثل القبائل والشاوية[2]، ومنذ أكثر من قرن،

(1) معسكر أو أم عسكر وهي واحدة من أهم المدن في الغرب الجزائري.

(2) الشاوية هم أمازيغ الشرق الجزائري.

على رميهم في البحر. وعلى الرغم من ذلك، كانوا هنا حشوداً، أخوانها هؤلاء، يهتفون للرجل الذين يعتبرونه منقذاً. أليس ذلك أيضاً تسميم للأفكار؟ ألم يلاحقوهم في الجبال بشاحناتهم الملأى بالجنود، كما تحرشوا في الحادي عشر من مايو بالجزائريات عندما دخلوا إلى البيوت: «أليس لديكم فاطمة ما؟...».

في المياه الهادئة لرواق مبنى الحاكم العام، أخذ بونيفال بوجهه الطيب ككاهن ينفض الغبار عن سيده «الكاردينال» ويمد له منديلاً ويصعد الأدراج معه. الكاردينال، الملك الذي دخل إلى المكتب المطلي بالأخضر، من أين خرج؟ رفض المقعد الذي قدم له وبقي واقفاً، متوارياً قليلاً يرتجف برأسه الحاسر. هذا الهذيان الشعبي.. في الجيب الأيسر لقميصه، يستشعر الورقة، التي كتب عليها بخط دقيق نص خطابه الرسمي والذي نقحه في الطائرة وخلال الاستراحة التي تلت الفطور.

«أيها الجزائريون والجزائريات، يا أصدقائي»، صرخ سالان.

جاء صوته عبر مكبر الصوت. كم هناك من الابتذال في كلمته! تكاتف الأيدي، والتأهب. إنها لغة معاون لا جنرال.

وفجأة وفي الجو الحار الرطب، التمعت في رأس ديغول صورة الربيع الذي سيبدأ في كولومبه، فقد تأخر الموسم. في الربيع يرتجف تحت عواصف الإرزيز[1] والثلج الذائب وفجأة، وفي بداية مايو سماء واسعة زرقاء تفتح البراعم في الحدائق، وتتفجر زهور الكرز على الوريقات الخضر الزمردية. كما الربيع دوماً.

(1) برد صغير يشبه الثلج.

ملجأ الكرمة البكر، المكان الذي اختاره ليقضي فيه نهاية مسيرته السياسية، أمام محبرته في مواجهة حبه الوحيد الذي لم يعه يوماً، ابنته آن، التي رحلت في عمر العشرين، هذا الملجأ لم يكن حتى حصن مونتلوك[1] بالنسبة إليه، بما أنه رفض شرف مارشال فرنسا وصولاً لرفضه حتى الراتب التقاعدي. لم يعد يزوره أحد ما عدا علماء الأعراق البشرية وسفراء العالم الثالث أو وسطاء غامضون أو مخبرون من أمثال عمروش. إيفون روجت لاقتراب ساعته. هل يمكن الحديث عن مستقبل في عمره هذا؟ هل نقدم قدحاً من البابونج لمحتضر؟ ساعته ستأتي في يوم جنازته، المعدة سلفاً لإحداث المزيد من الوقع. النصيران من عمواس[2]، الشخصان الأخيران اللذان تذكراه؛ مورياك سيذرف دمعة من ريشته ومالرو سيلوح بمشعل متوهج.

وفجأة حدث الانفجار في الجزائر، وبدأ الهاتف يرن. بعد عدة أيام، أسراب طائرات حلقت فوق كولومبه فمد لها ذراعه...

سوستيل، عالم الأعراق الماركسي القديم، النجم القديم للجبهة الشعبية الذي التحق بلندن في 1940 ليدير خدمات التجسس لصالح فرنسا الحرة، سوستيل المطيح بالحكومات، الدبق، العاشق الكبير للمؤامرات، وزير منديس الذي أصبح بطل الجزائر الفرنسية وحليف بيدو، والذي غيّر مبادئه مرة أخرى، الذي تعلق بعربة المنتصر: «... في إجماع كامل من الثقة والوفاء والأمل والنظام، يعيش...».

(1) Montluc هو حصن وسجن قديم تحول لإصلاحية للنساء واليوم هو مركز للشرطة.

(2) عمواس هي قرية فلسطينية احتلت عام 1967 ودمرها الجيش الإسرائيلي وطرد أهلها.

كل العدة: فرنسا، الجمهورية، الجزائر الفرنسية، ديغول.

نظرته المراوغة. هل استعد جيداً لقدره؟ انزوى بالقرب من نصب تذكاري، عند اليسار، بالقرب من بونيفال. وفي الجهة المقابلة، الذراعان متشابكان، كمدير مدرسة ثانوية راضٍ عن تلامذته، إنه سالان. الأعلام تلفه أينما ذهب، إنه ديغول.

ليكن مفهوماً جيداً، وليكن مبدأً مكرساً لمرة واحدة وإلى الأبد: نطالب بديغول من أجل أن تُحكم فرنسا وتُنقذ الجزائر. حسناً، ما دام الشعب يريده، إذن حسم كل شيء. الأمر منتهٍ منذ الليلة الفائتة، وقد تمّ بهدوء لجهة القوانين والأنظمة، كما أنه معلن من قبل الأمة والجمهورية والأحزاب والصرخات الآتية من الجزائر. فكان هنا.

بوحشية، وكأنه يريد أن يجذب الحشد إلى صدره، رمى نفسه إلى الأمام وبصوتٍ قوي صرخ بالجملة، جملة من كلمتين أداها بطريقته الخاصة، جملة رومانية، جوهرية والتي على سخفها بدا أنها تلخص كل شيء بالنسبة إليه:

«إنني فهمتكم!».

فهمتكم.. كم.. تكم.. كم... وكأن الكلمة تتردد عبر المدينة والقرى والشواطئ والصحراء. حسناً، لمَ هذا الصمت المفاجئ؟ رمشت عين سوستيل، تصلب وجه سالان وابتلع جوهاد ريقه وقطب لاغايار حاجبيه. وحده، الكولونيل غرييه ابتسم: تذكر في هذا الكلام صيغة برقية من القائد الأعلى المنسق إلى ديغول. «الجميع لديهم شعور بأنك تفهمهم جيداً...» العبارة كانت له، هو غرييه. هذا لا يمنع أن الشعب الذي تم فهمه لم يفهم

شيئاً. ماذا يعني هذا؟ هل طلبوا من ديغول أن يفهمهم؟ لقد طلبوا منه أن ينقذهم.

وفي نهاية الكلمة دوت الأيدي بالتصفيق. مفهوم، هذا يعني أنه سيقوم بما طلب منه.

«أنا أعرف... ما الذي حدث... هنا! أرى.... ما أردتموه. أرى أن الطريق... التي فتحتموها في الجزائر هي طريق الإ- ص-لا-ح...».

شدد على الكلمة لاثغاً بالراء، مقطعاً الكلام، ثم رمى مضيفاً:

«... والأخوة!».

كلمة من أجل بثّ الأمان. «لم يعد برنتصوراً»، قال النقيب دو رواي لنفسه، «وإنما حصان يعدو وهو يصهل ضارباً الأرض بحوافره...». وفجأة، يا لهذا التوهج والقوة، يا لهذه السعادة على هذا الوجه القدير، مع هذا الصوت الذي يسيطر ويدفع وينتشر أمام سوستيل المشدوه - فهو يتوقع كل شيء، سوستيل ولكن هنا... - وأمام الجنرالات المشوشين بتفاهات عقولهم، هذا الفن العالي في الوصول إلى الحشود.

«وهكذا، أعلن أنه بدءاً من اليوم تعتبر فرنسا أن في الجزائر فئة واحدة من السكان فقط، تعتبركم جميعاً فرنسيين...».

ترك ديغول نفسه أحياناً لآمال بددها الواقع لاحقاً. فقبل أحداث أبريل تماماً أعلن لصحافي نمساوي، صنع من هذا التصريح ثروة، أن الجزائر ستصبح مستقلة. هل كان يعلم ديغول ما ستقرره فرنسا؟ الاستقلال ربما في غضون خمسة وعشرين عاماً، جزائر... جزائر مرتبطة بفرنسا؟ سيحاول. بعد المصالحة، سيطلق فكرة سلام الشجعان المقترحة من ديلبك. ثم سيلمّح ويوصي.

«فرنسيون لهم الحقوق نفسها، وعليهم الواجبات نفسها! هذا يعني... أنه يجب تقديم سبل الحياة لمن لا يتمتعون بها، والاحترام لكل من يناضلون لأجلها... وطن لمن يشكّون بامتلاكهم وطناً...».

من شرفته، أعلن دانيال النصر. كارمن وأميلي هزتا رأسيهما. حشو كلامي. لو وجب ومنذ قرنٍ الوفاء بوعود نابوليون الثالث، وبيتان ودارلان وجيرو وحتى ديغول، أو إبطال هذه الوعود، إن وجب تسجيل كل ما قيل وكل ما حلف به المقاتلون القدامى والجنرالات والأساقفة والقضاة وألوية المطافئ...

والآن، يهنئ الجيش الذي كان المنشط والشاهد والضامن. خلال ثلاثة أشهر، كل الفرنسيين – وبمن فيهم عشرة ملايين من فرنسيي الجزائر، أهذا واضح؟ – سيقررون مصيرهم. ما زالوا يصفقون. كطابور موحد في ثانوية واحدة. أكانوا أخوة أم لم يكونوا، فساكن القصبة يوازي ساكن باب الواد.

«أنا ديغول، لهؤلاء أفتح باب المصالحة».

بلهجة كئيبة حزينة:

«... لم أشعر كما اليوم كم أنها جميلة وعظيمة وكريمة...».

وإذ به يرفع ذراعيه ويصرخ:

«... فرنسا! تحيا الجمهورية! تحيا فرنسا!».

أطلق صرخته وأدار ظهره. لا شيء آخر؟ لا شيء آخر لهذا اليوم. ألا يكفي عشرة ملايين من فرنسيي الجزائر؟ لقد فهم عشرة ملايين من الفرنسيين. لقد أعادت له فرنسا قبعته ونظاراته. وها قد اكتست وجوههم

شكلاً غريباً وجعلوا ينظرون إلينا مثل بقرة فضولية. العاصفة التي تأخرت بالهبوب أرعدت وتحولت إلى النشيد الوطني الفرنسي:

«لا موسيقى عربية للأسف»، قال ماريني في سرّه.

الفصل الخامس
أداجيو ريليجيوزو

1

بعد عشاء في مقر المنطقة العسكرية الخامسة، وصل الموكب إلى المقر الصيفي حيث مد ديغول يداً رخوة إلى سالان

صعد الموكب باتجاه المقر الصيفي، في الليل الذي بدا فجأة شاغراً، إلا من مجموعات صغيرة من المعربدين بالقرب من الكليات. لا أحد. رايات صغيرة وأعلام على الشرفات وزهور سحقتها الأقدام، شوارع لزجة بالرطوبة تجعل العجلات تصرّ. رفض إقفال سقف السيارة وشرّع وجهه للهواء اللزج.

غاص في المقعد الجلدي، وللحظة، ترك الطريق تهدهده، مندفعاً أحياناً عند المنعطفات باتجاه سالان؟ لو أن فرنسا بيتان حصلت على ميدالية داكار، أما كان سالان ليرفع نخبها؟ لا يجب أن نسلب سالان في النهاية حقه في أن يعمل لمصلحته. لم تكن سوى مسألة وقت. فقبل عامين، في سنة 1956، هل كان يمكن توقع خسارة الجمهورية الرابعة للجزائر والصحراء كما خسرت شبه الجزيرة الهندية الصينية وتونس والمغرب ولَم لا؟ الألزاس أيضاً واللورين وكورسيكا وبريتانْي[1]. احتفظت فقط بلوفارنْي لأن أحداً لا يريدها. فقد تحولت فرنسا شيئاً فشيئاً إلى البرتغال حيث حكم رجال السياسة لصالح الإنكليز وحل رجال الأعمال مؤسساتهم وما عاد الكتاب

(1) كورسيكا جزيرة فرنسية في بحر المتوسط وبريتاني شبه جزيرة فرنسية.

يكتبون لأحد. فرنسا ما عادت تفكر سوى بالرواتب وحفلات العشاء في المدينة والعربات. فرنسا لن تبدي حماسة سوى للمطالب النقابية. اليمين ينقصه السخاء واليسار القوة. دون انتفاضة الثالث عشر من مايو، ما الذي كان بإمكانه أن يقدم الأمل لديغول القابع في محبسه؟

تمهل الموكب كي يجتاز بوابة القصر حيث قدم السباهيون التحية بالسيوف، ثم توقف.

مد لسالان يده الرخوة: «إلى الغد...».

2

في شقته، شرح ديغول لنفسه إعلان فرحات عباس[1]

جاءت جميع ردود الفعل على خطابه جيدة، باستثناء واحدة من تونس.

سحب ديغول من كومة البرقيات المتكدسة على الطاولة برقية الـ إ. أف. بي حول موقف فرحات عباس، رئيس ما كان يسمى لجنة التنسيق والتنفيذ لجبهة التحرير الوطني. صرح فرحات عباس: «إن كان الجزائريون من أصل فرنسي جديين، فلم لا يتحدون بالجمهورية الجزائرية في الوطن

(1) فرحات عبّاس (1899 – 1985) أحد أبرز وجوه الاستقلال الجزائري، هو رئيس وزراء الحكومة الانتقالية بالجزائر (19 سبتمبر 1958 – أغسطس 1961) التي قامت في المنفى كحكومة عربية مفترضة لدولة الجزائر. أسس فرحات عباس حركة أصدقاء البيان والحرية في مارس 1944 وكان يدعو إلى قيام جمهورية جزائرية مستقلة ذاتيًا ومتحدة مع فرنسا. لكن في أبريل 1956 حل حزبه وانضم إلى صفوف جبهة التحرير الوطني في القاهرة، وبعد مؤتمر الصومام عين عضواً في المجلس الوطني للثورة الجزائرية، وقاد وفد الجزائر في مؤتمر طنجة المنعقد بين 27– 30 أبريل 1958، ثم عين رئيسا للحكومة المؤقتة.

الجزائري الواحد للجميع؟ لقد قال الجنرال ديغول مرةً: نصبح أحراراً بالقتال، فهل نسي ذلك؟».

رفع نظاراته وأخذ يقلبها للحظة بين يديه. الجمهورية الجزائرية، ليس لهذه الدرجة. بالطبع لم يكن ساذجاً ليعتقد أن فرحات عباس سيصل بهذه السرعة إلى إنشائها. يوغرطة[1] الذي كان منسحباً في جباله كان يعتقد نفسه منيعاً ولم تكن روحه سهلة. لو كان ديغول يوغرطة أكان ليدافع عن الجزائر الفرنسية؟ سالان، ماسو، العقداء في الجيش وربما مالرو، وحدهم الذين تركوا أنفسهم يعيشون وهم أن عشرة آلاف مسلم متحولين طواعية عن دينهم يمكنهم أن يسوقوا بقية الجماهير الغفيرة. المسلمون الذين يقبلون يديه لا يرون فيه سوى منقذهم الشخصي. إن كان انشقاقاً أو اتحاداً، وأيضاً اتحاد غير إكراهي. أهي غلطته أن الفرنسيين اقترفوا الكثير من الحماقات؟ وعندما حذروه: «يمكن للجزائر أن تقبل بصعوبة أن...».

ينفض كتفيه بانفعال. ستخضع الجزائر وستستعيد باريس سلطتها مع ديغول.

نظر بسرعة حوله: كنبات جلدية وطاولة من خشب السدر وطبق نحاسي يلمع تحت الضوء الرقيق للثريا والشمعدانات العربية وصندوق قديم مرصع بالمرجان والفضة وجدران علق عليها خزف صيني قديم. نهض وذهب باتجاه واحدة من النوافذ المفتوحة التي تطل على نخلات الحديقة ذات الممرات المشجرة المضاءة. وفي البعيد، أضواء مبللة، إنه البحر.

---

(1) يوغرطة: كلمة يوغرطة أو يو:كَرتن أو يوجيرتن Jugurtha في المعجم الأمازيغي: أكبر القوم سناً، أيضاً: الذي فاقهم..

بالطبع، وقبل عامين قال في مكانٍ ما وهو شارد العينين في الأفق: «سنكون سذجاً لو تخلينا عن كل هذا...». الصحراء الممتلئة بالنفط والقواعد العسكرية. آه! لو أنه في 1943... لو في 1943 هتفت الجزائر باسم ديغول وطالبت به، لكان تغير كل شيء! لكنا أسسنا للروح الأوروبية والروح المسلمة، هاتان الكتلتان في روح مشتركة. لكنا وجدنا ربما حلاً لفكرة بناء الجزائر هذه كدولة سيادية. ولكن كيف يمكن مسامحة فرحات عباس، لاستغلاله مآسي الفرنسيين، كما فعل المقراني في 1871، من أجل المطالبة بالحقوق! إنه لحالم فرحات عباس! سفسطائي. هل حكم يوغرطة على أحد غير الطيور الجارحة وعصابات الخيالة والقبائل؟ بالنسبة للغزوة التي قام بها العرب بعد ذلك، ألم يقارنها ابن خلدون نفسه، بسحابة من الجراد؟[1] فالمسلمون أُلهموا خطأً عندما استعاروا من التاريخ تظلمات جرت ضد الفرنسيين ليحاججوهم بها، وفرحات عباس يعرف ذلك جيداً. كتب في 1936: لن أموت من أجل الوطن الجزائري لأن هذا الوطن غير موجود. لم أكتشفه. لقد راجعت التاريخ وسألت الأحياء والموتى، وزرت المقابر: لم يحدثني أحد عنه. لا يمكننا أن نقاتل في الهواء...»[2]. سراب إذن؟ وطنهم هم. واليوم، لو تمت محاكمتنا، ولو أن الأصوات التي أحياها إرهاب ماسو نهضت من جديد... كان ديغول يعلم أن استعمال لغة الأبطال مع الناس العاديين ستجعل البقالين والباعة يلجأون إلى المقاومة

(1) لم نعثر في مقدمة ابن خلدون على ما يشير إلى مثل هذه المقارنة، ولعله استنتاج خاص يضعه الكاتب على لسان الشخصية من دون أن يكون له سند واقعي في كتابات ابن خلدون.

(2) هذا الكلام كتبه بالفعل فرحات عباس في 1936 عندما كان يعمل على ان تتحول الجزائر إلى مقاطعة فرنسية. ولكنه كما ذكرنا سابقاً فقد انقلب كلياً على هذه الفكرة، وتحول في النهاية إلى زعيم ثوري.

السرية. بالنسبة للأقدام السود، ألن يحاولوا. أولم يحاولوا أساساً قتله؟

عاد إلى الطاولة ووضع يده على الهاتف.

إن اتصل بكولومبه ألن يقلق هذا المنزل الذي بات يرن فيه الهاتف في الفترة الأخيرة باستمرار؟ في هذه الساعة، من المفترض أن إيفون في استراحتها وربما تنام. ليس لأنه بحاجة إلى سماع صوتها الذي يغضبه أحياناً، على الرغم من أنه صوت حبيب لا شريك له. فيمكن للآخرين أن يؤمنوا بقدره أو أن يخفوا مصالحهم. تعلقه بها كان فعلاً طبيعياً كما تلك النباتات المعرشة في حدائق العرب والملتحمة بعضها ببعض. الحب؟ كان الأمر يتعلق كثيراً بالحب في هذه المرحلة! يتعلق بمسألة فعلٍ وواقع ومادية بالقدر نفسه الذي يتعلق به بأسرار البشر. الحب، هو يعرف أين يقوده. بما فيه من شغف إلى بولونجيه. وبما فيه من منطق إلى الأولاد وبناء مهنة، وإلى الاختبارات والصبر الطويل للآمال التي تكذب دائما وتولد دوماً من جديد. النساء الأخريات اللواتي يمررن بالصدفة، هل هن موجودات؟ إيفون هي الجانب الوديع من وعيه. امحاء دون خجل وتنازل بلا إنكار. لها قلب صلب، وعلى الرغم من كل المخاوف التي تسكنه لم يكن يوماً متردداً. آمنت بمشاركته الخضوع للقدر على الرغم من الشعور بالمهانة. سهرت عليه، طاردته بخدمته وحمايته، واحترمت صمته وانسحاباته أو قراراته، في حين اكتفى هو بالقول «ها، هذا أنتِ!...» عندما التحقت به في لندن، صبيحة الثامن عشر من يونيو، بتلك البساطة كما لو كانت قد استقلت القطار إلى مونتارجي.[1] معها لا يكون بحاجة حتى للشرح.

(1) Montargis بلدية تقع في إقليم لويريت وسط فرنسا.

إيفون هي الفضيلة بالمعنى الروماني[1] للكلمة. ماذا سيحتاج غير ذلك؟ وعندما، وفي لحظة اكتئاب، اعترف أنه لم يقدم لها سوى القليل: «هل طلبت منك يوماً أكثر من ذلك؟...»، تمتمت.

إذن هو لا يطلب إيفون وإنما كولومبه، فهو يسمع من خلالها صوت كولومبه. أن يجد بالخيال أفقاً يحرك مشاعره بطريقة أخرى عما يفعله هذا البحر الخالي من الرياح وهذا النخيل العاري من البلح.

الغابات تحديداً هي التي اشتاق لها على الأكثر، هناك حيث يغرق أحياناً في الاصطخاب الكبير وغير الأكيد للقدر. لابدّ من أن شهر يونيو اكتسح الهضاب. أي خلط للحياة والموت، للبعث والنسيان! ولابدّ من أن الزعرور البري خسر في هذه الأيام آخر تويجياته، وانتصبت، وسط بحر من الأوراق، أشجار السنديان، بشمعداناتها الشقراء.

الممر الذي يسلكه في العادة، يشبه في الشتاء مركباً شراعياً منحوتاً في الغيوم، يتسلق منحدراً بسيطاً إلى أرض خالية من الأشجار ويتأمل من خلال هذه الفُرجة، الأراضي الحدودية للشامبانْي واللورين، الحقول الكاتالونية حيث قضى الرومان وبدعمٍ من الفرنجة[2] على أتيلا[3] وحيث

(1) الفضيلة عند الرومان هي الرجولة أي الصفات التي يتكون من مجموعها الرجل vir.

(2) الإفرنج أو الفرنجة هم مجموعة قبائل جرمانية غربية والتي كانت قد شكلت ما عرف باسم تحالف القبائل الجرمانية.

(3) أتيلا الهوني ملك تركي قديم (395– 453) كان آخر وأقوى حكام الهون والهون هم أجداد الأتراك. أسس في إقليم روسيا وأوروبا إمبراطورية هائلة الاتساع، عاصمتها في ما يسمى هنغاريا اليوم. وفرض الجزية على الامبراطورية الرومانية الشرقية (البزنطية)، وزحف إلى فرنسا حتى مدينة أورلينزو وحاصرت جيوشه أيضاً مدينة باريس. ولذلك فقد أسرع الامبراطور الروماني الغربي فالنتينيان الثالث من عاصمته في عام 452 وشكل ضد أتيلا تحالفاً عسكرياً عظيماً من الرومان وكثير من القبائل الجرمانية وخاصة القوط الغربيين أملاً في إيقاف سيله الجارف نحو جنوب فرنسا، وفعلاً فقد وقعت معركة شرسة

تقاتلت أرواح الموتى لثلاثين يوماً، وحيث فاضت الأنهر بالدم...

«ولكن هل ارتكبت خطأ...؟»، كم مرة طرح على نفسه هذا السؤال! كم من مرة تساءل إن لم يكن يخطئ بالتخلي عن السلطة، إن لم يكن قد دفن نفسه بنفسه في عزلة عميقة إلى درجة أنه لن يخرج منها ثانيةً. وخلال تقدمه، ودائماً حاسر الرأس، لأنه تخلى منذ زمن بعيد عن قبعته اللباد، يرتطم أحياناً بالأغصان، غير مكترثٍ بالشتاء والبرد، بل يجد فيهما نوعاً من السكون الموحش. ويجعل يردد أبياتاً من المزمور 109: لأنه يقوم عن يمين المسكين ليخلّصه من القاضين على نفسه. كان يمشي بخطى ثابتة موزعاً ضربات عصاه على الشوك من حوله، ملاحقاً باهتمام رائحة كلب الرعاة الألماني، وينكالم، والتي كان يستنشقها عندما كان يرافقه. هل يمكن أن نسمي ما كان يكنه للحيوانات، وما كانت الحيوانات تكنه له، حباً؟ فقد كان يؤثر به تعلق الحيوانات وظروفها. إن لم تكن لهم جنة في الأعلى، فهو يحاول أن يؤمن لهم واحدة هنا ويوفر لهم كل شيء، فمن حق الكلب وينكالم أن ينام على الكنب وعلى أريكة غرفته وحتى على سريره. «عليك أن تبدي قليلاً من الصرامة مع هذا الكلب»، لا تني إيفون تكرر على مسامعه. كان وينكالم يقتل غنمة من وقتٍ لآخر فيكون عليهم أن يخضعوه للقصاص. أكان الحلّ إبقاء وينكالم مقيداً طوال الوقت؟ يفضل في هذه الحالة أن ينفصل عنه. وفي الوقت الحاضر إنه القط غريغي الذي يتبعه بقفزات مطاطية، ويختفي أحياناً أو يتريث خلفه ثم

بين أتيلا والتحالف الروماني–الجرماني ضده في معركة من أعظم معارك التاريخ القديم وأشدها هولاً وهي معركة شالون خسر فيها أتيلا خسارة جزئية، فقام بالانسحاب ليلاً من فرنسا نحو ألمانيا، ليعود في العام القادم بحملة عسكرية عنيفة على إيطاليا (عقر بيت الرومان) ويجتاح أتيلا شمال إيطالياً وتسقط أمام جيوشه مدنها تباعاً...

يعاود الظهورعندما يتوقف عن انتظاره، ويحف نفسها بساقيه ما إن يتوقف. لكن دون أن يبدي أي اهتمام بآثار الأقدام، فهي دائماً نفسها، وإن اختلطت أحياناً بآثار أنثى ظبي أو تيس جبل، وتظهرعلى الأكثر بالقرب من برك الماء. أربعة أصابع عريضة، ممدودة فوق أسفل باطن القدم، تطيلها المخالب، نوع من البراسم بأربع أوراق برؤوس شائكة: الغرير. ليس جميلاً الغرير. جسم ثقيل مضغوط، غريب الشكل، مع ذلك الخطم الكبير الذي يحفر في التراب، والشعر الخشن. حيوان لا يخرج إلا ليلاً ويمكن أن نفاجأ به في الطرقات مع سطوع أضواء السيارات في حين أننا وفي وضح النهار قد نلتقي ثعلباً. كم كان يعدو خلفه وينكالم ويعوي مزمجراً! ولكن الثعلب يتمكن دائماً في النهاية من الهروب. كيف يمكن الاهتمام بحيوان أخرقٍ إلى هذه الدرجة مثل الغرير؟ فهو ليس متوحشاً حتى، هو بالأحرى جبان لا يهاجم سوى الفرائس السهلة، الضفادع وسنابل الذرة والعنب والتوت. ولكن من المثير أنه والغرير يتبعان البرنامج نفسه بفارق ساعات فقط. ماذا كان ليقول لإيفون؟ «أخبريني بجديد الغرير..»، في يونيو تخرج عائلة الغرير للتنزه. بالقرب من أثار القوائم العميقة، يمكن ملاحظة أخرى بالكاد واضحة: وكأنها أصابع صغار الغرير خلال دروس أمهم لهم. كانت ترتسم ابتسامة ملائكية على وجه إيفون ولكن ماذا سيفكر المتنصتون؟ ديغول يتكلم عن غرير وعن راسموت الكلب «الدشهند» الذي جاء بعد وينكالم أو عن غريغوري الهر الرمادي اللون؟ سيقع سالان في الحيرة، في الافتراضات من كل نوع ووزير داخليته الخاص... أيضاً هو الآخر رمز يجب فكه أو قد يكون رسالة لمن؟

رفع يده عن الهاتف.

الرسائل الشخصية ما عادت تعني شيئاً. إشارة إلى أنه «تم طهي الجزر». إشارة التنفيذ «طهي الجزر مرتين». يوم ثلاثاء، السابع والعشرون من مايو، كان الجميع يعتقدون أن صداماً سيحصل عند المساء. هذا المساء وبعد خطابه، عادت قوات مكافحة الشغب لتلعب الورق على جسر الكونكورد، وهو ديغول الذي ما زال في غرفة انتظار السلطة ذهب لينام مردداً كلمة نيتشه: «لا شيء يؤشر لشيء، لن يحصل شيء وعلى الرغم من ذلك كل شيء يحصل، ولكن هذا غير مهم». أراد الرئيس كوتي[1] أن يكلمه وعندما علم أنه نائم قال «إنه لمحظوظ».

المشكلة الكبرى تمثلت في الجيش، المهانة الكبيرة بعد كل ما فعلوه لكي يردوا له كرامته. هنا أيضاً كم كثيرة هي الشكوك والأوهام! ألم يكن هناك في صفوفه من الفيشيين القدامى شخص مثل سالان؟ ضباط اعتبروا ديغول ثورياً وانشقاقياً وفضلوا عليه بيتان وخفين منزليين؟ لا يمكنه أن يكن لهم المشاعر نفسها التي يكنّها لمن التحقوا به في مغامرته. ولكن هكذا، الجيش هو الجيش. هناك شبه الجزيرة الهندية الصينية التي وقع الجميع في فخها. واليوم هم قلقون من ديان بيان فو جديدة. أمن أجل حمل ديغول إلى السلطة تبنوا خطة البعث؟ فقد لمحوا أنهم يريدون تقليد تجربته والتحدي الذي خاضه. خداع. دجل. ألم يلوموه سابقاً لأنه عين شيوعيين وزنوجاً في حكومته؟ ألم يدعموه ويسامحوه أكثر مما رغبوا؟ وأي لغة عليه أن يستخدم لكي يسمع صوته؟ كل الصبيانيات المتبادلة في كولومبه مع مبعوثي سالان الذين أتوا ليعرضوا عليه الخطة الشهيرة: «فرنسا، يا لهذا

(1) René Coty (1822 – 1962) هو ثاني رئيس وآخر رئيس للجمهورية الفرنسية الثانية من 16 يناير 1954 إلى 8 يناير 1959، حين أخلى مكانه لشارل ديغول.

الملاذ، أيها السادة...». ولكن إذا ظنّ الجنرالات أنهم يستطيعون أن يملوا عليه شروطهم، فهم مخطئون.

أخذ يردّد أبياتاً لكورناي:

روح معتادة على عظائم الأعمال

لن تعرف الانحناء أمام الضغوطات...

في كولومبه، اكتفى بأن قدم لهم عجة بيضٍ بشحم الخنزير. كلام، فقد كانوا يشبهونه بغاليفه[1]! لماذا يخدعون أنفسهم؟ ففي ظل غياب ماسو سيكون هو في مواجهة ديكلو[2]. كان الجيش ينتظر منه أن يقوم بما لا يمكن لماسو القيام به، إلا بالهراوات. ماسو الذي يتفاخر بروحانيته وتدينه تجرأ على تسمية ليوتاي والأب فوكو، ماسو هو الخيار الأخير للجيش، يا للمسكين! ساد القلق والفوضى وهوت البورصة. لقد سبق ليوليوس قيصر أن وصف الغوليين بغريبي الأطوار: قادرون على فعل الكثير عندما يتحدون ولكنهم في الأوقات العادية ينقسمون على أنفسهم ويضيعون وقتهم في الهذر. فهم لم يفضلوا ديغول لمصلحتهم.

أي أوراق رابحة لديه؟ من يمكنه أن يفرض نصراً من خلال السلاح في الجزائر مثلما فعل الأب بيتان في المغرب في 1925؟ سالان، بالتأكيد لا. ألّي؟ رجل أركان حرب وضع رجله في القبر. جوان، رائد في دفعته سانت سير 1912 التي لم يخرج منها الملازم ديغول سوى بالرقم 13 وبمجموعة ألقاب: «متر مضاعف»، «الديك»، «سيرانو[3]»، ومع الملاحظة: متوسط

(1) Gaston Alexandre Auguste de Galliffet (1830 – 1909) عسكري فرنسي عين وزيراً للحرب في حكومة والدك – روسو، وقد تميزت مسيرته الوزارية بمواقفه غير الشعبية في قضية درايفوس.

(2) Jacques Duclos (1896 – 1975) أحد أهم قادة الحزب الشيوعي الفرنسي.

(3) Savinien Cyrano de Bergerac (1619 – 1655) هو شاعر ومفكر فرنسي من القرن

في كل شيء ما عدا الطول»؟ جوان، إنه ابن حقيقي للشرطة. لا مجال، من إذن؟

3

الجنرال ديغول يسأل النقيب دو رواي إن كان يقبل بالزواج من مسلمة، وبمصاهرة عربي

ذهب إلى الغرفة ورفع سماعة الخط المباشر مع بونيفال.

– أرسل لي هذا النقيب الصغير، مساعدك. ما اسمه، ذكرني؟

– النقيب دو رواي. لعندك، سيدي الجنرال؟

كان بونيفال مندهشاً مصدوماً.

«أين إذن، إن لم يكن لعندي؟».

وبعدها انتقل إلى الصالون، وهناك وبسرعة وصل بونيفال وقدم له النقيب.

«هلا تركتنا وحدنا؟».

التماعة ألم سريعة في نظرة المساعد أول. شعور بالخزي لرؤية جنراله يفضل شخصاً غير معروف عليه، جرح عدم إشراكه على الأقل في الاجتماع. سيبقى في غرفته يراقب الساعة التي سيخرج فيها النقيب أو ربما عندما يقرر الجنرال الذهاب إلى النوم...

تجمد النقيب، بنظرة حية تنطوي بصورة غامضة على شيء من الوقاحة، حذراً ولكن دون توتر. ببزته تلك كان يشبه نمراً ضالاً في قصر ملك.

السابع عشر.

– لقد قرأت تاريخ احتلال الجزائر، وقد يفاجئك ذلك، قال ديغول. أتذكر جيداً، كما يهيأ لي، أنه كان ثمة جنرال من دو رواي في الجزائر في 1860. أأنا مخطئ؟

– إنه واحد من أشقاء والد جدي.

– أستمحيك العذر لكن قل لي أكان شخصاً مميزاً؟

– لقد رفض المشاركة في حملة على الواحات.

– هل ترغب بشرب شيء ما؟ ليس لديّ سوى الويسكي أقدّمه لك. كل ما أعدوه لي هو الويسكي! ربما أنك ترغب؟ في هذه الحالة، أسكب لنفسك. ويمكنك أن تدخن فهذا لا يزعجني.

وفجأة اتخذ سلوكاً أرستقراطياً، مع أنه كان يلومهم على أرستقراطيتهم. وكلم نفسه مبتسماً، كان يمكن لعائلة رواي أن تتخيل نفسها، قبله، تصل لمستوى آل ديغول، فقد كانوا وصولاً له صغار خيالة محدودي الأجر، أو كتبة أو موظفين حكوميين، أمناء سر محاكم أو صغار ضباط.

«وقد ترك الجيش؟... تفضل. أتمنى لو تحدثني عن المسلمين. العرب إن كنت تفضل. المسلمون أنا أساويهم ببقية البشر. ألم يفاجئك ذلك؟».

تأخر الرد.

– بالنسبة إلي، لا أبداً سيدي الجنرال. أنا أخشى فقط...

– نعم.

– ... أن ذلك جاء إلى حدٍ ما متأخراً جداً.

ترك الجنرال نفسه ينزلق قبالته على الكنبة، فما عاد يرى النقيب شيئاً آخر سوى الأزرار المذهبة لقميصه. كم من التجاعيد على هذا الوجه، تخفيها الآن العتمة، وكم من العذابات حفرت آثارها! هذه الجبهة القاسية

هذا الوجه المتصلب الحاد، كتلة هائلة معقدة، حفرت عليها الإحباطات التي تصعد باتجاه منحدرات وقمم، هذه النظرة العنيدة البندقية اللون خلف النظارت التي يرفعها أحياناً لتكشف عن عينين كعيني الذئب تحت الجفون المائلة وحزمة الرموش، الوجه المنكوب المتجمد تحت مودته الزائفة، الذي لا يحمل سوى همه الشخصي، الذي يدعي الارتباط بقوة بمصير الشعوب ليبدو حساساً على مصائر الناس... هاتان الشفتان الفارغتان الهزيلتان واللتان تخرج منهما جوارح الكلام، هذه التجعيدة العميقة التي تؤطّر شبكة التجاعيد الأخرى التي تخففها عواكس الضوء، هذا اللون الشاحب ورغم ذلك المضاء بنور داخلي – مسكرات، إنها ثمالة النصر؟ – هذه الذقن المبطنة... كم يبدو معقداً ومضغوطاً وباطنياً ومتوتراً ورغم ذلك واثقاً من قوته! أكان يوماً شاباً مفعماً بالحياة؟ رجل التاريخ، الرجل ذو الظل النحيل الهائل الذي وقف وحده في مواجهة الجميع، رافضاً الهزيمة عاقداً القران مع كرامة الوطن المهان، متربعاً على قمة رؤساء الدول ورابحاً مكاناً في لحظة تقسيم الحصص...

– أكمل.

– الجيش سيكون جاهزاً سيدي الجنرال... الجيش في النهاية، وعلى الأقل نحن المظليون... للحديث عن المساواة والكرامة للمسلمين. فهم لا يعرفون من فرنسا سوى الأسلحة. وبالنسبة لما تبقى، فيما عدا توزيع السميد...

– التعذيب؟

هل يجدر الحذر من هذه العين التي تشتعل في لمح البرق وتنغلق على ماذا؟ أي تبادل آراء ممكن بين نقيب بسيط وهذا الرجل؟ ولكنّ اليدين

اللتين، ومنذ الوصول إلى المطار، تحت منصة قنابل الطائرات، أغرتا النقيب؟ «كيدي عازف غيثار»، قال في سره. أو عازف أرغن. أو طبيب جراح. فنان، على أية حال. أيجدر بالمرء أن يحذر هاتين اليدين أم يقع في غرامهما؟

– التعذيب أيضاً. مهما كان بالنسبة إلي...

– مثل سلفك؟

– لا أعرف.

– لماذا تعتقد أنه تأخر الوقت كثيراً؟

– بدلاً من أن يصبحوا فرنسيين، باتوا جزائريين. لقد قال لنا الجنرال ماسو مؤخراً: كيف تريدون أن يشعروا بأنهم فرنسيون.. إنهم أناس يتغذون من البلوط والأعشاب؟. لنرَ هنا، علينا أن نذهب باتجاه الجنوب. وهنا... نجد أولاداً يلبسون خرقاً ببطون فارغة ينظرون إلينا ونحن نأكل. الأولاد، يكبرون بسرعة هنا وإذ.... لا أعرف إن كان عنوان فرنسي كامل الحقوق ستكفي، خاصة وأن الأوروبيين يعتقدون أنهم يمتلكون زمام الحقيقة.

– أنت لا تحب هؤلاء؟

– الكثير من الضباط سيكونون أقل... أقل تفهماً مني للمسلمين. ربما لأن الشجاعة التي تكلمتَ عنها نجدها لديهم أكثر مما لدى الأوروبيين.

توقف.

«تابع الكلام».

تابع الكلام. إنه لأمر سهل. ولكن لمَ لا يستغل كما يفعل غراس،عدوه

غراس، فرصة الضغط على القدر مهما كانت محدودة؟

«لقد درست الأزمة مطولاً، سيدي الجنرال. وبعاطفة باردة...»؟

الكلمة التي بالكاد لفظها صدمته. لو علم الجنرال أن... من المفترض أن الجنرال يجهل أن هناك مرضاً اسمه الحب. هل تعني له النساء شيئاً؟ ألم يحب يوماً امرأة؟ ربما نساء من وسطه وجماعته. الأميرة الصغيرة من سزولويرتينسكا من فارصوفيا؟ نصف بهيمة، لو علم بذلك لقلق ربما على صحة النقيب العقلية. ولكن هل يقلق كبار هذا العالم على الحياة الخاصة لصغاره؟ المشكلات السياسية والاقتصادية، العمل، النفط، هذا هو ما يهمهم. الباقي...

- على الأقل فلقد جربت. أتذكر عبارة لجول فرري كما أعتقد. من *الصعب أن تفهم مستوطناً أوروبياً يعيش في بلد عربي أن هناك حقوقاً أخرى غير حقوقه*.... أعرف جيداً أن كبار المستوطنين ما عادوا سوى قلة، ولكن الصغار أيضاً أخذوا مكانهم ويخيل لهم أن كل شيء يعود لهم. فلن يقبلوا يوماً حتى أن يكون عربياً رئيس بلدية قرية.

- أنت تنسى قرار سبتمبر [1]44.

- لا أنساه، سيدي الجنرال. ولكن في مايو 45، أحداث سطيف....

أن يذكره بذلك، لماذا عليه أن يزعج نفسه بذلك؟ فقد هزّ رأسه أساساً ونحنح قليلاً حلقه.

- اعذرني، قضت على قرارك. وفي العام 46، أليس كذلك، كنتَ قد

(1) ويقصد به قانون منح الجنسية الفرنسية الذي كان قد وعد به ديغول في خطابه في القسنطينة خلال زيارته الجزائر عام 1943، والذي ترجمه في قانون أصدره في 1944 والذي منح فيه الجنسية لفئات محدودة من المسلمين.

غادرتَ... وفي السادس عشر من مايو الماضي، كانت التظاهرة الشهيرة.

– من نظمها؟

– القليل من كل مكان. ولكنها هي الأخرى عفوية. ريح ما عصفت. وتحت ضغط الكولونيل غراس، قررت لجنة السلامة العامة أن تحسن وضع المسلمين: 1520 سعرة حرارية في الحد الأقصى مقابل 2500 للأوروبيين ومضاعفة رواتب العمال الزراعيين: ستمئة فرنك بدل ثلاثمئة. في البداية أطلق المستوطنون عقيرتهم بالصراخ ثم اكتشفوا أنها خدعة. صحيح أنهم يدفعون للعرب أكثر ولكنهم باتوا يشغلونهم لأوقات أقل. فبدلاً من يومٍ كامل، باتوا يشغلونهم نصف يوم، وتحديداً في الساعات المنتجة من النهار: من الخامسة فجراً وحتى الظهر. المردود نفسه وكأنهم لم يحسنوا الرواتب. ها هي الأخوة. الجيش يحارب من أجل جزائر فرنسية وليس من أجل المستوطنين. واعتقد الجيش أنه لن تقع المشكلات عندما يتم استغلال سكان البلاد الأصليين بشكل أقل ورفض أن يدافع عن المصالح المادية. المصالح الروحية شيء آخر. يحق لفرنسيي الجزائر أن يعيشوا هنا كغيرهم. ولكن أن يشعروا بالحب... حتى إني أعرف ضباطاً قالوا لمستوطنين: «إن جاء عربي، فليس عليه هو سأطلق النار». كما أنه عندما يصدف أن أناقشهم أذكرهم بخطاب بيجو[1]

(1) Thomas Bugeaud de la Piconnerie توماس روبير بيجو دو لا بيكونيري (1784–1849) تولى بيجو الحكم في الجزائر في 29 ديسمبر 1840 إلى 29 يونيو 1847. سلك خلال سنوات حكمه سياسة القهر والعنف والإبادة والتدمير والتهجير والنفي في إطار الحرب الشاملة التي مارسها ضدّ الجزائريين.

إلى آبائهم في العام 1847. رجل يعتبرونه إلههم. فاجأني خطابه ذاك: «أكملوا أيها السادة، قال، فلتدغدغكم الأوهام...» والآن أكمل من ذاكرتي ولكن دون أخطاء في الأساسيات: «استمروا، قال بيجو، وستولدون في الجزائر ما لن يكون وهمياً وهو ضرورة أن تطوروا أنتم بشكل دائم قدرات جيش أفريقيا كي تحموا أنفسكم من غضب العرب، البارونات الجدد (هذه هي الكلمة التي استعملها) والشعوب البائسة التي سيتظللون خلفها ليعززوا نفوذهم... قريباً سيكون على الجيش أن يدافع عن المستوطنين المبددين... هذا ما قاله بيجو.

– أكمل.

– المستوطنون، يشبههم توماس بيجو بزبد الأمم. لقد تغير ذلك، ولكن في العمق... اليوم، المسلمون مسحوقون بين الأوروبيين وبين الجيش الذي يضربهم. في شبه الجزيرة الهندية الصينية، قاتلوا في صفوفنا، كما هنا الحركيون، ورأوا كيف تم إهمال من آمن بنا ودافع عنا. إذن مسلمون فرنسيون كاملو المواطنة، لِمَ لا؟

نهض الجنرال، فقفز النقيب من مقعده.

«لقد كنت في ديان بيان فو، أليس كذلك؟ فانت تواجه هنا أزمة اجتماعية. أنت النقيب دو رواي، لنفترض هكذا، لو تزوجت من مسلمة؟ هل تقبل مثلاً، لا أقول بأخ، ولكن بصهر مسلم؟»‌.

تجمد النقيب. هل يمكن أن يكون الجنرال على علم بقصته بالصدفة؟ زواجه أمر يخصه، هو الذي ما يزال يشتم رائحة البهار والأرض الجافة.

أبدى ردة فعلٍ دفاعية:

– لَمَ لا؟

– ليس هناك من مفتاح آخر، قال الجنرال.

وبعد قليل:

– هل تعتقد بقدرتنا على ربح الحرب؟

لم ينتظر الجواب.

«سلفك، تخيل... أصعب الأمور إلى نفسه لم يكن الاستقالة وإنما الذهاب إلى الواحات. روح جميلة؟ عندما يكون المرء جنرالاً... جنرالاً خجولاً؟ كان عليه أن يبدل مهنته. لسنا في نهاية الطريق. أيضاً بالنسبة لك... أختر دائماً الأكثر مشقة، وكن أكيداً أنك لن تُخذل».

4

على ركبتيه، جلس ديغول معيداً تأمل الفكرة 298 لباسكال[1]،
في ليل هبت فيه العاصفة

رفع نظاراته وعاد إلى النافذة. ليل الجزائر يرسل له نفحات من البرودة والروائح الخفيفة.

عاد إلى نور المصابيح.

وهن خفي، بلادة. ففي حين أن روحه لم تكن يوماً بهذا التيقظ، فإن جسده ثقيل، لا يعرف كيف يتجاوب. أحياناً يشعر أن ساقيه وذراعيه تزن أطناناً. ما عدا عندما تنشطه حماسة النصر، حيث تنبثق قوة جديدة

(1) «الأفكار» هو الكتاب الذي يجمع أفكار وتأملات الكاتب والباحث والفيزيائي والفيلسوف الفرنسي بليز باسكال والذي صدر في 1670 بعد وفاته، والذي خصص للدفاع عن عقائد المسيحية.

من الأعماق، وتغمر أغصان الشجرة القديمة التي كانها، وتجعله يؤمن بالأبدية. «لا»، قال لنفسه «إننا هالكون. ديغول هالك، هكذا يجب أن يحسب نفسه، وإلا...». كلما راودته هذه الفكرة، يشعر بضرورة التعجل. فبعد أن أبعد شكوكه طويلاً، سأل نفسه إن كان عدوه الوقت سيمنحه فرصة للانتقام. ولكن لماذا يتذكره الآن؟ فهو لا يؤمن بغطرسة القدر. بالنسبة إليه كل شيء يحمل معاني وإشارات. لماذا لا يثق بما قاده إلى هنا؟ فالرب عليه مساعدته للذهاب أبعد من ذلك. هل نتخيل ديغول يصعد إلى القمة الملكية ليعود ويسقط في العدم؟ ديغول يخرج إلى فرنسا لينسحب بهذه السرعة؟ ماذا يعني كل هذا الاضطراب؟ ولكن ماذا لو كان، كما يظن سارتر وكامو، ليس من معنى لشيء؟

في الثامن عشر من يونيو 1940[1]، لم يكن هناك أي أسباب للنجاح. في البداية، لم يسمعه أحد. إنها مؤامرة إذن! لم يصدر أي رد فعلٍ لا من جنرالٍ، ولا رجل سياسةٍ، ولا حتى أي موظفٍ رفيع. في ما تلا، لم يتذكر أحد لحسن الحظ أنه تصادف في ذلك اليوم ذكرى واترلو. فلو بدلاً من أن يكون اسمه ديغول كان اسمه... يلزم دائماً القليل من السحر في أحداثٍ كهذه. من كان ليصدق ما سيقوله رجل اسمه دوبون حتى لو كان من عائلة نِمور[2]؟ نداء الثامن عشر من يونيو، لو أطلق على لسان كولونيل... «أنا الكولونيل ديغول...» ما كان ليؤخذ على محمل الجد، كان سيبدو انقلاباً عسكرياً. الكولونيل روسيل، بطل الكومونة[3]، الوحيد الذي

(1) نداء ديغول عبر الـ بي بي سي من لندن لتحرير فرنسا.

(2) عائلة نمور Nemours هي عائلة فرنسية عريقة خرج منها عدد كبير من الدوقات.

(3) La Commune كومونة باريس هي نظام جماعي مساواتي أدار باريس في الفترة ما بين 18 مارس (بصورة أكثر رسمية 26 مارس) إلى 28 مايو عام 1871. هي حركة نقابية =

كان يتمتع ببعد بصر وتصميم قوي، انتهى أمره مقتولاً. لا صدى للثامن عشر من يونيو لا في لندن ولا في أيّ مكانٍ آخر. لم يكن الفلاسفة على مستوى تحدي المستقبل لهذه الدرجة. كان الأمر يستلزم ملهماً. من يكون المؤمن سوى من يستطيع إهمال كل شيء ما عدا الإيمان؟ عرض دواعي دعوته على الفلاسفة ولكنه كان يعلم أن شيئاً واحداً هو ما يهم: الجنون. أن يحل وحده مكان كل الغائبين، دون أن يكون معه سوى المضطهدين والماسونيين واليهود والضعفاء، وأن يرفض أن يرى فرنسا تموت وأن يداس الفرنسيون تحت أقدام المحتل، يرفض، يرفض. الرب؟ لم يكن دائماً معه. في لندن، ولكي يطمئن لم يكن لديه في معظم الأوقات سوى ذلك المسكين شومان[1].

وهكذا، وبفضل ديغول، ستعرف الجمهورية في النهاية هذا الالتحام الجماهيري الذي كان ينقصها. وعلى عكس الرأي العام، فإن مندس وميتران هما من احتجا على إعادة تجديد نظام كان في طريقه إلى الهاوية...

حسب الكليشيه، وفي نظر الجميع هو الرجل الحديدي الصخري الحازم. ولكن في اليوم الذي تلقى فيه، وعبر سفير فرنسا في لندن الذي بقي وفياً لبيتـان، الإنذار القضائي من ويغاند[2] للمثول أمام المحكمة

= وعمالية يسارية، قامت بثورة تعتبر أول ثورة اشتراكية في العصر الحديث، واستولت على السلطة في فرنسا لمدة شهرين.

(1) Maurice Schumann (1911 – 1998) هو رجل سياسة وصحافي وكاتب فرنسي، عمل طوعاً كمترجم لدى القوات البريطانية التي حاربت إلى جانب فرنسا أيام تشرشل، والتحق شارل ديغول عندما لجأ إلى لندن من حيث وجه نداءه لتحرير فرنسا من سلطة الألمان، وأمسى المتحدث باسم فرنسا الحرة التني أسسها ديغول.

(2) Maxime Weygand هو ضابط فرنسي ولد في بروكسل العام 1867، وكان =

العسكرية، وكذلك ليلة داكار، ألم يخفق قلبه استشعاراً بالخطر؟ في لندن والجزائر وأنفا[1]، ألم يفكر في أن يترك نفسه ينجر؟ عندما يتكلمون عن روبيكان[2] فيما يخصّ أحداث الجزائر فهم لا يعرفون عمّ يتحدثون. أي مسيرة قطع من مكتبه الصغير في الكارلتون غاردنز في لندن وغرفة الجلوس حيث كان في الليل يستمع إلى أصوات العالم وإلى صمته هو، بالقرب من إيفون التي تمارس أعمال الخياطة! يا للخيالات والمصائر المتحطمة ويا للخزي! لكنه لم يكن الرجل الذي يندم. برأس مرفوعة، بسخرية توبخ المتردّدين، انكبّ على تنفيذ الحلول. خسارة كل شيء؟ حسناً، خسارة كل شيء لم تكن مستبعدة. لن يجعلها نهاية حقيرة، لا ندم، لا صلاة اعتراف، لا توبة، لا أسف. ففرنسا تستحق أن نحيك الدسائس وأن نحاول للضرورة أن نخوض المواجهات الكبرى. السعي للسلطة، أي مدرسة هذه! خلال رحلته في ما تبقى من الإمبراطورية الفرنسية القديمة، لمح لاحتمال العودة. وللنائب السابق للمارتينيك الذي صرخ: «سيدي

= القائد العام للقوات الفرنسية، الذي أصدر مذكرة استدعاء لديغول إلى المحكمة العسكرية لخروجه عن المؤسسة العسكرية ومطالبته بتحرير فرنسا من الألمان. ولكن هناك قصة ثانية بين ديغول وويغاند، حين رد ديغول على السؤال عما جلبت لنا الحرب الفرنسية في المكسيك، أجاب أنها جلبت لنا ويغاند، في إشارة إلى الشكوك بأصول ويغاند الذي كان مجهول الوالدين.

(1) أنفا هي مدينة مغربية على الساحل المغربي، وقد كانت مدينة قائمة بذاتها وأصبحت اليوم حياً في مدينة كازابلانكا أي الدار البيضاء. ويشير الكاتب هنا على الأرجح للمؤتمر الذي أقيم فيها في العام 1943 للحلفاء لوضع إستراتيجيتهم الأوروبية في الحرب العالمية الثانية، والذي حضره ديغول.

(2) روبيكان، هو نهر في إيطاليا. ولكن استعماله هنا كما في السياسة عامة في عبارة «اجتياز روبيكان» يعني اعتماد العنف الأقصى بهدف إحلال السلام، وذلك بناء على حادثة اجتياز يوليوس قيصر لنهر روبيكان.

الجنرال يجب أن تنقذ فرنسا!» أجابه: «أنا جاهز...».

ابتسامة غضّنت وجهه وسلسلة كاملة من الخطوط المنحرفة المتناقضة أو المتوازية تموجت على جبهته وخديه وأرنبة أنفه وشفتيه.

على بونيفال أن يراقب إن كان ضوء ما زال مشتعلاً في جناح الجنرال. فالنقيب الصغير لم يبقَ طويلاً. هل يحاول بونيفال أن يعرف ما الذي قيل؟ وها هو ديغول يطفئ مصابيح الصالون واحداً بعد الآخر. وهذا ما يشعر بونيفال بالراحة.

مر بالغرفة، وقرفص برجلٍ واحدة، على طرف السرير، أغمض عينيه وبحث في ذاكرته عن «الفكرة» 298 لباسكال. «من العدل اتباع من هو عادل، ومن الضروري أن يكون هذا العادل قوياً. فالعدالة بائسة من دون القوة، والقوة استبدادية من دون العدالة. العدالة بلا قوة يمكن نقضها لأنه دائماً هناك أشرار، والقوة بلا عدالة مدانة. يجب إذن الجمع بين العدالة والقوة، لنجعل ما هو عادل قوياً أو ما هو قوي عادلاً...».

هذا المساء، كل شيء يبدو له مختزلاً في هذه الفكرة الملكية. العدالة لمجموع المسلمين، والقوة من يعترض عليها؟ أولئك الذين هتفوا باسمه طوال اليوم؟ الشرعية؟ لقد منح ما يشاء. المشروعية أمر آخر؛ إنه الوحيد القادر على ادعائها منذ أن انتشل فرنسا من الغرق.

وإذا به يصيخ السمع إلى خشخشة مكتومة. دائماً هناك شيء ما يذكره بفاغنر[1]. قذيفة؟ مدفع؟ عاصفة بعيدة؟ «إذا قلت إننا يجب أن نكون

(1) على الأرجح يقصد هنا ريشارد فاغنر (1813 – 1883) وهو مؤلف موسيقى وكاتب مسرحي ألماني شهير. ويعتبر رائد النزعة الرومانسية في الموسيقى الألمانية.

كرماء وليبراليين، لاتهموني بالاستسلام. وإن توسلت ضرورة الوجود الفرنسي، لرفضوا أيّ حل سياسي...».

تحت أصابعه التي رفعها إلى صدغه، شعر بالشعر وقد نبت على ذقنه.

«يا إلهي»، قال همساً، «أنت الذي هو الضوء نورني، وأنت الذي هو القوة الكاملة، أعطني القوة...».

الجزء الثاني

الجنة المفقودة

عندما تنزل بالقادرين في الأرض بعض المصائب الكبيرة، لا نربط ذلك بغيرة الآلهة بل بعدالتها.

بنيامين كونستانت

وخرج ملاك آخر من المذبح له سلطان على النار وصرخ صراخاً عظيماً إلى الذي معه المنجل الحادّ قائلاً أرسل منجلك الحاد واقطف عناقيد كرم الأرض لأن عنبها قد نضج».

سفر الرؤيا (الآية 18)

الفصل الأول
الصحراء

أتذكّر أولئك الجنود التائهين عند حدود العالم يتردد صداهم في الفضاءات المجهولة (...) أولئك الجنود ماتوا وانتهى الضجيج.

شاتوبريان– حياة رانسيه

1

القائد لو مير يقود فوجه باتجاه الجزائر حيث الجنرال شال[1] قد ترأس للتو حركة عصيان

ليل الواحد والعشرين والثاني والعشرين من أبريل 1961، عند الواحدة فجراً انفجرت العاصفة.

سيارات دودج[2] بكامل أضوائها اندفعت صافرةً. صف طويل من الشاحنات، سرب لا نهاية له، قوة لا يمكن لأحد كسرها لأن لا أحد يجرأ على استعمال السلاح ضدها.

عين متجمدة، وشفتان هابطتان قليلاً، وأنف مشنف دائماً باتجاه الروائح الشحمية، وجبهة تحت البيريه حيث تلمع الشارة الفضية المصنوعة من جناحين عريضين مفتوحين، إنه القائد لو مير، القائد المؤقت للفوج الأول الأجنبي للمظليين، وهو الفوج الذي يكتفى بالإجابة بنعم أو لا، بالأوامر وإبطال الأوامر، هو الفوج الذي ينفذ ببساطة. هل يمكن أن

(1) المقصود هنا الانقلاب الذي سمي بانقلاب الجزائر، والذي قاده في 23 أبريل 1961 أربعة جنرالات هم موريس شال (الذي كان قائداً للساح الجوي، ثم مساعداً جوياً للجنرال سالان في الجزائر، والذي كان ديغول قد نقله من الجزائر إلى فرنسا واعتبر هذا الانتقال حرماناً من الجزائر. وقدم استقالته في يناير 1961) وإدموند جوهاد وراوول سالان وأندريه زيلير ضد سياسة رئيس الجمهورية الجنرال شارل ديغول وحكومته بحجة تخليهم عن الجزائر. وهو الانقلاب الذي تم قمعه. وذلك بعد تراجع عدد من جنرالات الجيش عن دعمه في اللحظة الأخيرة.

(2) دودج (بالإنجليزية: Dodge) هي شركة سيارات أمريكية تأسست عام 1900 في ديترويت، ميشيغان تحت مسمى شركة الإخوان دودج. أول سيارة أنتجت بالكامل من قبل الشركة كانت عام 1914.

نطلب من قائد مئة[1] أن يكون ذكياً؟ خاصة خاصة هو، لا مجال.

تحاشت سيارات الدودج سطاوالي والطريق الساحلي، وسلكت الطريق المباشرة لمدينة الشراقة[2]، بفرح كئيب مخيف لا زينة فيه. لا بدّ من أن قادة الانقلاب في الأليزيه ناموا الآن أو أنهم ينهون جولة «البريدج» أمام كؤوس من الويسكي. لكنهم أبقوا مخبريهم يقظين جيداً، سمموا الجزائر بأخبار مغلوطة وملأوا المطارات برجال الشرطة، فالفرصة التي طالما تمنوها باتت هنا، وقد انقضوا عليها...

حاجز؟ تمزحون. شرطيو زرالدة الذين يتجسسون حتى على لهو المعسكر، لا بد أنهم وشوا عن وجود حركة وأضواء.

ادعوا أمر مهمة كاذب فمروا. هؤلاء الشرطيون المغفلون مع صوتهم الأجش وعيونهم الكبيرة. لا بد أن الهواتف ترن في كل مكان، وأن غراس، في القيادة العامة يتظاهر بالقلق. حاجز ثان.

– لدي أمر بتوقيفكم، صرخ أحدهم.

– وأنا لدي أمر بالتقدم، ابتعد عن طريقي أنت تزعجني.

أسقطوا في طريقهم بعض صفائح البنزين الفارغة. وانطلقوا.

وبعد الظهر، جاؤوا ليصطحبوا القائد إلى فيلا تاغاران حيث حشد من الوجوه التي غابت منذ عام عاد ليطفو وسط مؤامرة. وفجأة هذا الجسد الضخم، هذه الرقبة العريضة، القميص الكتاني الكاكي مع خمس نجوم على خلفية زرقاء سوداء. كان ذلك صحيحاً إذن؟ بالكاد لحظة مفاجأة.

(1) رتبة عسكرية قديمة منذ الرومان، وتعني قائد وحدة عسكرية يتراوح عدد جنودها بين الثمانين والمئة فقط.

(2) الشراقة مدينة جزائرية تابعة لولاية الجزائر، تقع غرب العاصمة وتبعد عنها ب 16 كم.

الوجه المشدود، ابتسامة مخطوفة بعض الشيء، صوت ذو لكنة جنوبية خفيفة: «إن مشيتم، فستكسبون. وخلال ثلاثة أشهر سنقدم الجزائر لفرنسا على طبقٍ من الفضة. القسنطينة معنا وبلعباس أيضاً. جميل جداً كل هذا، ولكن لو استجبت يا لومير...».

ضيّق شال حاجبيه وفي حركة قاطعة: «أنا أرفض».

الكثير من الإهتمام بضابط عادي بسبب اشتهاره باستقامته؟ لأنه كان، مثل دو رواي، من عائلة جنرالات شارك أحدهم في حملة 1830 في القيادة العامة للسيد بورمون، أو لأنه يقود فوجاً حشده يعني حشد الباقين؟ ولكن بما أن شال يملك أساساً كل جسم الجيش في القسنطينة... بالنسبة للومير، فإن البلدوزر شال سيسحق كل شيء. ولا يمكن لأحد أن يرمي القذى في العيون مثل هذا الساحر سالان. إذن سجون الغوستابو[1] لتسعة عشر عاماً، النفي إلى بيشنوالد، وكارثة سانت سير، شبه الجزيرة الهندية الصينية، ديان بيان فو، الأسر لدى الفيتناميين، الجزائر، بور سعيد، الجزائر من جديد؛ شيء لم يذهب سدىً. كان بإمكانه أن يخمن موقف شال قبل أن يفشل مرة أخرى مع الورثة. لا بل إنهم أسوأ من ذلك. فالورثة لم يكونوا هنا سوى من أجل التحضير لوقف إطلاق النار. عاد شال، الخيانة كانت لتتمثّل في التردد. «في خدمتكم...».

عند الحاجز الثالث، أيضاً لم يخففوا السير. كانوا يصوبون عليهم

(1) الجيستابو أو الغوستابو أو البوليس السري الألماني Gestapo وهو أكثر أجهزة الأمن الألمانية شهرة وسرية وقد كان المسؤول عن العديد من عمليات الاغتيال والتدمير خلال فترة الحكم النازي. ولعل من أهم صور تعسف الغوستابو يتمثل في سلطة الجهاز السري في احتجاز الأشخاص دون دعوى قضائية.

البنادق عندما وفجأة سيارة سيتروان دي. أس سوداء ترفع علماً صغيراً ثلاثي الألوان انحشرت بين شاحنتين من الموكب وأجبرته على التوقف. ثم ظهر رجل أصهب بجبهة واطئة تعلوها قبعة، وكأنه وجه بنظارتين ركب فوق ساقين قصيرين، سمين يضرب الأرض برجليه، نامبوس[1] – الجنرال غامبييز – ديك صغير يتقدم بمنقاره ويضرب الهواء بجانحيه على ضوء الكشافات.

«توقف، أنا قائدك الأعلى».

ضحكة وقحة. من هو القائد الأعلى؟ اغرب عن وجهي.

«أنت ما عدت شيئاً».

عبر عدستي نظاراته، كان نامبوس ينظر على بعد بضعة سنتيمترات من صدره[2] إلى مشعاع سيارة الدودج وهو يتراجع ثم يتوجه إلى مدخل محطة وقود، محاذياً سيارته الـ دي.أس، لينحرف بعدها بسرعة، يتبعه كامل الموكب بقرقعة محركاته. لقد بدا مصدوماً بالفعل، نامبوس! هبط من سحابته وأومأ مهدداً. أن يفعلوا معه هو ذلك، هو الذي كلفه رئيس الجمهورية أن يوزع الكلمة الطيبة بصوته اللاثغ، فلنصلِّ أيها الأخوة، فلنخضع لإرادة الله، وفي ليل من أبريل...

استوى لومير في جلسته. بالنسبة إليه لم يكن ذلك صعباً. يكفي إعلان

(1) Nimbus وهو لقب الجنرال غامبييز (القريب من اسم عائلته) والذي يعني في الوقت نفسه السحابة السوداء الماطرة، ويستخدم الكاتب لاحقاً اللقب لاعباً على المعنى. أما الجنرال غامبيز Fernand Gambiez (1903 – 1989) فكان قائداً أعلى للقوات المسلحة في العام 1961 حين أوقفه قادة الانقلاب ضدّ ديغول.

(2) إشارة إلى التصاق رأسه بجسده وقصر رقبته.

الإنذار، وتعبئة الشاحنات بالعسكر، ويتقدم بشاحنة عسكرية على رأسهم، يدير المحرك ويضيء كل الكشّافات ويقتحم كل شيء.

واحدة واحدة، كانت سيارات الدودج تزعق كصهيل جيش من الخيول. وصل الموكب إلى أعالي الأبيار، لتنكشف أمامه فجأة مدينة النجوم، وجواهر الخليج وأضواء السفن في المرسى على سطح البحر النائم. سيقتحمون مدينة الجزائر. يا لسعادة القائد لومير.

بعد الأبيار، افترقت الكتائب. هو باتجاه مبنى الحاكم العام حيث سيتمركز شال وحيث ستشهد الساحة ساعات عصيبة. كل شيء سينفجر. المغاوير سيملأون الثكنات ومقر المحافظة ومراكز القيادة. ولكن كيف يمكن التخلص من هذه الـ دي. أس العنيدة التي نرى مصابيحها ومن هذا المتصلب نامبوس؟ كزّ لومير على أسنانه وقاد الرجال المكدسين على المقاعد، هذا الجيش المؤلف من موظفي مصارف سابقين وطلبة فاشلين وتجار مفلسين وعشاق محبطين يريدون أن ينتقلوا من انتظار الصدف في هذا العالم إلى الحبّ المطلق. هل يمكننا أن نبقى موسومين بالخزي وننام كل مساء في سرير عاهرة عجوز؟ هذا هو اللغم! لومير أين ضللت؟ «الجزائر على طبق من فضة»، العبارة التي كانت تسحره.

ضباب يطفو فوق الأرض التي ما زالت ساخنة، مع روائح المدينة التي يتقدم نحوها بسرعة هدير الدودج: عبق المشاوي والفطائر المقلية، شذا الكمون وجوز الطيب المخلوط بالبهار الأخضر ورائحة البول في القصبة، الصابون بالورد ومسحوق الأرز في الأحياء الراقية، يانسون وخشب مقاهي باب الواد بستائرها الحديدية المقفلة، خشب الصندل، الكافور وقطران المرفأ، غاز الفحم الحجري في معامل بلكور وملح الشواطئ.

وللحظات قد نحسب أننا نشم رائحة مصب النهر الأخضر في الحراش على مشارف ميزان–كاريه[1]، عرق جياد ميدان السباق في الخروبة، لحاء شجر البرتقال وأريج إبرة الراعي في المتيجة، الزفير الحاد لسوق السمك، رائحة برونز نصب الدوق أورليانز فوق حصانه، رائحة التين في ساحة الحكومة، توابل المطاعم الصغيرة في سوق لا لير وعفونة سلال المهملات الفائضة. وهذه رائحة سجق...

خيل له أن الجزائر المضطجعة على الهضاب قتلها كل الحب الذي مر عليها، في حين أن أسراب طيور ليلية – ولكن هل رأينا يوماً أسراباً من البوم[2] – تخفق في السماء الملتمعة.

2

في الأليزيه يوقظ الهاتف ديغول في منتصف الليل. السيدة الأولى تعد له القهوة. شائعة باريس

من جديد خرير وجيز، خجول، مكتوم، يكاد يكون جباناً. إنه الهاتف.

أضاء الرئيس المصباح على منضدة السرير، ووضع نظاراته. فانجلت أمامه الغرفة بستائرها المصنوعة من الساتان الأخضر، دون تلك اللمعة القوية التي تميز جميع الستائر الأخرى في الأليزيه. هل نام؟ خيل له أنه عاد

(1) Maison Carrée وهو الاسم الذي أطلقه الفرنسيون على منطقة الحراش في ولاية الجزائر، خلال فترة استعمارهم، لكنها استعادت اسمها العربي لاحقاً والذي هو على اسم النهر في واديها.

(2) باعتبار أن البوم لا تتحرك جماعات وإنما بشكل فردي.

للتوّ من مسرح «كوميدي فرانسيز» ماذا هنالك في هذه الساعة؟ حرب نووية؟ ليس هناك من توتر عالمي حالياً.

رفع السماعة بسرعة، لأن مدير مكتبه يثقله بالإحتياطات التي يتخذها من أجل راحته إذ سرعان ما يفصل خط الهاتف بعد لحظات. إنه صوت رئيس الوزراء الذي تلقى للتوّ اتصالاً هاتفياً من ممثل الحكومة في الجزائر: في الجزائر، المقر الصيفي محاصر من قبل المظليين، والجيش يحتل مقر المحافظة والمباني الرسمية. بدا صوت دوبريه أقلّ صرامة من العادة، أقل حدةً، وللحظات شبه مكسور.

- ومن يتزعم كل هذا؟

- الجنرال شال.

ردة فعله الأولى بدت ممازحة لكنها سرعان ما تحولت إلى ابتهاج غريب. فهو ربما سيواجه محنة وربما مأساة؛ نصيبه، قدره، حظه.

في السرير المجاور لسريره تحركت السيدة الأولى: «ماذا يجري؟».

عبّر بحركة عادية، إشارة ضيق من طفل دمث.

«لا شيء، نامي. سأذهب إلى الصالون الأصفر. أسمعتِ؟ أولئك السذج ينتفضون».

لوت السيدة الأولى رأسها قليلاً. فقد حدثها قلبها بأن ذلك سيبدأ من جديد، دفعت عنها اللحاف:

«سأذهب لأعدّ لك القهوة».

نهض وارتدى المعطف الداخلي الحريري الذي كان ملقى على الكنبة، وبسرعة هدّأ توجسه الطبيعي من تطور الأحداث وصولاً حتى صراع عالمي. إن كان هناك تحريض، فلا يمكن أن ينقلب الجيش كتلة

واحدة. فقد اختبر الجيش بما فيه الكفاية وطهره جيداً، وأنشأ فيه خلايا من رجاله الخاصين، وأحاط نفسه بالكثير من المساعدين. نجمة واحدة إضافية[1]علقت ماسو على صليب النظام. كما أنه وحتى في حالة الحرب، لم يكن الجيش يوماً على رأيٍ واحد. لقد خبرنا ذلك في 1940. وإذا تطلب الأمر ستسحق المتمردين والعاصمة، سوقة عسكرية[2] إضافية، ونياشين وأوشحةٍ لمكافأة الأوفياء.

ضوضاء باريس التي يخفف منها سياج شجر الكستناء في الحديقة، بدأ يهدأ قليلاً ليسود في الغرفة صمت زائف. هذه المدينة العصبية التي لا تتوقف عن الحركة والضجيج والهجوم أو الاحتفال استكانت للراحة أخيراً. وعند الخامسة فجراً، تدور العجلة من جديد، ويصل مجدداً هدير البحر بحركته العصبية، فيستشعرها هو بشكل خاص هو الذي ينام تاركاً نوافذه مشرعة، في آخر الليل وعند الفجر كما في وضح النهار حين يكون كل شيء غارقاً في حمى المدينة وارتجاجها الكبير الذي لا يهدأ أبداً. على الجادة الرئيسية، ورغم أنها أقلّ ترديداً للأصداء، بسبب عرض الشارع ووجود الأشجار، إلا أن إشارت المرور تحدث، في اللحظة التي تدور فيها السيارات من جديد، مثل انسكاب شلال. في الليل، تعيده الذكريات أحياناً إلى بواسيري[3] التي ما عاد يقربها سوى من بعيد، أحياناً على متن المروحية التي تسبب الدوار لإيفون، ويغرق في صمت كولومبه مع خوار

(1) ويقصد هنا النجمة التي أضافها ديغول لماسو بعد دوره الرئيسي في عصيان العام 1958 الذي أعاد ديغول للسلطة. وعلى أثر ذلك رفع ديغول رتبة ماسو العسكرية إلى جنرال قائد، ثم عينه قائداً للجيش في الجزائر. لكنه عاد وأقاله من مهمته في الجزائر في 1960 بسبب مواقفه النقدية تجاه سياسة ديغول غير المتمسكة بالجزائر الفرنسية.

(2) سوقة عسكرية أي مجموع الفتيان المدعوين في يوم واحد للخدمة.

(3) Boisserie كانت مقر السكن الشخصي لديغول في قرية كولومبه.

بقرها والنعيق الشجي للبوم. هنا، دائماً هذا الطنين المسعور للكلمات، الوشوشات، المكائد، الأشغال، الحب، صرير الطابعات، هذر الراديو، كل ما يتشكل مثل عاصفة غامضة في الغيوم.

يعيش في الأليزيه منذ ثلاث سنوات ويتحمّل بسرور مسؤوليات الدولة، يقضي على أعضاء مجلسه الاستشاري من الوزراء والمساعدين الشخصيين كما كانوا يقتلون قديماً الجياد، يعنّف من يضعفون، ويبعد من أنهكتهم الوظيفة. لا يتوقف عن السفر والزيارات والنقاشات، يأكل بشراهةٍ ويشرب قليلاً، ولا يقلق لأمر السمنة، يقرأ كثيراً، ويكتب بنفسه عن إصدارات الكتاب الذين يهدونه إصداراتهم، باذلاً من النشاط ما يجعله ينتقم من اثني عشر عاماً من الخمول.

في الصالون الأصفر وبعد المكتب الصغير للسيدة الأولى، أبعد من النوافذ، طنين يتضخم: همس أصوات وأزيز هواتف وطرق كثيف للخطوات على السجاد، وطقطقة أبواب تفتح في الباحة الرئيسية. سيوقظون الحي بأكمله.

كل الأسباب التي تجعله لا يحب الجزائر تهاجم ديغول من جديد. هناك، الآن يكرهونه، يزينونه بالأعلام لو مات، أما حياً فيظلموه. ففي الجزائر يمكن لشال أن يبرز. شال الذي بدا شديد الجبن في قمع حركة التمرد العام الماضي، لماذا يظهر اليوم كل هذه الجرأة؟ أكان يخفي إذن لعبته؟ في السابق، لم يكن يحلف إلا بديغول، ولم يبد يوماً أيّ اعتراض على الخطوط العامة لسياسته في الجزائر. آه لو تصرف كفيديل كاسترو... لكان حلّ كاسترو في الأليزيه. شال كان جريئاً مزيفاً، يتباهى بعضلاته في مسرحية مليئة بالمغفلين: أما جوهاد وزلّر اللذان ذكر اسميهما رئيس

الوزراء عندما اتصل به، فهما لا يمثلان الخطر الحقيقي. سالان سيظهر من جديد بالطبع. إسبانيا السعيدة جداً بالتخلص منه، سوف ترسله إلى الجزائر وهناك... سالان، لم يكن فقط الفاسد الوحيد بين الأربعة، وإنما الأكثر احتيالاً والأكثر طموحاً. أيّ ثقة يمكن أن يكنها له الجيش الذي لم يقده سوى في معارك صغيرة؟

وضعت السيدة الأولى الصينية على الطاولة واختفت.

سكب لنفسه القهوة، واستنشقها راشفاً القليل منها.

ما كان جسيماً في هذه المسألة هو أنها لم تكن جدية. سيترك خصمه حائراً جاهلاً لنواياه حول مدى سلطته وردود فعله. يختبر قدرات الرجال في الميدان ولا يبدد سلطته عبثاً. لا يغامر بكلمات غير مفيدة. يمكن لمرسوم الطوارئ أن يخدم لكنّ القانون لا يكفي: علينا أن نلجأ إلى الشعب كما في يناير 1960. ماذا يريد شال؟ فشال لم يُعرف سوى من خلال ديغول.

خارجاً من الظلمات، سيعود إليها بضجيج. هو سالان والآخرون، عندما سيضربون، آه! المساكين...

نظر إلى ساعته، إنها الثانية فجراً تقريباً. حسناً، سيعطي أولى توجيهاته ثم سيحلق ذقنه ويرتدي ثيابه.

لف عليه أهداب معطفه المنزلي إذ شعر بنوع من التشنج في ذقنه. وضع يديه على الطاولة. ظلال جعلت لوجهه هيئة منحوتة، قناع لا يمكن قراءة ملامحه.

3

يلتقي القارئ مجدداً القائد دو رواي مع قافلة عسكرية وسط الصحراء

تفككت المقاطع الصوتية للكلمة التي بالكاد وصلت، في الهواء الجاف، وتذبذبت.

«...كومون–دون...».

الرجل الذي كان ينادي القائد دو رواي، كان غانتر، سكسوني[1] صافٍ بشفتين كشفرتي سكين، كان ليشبه بقبعة ذات حوافٍ عريضة جندي مدفعية في جيش رومل. لكن بقبعته العسكرية وردائه الكتاني هذا، فهو جندي خيالة. على هذه المسافة، ثلاثمئة متر ربما، وعلى الرغم من ضياعها في الصرخة، إلا أن لكنته كانت واضحة.

«... كوم– مون – دو – ون...».

علينا أن ننطلق ولكن لماذا هذه العجلة؟ بهذه الوتيرة، يمكن أن نجتاز بالكاد مئة وخمسين كيلومتراً في اليوم، ومئتي كيلومتر إن جرى كل شيء على ما يرام. في كل لحظة، تتعطّل شاحنة أو تغرق عجلاتها في الرمل، فيغرزون الحواجز المشبكة تحت العجلات ويصلحونها. يتكرر ذلك إلى ما لا نهاية. إن كانوا في كثبان الرمل أو بين الصخور، فهم يتقدمون ببطء وكأنهم يمشون على أقدامهم. أي أسطورة هذه التي تتحدث عن اجتياز فيلق[2] عسكري للصحراء في لمح البصر. الفيلق حاله حال الآخرين. بين

(1) سكسوني هي صفة الشعوب الجرمانية القديمة.

(2) الفيلق وحدة عسكرية مشكلة من 2 إلى 5 فرق وعدد أفرادها من 20000 إلى 45000 فرد، ويقودها عادة ضابط برتبة لواء.

صفوف الفيلق خيرة الميكانيكيين في شركة مرسيدس، لذا يتكفل بمعالجة كل المشاكل الميكانيكية. هل يختلف عن غيره بشيء؟ فالفيلق مثل بقية الجيش، وليس أكثر حظاً منهم. في المقابل أكثر ما يقدّره كزافييه – ماري دو رواي في الفيلق، هو إخلاص الجنود لضباطهم. عندما يتذوق الضابط طعم الإخلاص هنا، فإنه يمضي كل حياته في الفيلق. اهتمام غانتر به على الرغم من أنه لم يكن هنا سوى بالصدفة: أدوات نظافته الشخصية موضبة إلى جانب كيس نومه وأرض الخيمة مكسوة بالأغطية ومطرة الماء ملأى دائماً بالماء. وفي الليل ما إن يسعل، حتى يسمع صوت غانتر يسأله إن كان بحاجة لشيء. وعندما يفيق، يجد بنطاله مكوياً والسترة والقبعة منظفتين، والحذاء ملمعاً. ألا ينام إذن غانتر أبداً؟ خاصة أنهم أنهم في فرقة متنقلة فحسب.

في فرق النخبة، أو الفرق الأجنبية للخيالة أو المظليين...

«... كوم– مون– دون...».

استسلم أخيراً واستدار باتجاه الصرخة ورفع ذراعه. توقف غانتر. هناك عطل. بدأ يشعر أنه بخير. الشمس لاهبة لكن يمكن احتمالها. في البعيد، ترتجف حافة المكثبة[1] الكبيرة، مثل شاطئ بحر أشقر. الشيء الحقيقي الوحيد والذي يكاد يضيع في كومة الصخور والرمل، هو هذه الدودج المعطلة.

منذ الفجر، يدورون في وادٍ معزول، على مسافات متباعدة بينهم حتى لا يعميهم الغبار عندما يهبّ الهواء كما في مثل هذا اليوم، في الاتجاه نفسه لمسيرهم، إلى الجنوب شرق. كل سائق يندفع في إثر من يسبقه متحاشياً

(1) المكثبة هي أرض صحراوية تكثر فيها الكثبان.

أجمات الشوك وكتل الحجارة الرملية، وفي بعض الأمكنة الجرف الرملي. يتبعون خط ما كان من المفترض أنه قبل ألفي عام نهراً على أطراف غابات ومستنقعات. والآن، هو منخفض بين هضاب فحم الأنتراسيت والكثبان الحمر، تتخلله خطوط ذهبية بيضاء، ثم جرف منحدرات صخرية متحللة ما زال بعضها متماسكاً إلى أن يأتي يوم أو دهر يجعله ارتجاج في الأرض ينهار. سُهب طويلة حيث أحياناً قطيع من الماعز أو الجمال تهرب في عدو مترنح مضحك. يظهر رجلٌ أسود، إنه الحارس، كومة من الخرق، يرفع يده إلى جبهته ليرى بشكل أفضل. ممّ يعيش هذا الرجل بين هذه الحمم؟ أي معلومات ينقل؟

وإذا بقرقعة غريبة: وقعت الدودج في حفرة لم يلحظها السائق، فانكسر المفصل المتحرك. بدأ الرقيب بالبحث تحت هيكل السيارة. والتر، النمساوي، أخرج العدة والرافعات، وسحب غانتر الهوائي، وألصق مكبرات الصوت بأذنيه وحرك الأزرار. لقد أمسوا وحدهم، وسط صمت كوكب فارغ، تحت سماء يطوف فيها طخافٌ[1] على ارتفاعات شاهقة، ثم ينسحب بحركة لولبية.

- كم سيلزمنا من الوقت؟ أيّ سؤال هذا! ومع هذا المزاج والانزعاج العدوانيين. وهل يعني الوقت شيئاً للرقيب؟

«... لا أعرف سيدي القائد».

بظهر مليء بالكدمات التي ما عادت تنفع معه الوسائد الوثيرة ولا كوابح الصدمات في العربات العسكرية، ذهب دو رواي باتجاه سراب مجرى مائيٍ وأشجار قصب مائلةٍ ونخيل. وفي مكانٍ أقرب نبع أزرق،

(1) الطخاف هو السحاب الرقيق الشبيه بالصوف الذي يكون على ارتفاعٍ عالٍ.

بحيرة صغيرة من حيث تطير الورشان[1] التي تغط، بعد تحليق بالأجنحة الخافقة، في أجمات الدفلى. أبدية تسحبنا إلى العدم الذي كناه؟ إلى الرب؟ أيّ معنى في اقتياده الرجال إلى هذا المكان وكيف يمكن الخلاص مما يضغط على الصدور؟ عاصفة رملية تهب ولن يتمكن دو رواي حتى من الوصول إلى سيارة الدودج.

العاصفة الرملية تسمى الشرقي عندما تهب من الجنوب- شرق، أو الشهيلي[2] عندما تهب من الجنوب غرب، وفي المتيجة غيبلي[3] لأنها تأتي من القبلة، أما في الجنوب فلا تهب فجأة، بل تعلن مسبقاً عن نفسها. يقفل الأفق متخذاً لوناً نحاسياً رصاصياً، تسقط غيمة مشحونة بالكهرباء، مفرقعة بالشرر، النفخة الأولى المغناطسية الخارجة من باطن الأرض تدفع فجأة بالقليل من الرمل، وتجعله يدور كالأمواج المتكسرة، كارتطام الزبد، تدفقات قصيرة تقوى شيئاً فشيئاً حتى تغطي كل شيء وتغرق كل شيء وتعتم كل شيء خلف حاجز مظلم.

ما عاد هناك ما يميز حجراً عن آخر ووادٍ عن آخر ومكتبة عن أخرى. ابتلاع وتشابك لكل شيء. على بعد ثلاثمئة متر من الشاحنة، إن بدأت العاصفة الرملية تضرب النباتات الشائكة والمنحدرات، سيضيعون. في الصحراء كل شيء يتشابه... أضف إلى ذلك الخرائط غير الموثوقة... على

(1) الورشان نوع من الحمام البري.

(2) الشهيلي هي التسمية التونسية لأحد أنواع الرياح التي تسمى في المغرب بـ الشرقي وفي جزر الباليار تسمى كلما (calima). والشهيلي هي ريح صحراوية جنوبية أو جنوب شرقية، عنيفة وجافة وحارة تهب على شمال أفريقيا والسواحل المتوسطية لأوروبا الغربية.

(3) غيبلي هو الاسم الذي أطلقه الطيارون الإيطاليون إبان الحرب العالمية الثانية عل الرياح الحارة التي كانت تهب من الصحراء وكثيراً ما واجهوها في رحلاتهم.

المرء أن يمضي حياته هنا ليتذكر بدقة منخسف أرض وهيئة صخرة محددة ومجموعة كثبان. الأكثر اطلاعاً سيخطئون. البوصلة المخربة ما عادت قادرة على تقديم أي مساعدة. العاصفة كنست كل شيء، سوّت كل شيء، حولت الشاحنات إلى كثبان، وغطت القافلة بمسحة يد.

بدأ دو رواي يقلق من إمكانية أن يبدا الثوار تحركاً بين جانت[1]، آخر واحة جزائرية عند الحدود، وبين رهاط من الجهة الأخرى من الحدود، في الأراضي الليبية. أليست مجازفة دون تقنيين ودون تموين تقريباً؟ إلا إذا تحركوا في الليل واختبأوا في النهار، لأنه لا يمكن لأيّ قافلة أن تنجو من عيون الطائرات. يصعب تخيل وجود ثوار هنا.

إنها دون شك حجة لدى قائد أركان الشعبة العاشرة للمظليين لإجبار القيادة العليا.

كانت فكرة غراس أن يقود عملية على بعد كيلومترين من الجزائر، بعيداً عن الفنادق ومجال حركة الصحافيين، في الأماكن التي يضيع فيها صوت المدافع. بين بعضهم بعض وبموافقة الأغواط[2]، وقد كلف دو رواي بذلك. «اذهب واختبر ذلك. ستذهب في مهمة روتينية مع وحدة صغيرة، ستستطلع وتعود. ليس لديّ شيء ضد هذا الكاهن دو نامبوس، ولكننا لسنا بحاجة إلى البركات لنربح هذه الحرب. يفترض أن تكون كتيبة واحدة كافية لهذه العملية. وسوف نرفّعك عند عودتك. ستكون سيد نفسك ويمكنك أن تقود الكتيبة كسيد. بالمناسبة، تمتع بأولاد نائل[3]،

(1) جانت هي واحة تقع في الجنوب الجزائري تابعة لولاية إليزي تبعد 2300 كم عن العاصمة الجزائر في قلب الصحراء غير بعيدة عن الحدود الليبية.

(2) الأغواط واحة جنوب الجزائر وتبعد عن الجزائر العاصمة زهاء 400 كلم.

(3) أولاد نائل هم قبيلة عربية كبيرة العدد تتشكل من عدة أفخاذ تنتشر في كامل أرجاء =

فهذا سيغيّر لك الجو...».

واليوم، بعد خمسة أيام من ترجرج الشاحنة عبر الصخور والجبال المظلمة ووديان الضوء في طاسيلي ناجر[1]، على امتداد الطريق المزروعة بعظام الجمال الميتة والقبور العسكرية التي أتت الريح على الشروحات فيها، وسط ضجيج الحمولات الموضبة بشكل سيء والتي تقعقع في الشاحنات وصرير موصلات المفصضل المتحرك، يعود باتجاه غانتر منتشلاً حذاءه من الرمل في مشية دبقة كمشية النمل. ومع كل خطوة، يرتطم المسدس بخاصرته في إيقاع شبه كابوسي. لَمَ المسدس، يمكن السؤال. إنها مجرد عادةٍ. على الحصان الحربي أن يبقى دائماً محصناً.

بدأ كل شيء في ذاك المساء حين طلب منه البرنتصور[2] إن كان يقبل بمصاهرة مسلم. هذا التحدي الساذج هو وراء حظوظ آل دو رواي أو أخطائهم. أهزلي ذلك أم أنه أمر رائع؟

أكان بحاجة إلى الاحتماء في الجلد والحديد والنياشين لكي يتقدم بطلبه عبر التسلسل القيادي؟ *إلى السيد الملازم أول– عقيد قائد الفوج الثالث عشر للمظليين المستعمرين، يشرفني أن أتقدم بطلب موافقتكم على زواجي من...* هو الذي يخاطر بمصاهرة عائلة من أبناء العيون السود والبشرة الداكنة والشعر المتجعد...

في اليوم التالي، استدعاه غراس. «كزافييه – ماري، أنا لا أسمح لنفسي

= وسط الجزائر. وهنا يقصد تذوق نساء أولاد نائل.

(1) طاسيلي ناجر هي سلسلة جبلية تقع في الجنوب الشرقي للجزائر، قاحلة حصوية على ارتفاع ألف متر عن سطح البحر.

(2) البرنتصور يقصد به هنا شارل ديغول.

بأن أقدم لك النصح...».

فم غراس ذاك، وأنفه المسحوق ونظرته المتقدة تحت حاجبين غضين وأذنين غليظتين. بالطبع، غراس يعرف كل شيء. منذ زمن بعيد، يتناقشون بذلك في القيادة العامة للشعبة: هل يمكن أن يسمحوا لقائد سرية بتعريض نفسه لمجازفات كهذه؟ فيما يخص سرية العمليات الجارية، كان المظليون فوق الشبهات. قبل دو رواي، واحد من قدامى ضباط ماسو، غرازياني الذي قتل في بلاد القبائل، ارتبط بعلاقة حب بواحدة من المتمردين. فلم لا تقع جزائرية واقعة في قبضة السلطة العسكرية في غرام النقيب الوسيم الذي يحقق معها، ولِمَ لا يشعر النقيب بدوره بضعف تجاهها؟ إذن افترض غراس ما يمكن أن يحصل مع دو رواي. فمع فارق بسيط، كاد الفوج ليتخذ من الآنسة بن عامر عرابة. في الثالث عشر من مايو، راقب غراس الساحة، عبر أجمة الورديات حيث المدينة كلها، ومنها القصبة... حدث شيء ما في الساحة! أيجب فقط تحذير كزافييه – ماري بأنه إذا كانت الآنسة بن عامر قد التقته، فربما لأنها تلقت الأوامر بذلك؟ لأن اسمها كان مدرجاً على لوائحهم وكانوا على أهبة اعتقالها ثانية عندما التقته للمرة الأولى.

«وعلى الرغم من ذلك، لو شئت أن تسمعني، من الآن وحتى تضع الخاتم في أصبعها... ألديك فكرة حقيقة عن طريقة عيش هؤلاء الناس؟ أنا أعرف، أعرف والدتها فرنسية من هنا وهذا يستحق التقدير. فلو تصرف كل هؤلاء السذج من الأقدام السود كآل باري... لو شئت سأكون أيضاً الشاهد في اليوم الكبير. سنرتب لك احتفالاً مدوياً وسنحطّم أجراس الكاتدرائية، وسنرمي بمثالك في وجه الناس... لكن هذا لا يمنع أنها أيضاً

عربية، ونحن نرى أن حتى المتطورين منهم ما زالوا ينامون فوق الحصر. فضمان عدم العودة لطباع الأسلاف ما زال يتطلب جيلاً آخر. لماذا يجب أن تدفع أنت ثمن ذلك؟».

نصائح من هذا النوع بعد كل الهذر عن الأخوة...

ردّ بأنه مصدوم. رفع غراس ذراعه ونمّت عنه تنهيدة. آه! يا إلهي...

«لا تخلط بين المشاعر الكامنة وتلك الظاهرة. نحن أخوة للجزائريين بالقدر الذي نريده. فنحن نحبهم ولطالما أثبتنا ذلك. نحن نقسو عليهم لصالحهم وخيرهم، مثلما يفعل المرء مع أولاده. سترى أنهم لا يريدوننا. سيشكروننا، لأننا صنعنا منهم رجالاً، وعندما تنتفي حاجتهم إلينا... فمنذ الآن إلى موعد زواجك من...».

تردد، ماذا كان يريد أن يقول؟ واحدة من السكان الأصليين؟ الجرذان؟ القردة؟

«... واحدة من الجزائريين. ألا يمكنك أن تكتفي بـ..؟ فكر؟ ما زال أمامنا خمسة عشر يوماً. أحول طلبك: الرد إيجابي جداً، حدث مفاجئ، مذهل. ستحصل على صحف باري ماتش وإكسبرس ولو فيغارو وسأعلق لك جهاز تلفاز. هذا ما كنت سأقوله لك لو لم أكن أحبك. فانت فرنسي نقي كزافييه – ماري، وليس مثلي *شيباني* كهل...».

صرخ غانتر من جديد متوتراً. حركة أليفة تعني «أسرعوا، أسرعوا...» لماذا عادت تلك الآلام القديمة لتزوره وسط المنحدرات والرمال والتماعات العالم المعدني، حيث تبدو الدودج آلة من العالم الآخر مسحوقة تحت صاروخ؟

إن لم يتمكن الرقيب من إصلاح السيارة، فيمكن أن يتنبهوا لغيابه في الاستراحة الدورية وسيعود أفراد الأمن بحثاً عنه. وحتى مع افترض الأسوأ، ومع افتراض شلّ حركة كل الموكب، فلا أحد يضيع في الصحراء في العام 1961، وما عاد هناك من يموت عطشاً وسط الرمال. في البداية لا يجازف أحد وحده، كما أنه، وبالإضافة إلى أوعية جلد الماعز المعلقة على جوانب الشاحنات، فهم يحملون معهم الأدوات الطبية والأجهزة اللاسلكية، ناهيك عن الأسلحة والذخائر.

حثّ الخطى، وضعط على الدواسات حتى وصل في النهاية إلى أرض صلبة. مد له غانتر سماعاته.

«الجنرال جال[1]، إنه في الجزائر».

من هو هذا؟ القائد الأعلى السابق المطرود بعد قضية الحواجز، من ما زال يكترث بأمره؟ فأن يعيشوا لأشهر دون أن يلمسوا امرأة باستثناء عاهرات مصابات بالسفلس، يثملون بنبيذ الميرة البائس ونبيذ ريكار، ولا يتلقون أي رسائل ويقضون وقتهم بتلميع البنادق وتصليح المحركات وحمل حقائبهم وإنزالها، فسينتهي بهم الأمر بضربة شمس تفقدهم عقولهم. وسيكون عليهم أن يتعالجوا. ولكن لا. قليلاً قبل موعد نداء الفرقة، كان غانتر يستمع على موجة فرانس ف، وإذا به يلتقط...

«... الموسيقى العسكرية، سيدي القائد، تخيل. وبعدها قال المذياع: هنا راديو فرانس».

في البداية لم يتنبه غانتر، راديو الجزائر بات اسمه «فرانس سينك»[2].

(1) يقصد الجنرال شال، ولكنه «جال» بسبب لثغة غانتر.

(2) France V راديو فرنسا الخامس.

الجنرال شال تسلم قيادة القوات المسلحة في الجزائر...

«ثم سمعته، هو. أنا أتذكر جيداً ما قاله: «انا والزنرالان[1]زلر وزوهو وبالتنسيق مع سالان...» وتابع: «...لكي نحمي قسمنا: حماية الجزائر. أتريدون أن يمسي المرسى الكبير والجزائر قواعد سوفياتية؟...».

ما زال الرقيب يبحث تحت هيكل الشاحنة.

«هل سمعت ذلك بنفسك؟».

تأخر الرقيب في الرد.

«أنت تعرف سيدي القائد...».

تردد دو رواي.

«حول لي فرنسا غانتر. أو ما تشاءه، أوروبا 1، لوكسمبورغ».

مسح السماعات. إذاعة فرنسا تبث موسيقى رديئة. أغنيات يِ—يِ[2]. مذيعة معسولة تقدم الدواء ضد الكسل المعوي مع سعادة عميقة في الصوت...

«مرر لي مرة أخرى راديو الجزائر».

«السفلة»، فكر. «لقد أبعدني غراس عن قصد». وفجأة صوت ذو وقع مزعج وإنما قوي وواضح وفظ: «... من أجل أن يبسط سلطته على العاصمة ويعيد تأسيس نظام دستوري جمهوري...».

يا لهذا الأسلوب! كان على مدارس القيادة العامة أن تقيم دروساً في التعبير.

وبسرعة عاد إليه الوجه المنهك للبرنتصور ليل الرابع من يونيو 1958، في

(1) مع لفظ زنرال» بدل جنرال و«زوهو» بدل جوهو بسبب عيب في اللفظ (اللثغة).

(2) Yéyé هي تيار موسيقي ظهر في فرنسا والكيبك في بداية العام 1960، وكانت في البداية تحريف لكلمة yes الإنكليزية التي ترافق أغنيات الروك والتويست الأمريكية.

قصر الصيف ونظر إلى ساعته في كفه: «التاسعة إلا ربعاً، الثاني والعشرون من أبريل 1961، إنه يوم سبت. هذا، عندما تكلف عناء...

رفع غانتر قبعته العسكرية عن جبهته وأشار إلى الجنوب – شرق إلى غيمتين غباريتين صغيرتين تقتربان. إنها سيارة السحب للتصليح.

مرر دو رواي يده على رقبته الحليقة، المشوكة قليلاً. إن حصل التمرد، فهذا يعني أن لو مير على علم...».

4

في مركز بلدية الجزائر، زواج إميلي والطبيب باري

بعد خطاب رئيس البلدية، والمصافحات، وعناقات الأهل الحاضرين جميعهم هنا، المضغوطين مع الناس تحت الشمس المسلطة عليهم. إميلي تتأبط ذراعه، والطبيب يبتسم مغتبطاً، أسفل الكتلة الهائلة لمركز البلدية الذي يحرسه المظليون. الشمس لاهبة وأميلي بقبعتها، نحيلة في فستان من النسيج الخام والزهور النارية عند القلب.

الأم آنجل، بالأسود، ودانيال في بدلة زرقاء، كارمن بتنورة تكشف صلابة جسدها، كارمن بعينيها الرماديتين الداكنتين ووجهها المتألق، السيدة روندا مع عقد بسيط من اللؤلؤ، تطوف في فستانها الباذنجاني شبكت فيه دبوساً من الألماس، السيد روندا السمين قليلاً برأسه الحاسر والصدغين الممتلئين قليلاً والشعر الملموم عن جبهة ضيقة والنظرة الماكرة والأنف الفضولي الصارم، العنق محشور في ياقة بيضاء وربطة عنق رمادية، وتجاعيد على شكل قوسين متقابلين عند الخدين.

«في يومٍ كهذا»، قال دانيال بنظرة متفرسة.

وافق السيد روندا. فقد اجتمعت الظروف لتعطي لهذا الزواج الذي جرى التحضير له في البداية حتى يكون محصوراً بأفراد العائلة، البريق الذي يستحقه. إنه يوم النصر. لقد اتخذ الجيش قراره في النهاية واستعاد كرامته. البزات المرقطة اكتسحت الجزائر، وصفارات إنذار الشرطة مزقت السماء، والجيش يحتل مقرّ المحافظة والقصر الصيفي. السادة الموظفون الحكوميون المدنيون متوترون. انقلاب وماذا بعد؟ عسكريون في كل مكان، حمى وطنية كبيرة، حجة إضافية لتبني الأعراف والاحتفالات بمناسبة زفاف ابن رئيس بلدية ريفة[1] والمستشار العام والمندوب المالي.

فأل خير. نظر إلى حماه خلسة. لو كان حماه محامياً أو مديراً لمبنى الحاكم العام لكان لعرسه بريق أكبر. على أية حال، ليس مستوطناً. الأرض كانت مكبلة بالكثير من الرهونات العقارية. إن كان مع العرب أو المشرفين على الأملاك، يجب التوصل إلى تسويات. ما عادت الامور كما في السابق. تأمينات اجتماعية، تعويضات من كل الأنواع، كلفة السماد والعناية بالكرمة وكلفة المعدات، شروط العاملين، مخاطر التخريب والتدمير، استثمار الأملاك الكبيرة ما عاد يجلب الكثير من الأرباح. لن يكون بإمكان شال فعل شيء، حتى وإن لم يفرض ضرائب جديدة من أجل دعم حرب لا يمكن لفرنسا تحملها وحدها. من سيدفع ثمن المدافع؟

أكان الطبيب يتمتع بحسّ التقاط معنى الأحداث؟ كادوا يقتلونه، هو رجل العلم، آه، العلم... رجلٌ جديٌّ، نزيهٌ، محترمٌ. فها وقد استرد عافيته،

(1) Rivet هو الاسم الذي أطلقه الفرنسيون خلال استعمارهم الجزائر لما يعرف اليوم ببلدة «مفتاح» نسبة للشهيد «سي مفتاح». أما الفرنسيون فسموها «Rivet» نسبة لجنرال فرنسي. وقبل الاستعمار كانت تسمى بـ «قالم» نسبة لإحدى القبائل.

عاد خلال عام إلى العمل بشكل متقطع في مستوصفه، ثم رحل. صيته هو أنه كريم يساعد الفقراء. ألم يكن بعض الشيء؟ تردد كثيراً في الزواج من فتاة من آل روندا تقدم له الأمان وتجلس... هل يمكن أن يعود إلى قضاء أوقاته في بار فندق ألتّي؟ أليس لديه شكوك حول صهره؟ ألم يسبب زواج حدى قريباته من صحافي عربي نوعاً من الفضيحة؟

تصفيق عند مرور وحدة جديدة من الجنود المرقطين.

«بالنسبة إلي»، قال بصوتٍ حاد يتعارض مع قامته، «يجب التعامل بسرعة وحزم مع الأمر».

هز كتفه. فهو يشك أن يكون شال هو القائد المرتجى. كيف يمكن للسيدة باري والسيدة روندا أن تعتقدا أن كل شيء تمت تسويته لأن الجزائر أفاقت على عويل صفارات الإنذار؟ سألته السيدة باري إن كان السحب على اليانصيب الجزائري ما زال قائماً هذا المساء. المظليون في باريس! يفككون نصب بائع الإمبراطورية الذي فاوض الملوك الزنوج بدلاً من الأقدام السود! عندما يصبح الطبيب في عمره وابنته إميلي بعمر أمها، أين سيصبحون جميعاً؟ لمن ستعود الجزائر؟ هو، أندريان، هل سينتهي به الأمر في ريفيه في دار العائلة بغرفه الضيقة وأسرّته المحشورة؟ على أية حال، كان له الحق في فرض شروطه في عقد زواج ابنته. ففي نهاية المطاف هم يزوجون ابنتهم لشخص لا يعرفونه جيداً. لآل روندا ما يعود لآل روندا: الشقة التي تملكها إميلي والذين فكروا لوقت ببيعها، والتي اشتروها من عائدات النبيذ، نعم، نعم، المجوهرات أيضاً، لقد قال ذلك لصهره: «ستحصل إميلي على مجوهرات والدتها. وعندما ستقدم لها أنت مجوهرات، فسيكون لذلك قيمة أخرى...». الإرث ستقضي عليه السياسة

الديغولية وعمليات النقل. بالنسبة لآل باري لا شيء: مزرعتهم في سيدي موسى، فتات الخبز الذي على الأخوة تقاسمه، وشهادة دكتوراة في الطب من جامعة الجزائر. إميلي المذهلة اليوم، بدت خجولة جداً.

التفت بحيوية. موكب آخر، من المهنئين شكراً يا رب، محاولة الاغتيال هذه جلبت له الشهرة. وفي الكنيسة، سيكون هناك الأرغن والزهور والمشالح المطرزة وجبب[1] الصدر الحمراء.

«انظر إليّ جان بيار».

في المناسبات المهمة أو تحت وقع صدمة ما، بما يشبه آلة مبرمجة وفق توقيت محدد، يعود دائماً إلى المستشفى وإلى لحظة استيقاظه مع وجه ليون وسط الضباب. من الغريب أن هذه اللحظة، التي يتساءل إن حدثت حقاً، لم تفارقه. أين يتجذر اللاوعي إذن؟ دائماً الحلم الذي يمكن للموت المفاجئ أن يكسره، رفاهية اللامكتمل، صورة متجددة لمرايا مائية تسبح فوقها ليون، ضائعة في شكوك المنجز وتفاهات العائلي والحقائق المطروحة دائماً للنقاش، ليون التي لا تذبل التي لم يصل إليها يوماً ولم يلمسها يوماً، لم تنتهِ يوماً ما دامت لم تبدأ يوماً.

بحكمة، قرر ألا يحاول مجدداً رؤيتها. حكمة أم إخلاص؟ وهي كيف سترى الأمر، عدم اهتمام أم إهمال؟ أيّ عون شكلته ليون بعيد تعرضه للاعتداء؟ وعلى العكس فقد جاءت المساعدة من إميلي الوفية، الوحيدة والأكيدة. لكن هذا لا يمنع، أنه حتى في يومٍ كهذا، تظهر له عينا المرأة الوحيدة التي أحبها. أو ببساطة التي رغب فيها؟ دوار لم يبدد تأثيره الزمن.

(1) جبة الصدر هي الجبة القصيرة التي يلبسها جماعة من الرهبان.

ألم يكذب قليلاً؟ ألم يعد إلى فندق ألتّي بأمل أن يراها أو يستنشق أثرها؟ ألم يتصل بديمون حتى يسمعه يتكلم عنها؟ ثم هذا الخبر المفاجئ لزواج مع...

«هل تسمعني؟»).

أي كذبة هذه أن إميلي لا تطلب شيئاً! فبعد أن وثقت في النهاية من امتلاكها ما كانت تحسد الآخرين عليه، جعلت تطالبه بمشاعر خاصة ونهائية وعمياء. مصدومة بتحقيقها نصرها، اشتعلت، غضب مباغت انفجر في داخلها وبدّلها. كانا بالكاد قد تزوجا مدنياً، لم تمض نصف ساعة على لفظه كلمة «نعم» المقدسة، لتظهر إميلي جديدة. لا فستان أبيض ولا ذيل تحمله الوصيفات، فهل بعد أربع سنوات من العلاقة...؟ طقوس، الزنابق، زهور الليمون، عناقيد الأكاسيا[1]، سهول الثلج، تجمعها برجلها حتى الموت.

ابتسمت. ما الذي يحصل؟ فبالإضافة إلى رومانسية الأفكار هناك الأحداث. الجديدة. شيء ما تعقد، شيء ما انكسر. في عصر يغيب فيه الأمان اليقين، هل سيكون جان بيار زوجاً مخلصاً وموثوقاً، رجلاً يمكنها التعلق به إلى الأبد.

استسلم أمام هذا الوجه العاري تحت الجفون القليلة الرموش، الذي يكشف فجأة عن استبداد بفمه الشغوف. لقد خضع. لا شواطئ تحت الشمس أو تحت القمر، لا كمان، لا كواكب، ولكن وبسرعة التوكاتية[2]

(1) الأكاسيا جنس من الأشجار والشجيرات يضم 1300 نوع منها 960 نوع أصيل في أستراليا. يتبع هذا الجنس الفصيلة البقولية.

(2) التوكاتية هي مقطوعة موسيقية تستعمل فيها آلات البيانو والأورغ....

بالـ «ره»[1] القصيرة، والمركع[2] من المخمل الأحمر، الخواتم الذهبية في المحفظة الجلدية، الرائحة الثقيلة للشمع والبخور احتفالاً بانتصار المثابرة أميلي، وما تمّ تنظيمه في اللحظة الأخيرة، غداء في السان جورج حيث ستتدفق الجزائر كلها. لا بأس ببعض الإبهار في المراسم. آنجل والسيدة روندا سيمسحا دمعة، وستغص السيدة روندا. سيرفعون كؤوس الشمبانيا للشابين العروسين وللجنرال شال، سيسألون عن أخبار سالان، ويقترحون أسماء للمحافظين والوزير المقيم.

هل سيكون بيدو رئيساً للجمهورية؟ أم سوستيل؟

5

برج في آخر الصحراء. النقيب الهجان[3] يستقبل زواره على عتبة الباب ثم يستضيفهم لشرب كأس أنستون

ضوء أحمر يغمر القبة التي تتوج غرف المعسكر الذي تحيط به متاريس مسننة ضربتها للتو عاصفة رملية حمراء، وبعد زهاء خمسين كوخاً، لا شيء.

احتفظ النقيب الهجان في البداية بمسافة منهم، لأنه مهما كانت الظروف، وهذا أمر طبيعي في الواقع العسكري، يجب أن يتناول الحديث أولاً الشؤون العملية قبل الدخول في الأمور الشخصية.

---

(1) Ré هي نغمة موسيقية.

(2) المركع وهو كرسي خفيض ذو مسند للذراعين يستعمل للصلاة.

(3) الهجّان هو الجندي الذي يتخذ المهري مطية، ولكن المقصود هنا الفرقة الفرنسية الخاصة التي كانت موجلة خلال الاستعمار الفرنسي للجزائر بحراسة الصحراء.

رقيق ونحيف لحدّ أنه يكاد يبدو خيطياً، كئيباً، يلف شاشاً حول رقبته، محدّب الظهر، والقندورة تلف خاصرته بنطاقٍ (كندورة بيضاء مهفهفة، وهو ما يميزها عن اللباس المرقط لدو رواي وكل الباقين بالكاكي المصفر) القبعة تسقط حتى الأنف وتغطي حوافها نصف الوجه، النقيب الهجان قائد مكتب حصن غرداية جعل يراقب القافلة التي نزلت عليه في منتصف بعد الظهر. برقية من الأغواط أعلمته بوصول القافلة لكنها لم تحدد سوى مبدئياً يوم الوصول وبالطبع ليس بالساعة، كما لو كانت وحدة عسكرية لا يمكن توقع تحركاتها. وهكذا، وللمفارقة، فمنذ أن أصبح كل شيء ممكناً، ما عاد هناك مجال للمجازفات غير الأكيدة. لا يمكن أخذ المجازفات سوى على ضوء ما هو مؤكد. فعن ظهر جملٍ، كان بالإمكان تحديد برنامج زمني والالتزام به. في حين أنه مع المكننة، يبدو وكأنهم أمسوا خاضعين لكل الاحتمالات، هذا ما كان يقوله باتيستي، النقيب الذي يقود كتيبة الفيلق، وهو يمضغ الكلمات التي يعاني صعوبة في ايجادها وأحياناً وهو يصفر، وكأن الفرنسية ليست لغته.

كان الهجان يوافق دائماً على رأي الآخرين مرحباً بكل هذه التفاهات المكررة. بما يخصه، لم يكن بحاجة إلى أحد وقد استغنى بكل سهولة عن وجود مساعد. آلياته نصف المزنجرة، سيارته «أربع - أربع» (أربع أسطوانات، أربع عجلات) وزمرته من الخيالة تكفيه. تموينه يحميه من المفاجآت. بالنسبة للتقليد القديم للضيافة الصحراوية، كل شيء تبدل أسوة بجميع العادات العامة. بالطبع يتم الاستقبال ولكنه لم يعد زمن بسيشاري[1] أو الأب فوكو.

(1) على الارجح المقصود Ernest Psichari (1883 - 1914) وهو عالم فرنسي بعلم اللغة ابن

باتيستي بجذعه القوي وببنطاله الكتان الذي يرفرف فوق صندل بلاستيكي سخيف، جاء لزيارته كفعلٍ روتيني كما يذهب هو لزيارته، أو كما الحال مع قائد سرية طاسيلي ناجر في فور- بولينياك، بهدف تقليد عسكري أكثر مما هي علاقات زمالة. وماذا عن هذا المظلي المتحفّظ مع النيشان المتفاخر؟ الزيارات هي غالباً وقت ضائع، حدث غير متوقع وبائس، إزعاجات أو شكليات، أناس يتحركون للحصول على الترقيات. الجنرال قائد أراضي الجنوب يأتي لزيارة المكتب هنا عادة عندما يستلم قيادة المنطقة وليس دائماً عندما يغادر القيادة. عادة لا أحد يفكر في البقاء في البرج. بائس جداً: ثلاث نخلات تذكر بالواحة القديمة المدفونة في الكثبان، قرية من أشجار القصب والصفائح المعدنية المتموجة، بعض فناءات خلفية وبرج لجهاز الاستقبال وكلاب سوقية كسولة. بما أن هؤلاء السادة لم يعلنوا عن هدف معين لزيارتهم، نظمت لهم جولة صغيرة حتى الميناء الجوي: بضع مسجلات، بوصلة، مخزن وقود، دون أي مساعدة تقنية ما عدا الجهاز اللاسلكي، والذي لثلاث مرات في اليوم، يعلن عن حالة الطقس. تشرفنا بوجودكم وليكن الرب معكم. مظليّ! ربما كان السبب أحداث الجزائر المعدة قبل وقت طويل. جاؤوا لجس نبضه هو قائد سرية الهجانين لحصن غرداية؟ إنها لفكرة غريبة.

عندما تأكد أنهم لن يطلبوا منه شيئاً ولا حتى وجبة طعامٍ ولا حتى

أرنست رينان. دخل السلك العسكري في عمر العشرين وخدم في الكونغو وموريتانيا، وكتب عن تجربته هذه. نشر في العام 1913 «نداء السلاح» ضد الإنسانوية وكانت له أيضاً إصدارات اخرى أكثر تطرفاً. ولكنه انقلب بعدها إلى الكاثوليكية والتأمل. أما الأب فوكو فقد تم التعريف به سابقاً وهوا لأب الذي جاء إلى الجزائر وأسس فيها كنائس واتبع طريقة خاصة، وكان ممن اختلط بأهل الصحراء وعاش معهم.

أن يناموا في ثكنته، ولا حتى الماء، ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهه، حيث أنارت بقعة حمراء تلك المسافة بين الصدغين والشفتين.

«... تفضلوا لتناول كأس أنستون. هذا كل ما لديّ».

غرفة واحدة، واسعة جداً، رباعية الأضلاع، يجتمع في داخلها كل شيء: الطاولة مع الملفات، المقعد الخشبي العالي مثل كرسي العرش. سرير المخيم يظهر تحت مسانده مقبض مسدس، وخريطة الصحراء الشرقية على خشبة رقائقية، مجموعة من البنادق مربوطة من زنادها بسلسلة واحدة، مضخة لمبيد الذباب، كراس، مخزنان عسكريان يحملان اسمه: كابيتن ديزافريز، طاولة أخرى مع مكائن كاملة لجهاز لاسلكي بدائي، مرآة حديدية، معلقة بين النافذتين، قِرب ثقيلة مصنوعة من جلد الماعز معلقة عند مضرب الهواء. على الطرف الآخر، سرير آخر نصف مخفي بالأغطية الرمادية، بين قضبان معدنية وبراميل خشبية (لا شك أنها للزيت والخمر)، خبز كير مدور، أكياس (للسكر والعجائن والسميد والقهوة)، علب مربى وثلاجة تعمل بالوقود، لأن مولد الكهرباء لا يعمل سوى ليلاً.

«سأقدم لكم أيضاً القليل من المثلجات».

قام بحركة بدت في البداية وكأنها للا أحد، ثم ظهر رجل شاحب يكاد يكون دون حواجب، رقيب أعلى يشغل على الأرجح الخلوة في الزاوية الأخرى، تقدم على عجل. أخرج كؤوساً، مسحها ووضعها على الطاولة مع إبريق فخار لفّ بالصوف. كانت قنينة الأنستون على رف خلف بطارية الشحن بالقرب من مصباح الأستيلين.

استلقى الهجان على الكنبة الوحيدة المصنوعة من الصفصاف التي

تعود حكماً إلى الملاّح الجوي، إلى المسؤول، إليه هو.

– قليلاً فقط، قال دو رواي.

– أما أنا، قال باتيستي وهو يحرك كأسه، فأريد ماء.

وعندما أبدى الهجان استغرابه:

– أو ربما الويسكي.

– آه، يا صديقي هذا...

في الخارج يبدو المبنى بقبته تلك يشبه شيئاً ما، قصراً صغيراً أو مسجداً صغيراً. في الداخل كان السقف مسطحاً منتظماً في تموجات باطونية فوق عوارض فولاذية. قبة زائفة. يسأل المره نفسه لماذا. لهدف تجميلي؟

يهب الهواء فجأة من الباب المفتوح حاملاً معه الرمل.

رفع الهجّان قبعته المتسخة وكشف عن شعر أشيب. على الخد المقابل للبقعة المصابة بالجذام، كان جلده مقطعاً بأخاديد صغيرة عامودية. أشعل سيجارة ونفخ الدخان ببطء.

– ظننت للحظة أن شال هو من أرسلكم.

– لماذا؟ قال باتيستي، أما كنت لتستقبلنا؟

– لا أنا ألتزم في أي حال وأفعل ما يقولونه لي. ولكن في الجنوب، ما أهمية ذلك؟ اللعبة ليست هنا. سنقدم لهم الجنسية الفرنسية التي يسخرون منها. الجنسية الفرنسية ليفعلوا بها ماذا؟ إن أراد شال دمجهم، فأنا أيضاً أريد ذلك. بالنسبة إلى الثوار، إن كنتم تبحثون عن كشفهم فستعانون، ما عاد هناك منهم. غزوات زمن البريد الجوي وسانت – أكزوبيري[1]، باتت من التاريخ. أين سيذهبون؟

(1) Antoine de Saint-Exupéry (1900– 1944) مات في رحلة جوية، وهو كاتب وشاعر

وإن اكتشفناهم بالصدفة، يقتلون أنفسهم. والدليل هم رجال أمس الثلاثة، على بعد خمسين كيلومتراً لجهة الشرق إلى حيث أرسلت اثنين مجموعتين مع طبيب. برأيي أنهم مجموعة ضالة، تونسيون كانوا يحاولون الوصول إلى رهاط. بقي منهم واحد. وعلى الفور أعلمت الأغواط. وفي المبدأ سيأتون ليأخذونه غداً. إلا إذا كان غداً...».

لوح بكومة من الصحف ثم تركها تقع على الطاولة، صحف متسخة قليلاً لو جورنال دالجير، لورور، لِكيب، مينوت، لكسبرس. وفتح باريس برس على عنوانٍ عريضٍ جداً بالأحرف الكبيرة: يعود من السماء، وبالأحرف الممتلئة أشعر أنني بخير، لست مصاباً بجروح أو كدمات. وعند منتصف الصفحة، وجه عريض وطفولي بفم مرسوم بدقة، غمازات عند زاويتي الشفتين، ربطة عنق فاتحة وزركشات على القميص.

«الأحداث تجري بسرعة كبيرة. أنا أستعمل الصحف غالباً من أجل الكلمات المتقاطعة، ثم أننا نعلم بكل ما يجري من خلال الراديو. أخبار الصحف دائماً قديمة ولكنها مسلية. لنأخذ هذا التحقيق لهذا الشجاع لارتيغوي: «عند باب الواد، إنها نهاية الأوهام». لدي إحساس بالعكس. وهنا صورة لكفي ايخمان[1] بالقياس الحقيقي، جلّاد اليهود. وأيضاً

وطيار وهو صاحب رواية الأطفال الشهيرة «الأمير الصغير»، حاول في رواياته أن يعثر على معاني السلوكيات ويحلل القيم الأخلاقية في أوساط المجتمع المتحول بسبب التقنية الحديثة.

(1) Karl Adolf Eichmann أحيانا يشار إليه باسم «مهندس المحرقة»، النازي من قوات الأمن الخاصة، الذي أنيطت به مهمة تيسير وإدارة لوجستيات الترحيل الشامل لليهود لمعازل ومعسكر الاعتقال في شرق أوروبا. وقد سافر إلى الأرجنتين بعد الحرب باستخدام جوازات مرور مزورة صادره عن الصليب الأحمر الدولي [3][4]، وعاش هناك =

غاغارين[1] بعصابة الرأس وبالقميص الرياضي. سأدفع غالياً لأعرف ماذا تشبه صحرائي من الأعلى. فأنا لا أراها سوى في الـ دي سي 3[2] أو أراها مجتزأة من فوق الكثبان. لا شيء مهماً. برأيي، لابدّ من أن لون جبال الهقار أزرق والأجّر[3] زهرية أو صفراء. شال، حسناً. سترون: خلال عشر سنين، من الأهم، هو أم غاغارين...».

سكب باتيستي لنفسه القليل من الماء، رطب شفتيه ووضع كوبه بحذر وهو يتحسس كعبه، ثم طرفه. حمار وحش مضحك: وجه حليق جيداً لحد أنه يبدو أزرق، لغنام كورسيكي، مرح وطفولي ولكن مع لمعة متوحشة في العينين، وفوق رأسه المدور القبعة بالجدائل الثلاث.

رمى الهجّان الصحيفة على السرير والتفت إلى دو رواي.

أنت لا تفكر مثلي، كما لاحظت. خلال عشرة أعوام زرتُ باريس ثلاث مرات، وربما عشر مرات الجزائر. بالنسبة لرجالي، إن أمضوا أسبوعاً في جانت[4]، إنها حياة القصور.

أنا مع شال، قال باتيستي، وأنت؟

= تحت هوية مزورة يعمل لدى مرسيدس بنز حتى عام 1960. اعتقله نشطاءالموسادالإسرائيلي في الأرجنتين، وحوكم في محكمة إسرائيلية عن 15 تهمة جنائية، بما في ذلك جرائم ضد الإنسانية وجرائم حرب. ادين وشنق عام 1962. وعلى الارجح يشار في الرواية هنا إلى يديه المكبلتين.

(1) Yuri Alekseyevich Gagarin رائد فضاء سوفياتي. ويعتبر أول إنسان يتمكن من الطيران إلى الفضاء الخارجي والدوران حول الأرض في 12–أبريل – 1961 على متن مركبة الفضاء السوفيتية.

(2) D.C3 هي طائرة Douglas DC–3 الأحادية السطح وبأجنحة ثابتة والتي كان لها تأثير كبير على النقل الجوي بين عامي 1935 و1950.

(3) أجّر هي كنفدرالية للطوارق شرق الصحراء الجزائرية وغرب ليبيا.

(4) واحة تقع في الجنوب الجزائري. في قلب الصحراء غير بعيدة عن الحدود الليبية.

سحق الهجّان عقب سيجارته بقوة في صحن السجائر.

– أعتقد أنه بالنسبة للصحراء، فإن النفط هو ما سيحدد سير الأمور. حقوق أهل الصحراء وكرامتهم أمر آخر. فمثلاً هنا، أنا فرنسا، أنا الأمير. فإن تحرشوا بي سيدفعون الثمن.

– لنعد إلى شال، قال باتيستي.

– إن طلبوا مني أن أعترف به، سأعترف به، على الرغم من أنه لدينا أساساً قائد أعلى، ولكن هؤلاء القادة، بعيدون. أنت ليس لديك مشكلة، ستقوم بما يقوم به الفيلق. أما أنا فلا أعرف سوى مسؤولي المباشر، غريبه. سيخضع على الأرجح. وربما أنه غير مهتم بذلك أساساً فهو يبحث كما يبدو عن الحب المثالي. امرأة جديدة. نعم، نعم. بالنسبة لنا، الحب أكثر تعقيداً مما هو لدى العرب، ورغم ذلك، نصل إلى النتيجة نفسها: نبدّل.

مد علبة الباستوس إلى دو رواي.

«ألا تدخن؟ حتى أنت لو ضجرت من الشمال، فعليك أن تستقر في مكانٍ ما هنا، هناك الكثير من الأماكن، يمكننا أن نجد لك مرفأ للصيد كما المرفأ هنا في تارات ربما، يمكنك أن تتزوج امرأتين أو ثلاث من عشائر كبيرة، على الرغم من أنه في رأيي فإن امراة واحدة شرعية تكفي: من الأفضل ان تبقى الأخريات مستعبدات... الحياة، الموت، المصادفات. المهم هو كيف تفعل ذلك. ستقول لي: هذا الكوخ الحقير، هذا البازار...».

نفض بيده.

«مع الوقت، ستعرف... ما يهم هو ما يجري خارجك. بالنسبة إليك ما يهمك الآن الفتاة التي تنتظرك. لديك، اعذرني، شخصية توحي

بذلك».

وقع كأس دو رواي على الأرض ولا يبدو أن أحداً تنبه لذلك. الرقيب العام الذي كان منزوياً في زاويته ظهر مرة أخرى وجمع الحطام في صحنٍ معدني، واستبدل الكأس الذي انكسر بآخر وسكب فيه الأنستون وما بقي من الثلج والماء.

انظر، في لكسبرس أيضاً، غاغارين أيضاً في الواجهة. بقبعة رائد فضاء. يعتقدون أنه حدث القرن. ثم ثلاث صفحات عن ديغول: كيف يعمل وكيف يعيش، ساعة واحدة في اليوم فقط لقراءة التقارير المهمة. ومن ثم، كنيدي، كاسترو، العطلات، الفتيات بثيابهن الضيقة، البيوت المقطورة، بيكاسو، بريجيت باردو، آنيت ماذا؟ آنيت ستروبيرغ، هل تتخيلها هنا تدعم الثورة مع مؤخرتها هذه؟ وفي النهاية، وفي الصفحة الأخيرة، مورياك. اسمع هذا:... المصالح عمياء في السياسة. لا تلوح بعظمها للكلاب، فعلى الرغم من تلك الصورة اللطيفة الرقيقة التي يكونون عليها في حياتهم اليومية... هذه الإشارة لمن، لنامبوس؟».

من القرية المحيطة بأسفل البرج مثل قشرة جرحٍ، يصعد عزف مزمار، وخبط أيدٍ وطرق تام-تام وكلاب تعوي بصوت أجش.

لتشغيل مولد الكهرباء، يجب الانتظار حتى هبوط الليل الكريستالي الأسود بجماله الذي لا يُحتمل، الليل الذي له رائحة نار الأجمات والصلصة الحادة للحساء. لا شيء من هدوء الجنوب ورقته. هنا الليل يذوب على الأرض، ويثقل فجأة عليها، فيملأها بالظلال والشكوك وروائح عدائية وألم خفيف سرعان ما يختفي، ثم ينقلب مثل سفينة تدور دورة كاملة بعارضتها، وإذن، وكأن أحداً في مكائن روحية عليا يضغط زراً

فيجعل نجوماً هائلة فاتنة تلتمع، ويُشرق هلال ضخم، العوالم التي سيبحر فيها الرجال باكراً في مراكب بلون قوس قزح مع انطلاق الإشارات.

نظر باتيستي إلى ساعته في راحة يده.

«ماذا لو استمعنا معاً للأخبار؟».

جلس الهجان أمام الجهاز وجعل يحرك المفاتيح، ومدّ الهوائي، وأدار الزر الكهربائي.

«برازافيل[1]، غالباً لا يمكنني أن أحظى سوى بذلك. أو أنه يجب الذهاب إلى مهبط الطائرات. هذا الصباح فقط علمت بما حصل. بالنسبة للجزائر، لا يمكنني أن أضمن لكم شيئاً، فحسب الظروف. أحياناً يكون الإرسال واضحاً. اليوم يقال إن هناك تشويش فوق جبال الهقار وطاسيلي ناجّر. كما لو أنه محيط من الأورانيوم. لكني تمكنت من التقاط مقتطفات من الجمل».

في الواقع، أصوات رعدٍ، لا شيء واضحاً. في الأثير حيث تتردد الموجات دون حواجز، يمكن التفاهم بشكل أفضل بين الكواكب مما بين القارات.

اعتقد دو رواي أنه التقط في خلفية هدير المولد الكهربائي، نوعاً من العويل البعيد بالكاد يمكن ملاحظته. فيالق تحتفل بمرورها بالمواخير؟ أو تنهد، أو نحيب مكبوت، نعيب طائر ليلي؟

تململ قليلاً على كرسيه.

«هل تسمع؟ لا ليس الراديو».

تظاهر الهجان بإصاخته السمع، ثم انحنى ثانية على الجهاز:

(1) برازافيل هي عاصمة الكونغو، وهنا المقصود راديو برازافيل.

«انسَ الأمر».

وقف دو رواي.

«خذني إلى هناك».

حمل الهجّان قبعته العسكرية.

– هل هذا يهمك؟

– لقد عرفنا جميعاً ذلك، قال باتيستي. عندما لا يكون هناك سبل أخرى. لو أنني ترددت، لكنت ما زلت في تايلند أخصّب الخشخاش. إنه يزعق؟ هيا هيا، سأنتظرك. وسأحاول أن ألتقط برازافيل».

كان المخيم فارغاً. من جهة قرية الزمالة[1]، تصاعد قرع الطبل الأفريقي، لابدّ من أن هناك فتاة ترقص، بعض الزغردات، شعر دو رواي أن قلبه يخفق بقوة.

يا مص– ط – فى، يا مص– ط – فى...

الأسطوانة التي نسمعها في كل مكان، والتي ضربت في الجزائر والتي يجد كل فيها ميزة، المتمردون وغيرهم. لهاث المولد الكهربائي يتعالى، مع استقطاعات ليتسارع بعدها إيقاعه ويستقر في النهاية على إيقاع ثابت مع بعض الذبذبة.

في نوع من القبو يحرسه اثنان من قوات المخزن[2]، قبو مضاء جزئياً

(1) قرية الزمالة والتي كان تسمى بقرية الزنوج، تقع ضمن بلدية برج الغدير.

(2) قوات المخزن هي واحدة من «المصالح الإدارية المختصة» المعروفة بـ (SAS) التي أنشاها الفرنسيون خلال استعمارهم للجزائر. وهي مجموعة من المصالح الإدارية المدنية والعسكرية في آن واحد، وقد أنشئت بعد انهيار النظام الإداري القديم المتمثل في =

ونصف غارق في الرمال، انحنى النقيب على الرجل الذي ينوح وهو نصف عارٍ، ممدد على بطنه، ورقبته تلتمع بالماء التي سكبت عليه للتو، واليدان مربوطتان عند الظهر، والقدمان مغلولتان.

«إذن؟» سأل النقيب الهجان.

وقف الملازم أول بوجهه القرمزي.

«بدأ يتكلم، ثم...» أضاف، وهو يتحسس قبضة يده.

بقدمه، أدار النقيب الرجل على جنبه. الوجه منتفخ، والفم مليء بالدم، كدمة على عظمة الوجنة وعين شبه مغمضة.

«لقد بصق عليّ، أنت تفهم...».

ساد صمت سمع خلاله أغنية في ماخور ونواح. نواح بدأ يهدأ.

– من يكون هذا الرجل؟ سأل دو رواي.

– إنه القائد، على الأرجح. من المفترض أنه تابع دروسه في باريس. يبدو أنه يكذب. قديماً عندما كان في العشرين، لم يكن...».

لابدّ من أن الرجل في الخمسين، الشعر شائب عند الصدغين وقد بدأ يصاب بالصلع.

– ... السكان المحليون يذهبون إلى السوربون. لم يكشف عن اسمه ولم نجد معه أية أوراق ثبوتية.

– هل تريد أن تتركه لي؟ سأل دو رواي. سأطلب منك فقط ممرضاً مع

= المكاتب العربية، يقودها مجموعة من الضباط الفرنسيين يعرفون باسم ضباط الشؤون الأهلية المتكونين في معاهد متخصصة في الشؤون الجزائرية، وهم متخصصون في الدعاية وعلم النفس، والشؤون الجزائرية، ويتقنون اللغة العربية واللهجات المحلية. وكان عملهم يتركز على محاولة امتصاص النقمة في القرى والأرياف والمدن، من اجل عزل الشعب عن جبهة وجيش التحرير الوطني.

قهوة وسجائر.

رمى النقيب علب سجائره على الرمل.

6

الأسير الذي تعرف إليه دو رواي هو حسن بن عامر. كيف كانوا يعاملون العرب في 1930، وكيف ترك ذلك أثره على حياة حسن إلى الأبد

تسارع نبض الرجل.

بدأ دو رواي يفك القيود عن يديه، ثم عن قدميه. فنهض مستنداً على كوعه وساعده دو رواي للاتكاء على الحائط. فتح الممرض علبة الإسعافات الأولية.

مسح له الممرض وجهه ثم وضع مرهماً على وجنتيه. وسكب له أحد رجال قوات المخزن القهوة في ربعية.

«اشرب، إنها ليست حارة».

كان الرجل يرتجف قليلاً. سحب دو رواي من جيبه علبه حبوب منشطة. تردد الرجل بقبولها.

«أتعتقد أنه الأسلوب التقليدي: يشبعون المرء ضرباً ثم يتوقفون، يدللونه ثم يبدأون من جديد؟ ليس معي. خذ حبتين. فهذا سيعيد لك توازنك. أنا أيضاً أتناول منها أحياناً».

عانى الرجل في ابتلاعهما.

جبهة صغيرة حرونة، الجزء الوحيد في الوجه الذي لم يمس. له حاجبان

مقوسان قريبان جداً من بعضهما ويدا مثقف. ماذا يفعل مثقف في الجنوب؟ وإن صدف وكان... مد له دو رواي سيجارة ثم ناراً لإشعالها. استنشق الرجل رشفة ثم نفث الدخان بتلذذ.

بالنسبة إلى دو رواي، لماذا لا يتخلى عن هذا الحدس المستحيل جداً، المقلق جداً والمتغطرس بقوة والذي خطر له فجأة؟ الصورة التي تدفعه والاسم الذي يلاحقه منذ الصباح... فالتفكير بها، أساساً بدأ يكون أقل مرارة. دائماً هذه الغريزة الشهيرة تلك، ذلك الصوت في أعماقه الذي يلاحقه. إن أخطأ فما أهمية ذلك؟ هل عليه بالصدفة أن يحدد ما هو جوهري بالنسبة له؟ ولكن ما هو الجوهري؟

«أنت متزوج من فرنسية وأستاذ في ثانوية فرومنتن. ولديك فتاة. تسكن في الجزائر في شارع بونيه. أنت السيد حسَن بن عامر...».

ولفظ الحاء كما سمعها. دون أن يخلط بينها وبين حسين. ومضى يقول:

«وأنا القائد دو رواي».

التفت إليه الرجل بعينه نصف المغمضة والتي تفتحت على ضوء خفيف بنظرة اختلط فيها الذهول بالحذر. الكراهية؟ ابتسم. حركة يريد أن يقول بها إنه غير قادر على الضحك. هز كتفيه ثم طلب ماء، فقدموا له طاسةً، غسل فمه وبصق على الرمل.

أشار دو رواي للممرض وعضو قوات المخزن بالابتعاد. فساد صمت ثقيل يخترقه وقع الطبل الأفريقي البعيد والغناء مصحوباً ببحة مزمار.

«أتريد أن تأكل شيئاً؟».

حرك الرجل حنكه بحذر.

«ماذا؟».

كان يعاني لإخراج الكلمة.

أكمل بصوتٍ خفيض دون أن ينظر إلى دو رواي.

«ماذا تريد؟».

ثم بريق في العين، أيضاً:

«المستحيل؟».

سأل غراس يوماً: «ما هي ثروة دو رواي؟».

كلمة بطرس للمسيح: سي إتيام أومنس إيغو نو. «حتى لو أنكرك الجميع، لن أنكرك». على أية حال... بالنسبة لآل دو رواي، ادعاء كهذا ناجم عن تحريف في المعنى، بعدم اعتبار النفس مثل الآخرين، في حين أن العائلة لم تتوقف عن التشكل كما الآخرين، ما عدا الاستثناءات. إن كانوا جميعاً موافقين فأنا لا. إنها كلمة ديناصور. إختلاف دفع مغفلاً لطلب السماح بالزواج من ابنة الرجل المدمر الموجود على الأرجح هنا، بوجهه المحطم. أهي الحرب أم غرابة الأطوار، الغضب، الجنون، التهور؟ جرحه هذا. هذا الألم الذي ما زال حياً، هذا الوادي المعزول الذي فرش في ليلة بسجادةٍ من شقائق النعمان البرية، هذه العذوبة المفاجئة في حفرةٍ كقبرٍ برفقة رجلٍ يرفع إليه وجهاً متورماً...

وفجأة، ودون تحذير أحد، صعد جادة غيلامان، شارع بونيه، حيث تسكن عائلة بن عامر. في الطابق الخامس. اختار جيداً توقيته، الأم وحدها هنا. طويلة، بفم كمنقار القرقب. صامتة باردة، هكذا تقصدت أن تستقبل الضابط بالياقة وربطة العنق والذي اعتقد نفسه ببزته المدنية بقيافة مستشار أمريكي أو سوفياتي في بلد عربي، لم يكن ينقصه سوى

قبعة من اللباد وقفازين. قدمت له كرسياً. وهو وحتى دون أن يتسنى له الوقت ليتنفس الصعداء، فهل عليه اتخاذ الكثير من الاحتياطات قبل أن يقفز مباشرة إلى الموضوع؟

«جئت لأطلب يد ابنتك للزواج».

بقيت صامتة، مطرقة نظرها على يديها فوق الطاولة، مع خاتم واحدٍ، إنه محبس ذهبي. جبهة منتفخة، مظهر جانبي منحته خطوط الوجنتين رقة. هل ستشبهها رئيسة بعد عشرين عاماً؟ هل ستحمل كل هذه التجاعيد الشبيهة بالكدمات؟ لقد تمكن من مراقبة الشقة جيداً: شرفة يظهر منها البحر في آخر الجادة. ومن الجهة الخلفية عند منحدر القطار الصخري، هناك أشجار صنوبر. مرآة عالية شرقية يدوية الصنع، نباتات خضر، بلاط بتعرقات الأشجار وشكل النجوم، ولكن لا ورق جدران نقشت عليه نبتة عود الصليب ولا مقصف من طراز هنري الثاني كما في كل البيوت الجزائرية. جدران مطلية بالكلس، وفوق المدفأة، اللوحة الدينية لفرس مجنّحة تحمل النبي: فرس برأس امرأة بين جامع وأجمات نخيل في الصحراء.

«أنت...».

ترددت.

– أنت كارثة... ونحن تخيفنا الكوارث. اسمع. الشرطة تراقب المبنى وكأنه بإمكان زوجي أن يعود. أولاً عليك أن تتوجه بطلبك هذا لزوجي. فأنا أفعل ما يريده هو. لقد تم توقيف ابنتي العام الماضي وأنا، الناس لا تسامحني لحملي اسم بن عامر. بالنسبة إليهم، ليس عليّ أن أسكن حياً أوروبياً.

– أنت فرنسية...

عبرت بشفتيها عن حركة مرارة.

«فرنسية من هنا تدرس العربية هي موئل للتحريض. لقد منعوني من ممارسة ذلك خلال ستة شهور. وحتى لو كان كل شيء واضحاً، ولم يكن هناك حرب بيننا وبين فرنسا...».

عبر بحركة اعتراض. الحرب ليست بينهما. بين بعض العناصر المسلمة والجيش الفرنسي.

حدجته بنظرة حادة.

«وإن لم تكن هناك حرب، ألا تعتقد أيها السيد، أنك بطلبك هذا، تحرك حرباً اخرى؟ عندما ارتبطت بزوجي، اعتقدت أنني تحديت العالم. فتنني ذلك ولم أتبين الباقي. لا يمكننا أن نغير طبيعة الناس. لا يمكننا أن نتزوج بعربي من دون أن نقطع كل الروابط الأخرى. هل فكرت في ذلك؟ ليس هناك أنصاف عرب...».

في صوتها نوع من عناد الأمل عكس ما توحي كلماتها.

«فانت لم تأتِ على أية حال تطلب يد رئيسة كما لو كنت تشتري البرتقال؟ أولاً بالنسبة لعربي، اليد... الكلمة المناسبة ستكون بالأحرى روح الروح. ستقول لي إن العرب يشترون نساءهم مقابل بضع كيلوات من السكر وعلبة شاي وبعض الماعز. إنهم عرب يشترون عرباً. إن دخلت في ذلك، أنت الغريب، الرومي... يد فتاة عربية ليست يد فاطمة التي تأخذها من رقبتها. سينفجر ذلك في وجهك. ستقول لي...».

بدت وكأنها أفرغت من دمها، وزلازل تتفجر في داخلها. كانت تنظر إليه بنوع من الحزن الرقيق وأيضاً بشيء من الشفقة.

«ستقول لي إني أنا، أليس كذلك...؟ لا سيدي. لم يسامحني أحد على زواجي من عربي. عندما ستتعرف إليه ستفهم. وأكثر من ذلك، هو أيضاً لم يسامحه أحد على زواجه مني، خاصة أنه بالنسبة له كنت في البداية الألدجا[1]، غريبة، واحدة من هذه المخلوقات اللواتي يظهرن بوجوه سافرة ويحتملن نظرات الرجال دون أن يتضرجن خجلاً. ربما رأيتَ نساء عربيات لا يغضضن الطرف أمامك: هذا لأنهن لا يعتبرن الفرنسيين رجالاً حقيقيين. أما حين يمرّ شاب عربي... وعلى الرغم من ذلك فإن العربي يحلم دائماً بألدجا وكأنه يحلم بعاهرة، يتخيل نفسه داخلاً إلى منزلها، يفاجئها وهي تتزين ويخرج معها... هذا هو السراب. ثم أسأل نفسي، إذا سامحتني ابنتي على جعلي منها ما هي عليه، هذا المزيج من العربية التي تعتقد أنها خسرت روحها والمسيحية التي خانت أكثر ما هو مقدس من أجل لا شيء، واحدة من السكان الأصليين، بهيمة حقيرة، سيدي، لا تقل لي إن زوجي حصل على الجنسية الفرنسية، لأنه لو أرادها لأمكنه أن... مسيرتك ستتدمر، ديغول نفسه لن يمكنه فعل شيء لأجلك. عندما يتكلم عن الحقوق والأخوة... في الجزائر، زوجتك ستتعرض للتهكم. وفي فرنسا لن يسامحك أحد على زواجك من زنجية...».

وفجأة شعر أنه ما عاد قادراً على الاحتمال.

– هذا شأني سيدتي.

– أتظن ذلك؟

كان عليها أن تقرأ خيبة أمل تركت مجرى الأمور للقدر.

«ما عاد لدي انتماء لشيء، ولا أي نفوذ. وبالنسبة إلى علاقات القربى،

---

(1) Euldja كلمة تستخدم للإشارة في الجزائر إلى كل امرأة أوروبية غير مسلمة.

إنه الطلاق التام. دعك من الأوهام»، أضافت، «فالأمر لا يتعلق ببعض نقاط يعترض عليها الجيش بل الشعب بأكمله. لذا إذن، فمهما كانت مشاعرنا، ابنتي وأنا...».

هنا توقف طلب الزواج. نهضت بحركة استسلام تترك الأمور للعناية الإلهية، وخضوع للقوانين والوصايا المكتوبة وغير المكتوبة.

مربك قليلاً، تدحرج على الدرج والجادة باتجاه البحر الهادئ جداً في هذا اليوم، شديد الزرقة، اللامع الزيتي. تتبعه روائح شارع باب الواد وكل ما تخيل أنه سيقوله يوماً عندما يمتدحون ما حمله ارتباط النقيب كزافييه- ماري دو رواي بعائلة بن عامر من فخرٍ وما سيحمله لأناس، سينتقلون بفضله، من حالة المشكوك بهم إلى حالة المحترمين. وصل إلى ساحة الحكومة بمخارجها المقفلة بالحواجز الحديدية، وهو الذي لا يشرب، دخل إلى مقهى شعبي قليلاً، مقهى بوردو، وجلس إلى المشرب وطلب كأس أنيستون ثم آخر، وتذكر حينئذ أن السيدة بن عامر قالت له، في لحظة ما، وكأنها عرفت، عن غراس: «في البداية، أنت متأكد من أن الجيش يسمح لك؟ بعربي كصهر...» إنها الكلمة نفسها تقريباً التي قالها البرنتصور. ولكن البرنتصور لا يعرف رائحة البهار الأخضر، وفطيرة الشعير والدخان الممزوج برائحة صمغ جاوة.

في أية لحظة قالت هذا أيضاً، آه! لم ترتّب أفكارها: «لقد تورّطت معنا في نظر الجميع: في نظر سكان هذه البناية الذين يرون مظليوكم يحملون رسائلك وفي نظر العرب الذين يتساءلون إن لم نكن مارقين. لقد شكلت فعلاً استثناء. أنت واحد ممن فرضوا على الشعب الجزائري كشهيد. إن وافقت على ما أقول، ستشعر حتى بعرفان الجميل لي. لقد جعلتك

تتحاشى ذلك: أسلافك، عندما ستجد نفسك في مواجهتهم لأنه لديك في مكانٍ ما قصر عاشوا فيه سابقاً، سأخشى أن يخرجوا من إطار صورهم من أجل... لست رجلاً معداً لذلك... الخيانة. في المقابل، لن تُستقبل هنا. وأنا...» أي مصطلح استعملت؟ أحترمك؟ أقدرك؟ لقد استعملت صيغة أكثر تعقيداً برأيها: «أعتبرك رجلاً جديراً بالاحترام...». بخدمتك، سيدتي، بخدمتك!

وغريب الأطوار والملطخ بالدم، المحطّم الذي شرح له اليوم لماذا لم يقبلوا به:

«ابنة رجلٍ مهان لا تدخل حيث لا يكون أبوها. وأبوها...».

وفتح ذراعيه على اتساعهما.

«... حياة مليئة بالبؤس والمعاناة. سوف تقول: «جميعهم متشابهون. ندعوهم فيبصقون في الصحون» لقد بدأت أتحدث تحت تأثيرالمنشط وإثارة الأنفيتامين... هل رأيت، لا يتعبون! الأسياد! ببساطة، إني أتكلم بصراحة...».

أنهى فنجان قهوته.

«بالنسبة للملازم أول، فهو معتاد على العوالم السرية والمومسات، وبرأيه «البيكو» لا يصمدون. العاهرات ينفذن ما نطلب منهن القيام به. هن لا يعرفن أن لديهن روح، ولكن عندما تستفيق هذه الروح...».

طلب القربة.

«هل تترك هذه الحبوب التأثير نفسه عليك؟ وبهذه السرعة؟ فما عدت حتى أشعر بالألم. وكأنني أطفو».

شرب بتمهل ثم تنهد.

«ألا تعرفون هذه الحكاية؟ عند السيطرة على عائلة عبد القادر، وجد الفرنسيون رقى في أغراض الأمير. أرادوا أن يعرفوا ما هي. استدعى الجنرال لامورسيير طبعاً المفتي. تعاويذ. سحب منها المفتي بذرة عنبٍ وقال: «الأرض ستغطى بالكرمة». ثم حبة قمحٍ: «الأرض ستمتلئ بالغلال» وأخيراً شعرة طويلة لامرأة، ولكن هذه...».

تنهد وكأنه يبعد دخاناً.

«هذه سيحملها الهواء».

تحرك قليلاً.

«لماذا أتكلم؟ فكل ما بقي لي من مهنتي هو الكلام. كما أن المخدر الحقيقي هو وجودي أمام القائد دو رواي. ألا تريدون إضاعة الجزائر؟ لقد أضعتموها أساساً. بلاد الغول[1]، كان ثمة من حررها. لماذا لا يكون لدينا محررنا نحن؟ يا للأسف شارلز مارتل[2]. العرب كانوا هم الحضارة، في حين أنه هنا...».

ظن دو رواي بأنه سمع ضحك وتصفيق.

لماذا، بما أن الأب هنا، لا يمكن للفتاة أن تؤدي رقصة البطن أمام الجنود، وعندما سيشتعلون لمرة جميعهم، جميعهم، غانتر والآخرون، ويتحولون إلى مشاعل من الشهوة، ستفجرهم قذيفة إلى أشلاء؟

(1) بلاد الغول Gaule، هو الاسم الذي أطلقه الرومان على المنطقة التي يسكنها الغاليون وهم شعوب سلتية كانت منتشرة في شمال إيطاليا وفرنسا وبلجيكا.

(2) Charles Martel أو كما يسمّيه العرب القدماء قارلة، شارل «المطرقه» (688 – 741). كان رئيس البلاط ودوق الفرنكيين مؤسس الإمبراطوريه الكارولينجيه انتصر على عبد الرحمان الغافقي وصد المسلمين عند تورز (Tours) وردهم عن أوروبا في معركة بلاط الشهداء، التي وقعت في 10 أكتوبر عام 732.

«لو سألتني ماذا أفعل هنا، فلن أقول شيئاً. ولكن إن سألتني كيف أمكن للجزائر أن تنتج رجالاً مثلي، فأجيبك إنكم لم تعرفوا كيف تفهموننا. نحن، نعم. مثلاً، طريقتنا في قراءة *الغريب* لكامو، هي أنه نحن من لم نكن على أرضنا وأن كل شيء كان ملككم. لا شيء لكم، ولا حتى الغيوم، ولا حتى العاهرات. قبلكم، أنجب الإسلام حركة إنسانية كاملة، الدين كان روح الأمة الجزائرية. لقد حرّمتم علوم اللغة. فأنتجتم مؤمنين أميين مع قرآن مشوه. والجوامع بدت وكأنها نهضت. ولكنها في الحقيقة كانت مدمرة مع مفتين يقبضون رواتبهم منكم، حركيو الإسلام الخاصون بكم يقطعون الطريق إلى مكة عبر باريس: كي يذهبوا لتقبيل القبلة، يجب أن يتقدموا بطلب على ورقة تحمل طابعاً بريدياً في مركز المحافظة. أطلقتم اسم بوجو على ثانوية الجزائر، وكأنه ليس هناك شاتوبريان ولامارتين أو فلوبير. ما عدتم ترون النجوم ونحن، نحن نكلمها. لقد حصدتم القمح وزرعتم الكرمة. بالنسبة إليكم الريح ليس سوى الهواء الذي يعصف، بالنسبة إلينا هو خادم عجوز لدى سليمان أو أنه صوت الأبدية. أبسط راعٍ يعرف عن الريح أكثر منكم. عندما يقارب منطقة لا يعرفها، يمضغ فرخ عشبٍ ويشرب جرعة ماء من أقرب نبعٍ ويرمي في النار قطعة فطيرة لكي يبعد سوء الطالع. وهو يعرف الفجر الكاذب والفجر الحقيقي ويخرج قطيعه عندما تصبح الشمس بارتفاع الرمح ويعلم أن النهار سينتهي عندما ترقص الشمس وأن الليل يهبط عندما تصبح السماء بلون رقبة طير الورشان. فهو يعرف سنة الطاعون وسنوات الإسبان، وسنة الجراد وسنة احتلال الجزائر وسنة الجوع وسنة الوفرة وسنة الثورة والهزة الأرضية. يعرف التوقيت المناسب وغير المناسب، الحراثة تبدأ عندما تستقر الكواكب في مكانٍ

معين في السماء ومع بداية قمرٍ جديد. الزواج بالنسبة إليكم هو جمع بين الشروط المناسبة والمصالح. عندنا هو احتفال يدعى إليه الموتى والأحياء. هل يضحكك هذا؟ أنا، شخص شكّاك. كيف يمكنني أن أؤمن بالمقدس؟ أنا علماني لأن القيم الدينية جعلت من العربي شخصاً يخضع لكل شيء وحتى الخزي أحياناً. أنا علماني ولكني أفهم. كيف يمكن الاندفاع إلى ثورة دون إيمان بالماورائيات؟ فهل هي أمر طبيعي، الثورة؟ كيف يمكن لرجال الصحراء ألا يعتقدوا أن هذه الأرض هي أرض الرب مع هذه الرمال وهذه النار؟ في قلب الصحراء، ستعتقد أن النباتات الشائكة تعيش من الريح ولكن جذورها تضرب في اللامرئي. عندنا لا نلقي السلام على الرجل بصيغة المفرد بل الجمع: كل ما يحيط بالرجل وحتى أكثر الأشياء بؤساً. في الأعياد نضرب على الدربوكة. ليس كما هنا. هذا المساء، إن أتيحت لك الفرصة، يمكنك أن تسمع المزمار الذي يرافق هزّ البطن. أنا أعرف الترجمة. هذا يعني: «اضحكوا، اضحكوا، غداً...». رجالك سوف يذهبون ليناموا نصف سكارى وهم يتجرعون آخر كأسٍ. نحن لا نقول أبداً كفاية. فالحفلة الحقيقية هي التي تدوم. تكرار اللحن يفتننا. أنتم، تضجرون، الكلام المكرر يخدش سمعكم، ويفقدكم عقلكم. نحن بالعكس. نعيد ونعيد الأمر نفسه باللحن نفسه وبتعاقب النغمات السريعة نفسها، سعادة تضيئنا مثل مصابيح فينيسية مشعة، ولا نعود نشعر بشيء، مثلي أنا الآن بسبب الحبوب المنشطة، فما يتملكنا هو الشغف. أوينكر علينا كامو الحق بالعنف؟ ثم ينضم إلى رجاله كما ننضم إلى عشائرنا؟ لقد خذلنا. كنا ننتظر منه شجاعة كبيرة. لم يقدم لنا سوى المواعظ. إن ثرنا فلكي نحصل على وطن. لا وطنكم ولا وطن الفيالق، لا فلكلور في

تيباسا[1] ولا في الصحراء، وطننا نحن، أرضنا الأم، أرض الدموع وأرض الدم».

مسح بيده جبهته. فعرض عليه دو رواي علبة الباستوس.

«بالنسبة إلى ابنتي...» مضى يقول.

توقف. ولهث قليلاً.

– لقد رأيتها وكلمتها. لم تتمكن من أن تحبك، ابنتي. علمتك على الأقل أنه في غياب الأشياء الأخرى، يمكن للإذلال أن يكون هو أيضاً وطناً، الشيء الوحيد الذي عرفتم كيف تقدموه لنا. وطن مرٌّ، زوجة أبٍ، عالم من الحقد والألم، ولكن قل لي إذن لماذا يقاتل «البيكو» جيشاً كجيشكم؟ هل فكرتم في ذلك؟

– كثيراً.

هذا ما يشعر به دو رواي بشكل غامض. ولكن ليس بهذه القسوة. ورئيسة، ومن أجل إقناعه كانت تعتمد على نبله وذكائه الشخصيين أكثر مما على حججها هي.

– أوتعتقد أن المنشط هو من من أخرجني عن وعيي؟ منذ إنزال قوات دو بورمون بستراتهم وبناطيلهم الحمر، كان بامكانكم أن تكونوا بالنسبة إلينا تحولاً كما يقول ديغول. ولكنكم لم تكتفوا بأن تقيموا عندنا، فقد قطعتم شجرنا وسكبتم الوقود في غلالنا. حاصرتم مغاور من قاومكم وأحرقتموهم. رجلكم ماسو كان محقاً عندما قال: كيف تريدون أن يؤمن هؤلاء بفرنسا؟، لقد جندتم رجالنا

(1) تيباسا أو تيبازا كما أسماها الفرنسيون مدينة جزائرية تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط في ولاية تيبازة وتبعد عن مدينة الجزائر 75 كم غربا. أسسها الفينيقيون كإحدى مستعمراتهم التجارية العديدة.

في جيشكم كما الحال مع هذين الرجلين الواقفين أمام الباب ويحاولان أن يفهما ما يحصل. يعتبرانني مجنوناً ولكنهما معجبان بي في الوقت نفسه. عندما طبب الممرض جراحي قلت له: امح دمي، لكنك لن تمحو خزيك. إنه رجل مسكين. خاضع الآن، كما نخضع عندنا للفقر؟ لقد عشنا الكثير من البؤس... فنحن نعرف كيف نخضع وكيف نمحو. يمر الغزاة، ويبقى البؤس. الفقراء يخافون من أن يصبحوا أكثر فقراً. أنا كان لدي حظّ النجاة من ذلك. لا أعرف إن كان عليّ ألا أندم. لأن الأرض التي يأكلها الفقراء عندما لا يكون لديهم ما يأكلونه، تكون أرضهم. بالنسبة للأقدام السود فإن ذاكرتهم قصيرة. بالطبع، الجزائر بالنسبة إليهم لا توجد سوى كجزء حقيقي من فرنسا، يعتقدون أننا كنا دائماً خاضعين باحترام. عندما يمر الحاكم يدفعون للفلاحين لكي يقبلوا يده، والباش آغاوات ليشكروه على نشر أضواء الحضارة علينا، في حين أننا في الواقع لم نتوقف عن الثورة. ولكن ثوارنا لا يتكلمون عنهم إلا عندما يتم قمعهم، أو عندما يكون عليهم أن يطلبوا من العاصمة تعزيزات لإخضاع مناطق وهران وبلاد القبائل أو الأوراس والآن كل البلاد. بعد الانتفاضات، تضرمون النار وتطلقون الغزوات. هذا ما كان على أمروش[1] أن تصرخ به. الفزاعة في بلاد القبائل لم تتشكل من المرابين بل من الزواووين. واليوم الفزاعة هي أنتم المظليون. أنت تعلم تماماً مثلي أنه تم تحويل الجزائر إلى معسكر اعتقال مع أمن

(1) قد يكون المقصود هنا Taos Amrouche المغنية الجزائرية الأمازيغية وهي كاتبة في الوقت ذاته كتبت من وحي منطقتها القبلية وآلامها.

اجتماعي في كل قرية. تغتصبون النساء كما في زمن الأب بوجو، وتعذبون...

– أنتم أيضاً.

– نحن نقلدكم، إنها مؤسسة أنتم من وضع قوانينها، التعذيب مع جائزة نوبل في الأخلاق. وسوف تتم تهنئة النقيب، ولو أنهم هنا ليسوا منظمين كما في بلاد الشمال. ليس هناك من مغاطس، فالمياه شحيحة. أتفضل أن أصمت؟

التفت دو رواي إلى الأصوات التي تقترب وكعوب أحذية تطرطق. لقد تمكن الجنود من العودة إلى معسكرهم، وصوت المولد الكهربائي يتردد صداه في الليل.

ظهر النقيب في جلابيته النظيفة الململومة بنطاق.

7

في الوقت الذي كان فيه ديغول يحضر في مكتبه في الأليزيه خطبة رسمية ضد رباعي الجنرالات الانقلابيين، يكتشف تماثيل صغيرة لنسوة عاريات على رف المدفأة

في قاموس ليتريه[1]: الرباع، يأتي من ربع الليتر[2]. ليس بالأمر العظيم. مجرد حفنة، وبالمعنى السلبي أيضاً. رضي بالكلمة التي كتبها ربما بسرعة في ثورة غضبه. *سلطة متمردة استلمت الحكم في الجزائر*

(1) Littré هو القاموس الفرنسي الأكثر شهرة نسبة لاسم مؤلفه أميل ليتريه.

(2) هنا لعب على الكلام بين «الرباعي» والذي يعني أربعة (وهنا المقصود الجنرالات الأربعة الذي قاموا بالانقلاب) وبين الرباعي أي ربع العدد أو القياس.

برونيسيامنتو(1)عسكري.. هذه السلطة: رباعي من... رُعن[2] كلمة مبتذلة. «جنرالات متقاعدون» كلمة تسخر من المتقاعدين. *وهذه السلطة مكونة من مجموعة من الضباط الخارجين عن القانون المغرورين والمتعصبين...*

بعد الأسطر الأولى العشرة بما فيها من ضربات مخالب، نهض، وكعادته وهو يفكر أخذ بالطول والعرض بخطوات واسعة سريعة، شابكاً يديه خلف ظهره، في المكتب الواسع المفتوح على الحديقة حيث كانت الأشجار المبللة بزخة مطر تلمع. وفجأة توقف ووضع نظاراته. لماذا؟ لأنه من دون النظارات يبدو له كل شيء ضبابياً. أما عندما يضعها فتنور له مثل كشافات السيارات الضوئية. وإذا به هنا...

في النباتات المتعرشة التي تزين رسومها المحيط الباروكي للنوافذ، نساء عاريات بطول اليد. وأخرى أصغر من تماثيل آلهات الفن، عاريات أيضاً ولكن بحشمة، موزعات على رف المدفأة، ضائعات بين ألوان اللوحة الأساسية وزينتها - والتي باتت أساساً متهالكة - ولكنها مختفية وراء الستائر. إنها من النماذج المعروفة. نموذج بامبادور[3] المنتشر في كل مكان. الإمبراطورية الثانية أضافت العديد منها في القصر حتى صالة الحفلات، مع ملائكة صغيرات يحملن حرفي نون وألف محبوكين حول نابوليون الثالث وإجيني. كيف لم ير يوماً هذه التماثيل الصغيرة؟ كيف لم يلفت له أحد نظره لهاته العاهرات السمينات بمؤخراتهن الكبيرة؟ الصالون

(1) Pronunciamento كلمة إسبانية تعني البيان.

(2) رُعن هي جميع لكلمة أرعن.

(3) Madame de Pompadour (1721 - 1764) امرأة من الطبقة البورجوازية الفرنسية التي عرفت بعشيقة الملك الفرنسي المفضلة.

المذهب القديم الذي اختاره لموقعه المركزي والمشرف، كان إذن مزخرفاً

بتماثيل صغيرة متحللة كما في الزمن السعيد للإمبراطورية الثالثة، من دون أن يتمكن مالرو[1] – ولكن هل كان مالرو يعرف بها أساساً؟ – من مشاهدتها عن قرب.

طرد الصورة وعاود الجلوس إلى مكتبه. يده عادت تجول سريعاً على الأوراق المليئة بالكلمات المشطوبة: كلمات أكثر قسوة وقوة. برونسيامنتو تذكر أساساً بمحاولة أمريكا الجنوبية.

– ها هي الدولة تهان وتتعرض للتحدي، وها هي قوتنا تتزعزع وسمعتنا في العالم تنهار، ومكانتنا وحضورنا في أفريقيا...

لا تذهب بعيداً ولكن ركز على خطورة الحركة:... تسوية.

الكلمات تتدفق كالطوفان، مدفوعة بما يعتمل في داخله، دون أن يرفع رأسه، وتقريباً دون أن يتنفس.

– باسم فرنسا، آمر...

بالطبع فهو يسجل كلمته بلباسه الرسمي أمام الكاميرات. أمام صورة رباعي المتقاعدين، يقف عنيداً ثابتاً. وبنبرة أكثر برودة، يتخيل نفسه يفجر كلمة «آمر» على خلفية صامتة، يتخيل نفسه واضعاً قبضتيه على الطاولة ووجهه شاحب، الشفة السفلى متوترة، والذقن ترتجف بفعل تشنج عضلي، والكاميرا مثبتة على نظرة تساعده على اختراق الوعي كالتماعة سلاح. آمر باستعمال كل، وأؤكد كل الوسائل لسد الطريق على هؤلاء

(1) André Malraux الذي سبق ورود اسمه، وهو الكاتب والسياسي الفرنسي الذي كان من أنصار ديغول والذي شغل منصب وزير ثقافة في عهده.

الرجال... ويجب أيضاً أن يوحي بحتمية الانتصار:... وبانتظار أن نخضعهم، أحظر على كل فرنسيّ، وقبل كل شيء على كل جندي، تنفيذ أي من أوامرهم...

تخرج الكلمات من فمه، ليست همسات ودودة، بل إعصار يجعل الأعلام ترفرف والأشجار والسقوف تقتلع. وعلى الرغم من الخفة المعروفة عنهم، فإن الفرنسيين يحبون ذلك. ينصرفون فجأة عن ثرثراتهم وزوجاتهم الصغيرات لترنيم لامارساييز[1]. لا شيء مؤثراً أكثر من ذلك، وإذ بالبورجوازيين والبروليتاريا والباعة، في هذه البلاد التي يصوت فيها الكتاب بالعدل للبقالين، يصابون فجأة بحمى الوطنية. أمام المحنة التي تعصف بالوطن...

لابدّ من أن يخافوا.

ربما في خطبته الرسمية التي ألقاها منذ ستة أشهر[2]، أكان في مقدوره ربما أن يتحاشى الصدمة، وألا يتلفظ بكلمة الجمهورية الجزائرية.

كلمة يفكر فيها منذ زمن، والتي ترد أحياناً في بعض المداولات لأن الجمهورية الجزائرية باتت حقيقة، فلِمَ عليه أن يخدع نفسه ويخدع البلاد؟ ولا يتخيل نفسه يتجاهلها اليوم. فبعد أن كانت مشطوبة من نصه، عاد ووضعها من جديد، بطريقة غريبة. شطبت لأسباب كثيرة من أوراقه، نعم لقد أفلتت منه، لا بل تلفظ بها بسخرية وقحة وتسبب بعاصفة»... الجمهورية الجزائرية، التي ستقوم يوماً ولكن التي لم تكن يوماً...». وعلى

---

(1) Marseillaise النشيد الوطني الفرنسي.

(2) ويقصد هنا الخطبة التي ألقاها في أبريل 1961 والتي قال فيها «الجزائر تكلفنا أكثر مما تدره علينا.. وعليه فإن فرنسا لن تعترض سبيل السكان الجزائريين إذا قرروا إقامة دولتهم. ولمزيد من التوضيح، فإن هذه الدولة ستكون لها السيادة في الداخل وفي الخارج».

الرغم من ذلك، إن كانوا يريدونها أم لا، يعترضون عليها أم لا، إن كانت شرعيةً أم لا، فستكون هناك حتماً جمهورية جزائرية.

قفز رئيس الوزراء الذي دعي لمشاهدة مونتاج الخطبة الرسمية عن مقعده. بالنسبة إليه، قوة كلمات ديغول تكفي وحدها لتمنح الأوهام حياة. بالنسبة إلى نائب الحكومة في الجزائر، في البداية بقي صامتاً، ثم حذره من أي رحلة إلى الجزائر هنا «إنها مسأله حياتك، سيدي الجنرال...».

هز كتفيه. لقد تحدى القدر بالجرأة الهادئة لمن يعرفون أنهم، في المكان الذي أرادته لهم الإرادة الإلهية، محميون بها أكثر مما تحميهم الشرطة... بأساً للكلمة. الكلمة لا تفعل شيئاً سوى أنها تتفوق على الحقيقة وبالتالي تخفف منها. لقد بقيت الكلمة.

ولم تنفجر سوى اليوم.

نهض ديغول من جديد. ابتسامة أضاءت وجهه الذي كانت تعكسه المرايا الكبيرة للحائط. في الضوء بدت خطوطه المخففة جميلة تقريباً: بخطوط جبهة أفقية، وأخرى مجعدة حول العين وأثلام على الخدود والذقن. وللأنف قوة مقدمة سفينة، ظلال وكثافة العينين تعطيان للنظرة التماعة داكنة. لن يتنازل. لا يمكن لأي صلاة ولا تحذير ولا خوف أن تجعله ينحرف عن طريقه. فهو لم يعبّر يوماً عن أي انفعال، ولا حتى تحت القذائف ولا في خضم الانفجارات. سيسد أذنيه على المناشدات وسيكمل. كل شيء مقدر ومرتب.

أكان ليأتي الخطر من ماسو الذي حاول أو توسل ليكون في فرنسا على

رأس العصيان[1]؟ لقد أحبّ كثيراً ماسو. جندي يتمتع بالمبادئ الأولية، بارون من الحملات الصليبية، ليس ساذجاً على الإطلاق. استدعي إلى الأليزيه بعد خيانته الصغيرة بإجراء مقابلة مع صحيفة المانية، فبرّر نفسه بحجج تلميذ عريف: لقد آلمه أن يوضب أعلامه في السويس، وهو يعيش ندم عدم إكماله حتى القاهرة. كاثوليكي يتمتع بإيمان فطري، دفعه قسيسوه إلى أن يطرح قضية البربر. لا يمكنه أن يتركهم يدمرون الحضارة، وقد استنتج ان الرب يأمره بأن يعذبهم دون قسوة مفرطة ولكن بفعالية. الكهرباء للتعذيب[2]؟ لقد علم بوجود هذه العصا في الجزائر من خلال رجال بولارديير[3]. ومن ثم تجرأ على أن يصرخ في وجه ديغول: «أنت لا تقول شيئاً، سيدي الجنرال. وها قد أوقعتنا في الفوضى. إذن هنا نحن، لسنا نظيفين، وسمعتنا ليست بخير. ستأتي لحظة، عندما نحتمل ما تفرضه علينا...».

تردد ثم تابع:

«... ستأتي لحظة، سنتساءل فيها إن لم نكن قد اقترفنا حماقة

(1) ويقصد هنا العصيان الذي قاده ماسو والذي طالب بعودة ديغول إلى السلطة. لكن المقابلة مع الصحيفة الألمانية لاحقاً والتي انتقد فيها ماسو سياسة ديغول بعد توليه الحكم بخصوص الجزائر، هي التي جعلت ديغول يجرد ماسو من المسؤولية التي كان قد أوكلها له في الجزائر كقائد للقوات العسكرية، وأعاده إلى فرنسا وعينه حاكماً لميتز.

(2) وتقوم هذه الطريقة عبر وصل الجسم بشرائط كهربائية تشغل عبر المولد الكهربائي. وهو الأسلوب الذي كان الفرنسيون أول من استعمله في حربهم في شبه الجزيرة الهندو الصينية ثم في الجزائر ضد أعضاء جبهة التحرير الوطني.

(3) Jacques Pâris de Bollardière (1907–1986) كان ضابطاً عاماً في الجيش الفرنسي، شارك في الحرب العالمية الثانية وحرب شبه الجزيرة الهندية الصينية وحرب الجزائر. وهو أيضاً واحداً من وجوه اللاعنف في فرنسا. وهو الضابط الرفيع الوحيد الذي عارض علانية أساليب التعذيب خلال حرب الجزائر التي اعتبرها من خصائص الحكم التوتاليتاري.

بمطالبتكم...».

كان ماسو نزيهاً ولكن بالدرجة التي تخدم مصالحه. على هذا المستوى، فهو جنرال حقيقي. كان من الصعب أن نتبين لديه كذباً أو مكراً. أسوة بجنرالات الحملة العسكرية على الجزائر، فقد كتب ماسو مذكراته لكي يقنع الآخرين بالطريقة التي أدار فيها مسيرته العسكرية. على أية حال فهو ديغولي بدءاً من منطقة الأدغال حتى ستراسبورغ وشبه الجزيرة الهندية الصينية، وهذا ما يستحق التقدير. لكن أخذه الغرور عندما رفّع بفضل زوجته وبعض المصادفات. لم يكن خطوءه أن يخرج عن الخط بعد أن أصبح، على شرفة الميدان، المثل الأعلى في الجزائر. أهو حقاً، كما ادعى، وليس سالان، كان أول من نادى باسم ديغول على مكبرات الصوت في 13 مايو أو أن دلبيك هو من حرك الخيوط؟ فقد اعتبر المحرر الجديد، إلى درجة أن ديغول طلب من سالان أن يخفض درجة ماسو العسكرية.

«ثم»، صرخ ماسو، «لقد ضقت ذرعاً. كل الشتائم التي تلقيتها دون أن تدافع عني. كنت أرغب بارتداء القندورة والهرب في الجبال. ولكن قبلها...».

جالساً خلف مكتبه طراز لويس الخامس عشر من الخشب الأرجواني، تركه ديغول واقفاً، متجمداً في وضعية الاستعداد، وقبعته العسكرية تحت إبطه واللعاب يسيل من فمه.

«... كنت لأفرغ حقيبتي، ولأبصق على الرجل الأبله الذي كنته...».

عند هذا الانفجار استدعى المساعدون الشخصيون الحرس. شيئاً فشيئاً هدأ. شيئاً فشيئاً كل هذا الذهب، كل هذا الخشب السندياني،

الشمعدانات، الفخامة، سجادات سافونري[1]، المدفأة الرخامية المزينة بالياقوت، اللوحات المتوهجة الملكية أشعرته بالخجل. لم يلحظ بالطبع الفتيات العاريات اللواتي اكتشفهن ديغول وإنما دون كيشوت بريشة شارل كوابل.

في النهاية صمت، وديغول أيضاً احتفظ طويلاً بصمته، ثم نهض ونظر إليه بطرف عينه مع بعض اشمئزاز. بعض القرف؟ هذا الأنف المعقوف وهذا الوجه القلق، تلك الطريقة الزواوية بالكلام. وصوته، ماسو، ككسرولة تقرقع فيها الماء.

ولكن هذا لا يمنع، أنه بحاجة إلى أشخاص مثله.

«عندما يتعلق الأمر بفرنسا، لا ننتعل حذاء منظف مجارير وإنما خفين... أنا لست شخصاً عنيفاً... لن تعود إلى الجزائر».

شعر فجأة ماسو بالغثيان، وبجسده متصلباً، ضائعاً أمام سيادة مشهد بهذا الاتساع، لقد قضي عليه.

مدّ له ديغول أخيراً يده:

«سأسميك حاكماً لميتز».

عاد ليجلس وضغط على زر مساعده الشخصي. فكرة أوحى له بها اختراق ماسو لتفكيره.

ظهر بونيفال، بعين قلقة مكسورة قليلاً.

«أريد معلومات عن النقيب الذي ساعدك في الجزائر في 58 والذي لم أره مذ ذاك. أفهمت من أقصد؟ المظلي. اسمه... دو رواي، أين هو؟».

(1) Savonnerie معمل ملكي لصناعة السجاد في باريس.

هذا المظلي لم يبد له نزيهاً ومستقيماً فحسب. فهو هذا كله، ولكنه أيضاً واعٍ ومنفتح على وجهات النظر. لم يعد يتذكر تفاصيل اللقاء ولكن ذلك الشعور بالأمل مع بداية الحديث معه.

بدا بونيفال للحظة متردداً؟ هل يفكّر الجنرال بأن يقرب منه المظلي من جديد؟

بفضل هذا النقيب الذي عاودته صورته، بدا له الجيش الذي يحارب في الجزائر أقل محدوديةً مما اعتقد. في أي موقفٍ أضحى هذا النقيب؟ العلاقات التي ما زال يحتفظ بها عبر مجلس القيادة في الجزائر من المفترض أن تساعده.

قلّب الأوراق ودفع قليلاً مثقّلة الورق الهزازة، والأجندة، وكل أدوات الكتابة، المطابقة لتلك الموجودة في لا بواسري[1]. إلى يمينه، وعلى طاولة خفيضة، جهازا هاتف وحده يستطيع رؤيتهما.

عليه إنهاء الخطبة الرسمية التي يجب أن تبقى قصيرة. سطران آخران: *أيها الفرنسيات، أيها الفرنسيون! هل ترون أين تخاطر فرنسا بالذهاب بالقياس لما كانت في طريقها لتحقيقه. أيتها الفرنسيات أيها الفرنسيون، ساعدوني.*

جاءت الخاتمة موفقة. قرأ الخطاب ثانية وصحح بعض الكلمات، وأضاف وأسفاه، عندما يسأل من الذي سبب الأذى للدولة، ثم وأسفاه أخرى. هذا الأسف المضاعف يعلن نهاية الرجال الذي كان عليهم بحكم الواجب والشرف والحكمة أن يخدموا ويمتثلوا للأوامر. ثم استدار باتجاه

(1) La Boisserie كان المسكن الخاص لشارل ديغول في كولومبه، والذي تحول اليوم إلى متحفٍ تعود ملكيته لابنه الأميرال فيليب ديغول.

الكرة الأرضية الضخمة من القرن الثامن عشر التي قدمها أحد الأوفياء له ومنهم دوبريه والمركونة على الحامل الثلاثي القوائم من خشب الجوز. نهض من جديد واقترب أكثر ودفعها قليلاً لتدور، باحثاً عن البقعة الصفراء التي تشكّل الجزائر. كل مرة كان يتخيل من جديد ستالين في صالونات الكرملين ماداً رجله، رجل دب روسي، فوق كرته الأرضية الخاصة وهامساً من تحت شاربيه، لانه لم يكن يتكلم بصوت مرتفع كما يتوقع المرء. كان له صوت ضامر، هادئ، بطيء، رقيق أبكم كهسيس الهواء. نقل عنه يوماً المترجم: «إنها صغيرة... أوروبا». بالطبع، مقارنة بروسيا التي لا تنتهك، مقارنة بالمساحات التي أضاعها نابوليون وهتلر... بالنسبة إلى ستالين العظمة الحقيقية هي ستالين، الشعب الروسي، ولكن بالنسبة إلى ديغول فهي أيضاً ديغول، وفرنسا عندما لا تخضع. لم يترك نفسه يقع تحت تأثير عيني ستالين ومودته الزائفة ولا ابتساماته. لقد أجبر ستالين على أن يحسب حساباً لفرنسا الصغيرة هذه في آخر أوروبا.

ظهر بونيفال.

«لقد عُينّ النقيب قائد كتيبة منذ عام. إنه اليوم في الصحراء. وليس له أي علاقة بالأحداث».

شعر بما يشبه الفرح، رفع عينيه إلى بونيفال، بصدره المزين بالنياشين وذقنه الذي كذقن الجنود المماليك ومد له حزمة من الأوراق كي يطبعها.

«إن لم يتحركوا هذا المساء تحديداً، بونيفال...».

عبر عن إشارة حاسمة.

8

في الشانزيليزيه، في يوم أحد ربيعي مبلل بالمطر، تلقى هكتور رسالة من منظمة الجيش السري[1]

زخة مطر انهمرت قبل قليل، فبات كل شيء في الشانزيليزيه لماعاً. الأرصفة، أشجار الربيع الحزين والواجهات والسيارات. الإطارات تئز على الطريق المبللة. في الجهة المقابلة، في جورج الخامس، أضواء وملصق كابيتين فراكاس[2] الهائل. نهاية بعد ظهر أحد وليس هناك من سيارات أجرة.

فانحشر هكتور في المترو.

في الصحيفة، كان بعضهم يريد أن يتجند في الميليشيا التي يقام مركزها في ساحة بوفو وبعضهم الآخر يعتقد أن الأكثر فعالية هو العمل السري. وكأنهم كانوا جميعاً مهمين جداً. وكأنهم لا يعرفون أنهم لا يفعلون في النهاية شيئاً غير الكلام. اليساريون قفص ببغاوات. لو نزل المظليون، فستكفي شعبة واحدة لتوقيف *لكسبريس* و*لوبسرفاتوار* و*لو تان مودرن*. وللقبض على جي. جي وأس.أس، كلود بورديه، سارتر، مورياك، بوف-

(1) منظمة الجيش السري والتي كانت تعرف اختصاراً بالفرنسية بـ (OAS) هي منظمة إرهابية فرنسية أسست في 11 فبراير 1961 بعد لقاء مدريد بين جون جاك سوسيني وبيير لاغيار. تضم الموالين لأطروحة الجزائر الفرنسية بالاعتماد على العمل المسلح. أول ظهور لعلامة OAS كان على جدران الجزائر العاصمة مصحوبة بشعارات «الجزائر فرنسية وستبقى فرنسية».

(2) Le Capitaine Fracasse هي رواية لتيوفيل غوتييه صدرت في 1863. وعلى الأرجح هنا يتحدث عن الفيلم المأخوذ عن الرواية والذي ظهر في السينما في العام 1961 لبيار غاسبار وي مع جان ماريه مع العلم أنه كان سبق ذلك إنتاج ثلاثة أفلام أخرى عن الرواية.

ماري من لو موند. سيوقفون بعض الشخصيات السياسية الكبرى مثل مندس وميتران. ولن نعاني بعدها من الشيوعيين. وسيكفي فوج واحد لمحاصرة مركز الحزب وصحيفته *أومانيتي*[1]. وسيحشرون الجميع في قطارٍ سريع ومريح كهذا حتى بارك دي برانس. وهكذا سننتهي من المعارضة.

خطأ. ليس هناك سوى حمقى. أما الموهبة؟ اليسار يفيض بالمواهب. فسوف يبدأ ذلك من جديد وبكل حيوية. لا يمكن للمظليين أن يقفلوا جميع المطابع. سوف تدسّ البيانات الدعائية تحت الأبواب وفي صناديق البريد. فمنذ وقت توقعوا ذلك... وسوف يدافعون عن أنفسهم. ولكن ضد من؟ فما دام ديغول في السلطة، لن يتم الاعتداء على الحريات. معارضة اليسار لديغول شيء من الجدل البيزنطي. فإن تم ضرب ديغول سيسكت الشعب الفرنسي. ولعشر سنين سيبقى سالان في الأليزيه وبيدو في ماتينيون. وماسو في مقر ولاية الشرطة وسوستيل في الداخل.

الناس العائدون إلى منازلهم أو الذاهبون إلى المطاعم أو السينما، هل سمعوا خطاب ديغول الرسمي، هل هم مستعدون لمساعدته كما طلب منهم؟ لقد تم حجز القوات الفرنسية بألمانيا[2] في ثكناتها. من المفترض أن سالان ترك مدريد وماسو الذي أنهى للتو فترة تدريبه في بو[3]، وصل إلى منزله في مونتارجي عبر البر. خمس اعتداءات بالقنابل البلاستيكية خلال ثمانية وأربعين ساعة: قتيل في أورلي، وخمس جرحى في محطة ليون، واثنان في محطة أوسترليتز، وعشرة في مركز بلدية كوربيفوا، قنبلة مزروعة

(1) L'Humanité هي صحيفة الحزب الشيوعي الفرنسي.

(2) القوات الفرنسية في ألمانيا هي نفسها القوات الفرنسية التي كانت في ألمانيا قبل توقيع اتفاقية الهدنة مع ألمانيا في 1949.

(3) بو (Pau) هي بلد فرنسية.

في محطة مونبارناس. هل هو برنامج مكثف من الاعتداءات بالتنسيق مع متمردي الجزائر؟ وجوه النساء وكأنها غائبة. مومس تنزل من القطار، يا للضجر! السيد لا يحب سوى النساء الموصوفات بالمستقيمات. «عندما أفكر بأنه ليس لدي امرأة أذهب إليها...».

عودة غير متوقعة إلى أغاتي. لقد أحبها، أغاتي وليس بسبب يأسه. في الموقع العسكري المحاط بالمتاريس حيث التقاها، يتذكر أنه كان وقت النوبة والسباهيون ينطنطون، رائحة سميد وغاز عوادم سيارات تحمل مسؤوليهم العرب باتجاه منطقة الجلفة والسراب في الجنوب. مأساة، زواجه من أغاتي بعد خيانة مارغريت. لا تقل إنك تزوجت بفعل اليأس. فقد التقى فتاة أكثر براءة منه، فقد صعدت في سمائه التي غاب عنها الرب، كيف كان بإمكانه أن يرفض نشوة القبل والنهدين والجسد؛ جسد من الحرير والنار. ما هو الحب ولِمَ لا أغاتي، أغاتي النقية بجبهتها الحرونة؟ إنها بسيطة جداً بالنسبة إليه، بريئة جداً، غير مهيأة للتأقلم مع وضعه. كانت أغاتي لتفضل موظفاً هادئاً يعود إلى منزله كل مساء؟ وماذا عن الأولاد؟ الرعب الكبير. لا أولاد. وفجأة، يكتشف أن الأرض ملأى بالنساء الأكثر جمالاً من أغاتي وبأنه يضيع وقته بالتعليم في مدرسة الجندية للسوقة العسكرية[1]. عليه أن يترك جند المشاة للالتحاق بقسم بسلاح الطيران كما ترك من قبل المدرسة الإكليريكية من أجل مهنة السلاح. وترك نفسه ينقاد بآلات يمكنها أن تقتلعك من نفسك. تندلع حرب فلا تكون فيها سوى ذرة في الصدام بين الأمم، تستيقظ في منتصف الليل وتكاد طائرة ضمن سرب

(1) السوقة العسكرية أي الجنود المدعوين في يوم واحد للخدمة لخدمة العلم.

من أر. أ. أف[1] أن تسحقك إن انحرفت بطائرتك عن مسارك، تخرج إلى مساحات من الظلمات والخيال، تدور بين الغيوم وصدى طلقات المدفعية، وأذناك يصمهما صوت الرشاشات. عينك على الهدف تطلب فتح النار فتخترق قذائفك الأسراب المحتشدة...

ولما فجأة، كان الحب المدمّر والذي بدأ معه يغني تحت نوافذ جانيت، والتي ولحسن حظه، فضلت شخصاً آخر، ثم كانت الفوضى التي أودت به إلى المخاطرة بحياته في حرب شبه الجزيرة الهندية الصينية. بالنسبة إليه الحرب النظيفة، هي الحرب التي كانت ضد ألمانيا التي خرج منها، وسط الغارات على المدن، مع الاحترام الذي احتفظ به لخصمٍ ردوده سريعة. ففي شبه الجزيرة الهندية الصينية، وعلى عكس أصدقائه، لم يكن يعرف التعاطي مع نساء وعادات محليات. فقد كان للسيد عاداته في المطبخ والحب. وإلا هل كان ليحبك السيد كل تلك الدراما من أجل تعذيب بعض مساجين. يا إلهي لم يكن ذلك بالشيء العظيم، بعض القرى المحروقة، وبعض المجازر. هل كان للحياة هناك الثمن نفسه لما هي عليه في أوروبا؟ أما كان يجب إفناء الشيوعية؟ لما عليه أن يشعر بوخز الضمير والوساوس؟ وساوس جديرة بالاحترام بالطبع، ولكن كم هي عقيمة بالنسبة إلى عسكري، وساوس حضّرته للتراجيديا الجزائرية؟

بدّل القطار في ساحة كونكورد، عبر الأروقة الكئيبة.

فكر بتمضية السهرة مع ماريني، ولكن ماريني بقي في أوروبا بسبب حالة الطوارئ. «لو وصل المظليون فسوف أجري معهم مقابلة...». وفي لكسبريس، فهو يشعر بالسوء منذ أن دخل بليز الذي سقط تحت قذائف

(1) R.A.F سلاح الطيران في الجيش البريطاني.

المظليين تحت جدران بنزرت[1] ونقلوه نصف ميتٍ، إلى المستشفى. كما أزعجته كثيراً تلك الرسالة التي تلقاها منذ ثلاثة أيام من منظمة الجيش السري في منزله: *السيد فكتور كونيغ، طريقة تفاعلك تعتبر خيانة. ستكون واحداً ممن سيتم تقديمهم للمحكمة العسكرية*... ولكي يتمكن من احتمال ذلك، كان يلزمه وجود امرأة.

إنه لأمر مضحك. لكي تقدم له امرأة العون، عليه أن يقدم لها قلبه. هل أن طلاقه من أغاتي جعله شخصاً بهذه السخرية؟

في هذه اللحظة، في القيادة العامة، لابدّ من أنهم يناقشون قطع الطريق على طائرات الجزائر. ليس هناك من شك باللهجة التي استعملها ديغول في التهديدات التي لوح بها: لقد تلقت الطائرات المقاتلة الأوامر بإطلاق النيران، ولكن من سينفذ هذه الأوامر؟ هل ستقود الطائرات المقاتلة طائرات النقل؟ هل ستضغط على زر النار؟ إذن إن اقلعوا من الجزائر سيستريحون في أورلي وبورجيه وتوسو. وسيكونون هنا صباح الغد...

باتجاه باب فرساي. من بعد اجتياز السين تحت النفق الحديدي، يخرج القطار إلى أضواء محطة مجلس النواب مسبباً الإزعاج لرجال الشرطة. ومع انطلاق البوق الصغير للقطار تفتح الأبواب.

مارغريت، ليست سبب كل شيء. أساس مأساته الجزائرية، هو وضعه كابن غير شرعي. وكأننا في ما قبل التاريخ. هل هذا موجود اليوم، النغل غير الشرعي؟ أهناك فرق بين أطفال الزنا والآخرين الشرعيين الذين لا يفرقهم شيء ولا حتى الوضع المدني؟ أي انتقام يستلزم إن كان ثمرة عشق

---

(1) بنزرت هي مدينة تونسية.

وليس خنة[1]؟ ثمرة غراميات أمك مع مجنون وليس ثمرة واجبٍ زوجي مع شرطي تفوح منه رائحة العرق والأبسنتين؟ دعونا من محاولة الشفقة على هذا النغل العزيز، المدلل الذي رعاه الجميع، والذي لو كان الشقيق الحقيقي لديزيريه لكان ورث مهنة الشرطة. على فم إليز الإشارة التي تبرر كل شيء: «لم يكن ذلك خطوءه، هذا المسكين هكتور...». إنه خطأ أمه، لقد كان ابن الخطيئة، إنه علامة التناقض الذي عاشته أمه والإذلال الذي تحملته طيلة حياتها. من هنا يجب أن ينتقم لها. إنه لغباء. أمه تستريح مع آل باري في سيدي موسى وأبوه مع آل ديماتون في سانت–إيجين. منفصلان في الموت كما كان يجب أن يكونا في الحياة. كلّ في مكانه. والعرب أين يسكنون؟ فقد فتح له كامو[2] عينيه على مصير العرب. فمع أن هكتور لم يكن أكثر حماقة من غيره، لكن الفكرة لم تخطر في باله قط. فقد علمه كامو أن للعرب روح وبأنهم كانوا ضحايا الاستعمار، الأولاد غير الشرعيين للزمن، هنا يمكن أن يكون للكلمة معنى ما. ليس هناك بالنسبة إليه امتيازات ولدتها الغلطة السعيدة، *فليكس كولبا*، كما يسمونها في المدرسة الإكليركية. لقد كان العرب مهزومين، ومخزيين، رجال مجللون بالعار والانحطاط والمهانة، ناهيك عن من لا يتجرأون على الجلوس من دون أن ينفضوا سراً الغبار عنهم. عليهم أن يبدوا طيبين معهم. من هنا فهو يقف في صفهم مثل بليز؛ بليز باستنتاجات جدية وهو بماذا؟ عندما ننتمي لسلالة الأسياد، ونكون إلى جانب العرب ونخرب حياتنا، هل يكون ذلك جدياً؟ أن نخاطر بدفع ثمن الكلمات بالكثير من الألم

(1) الخنة او اليخنة وهي عبارة تستعمل بالفرنسية للإشارة أحياناً إلى البيت الزوجي.

(2) أي الكاتب ألبير كامو Albert Camus.

الجسدي كما حصل مع بليز تحت جدران بنزرت. «لو علمنا أنه هو»، كما قال المظليون، «لكنا أجهزنا عليه...».

محطة سولفرينو. في زجاج الواجهة، رأى وجهه الطويل، المحفور. شعره الذي اكتسحه الشيب. أيّ راحة، أي سلام، حب امرأة! «أنت مخطئ، احمِ نفسك من الحب غير الأكيد ومن الاضطراب. ستشقى من رغبتك في امتلاك ما ليس لك، كما سترفض ما سيقدم لك. تريد دائماً ما ليس لك...». ليس لديه من يذهب إليه، وإن يكن؟ فأي غريب أطوارٍ يمكنه أن يبعث برسائل ابتزازية باسم منظمة الجيش السرّي أو يضع متفجرة في مراكز إيداع الأمتعة في المحطات. ضجيج وزوابع وعناوين كبيرة في الصحف. تسميم. خداع.

وصل القطار بصوت صريرٍ عالٍ. في الخارج، في الليل الذي يهبط، يتنازعون على الصحف. العنوان العريض في جورنال دو ديمانش: «ديغول: كل القوى متضافرة لمقاومة مثيري الشقاق. انفجارات في باريس وأورلي. بيسبول نيس 4 – 2».

9

في غرفة نوم بليز، هكتور وماريني يشاهدان التلفاز، رئيس الوزراء يعلن عن العملية الوشيكة للمظليين على باريس

على الشاشة حيث قطع الحفل للتو، قفزت الصورة ثم ثبتت، ليظهر وجه رئيس الوزراء الباهت بخديه الغارقين في لحيته وفمه الدقيق. يا لهذا التناقض مع رقة فيفالدي وحنانه! حين لا يتسنى لدوبريه الوقت لكي

يحلق ذقنه ويرتب مظهره، فهذا يعني أن هناك ما هو أهم الآن.

«تعليمات كثيرة، محددة ومنسجمة...».

دون أي مقدمات، وبصوتٍ متقطع لاهث، أعلن عن قرب عملية المظليين.

بدا بليز مستاء.. هذه المرة هناك خطر حرب أهلية، والحكومة تبدو على حافة الانهيار.

«طائرات مستعدة لإطلاق ورمي...».

على التلفزيون، الوجه المأساوي والنظرة المعدنية.

«ما إن تسمعوا صفارات الإنذار، انطلقوا مشياً على الأقدام أو في السيارات لتقنعوا هؤلاء الجنود المضللين بخطئهم الكبير... وليشعر كل منكم بأنه جزء من الأمة[1]...».

دائماً الأمة على لسان هذا الراهب الدومينيكي. دائماً مع ذلك التفخيم للكلمات. تركتهم الخطبة صامتين، مذهولين. رئيس الوزراء يدعو تقريباً إلى حمل السلاح، وهو بذلك يروّع البلاد. ولكن من الذي دفع في ما مضى باتجاه الثورة ضد السلطة الشرعية؟ من أعلن، قبل ثلاث سنوات أنه سيعلن خائناً من سيترك الجزائر الفرنسية؟ في ظروف أخرى، لكان استقبل المتمردين مع الموسيقى والأعلام.

نهض ماريني ليخفض الصوت على آخر مقاطع النشيد الوطني

(1) بعد ثلاث ساعات من خطاب ديغول عبر التلفاز، ظهر رئيس الوزراء مشال دوبريه، أيضاً عبر التلفاز، ليدعو الفرنسيين إلى اجتياح الشارع عند سماع صفارات الإنذار من أجل اقناع المظليين بالعودة إلى جادة الصواب، باعتبار أن الحركة الانقلابية كان =

= قوامها وحماتها هم المظليون.

الفرنسي. لقد جاء في النهاية مع جهازه الناغرا[1]، جاهزاً للانطلاق باتجاه المظليين. عند النافذة، أبعد الستائر:

«هناك نجوم. إن كان لديهم طقس جميل، فليست كلمة تاريخية من مالرو الذي...».

نظرة إلى بليز جعلته يقطع كلامه.

«أنت تتألم؟».

عند كل حركة في سريره في محاولاته للبحث عن وضعية أقلّ ازعاجاً، كان وجه بليز يتلوى. الرصاصة التي سحقت فخذه سببت له كسوراً لم تنجح ثلاث عمليات في جبرها. عندما يجبرونه على النهوض لعشر دقائق في اليوم، يمشي على العكازات. نقله بسيارة الإسعاف أتعبه.

«لا شيء».

فمضى ماريني يقول:

– إيطاليا قدمت قواعدها. رادارات سردينيا تمشط المساحة أمام الجزائر، ولكن هناك خوف من أن تطلق البطاريات المضادة للطيران نيرانها. كم يفصلنا عن سردينيا؟

– أربع ساعات من الطيران، قال هكتور.

أخذ ماريني يمشط الغرفة ذهاباً وأياباً، غرفة فندق قديم مميز، حيث الباركيه ينسجم مع المعلقات والمعدن الكرومي للمصابيح والكنبات، وإذ به يتوقف بغتةً:

– أنا الذي كنت أعتقد أن مع كلمته تلك «الرباعي» ومع «وأسفاه» تلك. يمكن لديغول أن يربح...

(1) Nagra هو ماركة آلة تسجيل محمولة صممت في 1950.

– لقد ربح، قال بليز. دوبريه هو من فرض الواقع والباقون لا شيء.
– ولكن وإن أصبح اللاشي شيئاً؟ هل سيتم الدفاع عن الأليزيه؟ فإن اغتيل ديغول، سنكون أول من سيحمّل في الشاحنات. وسوف نعدم في حصن إيفري. من سيقاوم؟ النقابات بالإضراب العام؟ الطلاب مع المتاريس؟ عندما ستغطي قبعات البيريه الحمر شان دو مارس[1]، سينتظر الفرنسيون في منازلهم الخطاب الأول لشال أو لسالان على التلفزيون. بالنسبة لي ليس هناك من أي مشكلة، سأذهب لأجري مقابلات مع هؤلاء. هل تأتي معي؟ تابع وهو ينظر إلى هكتور.
– ليس هو، قال بليز. لا، يجب ألا يمنحهم هذه البهجة.

دب الرعب، وقال هكتور لنفسه إنه ربما سيكون أكثر فائدة أن يكون في الخارج من أن يكون في بزة عسكري في ميليشيا روجيه اسطفان[2]. بلجيكا وإنكلترا مثل فكتور هوغو، لمَ لا؟

«هل حقيبتك جاهزة؟»، سأل بليز، «برأيي ليس هناك خيارات أخرى».

كان بليز يتحدث بصوتٍ خفيض بشفتين بالكاد تتحركان. فالليل الذي أمضاه قبل ثلاثة أشهر، في غرفة انتظار الموت، جعلت نوعاً من الجمال المرير يطفو في نظرته وعلى جبهته التي تتقطر بالعرق.

(1) Champ-de-Mars هي ساحة عامة خضراء، تقع في الحي السابع من مدينة باريس، في المساحة المحصورة بين برج إيفل والمدرسة العسكرية. وتعتبر من أشهر الساحات في فرنسا، ليس فقط لجمالها ولكن أيضا نظراً لما شهدته من أحداث كثيرة منذ إنشائها.

(2) روجيه اسطفان Roger Stéphane (1919–1994) هو كاتب وصحافي ومقاوم فرنسي سابق. من العوائل اليهودية البورجوازية، مؤسس صحيفة L'Observateur.. دخل الحزب الشيوعي وخصص مؤلفات لبورقيبه وصديقه جورج سيمنون.

«لا تتأخر، اتخذ قرارك».

شعر هكتور بنوع من الخزي، ألم يرتجف أمام القذائف التي كانت تضرب سريته فوق ألمانيا وتتجنبه؟ سوف يتلقى دروساً في علم الأخلاق من هذا النذل... هل سيتركه يلتمع فوق سريره مثل حربة، بليز الذي لم يكن رجل حربٍ، الذي يحب الصداقة والنساء والشمس والشواطئ، يجد في المؤسسات الكبيرة مبرراً لمأساوية حياته، يتخلى عن كل شيء، يضحي بكل شيء وفاء للفكرة التي بناها عن العدالة ويدفع من آلامه ثمن ما انقضى أو ما سيأتي من سعادة؟

تظاهر بالمرح:

هؤلاء الناس هم قديسون، لماذا أرحل؟».

10

في اليوم التالي في الجزائر، الجنرال شال جالساً وحده[1]

(1) بعد خطابي ديغول ورئيس الوزراء، تغيرت الأوضاع كلية. ففي فرنسا، ومنذ صباح اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل ملأ المتطوعون في فرنسا الساحات والطرقات المجاورة لوزارتي الداخلية والدفاع، وقررت النقابات إضراباً عاما لمدة ساعة. وفي الجزائر، أمر الجنرال جان لويس نيكو Nicot الذي كان مسؤول الطيران العسكري (والذي شارك بطريقة غير مباشرة بالانقلاب من خلال غض النظر عن اقلاع طائرة نقلت الانقلابيين إلى بوفاريك) بسحب أسراب الطائرات، إلى الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط. وبالموازاة مع كل ذلك ظهر التردد في وحدات الجيش التي كانت قد أبدت ولاءها للمتمردين وتبلور الموقف الرافض لأتباع الجنرال شال في كل من وهران وقسنطينة. وأمام هذه الأوضاع بدأ شال يفكر في الإستسلام، فشرع المتطرفون أمثال Susini وPerez و Degueldre وSergent بالإعداد لانقلاب داخل الحركة الإنقلابية بقصد استبدال شال بسالان واستحداث لجنة للسلامة العامة على غرار ما حدث سنة 1958، لكن شال سبقهم عندما سلم نفسه إلى رجال الدرك الوطني.

مديراً ظهره للطاولة، دون أن يسمع الرنين، غرق شال في كنبته بقميصه الرياضي ذات القبعة، وهو ينفخ في غليون مطفأً. قد يحمل الهاتف أخباراً مكربة، لذلك لن يرد.

توقف الهاتف عن الرنين لتشتعل في داخله عاصفة مباغتة. عاصفة ريح جافة مع ضربات كبش[1] على النافذة وعنين وصراخ وعويل طويل تقطعه فترات صمت يسمع خلالها ضجيج المحادثات والآلات الكاتبة في المكاتب القريبة ومن ثم، ومن جديد، الهواء المجنون، الهواء الذي يزفر ويجفف الفم ويصم الآذان ويجعل الأبواب تخبط والنوافذ تتكسر.

مرر لسانه على شفتيه ونظر إلى الخارج. لا شيء يتحرك. في أسفل المدينة حيث تنحدر الهضبة، بدا البحر هادئاً. لا شيء من هذه العاصفة سوى في داخله.

دون شهود، تهبط وجنتاه وتثقل ذقنه، ثم يسترخي وجهه في ابتسامة حزينة رقيقة، يائسة تقريباً. كيف اعتقد أنهم سيتبعونه في حين أنه لم يكن هناك ما يبشر سوى بالمخاطر؟

هيا إذن، لقد أخطأ.

لم يكن مغروراً عندما كان مسؤول شبكة معلومات المقاومة ومن ثم جنرال عام في سلاح الجوّ، وعندما كمسؤول مساعد للقيادة العامة للدفاع الوطني، قاد الحملة العسكرية على السويس وشيد السد على الحدود التونسية، ذلك الجدار الضخم في وجه البربر. وفي النهاية عندما أمسى القائد العام في الجزائر. بالنسبة إليه، في ذروة المجد أو يكاد، فالوضع على درجة غموضه التي كانت، بات الآن واضحاً. فكرة واحدة: إنجاح شيء

(1) ضربة كبش هي الصدمة التي يولدها الماء في أنبوب إذا سدّ فجأة.

ما. فللقضاء على التمرد، سحق كل قطعة من الأرض تحت شحنات من المعدات وجماهير من الرجال يفتشون كل شيء ويمشطون ولا يتركون شيئاً يمر من بين أسنان مشط، يقلبون كل شيء ويحرقون كل شيء. بعد ذلك، يجري التقويم. ببساطة شديدة. الواقع والنتائج. منطقة بعد أخرى، عملية بعد أخرى، الجزائر المكسورة تولد من جديد. لا مشاعر لدى شال، وهو أيضاً حذر ونشيط ويقظ. مارس التعذيب في كل مكان. ألم يكن غوي مولليه الذي تسامح في البداية ثم تبنى النظام؟ يسد أذنيه لكي لا يسمع. والنتيجة؟ أحد قادة الثوار يطلب التفاوض[1]. خطأ من أن الأمور لم تجرِ جيداً؟

فقد سأل مساعد سالان الشخصي الذي وصل من مدريد مع رئيسه، كم سنة قاد سالان؟ «عشر سنين».

هل سيقود على الأقل خمسة عشر عاماً.

الجنرال الخاسر سيظهر بأنه غير قادر على أيّ خساسة. في هذه المغامرة دون مخرج، الرحمة الوحيدة هي الموت. فهو لا يحاول أن يتحاشاه ولكنه لن يطلبه. وللشرف عنده قوانينه. فهو لن يترك القلوب النقية التي تبعته. ومهشم في خرابه، لن يضيف إلى خرابه خراب الآخرين. لا مزيد من الأوهام ولا الأكاذيب. فالحاضر سوداوي ولكن هل أن ديغول سرمدي؟ إن يوماً ما، عادوا ليبحثوا عنه فسيفرض شروطه. لذا عليه أن يبقى حياً. في الخطبة التي استمع إليها الجنرالات الأربعة معاً، أبدى سخرية ولكن كان لهذه السخرية نتائجها السيئة. شحب وجها جوهو وزيلر واستبدّت الحازوقة بسالان. خمسة عشر عاماً من العزلة، إنه فعلاً متفائل، إنها

(1) يقصد طلب أحد قادة الثوار الجزائريين للتفاوض تحت ضغط القمع والتعذيب.

بالأحرى خنادق فانسين[1]. لقد استمع جيداً بالطبع للتهديد بتطبيق القوانين. لن يسامح العجوز جريمة القدح في «الذات الملكية» ولا يجب الاتكال على أحد. وحسناً سيبقى اسمه. من بين الخونة؟

هز كتفيه. سيبقى اسمه كواحد ممن علموا كيف يتجرأون.

في ملف الصحافة، التقط حزمة صور الليلة الفائتة. الأربعة واقفون أمام مكتبهم في مبنى الحاكم العام، الأربعة على الشرفة يؤدون النشيد الوطني مع الجماهير، الأربعة في الساحة. صداري سالان الواقي للرصاص وكرشه، جوهو الذي يشبه حصان حراثة وزيلر الوحيد بقميص، بوجه مكفهر. هو شال، يؤنّب نفسه دون تسامح، أحياناً يكون مصمماً، وفجأة وفي اللحظة التي يترك فيها مبنى الحاكم العام، يمشي نافخاً صدره رافعاً رأسه. على وجهه، يا لهذا اليقين وهذه العزة! رباعي الجنرالات في التقاعد! وكأنه هو الآخر لم يكن أيضاً في التقاعد! فمن أجل هذا الآخر[2] كان ينفخ صدره ويمط رقبته، ويدّعي العزة في حين كان جوهو يخبو ثقيلاً وسالان يتبختر، هذا المشعوذ الذي لم يعد أحد يؤمن به.

الهاتف أيضاً، الهاتف...

في نهاية الأمر، لعبة خشخيشة، قبل بها لاحقاً. فقد علق له ديغول شيئاً مثل العقد الذهبي الذي يعلق للكلب في وجاره، مثل سرج مزركش لبغل «البابا». يا لهيئته، في ساحة إينفاليد، بقبعته الواطئة المنحرفة قليلاً

(1) خنادق أو أقبية فانسين يقصد بها خنادق قصر فانسين (Chateau de Vincennes) وقد اتخذت هذا الاسم منذ أن أعدم فيها دوق انخان في العام 1804 الذي كان متهماً بالتآمر على أمن الدولة.

(2) الآخر يقصد به ديغول.

على أذنه، يا لنظرته وفمه!

نعم في أساس هذا الفشل... «إن جئت، إن تربعت على رأس التحرك، لن يتملص أحد، كل الناس سيلتزمون...». مرارة وضعف. صدق هذه الحماقات! أي جنرال يستقبله الجيش فاتحاً ذراعيه؟ فالجيش دائم العبوس. بونابرت نفسه عليه أن يظهر في الميدان الدليل على أنه بونابرت ولكنه يصبح نابوليون في انقلاب 1799. هل أقنعوه لهذه الدرجة؟ لدرجة أن الفكرة لم تمس ولا لأي لحظة سواه، هو شال، أن يستعيد الجيش ليقوده إلى النصر، كان بإمكان الجيش أن يتردد. فالجيش يفي بقسمه الذي، وبشكل مطلق أم لا، يوصي بحماية الجزائر فرنسية وعدم خيانة المسلمين الأوفياء، ولكن هل يعلمون فقط لَمَ ما زالوا يقاتلون؟

محبطون بسبب الكثير من التخلي والتبدلات والمراوغات، معظم الضباط ما عادوا يؤمنون بشيء. فإن لم يشاؤوا أن يسلموا الجزائر لسفاحي الجبهة الوطنية للتحرير فهم لا يريدون أيضاً أن يخدموا الأقدام السود المضللين وخاصة المستوطنين. فالجيش كان مرتبطاً بعدالة ما، وبأخوية ما وبالجزائر الجزائرية التي كان يحلم بها جوهو. وخاصة لا يريد أن يقلق ولو قليلاً الأمة، لكن الأمة صدقت كل ما قاله ديغول. المؤسسات والتقاليد، كل شيء وضعته بين يدي المخادع الذي يتعهد بالسلام مقابل الأعلام المهانة. في ظلّ حكمه، خسرت فرنسا كل شيء. في الكلام، الواقع مختلف تماماً. فالفن الديغولي يقوم على الاعتقاد أننا نحمي البلاد بالتخلي عن الحملات الخارجية. نسيان مسألة السحر الديغولي كان خطأً. لا يمكننا أن ننطلق في عصيان مع الأوهام والأخلاق. ولكن هل فكر يوماً في أن يصبح متمرداً ويحاول تقويض الدولة؟ ثم هل كان بإمكان الوحشية أن تخدم

بشيء؟ كان عليه أن يصادر آلات المذياع من فرق الجيش، قوة جديدة نسوا معها أن بإمكان أصغر الشائعات أن تدور دون قدرة على ضبطها. وعلى الرغم من ذلك، فقد ارتجفوا في باريس. فوج واحد في الأليزيه وكانت لتتحطم صورة المعبود التي صنعها ديغول! شيء لم يكن جاهزاً؟ ربما. ولكنه رغم ذلك لا يريد أن يرسل مظليين إلى المجزرة. فالحكومة لطالما دعمت الرأي بأنه لا يجب القتال ضد الميليشيات الشعبية. لا حرب أهلية، لا عنف، لا دماء، الشعار الثوري الجميل لمن كان عليه مكافحة الإرهاب من خلال ستين ألف حركي. في الواقع، لو كان أكيداً من وفاء فرقه الخاصة وحيادية الآخرين...

فهم كل شيء. لقد تمت خسارة كل شيء. بالنسبة للقسم...

11

في حصن غرداية، غربيه يفكر في الاستفادة من الأسير: بن عامر يجسد نوعاً من المثال الأعلى الجزائري

الجنرال غربيه، قائد منطقة الجنوب، ينظر بحشرية إلى الضباط الثلاثة الجالسين أمامه في خان القوافل في حصن غرداية: الهجان ديزافريز والفيلقي باتيستي والمظلي دو رواي. وضع صادم وخطر: الانقلاب الذي سقط، القبض على عضو مهم من الثوار، وأخبار يمكنها أن تقلب كل شيء رأساً على عقب. لحظة غريبة وكأنها تجميد للزمن.

«تسألونني»، قال، «لماذا كدت أن أقبل مهمة قيادة الجيش في الجزائر

عندما قدمها لي شال. أعترف بأنني فتنت، أغراني على الأكثر أن أجتمع ثانية بسالان[1]. فانا أعرف ضعفه وحذره ولكن أيضاً جرأته وموهبته. ليس أنتم؟ لا تعترضوا. أفهم أن العسكريين الحقيقيين يفضلون القتال. هذا أكثر بساطة وأكثر وضوحاً. ربما أنك ستصبح جنرالاً باتيستي. أو أنت ديزافريز. هل تفكر بأنك أصبحت كهلاً جداً لذلك؟ لقد رأينا تقدمك الرهيب. أتفضل الصحراء؟ لنقل إنك ستحل مكاني في قيادة الواحات. أما أنت دو رواي... صدقني لا يمكن أن يصبح المرء قائداً عاماً بالصدفة. يلزمه دماء باردة استثنائية ونظرة ثاقبة... فأنت تهتم كثيراً بحياة الآخرين أكثر من مصيرك الشخصي. خطأ واحد يمكنه أن يضيعك. خصمك الأكثر شراسة ليس العدو. فمع مسؤولي وحدات طيبين ونظام إمدادات قوي، لن تختبر سوى البسيط من النجاحات. لا، خصومك الأشرس هم الجنرالات الأقل درجة منك، والساسة الذين يعتقدون أنك تقوّي منافسيهم، وأنت نفسك عدو نفسك، توقك، مخاوفك وطموحاتك. مع أقل غلطة... وها هو أيها السادة، سالان سيد في ذلك. فهو يجمع الضربات الفاشلة دون أن يقطب جبيناً. يصمت. يحقق الفراغ حوله ويغمض العينين. ستقولون لأنفسكم: «لقد ضاع» وتتركونه وحده. سوف يستدعيكم بعدها، لتجدوه رجلاً آخر. فقد أدار كل شي وجعله في النهاية يصب في خدمته».

«ماذا أقول لهم؟»، قال في سره فجأةً.

هو، جيروم غرييه، قائد فرقة على أهبة أن يتحول قائد لواء، يعرف أنه

(1) لأن سالان كان قد نقله ديغول، كما سبق وذكرنا من الجزائر إلى حاكمية ميتز في فرنسا عقاباً له على انتقاداته لسياسته في الجزائر.

يعيش الساعات الأخيرة من مهنته. لم يلتحق بالجزائر لأنه علم أن سالان أخفق في انقلابه. لقد بقي على سالان أن يرمي نفسه من سطح القصر، وربما لذلك سرت شائعة بأنه انتحر. أيجب الحديث عن ذلك مع الضباط المضطربين بما فيه الكفاية؟ في الجيش الفرنسي، الجنرالات لا ينتحرون، أو أنهم كما بولونجيه[1]، على قبر محبوباتهم مما يكسب الموقف تراجيديا ما. في الجيش الفرنسي، لا مكان لخزي الانتحار ولا حتى بالنسبة إلى نقيب. فهل انتحر درايفوس؟ صحيح أنه كان يهودياً. «أكان يهودياً أم لا»، قال لنفسه، «فالانتحار هو اعتراف بالفشل». لو أن سالان لم يشخ؟ يكفي أن تذكر أمامه بعض الأسماء لترى عينيه تفيضان دماً ويكزّ على فكيه. أن يقتل نفسه؟ أن يقدم هذه الفرحة لخصومه؟ لقد دحض بسرعة شائعة إنتحاره. شال؟ آه هذا... لدى شال نوع من العجز والنزاهة، فهو كان مقتنعاً بما يقوله. لا يجب أن يعفي نفسه بالقول إن آخرين ورطوه في هذا الفشل. ففي وضعيته كجنرال، كان واثقاً من دفعه الآخرين للمشاركة أيضاً. «أقسموا على أن تكونوا أوفياء للجزائر الفرنسية. أقسموا على أنكم ستبقون أوفياء لموتاكم...».

هشاشة الأشياء الإنسانية! نعتقد أننا نسير على درب الحقائق فنعثر على ما لا يمكن التنبؤ به. هو الذي لم يكن مولعاً بالنساء، اعتقد في البداية أنه هوى عابر. على أية حال ليون لم تكن سوى أداة. لم تغير فيه شيئاً مما كان سيعيشه. تزوج باكراً جداً من وريثة أملاكٍ جلبت له العشاءات في المدينة والخروج إلى العالم ووظائف محمية، كان يكفيه لقاءً واحداً لقلب كل

(1) Georges Boulanger جنرال فرنسي عاش آخر أيامه في المنفى في بلجيكا برفقة عشيقته التي توفيت بسبب المرض لينتحر بعدها بشهرين فوق قبرها في 1891.

شيء. لم يكن يضيع مستقبله في المغامرات، لكن رغم ذلك فقد ذهب من اكتشاف لآخر: كل ما حملته له هذه الحماقة من نشوة. قال لنفسه إنه يريد أن يعطي لدغة حارة لحياته. المياه الهادئة لمسيرته أوصلته إلى هاوية سينتهي معها كل شيء. لماذا عليه أن يرفض ما قدم له؟ فقط لو أنه ما يزال مؤمناً بشيء ما أو يعلم كيف يكون متمسكاً بأشياء الروح، بشيء من الأعلى. لكن لا شيء من هذا غير الشك عندما يبدأ بالإيمان. فالتعلق بشخصية كبيرة كان بإمكانه أن يفسح في المجال لأمل فوق طبيعي. في الحقيقة، لم يبقَ له سوى خمسة إلى ستة أعوامٍ قبل النوم وسط كروم وهران التي ما زالت لزوجته. ولكنّ وهران ذهبت، وكل شيء ابتُلع مثل الجزائر. لكي يشك بهذه الحقيقة كان عليه ألا يقوم بوظيفته. الجزائر كلها باتت مدانة. سالان نفسه، على الرغم من تعلقه التام بالمصادمات والمجازفات، لم يخفِ عنه تشاؤمه «كل شيء ضاع سدى، يا صديقي، إن لم تحصل ثورة وطنية ضد حفار القبور، فالجزائر ستصبح مستقلة. وإن حصلت المعجزة، إذن سأكون ربما بحاجة إليك...». كروم وهران كان قد بات نصفها محطماً عندما غرق الكولونيل في عينيّ ليون. شغف. هل هناك شغف؟ إن لم يكن جده قد وصل سوى لرتبة كولونيل ووالده فقط لنجمتي عريف، أليس لأنهما تركا نفسيهما للمصادفات وحركة الكواكب؟ فأن يورط مستقبله بنظرة كانت تلك مغامرة ملازم. يجب توافر ظروف كهذه حيث ما عاد هناك شيء وحيث يمكن لكل شيء أن يحصل. ما كان غير مكترث اشتعل فجأة ليتوالى بعده كل شيء: غضب زوجته، دعوى الطلاق التي تلقاها عبر شماس الكنيسة والتي كادت أن تحرمه من أن يقلد رتبة قائد لواء. بغية كبت الفضيحة، اتجه إلى منطقة الجنوب، الأغواط. وسط الرمال

والصخور والحمم والجبال المسكونة بالجوارج والبدو والجمال. فبين بعض قطيع ماعزٍ وبعض مريدين للأب فوكو، لا يمكن لأحد أن يشكك بعفة عسكري. وفعلت ليون الباقي. بالنسبة إليه، قال لنفسه إنه ومن بعد أن خدم سالان، لن يستطيع خدمة ديغول. أبدية بهيجة من عامين انتهت.

«ماذا كنت أقول لكم؟...».

ما الذي سيهم ضباط حصن غرداية من مصير الجنرالات؟ كيف يمكنهم أيضاً أن يفهموه، هم الذين لا يعرفون ما كان صوت ليون، صوت المعدن الساخن، صوتها الأجش قليلاً المكتئب قليلاً، صوتها المجروح؟ أكان عليه أن يبلغ الحضيض ليعرضوا عليه قيادة فيلق في الجيش لا يريد في الحقيقة أحد قيادته! فقد نصحته ليون بأن يكون حذراً. النجوم الأربع لفيلق وهمي؟ هراء. خداع. والدليل: لقد أدين الانقلاب.

شاعراً بالرضى عن نفسه، أشعل سيجارة ونظر إلى القائد دو رواي العنيد، معلقاً إبهاميه في حزامه. كيف أمكن للحب أن يدرك هذا المظلي؟ بالنسبة إليه هو الجنرال، لا يعرف إن كان يعيش ما يسمى في القصص بالحب الكبير. «انصهرا في حب كبير..»، هل هو مؤهل لذلك؟ نشعر بالحمى ولكننا لا نعرف أننا محطمون في حب كبير إن لم يقل لنا أحد ذلك. حب كبير جداً، سقط فيه كسقوط صيادٍ في شرك. سلفه الكولونيل سقط برائحة القداسة[1] أو شيء من هذا القبيل، أكان يكنّ لزوجته حباً

(1) ويقصد هنا زوجة سلفه الكولونيل دو رواي، سابين دو رواي، التي كانت تدرس لتصبح راهبة عندما تعرفت على الكولونيل دو رواي وتزوجته.

كبيراً؟ من أين تأتي الجوهرة الشهيرة التي ورثها من جدته ليقدمها لزوجته التي أعادتها له؟ رزمة صغيرة مشحونة ومرسلة بالبريد المضمون مغطاة بالطوابع وبالرسوم، وخفيفة، خفيفة جداً... هل رأى أحد امرأة تعيد الماسة؟ دون رسالة ولا أي إشارة. ألا تريد زوجته ماسة مقدسة انتقلت من جيلٍ لآخر، فهذا يعني أنها شطبت كل شيء ومحت كل شيء. كما لو أنه بهجرها خان الجزائر. بقي يقلّب هذه الماسة بين أصابعه طوال الليل، ستة أقراطٍ على الأقل، تتوج ترصيعة قديمة من الذهب الأبيض، والتي قال له أبوه إن لها قصة ولكن أي قصة؟ الماسة، هذه الدمعة التي ولدت من نيران أحشاء الأرض في مصهر الأوصال أو الآلام، انبعاث للأنوار الغائرة في الأعماق. لقد تردد في تقديمها لليون، وهي ما زالت تحتفظ بحرارة اليد التي نزعتها. ولو رفضت؟ وعندما قرر في النهاية أنها ملك لعائلته، وقدمها دون أي تعليق، قربتها ليون من عينيها ثم وضعتها دون تردد في أصبعها.

استعاد حبل أفكاره. إذا فشل الانقلاب، فعليه أن يتدبر أمره على أنه واحد من الشخصيات الديغولية العائدة إلى الجزائر التي كانت قد أُرسلت عقاباً لها إلى عين صلاح[1] وسيذهب لمصافحة نامبوس. ها، لم يضِع كل شيء.

دخل الملازم أول فجأةً وخبط برجليه محيياً وبقي في وضعية استعداد. ماذا يريد هذا، بفمه الوسخ والمتصبب عرقاً؟

«الأسير سيدي الجنرال...».

(1) عين صلاح هي مدينة تقع وسط الصحراء الجزائرية.

ها، ماذا عن الأسير؟ فبن عامر هذا كان خازوقاً جميلاً. لكي يبدأ، يجب اولاً أن يكفّ عن التفكير بالألماسة والتخلي عن كل هذا الهذر...

«كان في المستشفى وكانوا يعتقدونه نائماً، وفقط عندما رأوا الدم تحت السرير...».

12

سالان وشال وجهاً لوجه. الكراهية والغضب والطموحات المحطمة

ظهر سالان شاحباً، بقبعته ونياشينه العسكرية، تقدم وجلس قبالة شال. كانت يداه ترتجفان.

وخلفه وقف، كظله، مساعده الشخصي من زمن العز، والطاولات التي يخدمها الجنود البرابرة في الجيش الفرنسي بزنانيرهم الحمر، والسيارات بالرايات، والدراجات النارية بالقفازات. كأنها الروح وقد لعنت.

مسح شال جبهته.

بإشارة من ذقنه، طلب سالان من مساعده الشخصي الخروج.

«قيل لي...».

كان نفس سالان ضيقاً. شعر شال بوقاحته. لقد كان مغتبطاً لالتحاق سالان به في الجزائر. لا امحاء أمام هذا الطاغية غير المحبوب بين صفوف الجيش والمشنّع به من قبل شعب اتهمه بالخيانة، ثم وبفضل انقلاب وبسبب بعض الكلمات التي هُمست له، بات محتفى به. إنها فرصة جيدة للانتهاء

منه. لا مزيد من السلامات ولا التشريفات. لا مزيد من كلمة «سيدي الجنرال» التبجيلية في كل مكان.

– ماذا قيل لك؟

– قيل لي إنك تفكر في أن تسلم نفسك...

سالان لم يسامح شال على أنه أخذ مكانه[1]. وشال لم يسامح سالان على أنه كان قد عين مسؤولاً عسكرياً للجزائر قبله... ولكن شال على الأقل متماسك. شال لم يصرف بدل استدعاء للعمل من خلال خزينة الدولة، شال لم يترك القيادة العامة فارغة من كل ورقة وملف وقرش.

«آه، حسناً إنها الحقيقة...».

لقد شاخ سالان. بقع على الجبهة، خطوط مرسومة والشعر فقد لونه، فاض كرشه عن النطاق. وعلى قناعه الطيني الذي انتفخ واتقد فجأة ظهر بصيص لم يشاهده شال أبداً. تحت الحاجبين الخفيفين، اسودّت نظرته وارتجف وجهه، ليُخرج فمه رغوة ونزف نمر.

«هل تمزح؟».

نفض شال ببطء غليونه في المنفضة. ولكن نعم. إنه معقول. لا بل إنه حدث أو يكاد.

«وهل أبدو مازحاً؟».

اتسعت عينا سالان. هل جاء لكي يضيع كل شيء هنا بخطأ رجل أخلاقي؟ إن وقع شال فسيسقط هو أيضاً.

(1) بعد أن نقل ديغول سالان إلى فرنسا عين مكانه شال في مسؤولية القوات العسكرية في الجزائر لكنه أخفق في إخماد الثورة الجزائرية وأخفق ما أسماه بـ «مخطط شال». لذلك نقله ديغول إلى فرنسا ليضعه في وحدة خاصة بقوات الحلفاء إلى أن قدم استقالته (أي شال) في يناير 1961. ليشارك بعدها في انقلاب 22 أبريل 1961 الذي أحبط.

خبط بيده على الطاولة فاهتز الهاتف والأجندة والأقلام في المقلمة.

«بحق الرب، علينا أن نقاتل!».

ترك شال بعض الوقت يمر.

– الصدمة النفسية ربما؟ استطرد.

– اسمع. ليس هناك سوى الجيش. هناك حشود. وهو أمر مهم....

كان صوته مضطرباً، وبعد كل جملةً يبلع ريقه.

– أنت لا تعرف. لم تلمس ذلك. لقد هربت من الحشود. لذلك فهي غير مؤمنة بك. لا بل لقد أطلقت عليها النار. اتركني أتكلم. لا ليسوا رعاعاً. إن مشت الحشود فعلى الجيش أن يتبعها.

– الجيش أخذ صف الرابح، قال شال. لا صفك ولا صفي.

ضرب سالان الطاولة بقبضته.

«أنا أعرف الجيش أكثر منك. ستستعيده...».

هو، شال، لا يخطئ ولا يتوهم. لم يكن ينظر إلى نفسه في المرايا، جذع بطول نصف مترٍ يزينه وسام رفيع، وميدالية عسكرية وأربع شارات حربية. أما سالان، «من أين يهب الهواء؟» هذا هو السؤال الأول الذي يطرحه سالان على نفسه كل صباح. فعلى الرغم من أن نيشان كان يضاف كل عام إلى صدره، فإنه لم يكن يسعى سوى لطموح واحد. في العام 1958، أسرّت السيدة سالان ببراءة للجنرال ألي: «هذه المرة سنحصل على المارشالية...». وكأن ديغول لم يكن لديه ما يكفيه من المشكلات مع جوان وكأنه نسي داكار. وبفعل عصا سحرية، هذا المكتب البارد لحاكم باريس، إنما المطلّ على ساحة إنفاليد. وبعد ستة عشر شهراً، كان دور شال.

– ربما أنك أعلمت الحكومة بنواياك؟ استطرد سالان.

– لقد كلفت العقيد دو بواسيو أن يحمل رسالة، والرسالة موقعة باسمي وليس باسمك.

– في هذه الحالة لن أدافع عنك.

– كل الفرق بيننا أنني جاهز لدفع الثمن.

– آه حسناً، أريد إذن أن أستشير رفاقي.

– الرباعي؟

تغضن وجه سالان.

«يبدو أن الكلمة صدمتك».

تناول شال غليونه من جديد ووضعه في فمه ووضع يديه على الطاولة.

«انتهت المقابلة».

شحب سالان أكثر وأكثر ونهض.

«أنا، هل تسمعني؟ أبداً. لن أتراجع أبداً».

من خلال الباب الذي لم يقفله سالان خلفه، كان يصل صوت طقطقة الآلات الكاتبة التي كانت تصرّ طوال اليوم.

13

اجتماع العائلة. «فرنسا هي المتهمة الحقيقية» تقول أميلي

ما زالت شقة العزوبية القديمة للطبيب على حالها مع لوحات على الجدران تمثل البحر رسمها هاوٍ يفتقر إلى الموهبة: صخور بوينت

بيسكاد[1]، شاطئ المزربة[2]، ومراكب بثلاث صوار نائمة على الشاطئ. كانت كلها هدايا. الكثير من الزرقة. «إنها حقاً لنفايات»، قال لنفسه. لم يكن يلحظها من قبل. فمن المزرعة لم تنقل والدته سوى كومة ثيابٍ وتمثال للسيد المسيح مصلوباً وذكرى من لورد[3]. فالعرب يذهبون كثيراً إلى مكة. والعمة لايتيتيا طالبت بدورها أن تذهب إلى حجها.

زواجه من إميلي سمح لأمه باللجوء إلى هذه الشقة الصغيرة في الميدان. يا للحركة والضجيج على الرغم من أن سمعها بات أضعف من ذي قبل، وعندما يتعطل المصعد، وبالإضافة إلى كل أدراج الجادة يكون عليها أن تصعد سبعة طوابق. في الأوقات العادية، لا حركة قوية في الحيّ، ولكن ما أن يحصل شيء ما، فيا للمسرح!

«لقد فرغت الساحة»، تقول الأم.

ذهب ليلقي نظرة من الشرفة حيث تدلت الرايتان المثبتتان على الدرابزين، مترهلتين.

يتذكر الطبيب الصيحات التي لم يمضِ عليها ثلاث سنوات، ذلك الطوفان البشري المفاجئ والمجنون، والشغب الذي ضرب الواجهات في حين كان هو يسبح في أوهام لم تتبدد جيداً. ربما كان أكثر حكمة لو باع هذه الشقة واشترى شيئاً ما في مرسيليا في فرنسا. مشاريع في الهواء. أفكار غير واقعية. ماذا كان سيحصل لأمه وحدها هناك؟ ما هي الحقيقة وسط

---

(1) Pointe-Pescade بلدة في الجزائر تبدل اسمها بعد الاستقلال إلى رايس حميدو.

(2) المزربة هي مجموعة شباك لصيد لصيد سمك التون بالزرب.

(3) Lourdes مدنية فرنسية على الحدود مع إسبانيا، يزورها مئات الآلاف من المسيحيين سنوياً أملاً بالشفاء في مياهها. ولكن الكثيرين من الروم الكاثوليك الفرنسيين يزورون لوردز لإقامة شعائرهم في 20 أغسطس من كل عام.

الفوضى التي غرقا بها؟ أخوه دانيال يقاتل في حين أنه... بمَ هو متعلق ويؤلمه إلى هذا الحدّ؟ كان متعلقاً بالجزائر أكثر مما يعتقد. كيف يمكنه العيش في مكانٍ آخر؟ لا يستطيع الاحتفاظ بما يحب مع أفكارٍ كأفكاره. فالأرض يجب الدفاع عنها كما الدفاع عن امرأة، وعن كل ما نحب. وهنا، فقد تردد دائماً. هل أن الحب الوحيد الذي يعني له هو بالضرورة مجرد نزق؟ ألا وجود للشغف المنطقيّ؟ هاتان الكلمتان لا يمكنهما أن تجتمعا معاً. فنحن نموت من أجل ما يعطي قيمة للحياة، لا من أجل العقل.

أميلي تنتمي إلى الممكن وإلى الحشمة. وهل كانت غير مهمة جداً لهذا السبب؟ إذ كانت تحترم كل ما له قيمة: التقاليد والأهل والكنائس والمقابر. وشقتهما في شارع ميشليه هي مؤسسة. أما الوجهة الآمنة، المكان الذي تتنفس فيه بجد هو مزرعة ريفيه التي لن تتركها أمها قط. كما كانت تهتم بوالدته. وهم، أهله، تبنوها واعترفوا بها. لقد قدم لها الزواج نوعاً من السعادة المصحوبة دائماً بغيرة يقظة.

– يخيل لي أن هذا أيضاً سيضيع، قال.

– إذن فقد أضعنا كل شيء، صرخت أميلي.

– لم نضع لأن شال فشل.

ولكن من يمكنه أن يمنع نهراً من أن يصب في البحر؟ هنا تضيع الأنهر في الرمال لكي تعاود الانفجار في مكانٍ آخر. لقد غدونا غباراً، هواء. إن اختفت الجزائر الحالية، فستنهض جزائر أخرى غير تلك التي للأقدام السود.

«انا من اشترى الرايتين ودفعت ثمنهما غالياً. ولكن يا لنوعيتهما السيئة! كان فكتور ليرفض أن يدفع مالاً من أجل الرايات... ولكن لا

يهمّ، فكل الناس رفعت الرايات. ماذا كانوا ليظنوا بنا؟ لقد بحثت كثيراً هنا، ولم أجد. وعلى أية حال، كنت أنا نفسي أريد الرايات».

انحنوا ثلاثتهم على الشرفة يراقبون الأضواء التي تنطفئ في واجهة مبنى الحاكم العام. والآن هم والجزائر غارقون في الظلمات، في الهواء الرطب الذي ينقل زفير الميناء تحت النجوم المشوشة. يمر الليل وتضاء السماء وفجأة تسطع الشمس. لم يشعر الطبيب يوماً بالحاجة إلى تعليق الرايات على شرفته. قماش قطني للإشارة إلى ما بقي من آلام وسعادة من هذه الأرض وحب لا يريد أن يموت؟

«ربما كان عليّ البقاء في سيدي موسى»، قالت الأم.

فكرة تقلبها كل يومٍ في داخلها.

- ما عاد بإمكانك ذلك.

- يمكننا دائماً عندما نريد.

لا، لم تكن تعيسة في الجزائر، على الرغم من أن المدينة تبدلت كثيراً. عندما يصدف أن تمر بجانب دار البلدية القديم، بالقرب من الساحة حيث عاشت مع أختها، تتساءل كيف أمكنها أن تقع في حب أستاذ من بلاد القبائل وكيف أمكنها أن تحاول الانتحار... أشياء بالكاد تجرأت على البوح بها. مع ذلك، ومن دون الجزائر حيث ذكرى شبابها تقبض لها قلبها... لكانت الحياة قصيرة جداً وثقيلة جداً، لقد دفعت غالياً ثمن سعادتها. سعادتها الخاصة كانت في النزهات في الشمس، من حيث تطل على الميناء والخليج، حفلة صغيرة في مطعم في بونت بيسكاد، زواجها، ولادة الأطفال، زياراتها لأختها في العربة، ولاحقاً في السيارة مع فكتور، الزيز في أشجار الزيتون، عش اللقلق فوق سقف الحظيرة. يا إلهي كم كان

فكتور بخيلاً ولكن كم كان يكدّ في العمل! كان عليها أن تعلمه أكثر الأشياء بساطة، ولولا إخفاق مشاريعه في ذاك المصرف لكان ترك ثروة ما لأولاده... لا يمكن للجزائر أن تنتهي مع إخفاق جنرالٍ أو بسبب هزيمةٍ. هناك قواعد حتى للموت. يملأون بهو كنيسةٍ، يصلون، يغنون، ويضيئون الشموع، ويشعلون البخور. ألم تسمع يوماً الطبيب يتحدث عن مرسيليا؟ لا يمكن الانتقال إلى الجهة الأخرى من البحر والسكن بين الغرباء. لأنهم هناك يتحدثون كثيراً بالفرنسية ولا يمكن التفاهم معهم.

– ماذا تريدين أيتها الأم، مضت إميلي تقول. فرنسا هي المذنبة الحقيقية. هي التي أرسلتنا إلى هنا، أجبرت أباءنا على القبول بالامتيازات. ربطوا بها كل وجودهم. وأنتم أيضاً. والآن، يتخلون عن الوعود ويلعبون على الكلمات. امتيازات أيضاً ولكن نريدها دائمة. الفرنسيون يريدون التنزّه يوم الأحد في السيارات. لماذا يحرموننا من ذلك؟ معظمهم يعرفون أين تقع الجزائر لأن أولادهم يخدمون فيها، يعاملوننا كمستثمرين. أنتم مثل غيركم. كل ذلك لأن العرب يطالبون بالاستقلال؟ ستكون جميلة جمهورية ديغول الجزائرية هذه! أنا أعلمت جان بيار بأنني أفضل الرحيل. البؤس سيكون هدية عرسهم. ماذا سيكون لديهم ليأكلونه ويلبسونه؟ وأعتقد مثل كارمن: سيركعون أمامنا ويتوسلوننا وسيقبلون أيدينا لكي نعود. سيتضرّعون: «استعيدوا أماكنكم، هيا. من دونكم...».

– أنت مخطئة أميلي، أنت مخطئة، ردد. الأمريكيون والألمان والإيطاليون والبلجيكيون، كل العالم يساعدهم، حتى نحن، بأمل أن ننقذ شيئاً ما. فالمرفأ سيمتلأ بالمراكب اليوغوسلافية. نحن هنا منذ 131 عاماً،

لقد ضاقوا ذرعاً بنا. وهذا يثقل عليهم. أو أنه كان علينا أن نقدم لهم المزيد. أعرف ماذا ستقولين. وعلى الرغم من ذلك فأن يتقاضوا أقل بثلاث مرات للقيام بالعمل نفسه... لم يكن ديغول من دفعهم للانتفاضة. أنا لا أقبل شيئاً، أحاول أن أفهم. مأساتنا نحن، هي أننا وجدنا هنا في اللحظة الخطأ.

أخرج من جيبه مذياعاً ياباني الصنع بحجم علبة كبريت، وشغله على موسيقى مزعجة.

«الجزائر»، قال.

ما عاد هناك أغنيات أفريقية ولا أناشيد عسكرية. خلطة موسيقى وصوت أنفيّ لامرأة: «فرانس 5. نستأنف الدورة الطبيعية لبرامجنا...».

من خلال وجه أميلي، فهمت الأم أن هناك حدثاً ما سيقع. ولكن ماذا؟ لماذا تذكرت فجأة زهرة الآلام في المزرعة؟ ربما لأنها كانت الأكثر قداسةً. لو علموا، لكانوا قطعوا آخر جذرٍ للوردة التي تغطي حائط الإصطبل كله. كانوا يرددون أنه في نجوم هذه الزهرة التي تشبه تاج الشوك مع مسامير الصليب، تزهر روح أورتينس التي ماتت في عز شبابها، منذ ما يقارب القرن. في الحقيقة لا يعرفون الكثير عن أورتينس، ما عدا أنها كانت تطلب الكثير من الحياة. هنا لا يمكن أن تتحمل الحياة سوى النسوة القويات مثل أميلي، العنيدات، المثابرات مثل كارمن. البلاد لا تتساهل مع أنصاف الألوان، مع الظلال والآراء غير الحاسمة.

عادت إلى الشرفة ثم دخلت. بحركة آلية مبالغة، لفّت الرايات التي ما عادت تعلم ماذا ستفعل بها.

14

أسفل مبنى الحاكم العام، في الباحة، جنرالات الليل. «لا، لا أندم على شيء...»

ليل بالغ الرقة. صناديق جعة مقلوبة. في المكاتب، الخزائن المفتوحة والملفات التي تتحضر لترمى في المداخن. الفرار الجماعي في الظلمات. سالان بصدريته القرمزية، سالان وامرأته الحمقاء، يديران ظهرهما لزيلر الذي بدل بزته بالثياب المدنية. طابقهم، وحده المضاء، فارغ ولكنه ما زال مضاء. مع الشاحنات على الشاطئ، يصبح المشهد اشبه بإنزال الجيش في ساحة ثكنة قبل الفجر. في الحقيقة إنه الشتات. حتى الآن، بين بعضهم بعض، يكتفون بتبادل الاتهامات، لم يتشاحنوا ولكن الجو بينهم مسموم.

كلف شال لو مير بدراسة فرضية الدفاع عن منطقة على الأقل: المنحدر الخفيف للميدان، البريد المركزي مع الإطلالة على البحر، وأن يحصي الوحدات المحلية، الأسلحة، الذخائر، وأن يضع خطة لإطلاق النار. ومن جديد دعي الشعب إلى الميدان. كم جاء من أهل العاصمة الجزائر؟عشرون ألفاً؟ لا شيء من الجماهير القديمة. أين هم المسلمون؟ حتى من كانوا يدفعون لهم صمتوا. بعض الأبواق وبعض الهتافات لسالان. ولكن لا أحد يهتف باسمه. «المشكلة في اسمك»، قال سوزيني «إنهم يعانون في لفظه». يعيش شال، من الصعب لفظ ذلك. ولكن اسمه وحده، يا للقوة والإبهار!».

في نهاية بعد الظهر، رد عليه لو مير بأن الوحدات المحلية هامت وإلى حد ما عادوا يعرفون أين يجدونها وأفرادها ما عادوا يستجيبون لأوامر

أحد. لا تموين ولا أسلحة ثقيلة ولا وسائل نقل. ما عاد هناك شيء سوى في خيال سوزيني. كل شيء غارق في الفوضى والكآبة والإرباك. كاد لومير يبكي. القيادة العامة لمنظمة الجيش السري، جادة لافرييو؟ إنها لأوهام. فالليل في الميدان كان سهرة جنائزية. مصابيح الشاطئ مطفأة ومكبرات الصوت على الشرفات صامتة، والنشيد الوطني يتردد حزيناً. أيضاً خسارة المراسيم الجنائزية لفرنسا الجزائرية! في المقابل كانت سرايا الشرطة تقترب ويسمع صوت إطلاق نارٍ من جهة فندق ألتّي. إنهم يفتشون المارة. من يمكنه برأي سوزيني أن يتدارك الموقف؟ لشال طموح واحد: أن يكمل في لعب دور الشجاع. أن يسد أذنيه حتى لا يسمع عواء سالان الذي أطلق من قيده. أحضر معه زوجته إلى الجزائر؟ فلاشات الكاميرات. إنه انقلاب من أجل أغلفة المجلات. صور لوجه غارقٍ في محيط من البؤس، دون أن يتمكن من منعهم أيضاً من تصوير مشهد توضيب حقائبه.

انتفض مع اليد التي وضعت على كتفه: رجله الوفي جوهو، صامت كحصانٍ حزين وسط حقلٍ أجرد. وبسرعة استعاد حيويته وتحسس جيبه وسحب حزمة من الأوراق النقدية من سترته.

«خذ هذا. إنه مجموع الصندوق السري. ثلاثمئة ألف فرنكٍ، إنها لا شيء. ستحتاج إليها».

كمسرنمٍ، حشر لومير آخر فرقه في الشاحنات. وذهب باتجاه شال بخطى آلية.

– سأرحل معك. إن عادت الفرق...

– اركب، سيدي الجنرال.

رفض أن يجلس قرب السائق. في الخلف، القائد العام، مع جند

المشاة. لم يكن من هؤلاء الجنرالات الذين لا يتحركون أبداً دون حراسة الدراجات النارية. على مقعد الشاحنة، بانتظار مقعد المحكمة. وكوجبة سريعة طاسة خمر من ميرة الجيش.

– لا، ليس على أيّ شيء

– لا، لا أندم على شيء...

– أغنية إديث بياف التي كان يدندنها أحدهم.

الفصل الثاني
عواصف حزقيال

لقد أكثرتم قتلاكم في هذه المدينة وملأتم منهم شوارعها.
لذلك فإنّ قتلاكم الذين طرحتموهم في وسطها هم اللحم وهي القدر، وسأُخرجكم منها.

حزقيال، الإصحاح 11

أيتها الشمس، حتام ستدورين في السماوات مثل درع دموي؟

أوسيان[1]

حصان هائج يصهل في السماوات...

فكتور هيغو

1

في حافلة، تظن مارغريت أنها لمحت اسم دانيال باري في قائمة الموتى في إحدى الصحف. كل ليلة، شبحان يراقبان ويطلقان النار على الظلال

قفز الاسم أمام عيني مارغريت كبرقٍ لتضطرم بعدها النار في

(1) Ossian شاعر ملحمي اسكتلندي من القرن الثالث.

صدرها.

في الجزائر العاصمة، في العام 1962، لا يمكن لامرأة أن تطلب من رجلٍ لا تعرفه أن يعيرها صحيفته. شعرت بأنها تختنق ثم بدأ كل شيء يدور: الصحيفة التي طواها الجالس بقربها، المسافرون، المقاعد، ومن خلال الزجاج المحمي بالشبيكة، الأروقة، واجهات الدكاكين التي أخفض الكثير منها ستائره.

وضعت يدها على صدرها لتكبح دقات قلبها المتسارعة. أتكون قد قرأت خطأً؟ كان عليها أن تشتري الصحيفة. ولكن ليس هنا. فقد وصلت الحافلة إلى ساحة الحكومة، حيث انهمرت أمس وطيلة بعد ظهر اليوم القذائف أمام فندق ريجينس على باعة الورود والمشاوي وفطائر العسل والفضوليين والمنجمين والباعة الجوالين، على تلك الكتلة البشرية التي لم لم يعد يحتك بها كما في السابق الفرنسيون والإسبان والماهويين واليهود وكل محبي المشاوي والكِميا[1] والصيف والكعك المحلى والصداقة الحقيقية والسعادة. هلع ممزوج بالإعجاب استولى على المدينة. إنها منظمة الجيش السري[2]. منظمة الجيش السري تضرب جيداً. حتى الآن، قطع للطرقات

(1) Kemia نوع من المشروب يقدم مع المقبلات وهو المشروب الرمزي لدى الأقدام السود والذي يسمى ايضاً أنيزيت (anisette). وهو مستخرج من الأعشاب.

(2) منظمة الجيش السري المعروفة بـ O.A.S هي منظمة فرنسية سرية مسلحة أسست في مدريد 11 فبراير 1961 للدفاع عن «الجزائر الفرنسية» وقد ظهرت أولى شعاراتها على الجدران في 16 مارس 1961 «الجزائر فرنسية وستبقى فرنسية». فبالتوازي مع تحضير الجنرالات الأربعة لانقلابهم، كان «الأقدام السود» في الجزائر يعملون على تأسيس منظمتهم المسلحة هذه. وقد تولت هذه المنظمة العمل على التحريض ضد سياسة ديغول واغتيال المؤيدين لها، أعمال الترهيب والتخريب والتقتيل ضد الجزائريين من خلال التفجيرات والهجومات المسلحة والقصف المدفعي لا سيما بعد التوقيع على وقف إطلاق النار بين الفرنسيين وجبهة التحرير الجزائرية، حين قصفوا المناطق السكنية الجزائرية في القصبة في =

واعتداءات متفرقة. واليوم قصف الأماكن العامة بمدافع الهاون. يتحدثون عن زهاء مئة قتيل وآلاف الجرحى. إنها لمجزرة. جميعهم من المسلمين. فمنظمة الجيش السري كانت قوية لدرجة أنها تحدّت السلطات الحكومية واستفادت من تواطؤ الجيش.

في بحيرة الساحة الفارغة، رأت ظل دوق أورليانز فوق حصانه، اللمعان القوي للخليج والمرفأ، الطرقات المؤدية إلى الكاتدرائية والقصبة والتي سدّت بصفوفٍ من الجنود والمدرعات. توقف الدوار الذي كانت تشعر به. وانطلقت الحافلة من جديد، تنفست. عليها أن تتماسك، تتماسك حتى نهاية الكابوس. هل سيحلّ السلام يوماً؟ هل ستطبّق الاتفاقيات التي وقعت للتو؟ هل مات دانيال باري؟ هناك ركاب أقل من المتوقع بعد يومين من توقف المواصلات العامة، ومن دون صحافة ولا بريد ولا أسواق، وتقريباً بلا مخابزٍ وأحياناً دون ماء، مع القليل جداً من الغاز وانقطاع في الكهرباء. مدينة ميتة. وهذا الطقس! هل تسيطر منظمة الجيش السري أيضاً على الطقس؟ الجزائر الغارقة في المطر والرذاذ، محيط من الأحزان كما في أسوأ لحظات الشتاء، مع أنهم ما زالوا في مارس، الواحد والعشرين منه، يوم أربعاء. ما عاد بإمكانها البقاء وحيدة. على الأقل هل يمكنها أن تعزيها فكرة أن رئيسة بأمان في تونس. انتهى الإضراب هذا الصباح، وأشرقت الشمس ثانية فقررت الذهاب إلى الثانوية. قد تعرف على الأقل متى ستستأنف الدروس وتهرب من الجيران الذين يتجسسون عليها وخاصة كي لا تنهار أمام الخوف. إذ يمكن لأحدهم أن يتعرف

= 20 مارس 1962، وفجروا سيارة قرب الميناء. وكانت نتيجة ذلك كله مئات القتلى والجرحى. كما أحرقوا مستشفيات ومدارس ومكتبات...

عليها ويلحق بها. أليست أرملة متمردٍ، إذن هي عدوة لا بل أسوأ أنواع الأعداء؟ اقترب رجل مستفيداً من الازدحام، أخرج مسدساً من جيبه وأطلق النيران ثم ابتعد. وبدورهم أطلق العرب النار على السيارات التي تمر بمحاذاة أحيائهم حيث ما عاد أي أوروبي يجرؤ على المرور فيها.

دانيال باري، لابد من أنه مات ميتة غير عادية.

خففت الحافلة سرعتها من جديد. ضمّت حقيبتها إليها، ومشت بين الناس، متكئة على الدرابزين ومن ثم في الأسفل على السلم تحت أشجار النخيل. فرقعت الحافلة مخلفة وراءها رائحة مازوت.

السيارات تجول والمقاهي مفتوحة والشمس تضرب واجهة دار الأوبرا التي لا تراها دون أن تتذكر احتفالات المئوية مع حسَن. اليوم، يعلقون لافتات *لو بايي دو سورير*[1] وحفل راقص. وفيما وراء الأشجار، يمكن رؤية التكسر الأشقر والأزرق للبحر والسماء ودخان المراكب. ليس من باعة صحف.

عبرت الطريق باتجاه أحد الأكشاك. منذ أن غُلق صدور *إكو دي لاجر*، منذ نحو العام، فهذا لم يجعل *لا دبيش* و*لو جورنال* يباعان بشكل أفضل. فأولئك الذين يحنون لصحيفة *إكو* امتنعوا عن قراءة كل الصحف الأخرى. على حافة الرصيف، عند زاوية الشارع المحاذي للحديقة، هناك بائع سمك. كانت لتشتري السردين ولكن أين ستضعه؟

«ألديك *لوموند*[2]؟».

---

(1) Pays du Sourire أي بلاد البسمة أو بلاد الفرح.

(2) اي صحيفة Le Monde الفرنسية المعروفة.

بحث البائع في الكشك ووجدها. حشرت *لو جورنال دالجِر*[1] في حقيبتها وتنحت جانباً، فتحت الصحيفة التي نشر فيها نص اتفاقية إيفيان[2] على ثلاث صفحات، وبحثت عن إعلانات الوفيات ليبدأ قلبها من جديد بالخفقان. إنه فعلاً دانيال باري. تحت الاسم كتبت إشارة: «اغتيالٌ جبانٌ في 19 مارس 1962». ومراسيم الدفن عند الثانية والنصف في سيدي موسى. كانت بالكاد قد بلغت التاسعة صباحاً... لديها متسع من الوقت. في إعلان النعي ذكر اسم الأم واسم كارمن والأولاد، واسم الطبيب وزوجته ثم الصيغة: «العائلات المقربة والوثيقة الصلة» دون أن يضيفوا : «باستثناء السيدة مارغريت بن عامر، ابنة لاتيتيا باري». عصف بها الإحساس بالمهانة المتخيلة للحظة. استجمعت قواها. لكي تعرف المزيد، راحت تدقق في زاوية الاعتداءات. ثلاثة أعمدة مزدحمة. المكان، الساعة، اسم الضحية والكلمة التي تتغير: جروح خطيرة أو مميتة.

اكتشفت اخيراً ما كانت تبحث عنه فانقبض قلبها:

مازون كاريه، عند الثامنة وربع، بالقرب من السوق، السيد دانيال باري، الملاك في سيدي موسى، قتل بطلق ناري.

---

(1) Le Journal d'Alger هي صحيفة فرنسية في الجزائر استمر صدورها ما بين عامي 1946 و1962. دعمت عودة ديغول للسلطة العام 1958، وفجرت منظمة الجيش السري الفرنسية مكتبها المحلي العام 1962 مما دفعها لإقفال مكاتبها بشكل نهائي.

(2) اتفاقية ايفيان هي الإتفاقية التي وقعت في مدينة إيفيان الفرنسية بين الفرنسيين والحكومة المؤقتة الجزائرية المنبثقة عن المجلس الوطني للثورة الجزائرية، بعد مفاوضات استمرت بين 7 و18 مارس 1962، وأقرت الاتفاقية وقف إطلاق النار، ومرحلة انتقالية وإجراء استفتاء تقرير المصير. كما تضمنت هذه الاتفاقيات جملة من اتفاقيات التعاون في المجالات الاقتصادية والثقافية سارية المفعول لمدة 20 سنة. كان قد سبقها عدة جولات ابتداء من 20 مايو 1961 رفض خلالها الجزائريون التنازل عن حقوقهم وبقوا على موقفهم حتى قبل الطرف الفرنسي بكافة شروطهم.

«سيقولون إنها غلطتي»، فكرت، «سيعتقدون أن العرب أرادوا الانتقام من موت زوجها. حماقة. لا يمكن للعرب الانتقام لجميع موتاهم، خاصة عندما يحصل ذلك وسط الصحراء. عندما كادوا يقتلون الطبيب باري، كان حسن ما زال على قيد الحياة. لمن أرادوا الانتقام إذن؟ أكان للاعتداء على دانيال سبب محدد أم أنه العنف الأعمى؟ لا يهم. زواجها يجعلها مدانة في كل شيء. بنظرهم في السابق، عندما لم يكن هناك حرب، تخلت عن أهلها ولم تكن تفكر سوى بتقديم البلاد للعرب. «وماذا لو ذهبت رغم ذلك؟...»، فالمزرعة تعود إليها إلى حدٍ ما. عاشت فيها قسماً من طفولتها وكان لها فيها أحلامها وغرامياتها. إن قالت لهم: «أتيت لأنكم في محنة. أنا أيضاً قتلوا...» هم، جنون، سذاجة، رعب. وماذا لو طردوها؟

متصلبة مكابرة، اجتازت من جديد وهي تشعر بساقيها ترتجفان. خلفها صوت قرقعة. صوت مفرقعات نارية، ولكن ما عاد هناك من أعياد، أو صوت سوط، من ما زال يستعمل السوط؟

توقفت، واستدارت لترى سرباً من طيور الدوري يفر مجفلاً في الحديقة، ثم الصمت المفاجئ. كما في فيلم صامت، شاهدت السيارات تختفي والناس يفرون ورجل الكشك يخرج ويتسلل. وهي مزروعة وسط منحدر وقد سمرها الذهول. وخلفها سمعت صوتاً ذا لكنة محلية يصرخ: «لا تبقي هنا، أيتها السيدة!». لا شك في أنه رجل يحتمي بزاوية أو في مكانٍ أقرب خلف اشجار النخيل.

وهنا رأت، الجسم الممدد فوق الصندوق الخشبي بقميص كتاني كاكي قديم نصف مرفوع من تحت البنطال بسبب السقطة، والذي يكشف القليل من خاصرته. فتذكرت أسفها لعدم تمكنها من شراء السردين. «ماذا يفعل

هنا؟...». حتى إنه مكشوف الرأس، وخاصة لأنه مكشوف الرأس، لا يمكن لأحد أن يخطئه. فصياد أوروبي من العاصمة لن يأتي لبيع السمك هنا. هذا الجلد الذي بلون الورق الميت أو بلون فطيرة مشوية كثيراً، الشعر الشديد التجعد وهذه النظرة الكئيبة، هذه الرقبة السوداء... فبعد يومين لم يذهب خلالهما أحد إلى المسمكة، توجه الناس إلى السمك اللامع الذي كان يبيعه واحد من «البيكو» عند قارعة الطريق، مع توقع عودة الهدوء بعد توقيع اتفاقية إفيان. ولكن ما حصل في الواقع، الآن وهنا أن الميزان مقلوب والدم يسيل على سمك السلطان ابراهيم وهلوق البحر[1] ويغرق السردين والسمك الأبيض المزرقّ.

شعرت بالرغبة في الصراخ ولكن لم يخرج منها أي صوت. لماذا لم يقتلوها هي أيضاً؟ فهي هدف بالغ السهولة. بهامتها الكبيرة المسحوقة، تقدمت باتجاه العربي الممدد، وحده في هذا الفراغ الهائل. ترنحت وكادت تنهار. كانت تريد أن تقلب الميت ليصبح وجهه قبالة الشمس وليس على سمكاته الدبقة. وقفت هي أيضاً باتجاه الشمس المشرقة، ورفعت يديها إلى مستوى كتفيها ثم أسقطت ذراعيها على امتداد جسمها، تاليةً الفاتحة ثم صلاة التأبين. «هذا الرجل هو خادمك، ابن خادمك وابن شعبك. احفظ له المكان الذي يستحقه...» وركعت أمامه وغطت وجهه بالصحيفة بأحرفها الكبيرة: وقف إطلاق النار: التاسع عشر من مارس. استفتاء شعبي: 8 أبريل. «مرحلة صعبة» أعلن ديغول. بصوتٍ مبتهلٍ، وبرهبةٍ جنائزية، تدفقت من شفتيها الآيات كما لو كانت وهي تكبح دموعها، وبكل تقديسٍ، تتلوها للزوج الذي قتل، متقدمةً على لحاف من زغب

(1) هلوق البحر هو نوع من الأسماك.

الغيوم باتجاه هذا الموت المطهر، باتجاه موتها هي، ربما.

وفجأة ظهرت حافلة من زقاق شارع باب عزون. اكتشف السائق في الساحة المبقعة بالشمس، أوروبية تمشي وحدها نحو رجلٍ ممدد. انعطف باتجاه اليمين وتوقف. نزل ركاب وتوقفوا للحظات وعاود بعضهم الصعود لاهثاً إلى الحافلة، وآخرون ركضوا باتجاه دار الأوبرا ومنطقة الضباط، وانطلقت بعدها الحافلة وسط جلبة العادم، وظهرت سيارة شرطة آتية من الجادة دارت ثم توقفت بشكل مفاجئ، وقفز منها جنود بقبعاتهم ووقفوا من جهتي العربي وحركوه بأحذيتهم. أحدهم تكلم في جهاز إرسال. حملوا الجسد في سيارة الإسعاف لينقلوه إلى مشرحة مستشفى مصطفى المكتظة، وسيرمون لاحقاً دلو ماء على البلاط.

توقفت. ما عاد هناك ما يهم. عليها أن تعود لتنتظر الحافلة. أخذ أحد الجنود يدفع بالسمك إلى حافة الرصيف. ثم استعيدت حركة السير. بعض المارة عادوا أدراجهم وبعضهم ابتعد ناظراً إلى السمك في الجدول المتشكل على جانب الرصيف.

وصلت إلى المحطة وتوكأت على المقعد. وصلت الحافلة وفتحت أبوابها. تسلقت بصعوبة وقدمت تذكرتها وارتمت على أحد المقاعد، متفاجئة لكونها هنا بكامل وعيها غير مبالية تقريباً في الوقت الذي كانت تختفي فيه البقعة الصفراء لدار الأوبرا، حيث قديماً، منذ أكثر من ثلاثين عاماً، سمعت كنتاتة[1] نصر الاستيطان. وعاودها الشعور بالغثيان عندما خطرت لها فكرة أنها لم تتمكن من الصلاة للصياد بصوت عال. لم تعد

(1) الكنتاتة هي إنشاد كورالي ديني أو غير ديني.

تملك سوى القدرة على الألم.

قتيل إضافي. هناك واحد جديد كل نصف ساعة. قائمة إضافية للصحف التي لا يمكنها ان تنشر القائمة الكاملة للاعتداءات. «ويتفاجأون»، حدثت نفسها وتعني آل باري. يتفاجأون من أن يُقتلوا هم أيضاً. «عندما سيطردون من هذه المدينة حيث نجحوا في حشر العرب في القصبة وكلو سالامبيه[1]، سيطالبون بالعدالة...». بالنسبة إلى حسن فهي لا تعطي أي أهمية للرواية الرسمية. حسب الرواية الرسمية فإن حسن قطع عروقه ومات خلال نقله إلى الأغواط. العربي لا ينتحر. الانتحار هو تفسير الجيش والشرطة. أو إنها السخرة في الجبال: يقودون الأسرى إلى الجبل وينزلونهم، بعد ذلك يروون أنهم حاولوا الفرار، وكان عليهم أن يطلقوا النار عليهم بعد العديد من التحذيرات. أو عندما يتعلق الأمر بالمعتقلين السياسيين، يقولون إنهم رموا أنفسهم من النوافذ. لا، لا، ينكرون أنهم هم الذين قاموا بدفعهم. هم من رموا أنفسهم في الفراغ بكامل حريتهم.

توقفت الحافلة ثم عاودت الانطلاق. الطرقات تمر بمحلاتها ومكتباتها والمئذنة التي حولت إلى غاليري دو فرانس، تمثال بوجو، أشجار النخيل، أشجار التين، الحانات، البازارات، ومحلات موضة أيام زمان. كل شيء الآن يحمل آثار المأساة. كل شيء متسخ. للمدينة رائحة كريهة. ما عادوا يجمعون النفايات، فاضت قنوات المجاري، وفسد الخضار في الأسواق، وما عادوا قادرين على تجفيف الدماء. تقشرت الواجهات، بيوت مهدمة

(1) Clos-Salembier وهو الاسم الذي اطلقه الفرنسيون على ما يعرف اليوم ببلدة المدينة الجزائرية.

فغرت أفواهها بشقوقها وزجاجها المتكسر إلى شظايا، شوهت جدرانها بكتابات منظمة الجيش السري، سالان، ديغول مجرم، ومحاولات لمحو هذه الشعارات بكتابات أخرى بأحرف عملاقة «نعم»[1]. تركت نفسها تسترخي بنظرة تائهة. هل لأنها شهدت اعتداءً؟ هناك الكثيرون الذين لم يلتفتوا. لن تذهب إلى سيدي موسى. ستتركهم لدموعهم كما تركوها مع دموعها. فهل هذا يعني شيئاً؛ ميتٌ من «البيكو»؟

للحظة اجتاحها رد فعل عرقي. «أبناء البيكو» القذرون الذين تسبّبوا بمأساتي...» أحياناً تشفق على آل باري الذين ما زالت تنتمي إليهم في أعماقها. على الرغم من كل ما يفصلهم عنها، فهي لن تتبرأ منهم يوماً. يمكن أن يشتمها آل باري. هي عار العائلة، يمكن أن يبرر لها غداً النصر الحزين حقها في مواجهة الجميع. اجتاحها إحساس بالشفقة لكون رئيسة تلومهم. فآل باري متعلقون جداً بأرضهم التي ولدوا فيها إلى درجة أنها تفهم من خلالهم حبها هي الشخصي لهذه البلاد، هذا الشعور الغامض المجنون الذي يتحدى العقل والقوة وحتى لتجد في أحشائهم، هذا التجذر للهضاب والجبال والصحراء والشواطئ التي تحتمل الشمس. أي مكانٍ آخر يمكنهم أن يعيشوا فيه؟ كان من شأن هذا على الأقل أن يجمعهم كلهم في الوطن المشترك، السعادة البسيطة والكونية التي ينشدها الجميع، الكرامة الأغلى من الخبز والأعز من الحياة. لابدّ من أن آل باري يشعرون اليوم بشكل غامض بأنهم ذاهبون باتجاه جزائر مستقلة، وبأنها باتت متحققة أساساً، وبما أنهم لا يريدون التنازل عن شيء، فإنهم سيضيعونها. وعلى الموت أن يبدو لهم كضمانة بأنهم لن يفترقوا عن أرضهم المحبوبة.

(1) على الأرجح المقصود هنا «نعم» لاتفاقية إيفيان.

فمن الموت يحصلون على الوعد الأكيد، العناق النهائي، الاحتضان الرقيق للنذور الأبدية.

أن يموتوا هنا. يمكن لهذا على الأقل أن يبقي على هذه الحقيقة الصلبة المثابرة. لكن بعيدة عمن تدين لهم بالحياة، بعيدة عنهم في الموت، كما كانت، بخطئهم هم، بعيدة عنهم في الحياة. لن تكون، ليس في مدافنهم هم. بل على الهضبة المطلة على الجزائر، في القطار[1]، وسط الموتى العرب وأشجار الكينا، أمام البحر، في المقبرة الوحيدة الإسلامية للجزائر التي احترمتها قوات المارشال دو بورمون. «أيها «الماعز»، العرق التافه...»، مضت تكلم نفسها مع الرقة الوحيدة التي ما زالت قادرة على تقديمها. وفجأة يعود الألم نفسه الذي تدفعه عنها عبثاً. ماذا لو أنها بزواجها من حسن اقترفت الخطأ الأفظع في حياتها؟ «آه! يا ابنتي أتساءل...» كانت تقول أحياناً لتسمع من فم رئيسة النفي التقليدي: «لو أن جميع فرنسيي الجزائر كانوا مثلك، أمي، يا للجنة...». يمكن لرئيسة أيضاً أن تخطئ. فالمرأة عليها أن تبقى وفية لأهلها متخطية الظلم، مثل وفاء الذئبة للذئاب واللبوءة للأسود.

وبسرعة وقعت مرة أخرى أسيرة غيظها. آل باري! هؤلاء المثابرون المتكبرون الذين لا يكنون سوى الاحتقار لكل من ليس من دمهم... أكانوا مذنبين؟ يتبجحون بأخوية لا يطبقونها إلا في ما بينهم، أما تجاه الآخرين فلم تكن إلا خدعة. كرمهم الشهير كان يقوم على إعطاء العرب أن يموتوا خلال الحروب العالمية من أجل أرضٍ لم يكونوا فيها سوى رجالٍ حقراء. ألا يعود الخطأ إلى مسيحهم المصلوب الذي لا يفتح ذراعيه سوى

(1) القطار منطقة مشرفة على مدينة الجزائر.

لأهله؟ الكهنة النادرون الذين دافعوا عن العرب فُجرت كنائسهم. أليسوا لجهة الخطأ مثلها؟ هم، على الأقل سيجدون ملجأً في حين ستحاكم هي في الظلمات الخارجية وكأنها تزوجت خنزيراً وكأن ابنتها...

جرحها الأكبر هو في أنهم جعلوا من ابنتها شخصاً محروماً كنسياً، فقد رفضوا ثمرة التناقض. كان في وسع آل باري أن يروا فيها قدرهم: سيتركون فرنسا لكي يؤسسوا لعرقٍ جديد، عرق شمس مولود من زواج بين البورغونديين[1] والكاثار[2] والجياد العربية. يسيطر الخالق على البرق ويحوله إلى حصان. هل قرأت هذا النص في التوراة أو في القرآن؟ رددت هذا البيت من الشعر الشعبي في الجنوب. ربيني خوك وركبني عدوك... «ربني كأخٍ واركبني كعدو». لو أراد آل باري....

عند البريد المركزي، على الحافلة أن تحول خط سيرها.

شاحبة، اختلطت للحظة في الزحام. هنا، كما في كل المدينة، لافتات نصف ممزقةٍ تصور جنديين، أحدهما يعتمر طربوشاً يلوح بعلمٍ مثلث الألوان تحت نداء: «إلى السلاح أيها المواطنون». أدراج نصب الموتى والميدان مليئة بالقذارات، والواجهات تحمل أثار رصاصٍ أطلق من المتاريس، مجهولون ما زالوا يضعون زهوراً على الأرصفة حيث يسيل الدم. على كل الجدران، وعلى جذوع الشجر، على قاعدة تمثال جان دارك، على الأرض، الرسائل نفسها، والأحرف الأولى نفسها: منظمة الجيش السري (أو. أ. أس). رجال شرطة بقبعاتهم الواقية يحرسون قارعة

(1) Burgondes هم شعوب من أصول جرمانية.

(2) الكاثار هي حركة دينية لها جذور غنوصية بدأت في نصف القرن الثاني عشر. قد إعتبرت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية آنذاك أنها طائفة خارجة على الدين المسيحي. كانت الكاثارية موجودة في معظم مناطق أوروبا الغربية، لكنها من أصل فرنسي جنوبي.

الطريق، وغاضبون يرددون بالزمامير المقاطع اللفظية الخمس لفرنسا الجزائرية.

لم تملك الشجاعة لتترجل عند محطة الثانوية. ماذا سيقول مدير المدرسة؟ أن كل المؤسسات التربوية ستبقى مقفلة حتى عشية الاستفتاء وإذن... إذن من يمكنه أن يعرف؟ المدينة مدمرة، وفي مكان ليس ببعيد عن الثانوية، تدور معارك بين البربوز[1] وقوات دلتا الخاصة ستنتهي بالبربوز مدفونين تحت ركام المبنى. تفضل أن تترك نفسها لتحملها الزحمة ثم ستعود في الاتجاه المعاكس. عند الحديقة العامة، اختفت كل آثار الهجوم. من تحت منزلها اشترت المعكرونة والطماطم والخبز. ستأكل قليلاً وترتب شقتها وتقرأ لوموند وتستمع للراديو. في النهار يلتقط مذياعها بشكل سيء المحطات الإذاعية الفرنسية، وفي المساء الجنون نفسه يسيطر على باب الواد: حفلة قرقعة، أصوات بوق وأخيلة متسللين، صياح، صراخ محطات التلفزة في أوقات بث البرامج الممنوعة. ومع كل حظر تجولٍ تمسي الجزائر مدينة أشباحٍ، يضربها الرعب.

الليل بالكاد هبط وفرغت الطرقات. على الجادة وفي مواجهة البحر وفي الأضواء البعيدة للخليج، سيارات شرطة تمرّ بأقصى سرعتها. إذن لقد بدأت حفلة الشعوذة: هستيريا الشرفات، الاحتفاء بانفجار القذائف التي تهز السماء. منظمة الجيش السري تهاجم الموظفين والتجار الذين يعترضون على دفع ضرائبهم ومن تتهمهم بالتعاطف مع جبهة التحرير الوطنية ومن تجرأوا على الذهاب في عطلهم دون إذن، غير المتحمسين

(1) Barbouze وهي مصطلح عام (يأتي من كلمة barbe أي اللحية) وكانت تعني في البداية رجال الاستخبارات (DGSE). واليوم تعني وبطريقة تحقيرية المخبر السري الفرنسي أو الأجنبي.

والجبناء والكهنة المشككين، موزعي صحف العاصمة، وكل ما تفوح منه رائحة عربي أو ليبرالي. وتضرب كل المندوبين والضباط العلمانيين، والمحامين الذين يدافعون عن الثوار. المدينة ترجع صدى الصرخات واقتحام الأبواب والملاحقات على الأرصفة وتحت القناطر، رشقات الأسلحة الأتوماتيكية، ثم تكون استراحة. يحاول السكان النوم في حين تصوّب أسلحة الأشباح على الظلال والكلاب تائهة، وتحدث مناوشات خفيفة، مواء وزمخرة، وركض تائهين على الأدراج، وطلقات نارية، ووميض حرائق وصفارات إنذار. الموت أو النجاة محض صدفة.

متحصنة في غرفها الثلاث الخاصة بها، تهتز عند سماع كل صوت، اعتقدت أنها سمعت همساً وتقدمت باتجاه صحن الدرج وقلبها يخفق. بالنسبة إليها حسن لم يمت حقاً؛ يمكن أن يظهر يوماً ما. كل حياتها تحملها في عينين رقيقتين زرقاوين. كانت تفكر أحياناً بهكتور وتتساءل إن كان هذا المظلي، السيد دو رواي، عاد إلى فرنسا. فكرة أن بإمكان رئيسة أن تحبه زرعت فيها أملاً لم تجرؤ على الاعتراف به. يمكن تصحيح غلطتها هي لأنها لا تتخيل ابنتها متزوجة من عربي ولا أن تحب عدواً لشعبها. ولكن هل هو عدو حقاً، هذا الأرستقراطي الذي يخدم فرنسا كما خدم أسلافه الملك؟ هل أن رئيسة جذبتها المجازفة، وناضلت لكسر المحرمات أم أنها تصرفت بأمر من الحزب؟ شيئاً فشيئاً بدت أقل ضياعاً. وعادت لتلتقي الضابط، كان ذلك واضحاً. بعد الثالث عشر من مايو، بدت تائهة بين السعادة والشعور بالظلم. وكأنها تسبح في حيز لا تصله الأفراح والآلام. ثم فجأة كان طلب الزواج. هذا الرجل كان مجنوناً. لقد قالت له كل ما تستطيع كي تنقذه. ثم توالت الأحداث: سفر رئيسة إلى تونس، الإعلان

أخيراً عن المفاوضات، إخفاق المفاوضات المتتالي وإعلان الاتفاق.

والآن، وسط النهار، عليها التحضر من جديد لليل. الباب مشقوق، جلست أمام طاولة غرفة الطعام وفتحت كيسها ثم *لوموند* على العنوان الذي يشغل الصفحة الأولى بأكملها وقرأت الافتتاحية الموقعة باسم سيريوس. *أعلينا فعلاً أن نضحي لأكثر من سبع سنين بمئات الآلاف من حيوات البشر وآلاف المليارات لنجتاز أخيراً هذه العتبة؟... أكان الأمر يستلزم كل هذه المراحل: سلام الشجعان، ملون(1)، إفيان، لوغرين وقبل العودة إلى إفيان، لقاء لو روس(2)؟... واثقون من القوة التي يستمدونها من إيمانهم ومن إرادتهم، ومن التفاوت الديموغرافي الهائل، من التعاطف أو الدعم الذي يحصدونه في الغرب كما في الشرق، القوميون الجزائريون أما كان بإمكانهم، بسرعة أكبر وبتكلفة أقل أن يصلوا إلى أهدافهم؟...*

هنا، من لا يريد الثأر لابن باري الذي رحل ليرتاح بين الموتى ومن يردّ لها زوجها هي؟ فهي تحسد النساء اللواتي لا يعرفن تقديم النذور. وعلى الرغم من ذلك، ومع الخبر المرعب الذي حمله لها رجال الشرطة، لم تقتل نفسها مثلما تفعل الأرامل الهنديات. ألأنها لم تكن متأكدة من موته أم لأنه بقي لها رئيسة؟ شعرت فجأة بأنها شاخت وترهلت. مع أنها لم تندم على شيء، ولكن كيف ستقاوم؟

مدت ذراعيها على الطاولة وتركت رأسها يقع بين يديها. نواح ما عادت قادرة على منعه تفجر من صدرها ومزقه.

---

(1) Melun هي بلدة شما وسط فرنسا حيث جرت فيها جولة من المفاوضات الجزائرية الجزائرية.

(2) Les Rousses هي أيضاً منطقة تقع شرق فرنسا جرت فيها إحدى جولات المفاوضات الجزائرية الفرنسية في فبراير العام 1961.

2

بعد دفن دانيال في سيدي موسى. ديزيريه يقسم أن العرب لن يحصلوا على بيانو أخيه

بعد الشارع الرئيسي، بدا الزقاق أكثر فأكثر محفراً.

أبطأ الطبيب سيره أيضاً.

كان يمسك بالمقود بيده اليسار، وبذراعه اليمنى يشد إليه أمه التي كانت تبكي كطوفان متواصل دون تنهدات. كم كانت آلام هذه الأم مدمرة ومرعبة! نظم له دفن كبير، كل السهل كان حاضراً، كل الثائرين الملكيين بنياشينهم الحمر والصليب المعلق على صدورهم وكل المستوطنين تقريباً. كتيبة حاصرت القرية التي هرب منها كل عربي، ما عدا الباش آغا والمستشارين البلديين. مدرعات على كل المفارق. قال الطبيب لمفتاح: «لن تتحرك من المزرعة، هكذا أفضل». الساحة مكتظة. شمس فولاذية وكنيسة ممتلئة وجو مشحون. على مقاعد الرجال، في الصف الأول، الجنرال غريبه بزيه العسكري على الرغم من إقالته.

قبل صلاة الجنازة قدم الكاهن خطبة. في البداية تسبيحة طنانة وساذجة قليلاً عن دانيال. وفجأة التحريض، الانفجار: «في يوم الاستفتاء القادم، في اليوم الذي سيتحدد فيه مصيرنا جميعاً سيكون يوم أحد الآلام[1]. يا لهذه الرمزية! أو تعرفون ما هي كلمات الدخول في هذا الأحد؟ سأقراها لكم بنصها الطقسي ومن يعرف منكم اللاتينية يمكنه أن يفهم. اسمعوا: *جوديكا مي، ديوس، إي ديسيرنه كوزام ميم دي جنت نو ساكتا*. أعد

(1) أحد الآلام هو اليوم الخامس من الصوم الكبير في الديانة المسيحية.

لي العدالة يا إلهي وانصر قضيتي ضد أمةٍ ملحدة. *آب هومين إينيكو اي دولوروزو* *اريب* مي. حررني من المخادع والظالم... هذا الرجل، هذا النجس، هذا الساحر، من غير المفيد ذكره، نحن نعرف من هو...». سرت قشعريرة بين الحضور. لا يمكن أن نتهم رئيس الجمهورية بشكل أكثر وضوحاً من هذا. بالإضافة إلى ذلك، وضعت حول النعش أكاليل منظمة الجيش السري، وأمام الشموع المضاءة وعلى مرأى من الجميع، على شريط حريري عريض مثلث الألوان يلف حزمة من زهور سيف الغراب، لمع بأحرف ذهبية الاسم الباهر: «الجنرال سالان». إنه لشرف للعائلة. عزاء للزوجة والأم تحت وشاحيهما الأسودين.

فتح الطبيب باب سيارته البيجو القديمة وساعد أمه على النزول.

أسفل درج منزل العائلة، كارمن تتأبط ذراع والدها، تنحت جانباً لكي تفسح لهما الطريق. في غرفة الطعام صفّت الكراسي حول الطاولة، والبندول يعمل من جديد. كنست إليز وأميلي المكان وفتحتاه للهواء وأزالتا كأس الماء المقدسة والمسيح المصلوب والشمعدانات. رائحة كريهة بشكل غامض ممزوجة برائحة القهوة. الأم منهارة بين ذراعي إليز. فدانيال كان يشبه كثيراً أباه: العينان الضاحكتان نفسيهما، التجاعيد نفسها على الأنف، الجبهة العريضة نفسها، الشغف نفسه في العمل، عشق الأرض ذاته، دون البخل المروع للأب. وعلى الرغم من ذلك لم يكن الألم نفسه بالنسبة إليها. فميتة فكتور كانت ميتةً حزينة. هنا إنها المأساة. جزء منها يرحل، خسرت ولداً بقي معلقاً بأحشائها، ولكنها تستشعر نصراً كئيباً، شمساً لاهبة تضرب رأسها وتملأ السهل.

«أأنت واثق من رجلك العربي؟»، سأل السيد روندا الطبيب. لقد جاء دون السيدة روندا التي يجب أن يوفر عليها الانفعالات بسبب مشكلات القلب.

«أتعلم، لقد كبّروا له رأسه»، مضى قائلاً، «كان عليّ أن أرى رجلك، فأنا ما عدت أذكره. رجالنا نحن ليسوا مجانين. فهم يعرفون بالضبط ما ينتظرهم في اليوم الذي نرحل فيه من هنا. وليس ديغول هو من سيقرر في ذلك... ألن تبقوا هنا؟».

ملتمساً إذعان إميلي قال الطبيب:

«سنجلب كارمن للعيش معنا».

البندول الذي علقته إليز كان يضرب ست ضربات بإيقاع سريع. متأخر جداً أساساً؟ نظر السيد روندا إلى ساعته.

«آه التوقيت صحيح»، قال الطبيب، «على الرغم من أنه يعمل منذ أكثر من قرن، فإنه لم يتعطل يوماً. لقد حمله معه والد جدي من فرنسا».

وفجأة بدأوا يتباعدون، ليظهر الجنرال غريبه وإلى جانبه... هل تحاشت أن تظهر في لحظة التعازي في المقبرة؟ هذان الكتفان، هذا الوجه المضطرب المرتعش قليلاً والذي تعرّفه حتى قبل ظهوره كما تشع السماء قبل شروق الشمس، هذه النظرة التي تشبه شعلة، الموجة الفينيسية التي ترشح من الطرحة... إنها لصدمة ولكنها ليست تلك التي كان يتوقعها. قديماً، ماذا كان ليقدم لها؟ مسيرته، مهنته؟ سذاجة. لقد كانت تحديداً مهنة أو ثروة (ولكنه لم يكن ثرياً)، مسيرة أو زوبعة يمكن فقط أن توصله إلى امرأة مثلها. كان عليه أن يرغب بجنون، أن يقفز عليها بوحشية مثل

حصانٍ وسط السباق[1].

تخلص مما لم يعد سوى ذكرى عاصفةٍ هدأت، ريح قوية همدت أو بلاد في المقلب الآخر من الكرة الأرضية.

«أنتما تعرفان بعضكما، كما أعتقد»، قال الجنرال.

بالكاد ابتسم الطبيب. يا إلهي كم تبدلت! المرأة العذراء التي لا تمسّ أصبحت... انحنى كيف يخفي ذهولاً رقيقاً يكاد يكون فرحاً، بحر هادئ لا أمواج فيه.

ردت إليز فنجان القهوة الذي مدته لكارمن عندما انحنى أمامها الجنرال. «يا لهذه الوقاحة...» فكرت أميلي. وبسرعة بحثت عن نظرة الطبيب التي لم تتمكن من التقاطها. بمَ يتظاهر؟ لا يمكن نسيان امرأة... بحثت عن الكلمة... آسرة لهذه الدرجة، فاخرة بجلد لحيم إلى هذه الدرجة؟ لقد كانت جذابة لدرجة أن إميلي شعرت بالتمزق. ما الذي ستلجأ إليه لتنجو من هذا الخطر؟ ستلجأ إلى لا مبالاة الطبيب، إلى طبعه البارد عاطفياً، أهذه هي الكلمة المناسبة؟ إلى كسلها الذهني وتشكّكها، وحرصها على ألا تكدّر حياته... يا لقلة حيائها بأن تظهر في يومٍ كهذا، لأنه في النهاية الجميع يعلم. قديماً هزت الطبيب عاصفة، وها هي العاصفة هنا اليوم تزورهم.

«موت أخيك»، قال الجنرال للطبيب، «صدمني جداً. وأساساً أنا مدين لك ولكنني كنت مأخوذاً. تذكرت أن جدي كان عراب قريبك

(1) هنا الحديث يدور حول ليون، التي كان يلتقيها الطبيب وهام بها ولكنه عاد ليتزوج أميلي. وفي المشهد السابق يصف الكاتب مشاعر الطبيب حين تدخل ليون مع الضابط غريبه الذي أغرم بها بدوره لما رآها مرة بصحبة الطبيب في الفندق. وفي قصة حب عاصفة ترك غريبه زوجته وتزوج ليون ولكنه في المقابل خسر مسيرته المهنية.

هكتور كونيغ، أليس هنا؟».

لم يتم إبلاغه.

كان عليهم فعل ذلك.

- اشربي كارمن، قالت إليز. أنت أيضاً يجب أن تشربي آنجل.

جلست كارمن وآنجل الواحدة بجانب الأخرى، متحدثتين في هاوية من الظل، العينان مشوشتان، تنظران في حدود ما يطفو حولهما، النور الشاحب الذي خفت عند النافذة. سمعتا شيئاً من الهرج والمرج. بعد رفع وشاحها إلى جبهتها، أمسكت كارمن بالفنجان. هل كان بإمكانها أن تصدق أن دانيال لن يدخل ثانية بعربته ولن يصدح ثانية بتلك الضحكة الأنفية لآل باري؟ لقد أخطأت في ظنها بأن هناك ما يجمد عمر الأطفال. لقد كبر الأطفال.

«ستبرد قهوتك»، قالت إليز.

اقترب الطبيب من أميلي.

«ليس علينا أن ننتظر كثيراً...».

في خلال ساعة، سيهبط الليل. من الأفضل أن يصل إلى الجزائر مع السيارات الأخيرة. ومن ثم سيستأنف عمله في اليوم التالي.

انحنت إميلي على كارمن:

«ستغيرين الجوّ عندنا، هلا أتيت؟».

لم تجب كارمن. هل نسيت؟

«تشجعي»، قالت أميلي.

أمسى وجه كارمن بعيداً فجأة:

- اذهبوا أنتم.

– كيف ذلك؟

– أنا سأبقى.

– بخصوص مزرعتك، قال الجنرال للطبيب، لقد شددت على ذلك أمام زملائي. لن يكون لديكم ما تخشونه.

سنأخذ معنا كنتنا إلى الجزائر.

تدخلت أميلي:

«لم تعد تريد ذلك، هل تسمعين أيتها الأم؟»، أضافت وهي تنحني.

بدت آنجل وكأنها تخرج من الغرق. هذه الأجراس، هذا الطنين المتلاحق الذي يسيطر على الشفق. ألا تخلط كل الأشياء ببعضها؟ في أغسطس 1914، حدثوها عن ناقوس الخطر وكأنه حدث مروع ولم تنتبه لشيء وهي عائدة من فور– دو– لو مع بلقاسم. صعدا في عربة فيها مقعد يشغله معتمرو برانس تعبق منهم رائحة السميد؛ عرب في طريقهم إلى مكاتب التجنيد.

– لديها حق، قالت.

– إذن، قال ديزيريه، إن كانت إليز موافقة، فنحن لسنا موافقين، لن نتحرك. افرضوا أن هذا المساء... لديّ ما استقبلهم به».

وكشف عن الجانب الداخلي من سترته فظهر على حزامه مسدس ضخم باسطوانة رصاصٍ وربّت على مقبضه.

نهضت كارمن. بدت شبه طويلة، مسيطرة، مغرورة.

«اذهبوا أنتم، فأنا أتفهم».

أحاطت إميلي بكتفها.

«حسناً سنعد قبل الذهاب... ربما ليس لتناول العشاء ولكن لنأكل شيئاً

ما، أليس كذلك أيتها الأم؟ أنا وإليز...».

نظرا إلى بعضهما خلسة.

«في هذه الحالة»، قال الجنرال، «لو سمحتم...».

وقدم الكراسي. ولكن ما إن جلست ليون حتى قامت من جديد وذهبت إلى المطبخ.

– ليس أنتِ، قالت إميلي لليون.

– لَمَ لا أنا؟

ترددت أميلي.

منذ البدء، كان ذلك هو القانون، مخزياً، لو لم ينطوِ على ما يسمه الرجال نبل خدمة المرأة لزوجها. الخليلة لا تستحق مشاركة النساء الشريفات منطقة نفوذهن. ماذا جاءت تفعل في الجزائرهذه المخلوقة واضعة الماسة الوقحة في أصبعها؟ «لو قلت لها لماذا أعتبرها...» فحيوانة حب، عاهرة لا تشارك النساء شرفهن المتواضع في خدمة أحبائهن من الرجال. ثم، وعند صدمة ليون، شعرت إميلي بنوع من الشفقة. ألم تساكن هي أيضاً الطبيب؟ وشعرت بأن غيرتها تلاشت. في النهاية، في النهاية...

لماذا دائماً على النساء أن يكرهن بعضهن بعض؟

«هلا تتماسكين؟ حسناً...».

– أرى أنها عملية ثأرية، قال الطبيب، لأن سالان مر من هنا.

– هذا رأيي أنا أيضاً، قال روندا.

– في أبريل الماضي، مضى الطبيب يروي، وستكتمل ذكرى سنة على ذلك قريباً، ربما قبل الانقلاب بأسبوع. مررت. كل المخارج كانت

مراقبة، طلبوا مني أوراقي، أتتخيلوا. الضابط المساعد ومثل كلب حراسة أخذ يشمني ثم تركني أدخل. هو، كنت قد رأيته من بعيد مثل الجميع، في الصورة، ولم أتعرفه في الحال.

– دكتور، قالت كارمن، أنت تعرف أين هي القناني. وأشعل الضوء أيضاً رجاء.

أضيء كل شيء فجأة. استلّ الجنرال علبة سجائر من جيبه.

لم نكن نتوقع ذلك، أضافت كارمن بلهجة أخرى.

– وإذن؟ صاحت إليز من المطبخ.

– لحسن الحظ فقد بقي فخذ خروف. وقد أعددت المعكرونة. وجبة غداء بسيطة وفواكه. حتى إنه لم يذق بعد مربى التين.

– عاد الطبيب مع القناني في حين وزعت ليون الكؤوس. التماعة مع كل حركة.

– كان له شعر داكن وشاربان كبيران.

– أكان في بزة عسكرية؟ سأل روندا.

– بالثياب المدنية ودون شارات ولا أوسمة ولكن لا يمكن أن تخطئه. لا بل كان يعتمر قبعة دغلية[1]، مبتسماً فرحاً. وبتهذيب... لا، زوجته لم تكن معه.

– فقط رشفة صغيرة لي، قال روندا.

– لقد رحلوا متسللين مباشرة بعد القهوة. لكن برأيي عرفه العرب

(1) Chapeau de brousse هي قبعة ارتبطت بحروب استقلال المستعمرات وأولها الحرب الفرنسية في شبه الجزيرة الهندية الصينية وقد تبدلت مع الوقت لتاخذ أشكالاً وظيفية أكثر وأكثر تلاؤماً مع طبيعة البلاد وطقسها، ولكنها أخذت شكلها في الأساس من دول الكومنولث.

حينها واليوم دفعوا دانيال الثمن. لماذا تم اختيار المزرعة؟ بالتحديد. خبأه مارتل في السهل لأن المزارع الكبيرة كانت مراقبة. عندنا، ما كان ليتوقع؟

استنشق الطبيب العبير الغريب الذي نشرته حولها ليون. أي جنون استبدّ به لفترة من الزمن، أي نزوة؟ نظر إلى الجنرال الذي كان يمسح عينيه. هل هو من تبدل كثيراً؟

«لقد تحدث كثيراً، كان يريد أن يطمئننا وهو يعرف أننا سننشر كلامه. بالنسبة له ديغول سيجد نفسه أمام المشكلة المناقضة للعام 1940. الثورة المقدسة، القضية المحقة، هذه هي الجزائر وديغول هو الخائن لها».

سكب الطبيب لنفسه في النهاية وجلس.

– هو سالان كان ليعرف كيف يحقق اتحاد المسلمين والأوروبيين. لم يكن بامكانه ألا يربح. لقد تحدث أيضاً عن رسالة يخبره فيها ديغول كيف عليه أن يناور. «هذه الرسالة سأخرجها يوماً ما، إنها مكتوبة بخط يده، ستكون اعترافه...» ما أقلقني هو أنه لم يكن يبدو لي في وضع الطبيعي. وعلى الرغم من أنه لم يشرب شيئاً، للحظات كان يبدو فمه يلتوي وتلتمع عيناه وتنغلقان. كان يعاني من اضطراب داخلي كبير، ما نسميه بالمصطلح الطبي حالة اضطراب مرضية. مع اهتياجات نشطة، وإن شئتم تقلصات لا إرادية.

– دائماً هكذا عندما يبحث عن حل لمشكلة، قال الجنرال. يبدو ضائعاً لكن فجأة...

– ما فاجأني أيضاً، تابع الطبيب، هو يده اليسرى. لقد أبقاها تحت الطاولة، على ركبته. لقد لمحتها، كان يحرك بين أصابعه... أرينا

اياها كارمن.

– نهضت وفتحت درج طاولة الكتابة حيث كانت حسابات وألبوم العائلة وأخرجت منه حزمة صغيرة وفضت الورقة الحريرية، لتظهر المسبحة الكهرمانية بحبوبها الخفيفة جداً لحد أننا قد نحسبها عقداً لطفل.

– ألهذا نسميه راهباً بوذياً؟ سأل روندا.

– ليس ذلك فحسب، قال الجنرال. بها كان يصلي ويهرب من الحقيقة.

– تململوا على كراسيهم وتناقلوا مرة أخرى أثره.

وضعت إميلي على الطاولة صحوناً من الكبدة والنقانق الإسبانية والزبدة والخبز والسردين بالزيت.

ألحّت إليز:

«تفضلوا، تفضلوا».

وضبت كارمن من جديد المسبحة – الأثر وأعادتها إلى الدُرج.

«لقد جلس حيث أنت الآن أيتها الأم، تحت البندول».

عادت لتجلس. لم تأكل، نظرتها مثبتة أمامها أعلى الجدران، لجهة دوار أولاد الزواوي حيث في كل المنازل التي باتت مبنية اليوم جميعها بالباطون، حيث لابد من أن الكلام يدور حول مراسم الدفن.

تذكر الجنرال أن سلفه الكولونيل تزوج من امرأة من آل بويشو، في ذلك الزمن حين كانت بوفاريك ما زالت محاطة بسور كبير، منذ وقت طويل. وهكتور كونيغ، ملازم مثله ولكن في الاحتياط في الفوج الأول للرماة، أخبره أن آل بويشو كانوا متصاهرين مع آل باري. الجنرال إذن

كان أيضاً من هذه العائلة. بمجيئه إلى هنا، يبدو انه رضخ لرد فعلٍ غامض، لغريزة؟

الكلب الذي لابد من أن مفتاح أفلته، يعوي قريباً جداً. ذهب الطبيب إلى درج المدخل.

تحت نور القمر المكتمل، في مكان منخفض جداً عند الأفق خلف وشاحٍ حليبي، تصل سيارات مدنية وأخرى عسكرية تسير دون كشافات ضوئية. صعد جندي مغاوير الدرج، حيا الطبيب بخشونة ثم ظهر في النور بقبعته العسكرية الحمراء وكتفيتيه والشارات المعدنية لرتبة مقدم.

تقدم الضابط بحذر، بدا أنه يميل للقصر. جاف؟ لا بل يبدو آسفاً لكونه هنا. ماذا يفعل إذن هذا الظريف الهزلي من آل غريبه؟ الذي لم يشاهده منذ حصن غرداية والغواط، مع امرأته؟

– الكولونيل دو رواي هو قائد مجموعة التدخل في السهل، قال الجنرال. يسعدني أن...

– كنت ماراً في الجوار، قال الكولونيل. وقد حدثوني عن هذه المزرعة منذ زمن.

– من هذا؟ سألت كارمن.

لم يتردد كثيراً.

«أحد من عائلتك، جزائرية».

ما زالت العبارة ملتبسة. بعد أن كانت مخصصة لوقت طويل للأوروبيين، انعكست الآن، مثل الريح. مثل اللبن الذي يتحول؟ هل يجب أن يتفاجأوا بذلك؟ اليوم الجزائريون هم المسلمون. فمن دون أن يعرفوا لماذا وكيف،

أصبح الأوروبيون هم الأقدام السود، في حين أنه وعلى لسان العسكريين بدا أن المسلمين هم أوصياء الورثة، أبناء هذا البلد الحقيقيين التي وجد فيها الأقدام السود تقريباً بالصدفة.

كارمن لم تخطئ.

– إنها ابنة أختك، أيتها الوالدة. السيدة بن عامر، أليس كذلك؟

– بل ابنتها، قال الكولونيل بلهجةٍ محايدة.

«لم ينسها»، فكر الجنرال وتوقع حشرية كبيرة منهم، ولكن الاسم الذي لفظته كارمن للتو يبدو أنه جمد العائلة لا بل أصابها بالجليد. قبل الكولونيل بمقعد، رفع قبعته العسكرية وكشف عن رقبته الحليقة الطفولية إلى حدٍ ما.

وبحركة رفض الكأس التي قدمت له.

عادت إليز إلى المطبخ. «لقد رفعت درجته»، فكر الجنرال. «هل بات ديغولياً؟». وزعت إميلي الكؤوس الزهرية من البورسلان الياباني التي زينت برسوم الباغودا والغيشا.

– لست من جماعة المتخاذلين كما ألاحظ، قال الجنرال.

– ولَمَ عليّ أن أكون منهم؟

– لا نعرف، قال روندا. فالجيش يقبل بكل شيء.

نظر إليه الكولونيل بازدراء. ما الذي اختلط عليه، هذا؟ هل يتخيل أن الجيش كان هنا ليدافع عن مزرعته هو؟

– لا يقدمون شيئاً للجيش، سيدي. لذا ليس لديه ما يقبله.

– يمكنه أن يرفض.

– أنت هنا تلامس سيدي موضوعاً لا دخل لك به...

- هل تسمح لي، قال الجنرال متدخلاً. كان الكولونيل معي في الجنوب عندما قطع بن عامر عروقه. واليوم، إنه هنا بيننا. ماذا تريد أكثر من ذلك؟

- أنا، صرخ ديزيريه، وهو يربّت حزامه، لو لزم....

- وماذا يمكنك فعله أيها المسكين؟ صاحت به إليز وهي تركض، ماذا...

وتكسر صوتها وجعلت تشهق على كتف أميلي.

- أريد أن أقول لكم ما الذي أعتقده بخصوص كل هذا، تابع ديزيريه، وليس بسبب ما جرى هنا، لن أرحل أبداً. سأرحل لأذهب إلى أين؟ في مثل عمري؟ سيقتلونني قريباً. ولكن قبل ذلك سأقضي على بعضهم. بما أن رجلكم ديغول تخلى عنا...

- إنه ليس رجلي ديغول، أيها السيد.

هذه المرة كان صوته أكثر خشونة.

أسكت ديزيريه، توسلت إليز.

- عليهم أن يعرفوا أنه بما أنهم سيحلون مكاننا لن يحصلوا على كل شيء. لديّ بيانو، بيانو الرجل الذي علمهم الفرنسية. لقد وضبته وسوف أرسله إلى أخي في باريس. وليس على البقية سوى فعل المثل. ماذا سيبقى لهم؟

استراح على كرسيه مرتجفاً من الغضب. وساد صمت كانت تسمع خلاله ضربات البندول. شيء ما سينفجر. شعرت ليون بالاختناق. بيديه المعلقتين على حزامه، كان الكولونيل يتأمل الليل عبر الباب المفتوح. على فمه القاسي وعلى صدغيه الضاربين بالكاد إلى الشيب، ظهر ضوء بارد.

«لقد فقدوا صوابهم»، قال لنفسه، «لا أحد يهتم لآلته البيانو هذه. رغم ذلك...». هل ما يغذي نفوره منهم هل هو الظلم الذي مارسوه أم بسبب وحشيتهم؟ لو أن هذه العائلة انفتحت على والد رئيسة... غراس أيضاً لم يحبهم ولكن لا يمكن لشيء أن يلغي حقهم في أن يكونوا في أرضهم. فهم بدورهم يتعذبون وسوف يُبتلعون. رجل البيانو هو أمر آخر. لا يعرف، إنه ضحية. منذ إدانة لومير، سؤال آخر يشغل الكولونيل، ألا يعتبر خائناً باستمراره في الخضوع للأوامر؟

نهض وأعاد اعتمار قبعته بهدوء وبين كل تلك الثياب السوداء كانت قبعته الحمراء تلمع كزهرة شقائق النعمان أو كوردة حمراء. أن يسكت. بالنسبة إليه فإن ضاعت الجزائر في هذه الظروف، فبسبب معركة سيدان أو يونيو 1940.

«ليس لديك ما تخشينه، سيدتي»، قال للأم. «لسنا بعيدين».

وببطء رفع يده إلى جبهته للتحية وأدار فجأة ظهره واختفى. ابتعدت السيارات وسط الضجيج.

«نحن أيضاً سنذهب»، قال غرييه ناهضاً.

«لقد رتبنا وضعنا أنا وإليز، قالت إميلي لديزيريه. ستنامان أنتما في غرفة الأطفال».

كان الجميع غير قادرين على إخفاء اضطرابهم ما عدا إميلي التي أراحها رحيل ليون. نظرت كارمن إلى البندول. لم تبلغ بعد حتى التاسعة.

– الوقت ما زال مبكراً، دكتور نادِ مفتاح. يجب أن نعرف.

– أن نعرف ماذا؟ قالت إليز.

هزت إليز رأسها. في المزرعة كانوا أربع نساء ورجلين. وفي مكانٍ أبعد هناك مجموعة الكولونيل. ولكن تحيط بهم هذه الموجة من العرب، حشود البرانس، هذه المساحة المعادية... ماذا فعلوا لهم؟ فكرت بسعادة الأيام القديمة فاغرورقت عيناها ثانية بالدموع خلال الصمت الطويل.

«ها هو»، قالت كارمن.

مرتدياً قميصاً مرقعاً وبنطال جينز قديم باهت، ظهر خلف الطبيب في غرفة الطعام ممتشقاً بندقيته على كتفه. لا يعرف كيف عليه أن يتصرف، الشفقة؟ الطمأنة؟ أيّ مشاعر يبدي أمام الأحداث. الكثير من القتلى وليس وحده. إنه ميت يتحدثون عنه ويقيمون له دفناً حاشداً. ولا أي كلمة عربية، ولا أي كلمة عن أولئك الذين قتلوا بفعل ثأر أو تحريض في حقلٍ أو على طريق عند مرور الجيش. من دون أن نعد الموتى أولئك الذين بلا اسم، موتى المدينة، أولئك الذين ماعدنا نسمع أحداً يتكلم عنهم في المعسكرات والذين دفنت جثثهم المتكدسة كالماشية في أيام الطاعون. موت ابن باري يلزمه الكثير ليوازي موت أولئك. أما هو، مفتاح،.بما أنهم ما زالوا ينادونه هكذا على الرغم من أن اسمه سعيد بن مختار، ليس لديه ما يحتج عليه. في عائلة مفتاح لا أحد يموت سوى من الشيخوخة أو المرض. كان الطبيب رجلاً طيباً وهادئاً، دفع ثمن ذلك ومذ ذاك يبدو أكثر هدوءاً حتى. فهو لا يتكلم سوى مدفوعاً من أمه، زوجته أو زوجة أخيه. إنه يفكر كثيراً وهذا يمكن ملاحظته على جبهته وفي نظرته الرقيقة الزائغة دائماً. هل كان الاعتداء عليه غير عادل؟ أين هو العدل أو اللاعدل؟

«هل تحرس؟»، قالت كارمن.

لو اشتبهوا به، هو (ولكن كيف يمكن أن يقتل سيده على بعد خمسة عشر كيلومتراً من هنا، في ميزان– كاريه؟)، ما كانوا ليتركوا له بندقيته وخراطيشها.

«عندما جاء الجنرال سالان»، مضت تقول، «لقد تكلمت. لقد رويت كل شيء للآخرين».

عبر وجهه عن مفاجأة جعلته يشحب. نقطة الدم السوداء لديه، هذا الجلد الذي يكاد يكون بنفسجياً. ربما أنه مترسّب من عصور خلت، منذ الوقت الذي كان يملك العرب فيه عبيداً.

– لماذا كنت لأتكلم.

– أنا أسألك.

– الجنرال سالان، لقد رآه الجميع، قال.

– أتعتقد ربما أننا سنرحل. أبداً، هل تسمعني.

– لا أعلم، الله أخبر. لا شيء غير ذلك، الله أقوى من كل شيء. أنا رأيي غير مهم.

كان مجرد رقم في النظام. شخص بلا اسم. إنه سليل خدم أسماهم آل باري جميعاً مفتاح. فهو يخشى، إن حصل مكروه ما، أن يحملوه هو المسؤولية. هو، مفتاح يرضخ لكل شيء، ولكل من يدفعون له، وللآخرين الذين يحكمون، بالقدر الذي يستطيعه وحسب ظروف هذه الحرب التي توالت أحداثها وتداخلت. لقد تبدل آل باري. ما عادت كلماتهم ترن كما في الماضي، عندما كان العرب شعباً دون مستقبل، شعباً بربرياً. ما عاد التقسيم نفسه: الفرنسيون هنا والعرب هناك. ولكن لم تكن تلك نهاية الموتى.

«أريد أن أقول لك مفتاح، بندقيتك، يمكننا أن ننتزعها منك».

لَمَ هذا التهديد؟ السيدة باري، الأم، كانت دائماً طيبة ولكن بقية النساء... من سيحرس المزرعة إذن؟ كان ديزيريه عجوزاً جداً ولن يأتي ليستقر هنا. ولا الطبيب، فهو يعمل في الجزائر. المظليون؟ لا يبقون أبداً في المكان نفسه.

خلع عن كتفه بندقيته القديمة، بمقبضها وفوهتها المزدوجة اللماعة، البندقية القديمة لفكتور ما قبل الهامرلس[1] التي حصل عليها كرهن مقابل ما كان يدين به لشقيقه إيمي، وقدمها له.

– ها هي.

– لا، لا. أتساءل فقط كيف أمكنك. هل شعرت بالجوع؟ ألم يعالجك الطبيب؟ ألم يدفعوا لك التأمينات الاجتماعية؟ ألم تكن من العائلة؟ أنقصك شيء؟

عبر بحركة يائسة.

هذه المرأة لا تفهم أن العادات القديمة والعبودية الإقطاعية والقادة والقبائل كل شيء يمسي فتاتاً تحت ضربات هذه الغيوم التي تغطي شيئاً فشيئاً الأرض.

لا يمكنها أن تفهم ذلك، الإسبانية. لا لم ينقصه شيء. فقط أن يكون في أرضه. وفقط أن يسمع العربية ليس كلغة عبيد ولكن كلغة منتصرين.

وبما أن مفتاح ما زال صامداً، فكر الطبيب أنه كان من الأفضل ترك الأمور على حالها حتى يستجد حدث مهم. صحيح أن له ملامح زنجيٍ، مفتاح. تغطي جمجمته كومة صوف سوداء ولكن له وجه طوليٌ عربي

(1) Hammerless أي بندقية صيد من دون زناد أشبه بمسدس كبير.

الملمح بشدة، وعينان لوزيتان جميلتان. رجل مستطيل الرأس من العهد المجدلي[1] في الجنوب، لمَ لا؟ مع شفته السفلى الرفيعة وذقنه. ليس رجلاً للتصدي ولا لسرقة أملاك الآخرين. فبدلاً من أن تقرعه، كان على كارمن بالأحرى أن تتفاهم معه. فإلى المزرعة، هو يحرس الكثير من الأشياء التي تعود إليهم، والتي يمكن للآخرين سرقتها.

قال الطبيب لنفسه إن مفتاح لم يكن قصير النظر ولا ضعيفاً وإنما شخص ذو سلطة، رجل يمكنه أن يقرر بخصوص حياة الآخرين وموتهم. بالنسبة إلى كارمن، فهل ستضطجع على السرير الذي مددوا فوقه جثة زوجها؟ هل ستتصدى للحظة التي ستدرك فيها أنها لن تستشعر مرة أخرى حرارته على جسدها؟ ألهذا السبب تبدو بهذه القسوة؟ فطالما كان دانيال هنا، وإن ميتاً، فإنها تظن أنه لن يرحل. الآن، لن يكون هناك شمس بالنسبة إليها. لا شيء، حتى ولا دمع في عينيها.

«اسمع مفتاح. إن كنت أنت، كلمة واحدة مني...».

بدت مترددة لأن الطبيب لم يبد أنه يوافقها.

«هل تسمع، *يا رجل*...».

هذه الكلمة التي تستعمل في اللحظات الكبيرة. يا رجل، أيها الرجل. كما في التراجيديا اليونانية. ليس لمفتاح ولأي أحد عادي توجه هذه الكلمة في المآسي أو في الأفراح، وإنما للرجل، لأعلاهم مقاماً، من يأتي قبل الرب. أو قد تنادى المرأة، ولكن ليس للأمور نفسها – من أجل تفاصيل الحياة – يا امرأة...

– أريد ألا يمس أحد زهرة الآلام، قالت الأم. والباقي...

(1) العهد المجدلي هو من عهود ما قبل التاريخ.

- مفتاح، تابعت كارمن، لن أطلب من العسكريين اقتيادك ولكن لا تنسى أنني أنا أيضاً أجيد استعمال البندقية...

3

يلتقي القارئ من جديد ديغول في المصعد المؤدي إلى جناحه في الأليزيه. سالان ينجو للتو في حين تم الحكم على جوهو بعقوبة الإعدام

بعد الانزعاج الذي بدا عليه والذي كان قوياً جداً إلى درجة أنه ارتسم جلياً على وجهه، كان ارتياحه بصعود المصعد الذي يؤدي إلى جناحه هائلاً.

ربما لأنه يتعب من الحركة المتواصلة طوال الوقت؟ متخلصاً من واجبات الاستقبالات، المجهدة أحياناً، كان على أبواب السعادة لاضطراره أخيراً إلى أن يأخذ عطلة عند الثانية عشرة ليلاً إلا ربعاً، عندما أخبره السكرتير العام بصوت خفيض...

متصلباً في لباسه الرسمي الذي يجعله أكبر سناً، النظرة الغائبة، تقدم بطريقة آلية. أمام الصالون الصغير حيث يقف الحراس، ترك ضابطه المساعد ودخل في الرواق الذي يؤدي إلى الغرف وأخيراً إلى غرفته. لم يعد هناك أحد، أمسى خارج المتناول. عندما يصبح هنا لا يعود لأحد الحق في إقلاق راحته إلا عند وقوع حرب نووية أو انقلاب.

لا يحب أن يتلقى مساء أخباراً مهمة تقلق نومه وأحلامه. ولكن كيف يمكن وقف الأحداث التي بدأت تتوارد منذ زهاء الساعة؟ إنها لسذاجة.

بخمسة أصوات مقابل أربعة، جاء تناقض الظروف لصالح سالان.

فكر بخلع سترته ذات الذيلين الطويلين ثم الوشاح الحريري الأحمر. ولكن لا. جلس، مسنداً رأسه على مسند الكنبة، فاركاً عينيه.

بومبيدو الذي لا يبدو متفاجئاً، عليه أن يستشير وزير العدل. «فليخطئوا»، فكر، «فليتجادلوا ويغرقوا في بصاقهم...» لم يكن حتى متأكداً من أنه كان أول من يعلم، فوزير الداخلية لا ينقصه رجال في الأليزيه. عندما وصل الخبر بطريقة سرية، ساد فجأة نوع من الصمت، حتى أمكن سماع رنين الملاعق الصغيرة في فناجين القهوة. الآن، لابدّ من أنهم مشغولون بتفسير غيابه، يتهامسون ويهربون. خيل له أنه سمع صوت انصفاق أبواب سيارات في الباحة الرئيسية. لم يكن حتى متأكداً من أنها سيارات الجنرالات الثلاث في المحكمة العسكرية العليا، وعلى الرغم من موالاتهم له، فقد صوتوا لصالح الحكم. فالمحكمة العسكرية العليا تحدته ونجا سالان، في حين أنه وقبل شهر، عندما كان كل الناس وحتى هو يتوقعون منح العفو، حكم على جوهو من الأقدام السود، بالإعدام من قبل الأشخاص أنفسهم أو تقريباً.

أيّ حظ لمؤرخي ليلة 22 /23 مايو هذه1962! وصحف اليوم التالي. لوموند، وعلى الأرجح افتتاحية سيريس، القادر دائماً على استثارة غضبه. لابدّ من أنهم يحسبونه غاضباً.

الغضب، هو؟ في الحياة اليومية، يغضب من السذج. في شؤون الدولة، تكفي حركة من رأسه ليعبر عن عدم الموافقة. هؤلاء الناس لا يعرفون ما هي الدولة، وسبب وجودها، الضرورات أو مخاطر الدولة، ويريدون أن يظهر ديغول بمظهر من لديه مشكلات ضمن فريقه ونقص في الخبرات

والمتنورين؟ وبعجزه بالإمساك بكل هذه المراكز وحد التدخلات وكل هذه الالتماسات لصالح جوهو. وحتى في الحكومة يريدون في الوقت نفسه المحاكمة والعفو. وحتى مورياك، وحتى رئيس الإدارة المؤقتة في الجزائر، هذا الرجل الطيب فارس، وهو رجل مسلم، الذين ضغطوا عليه للتوسط لإنقاذ من يسمى ابن بلده ومن أجل التفاهم المستقبلي بين الطرفين.

في الحمام، تردد أيضاً بأن يخلع البدلة الرسمية. كم هو متعب! كما أنه ما عاد يريد أن يرى أحداً. سيبقى كما هو. بالكاد تجرأ على النظر في المرآة إلى وجه الفزاعة العجوز بنظرته المخفية تحت الحاجبين والوجه المخدد والفم الساخر، ثم عاد إلى الغرفة حيث كانت إيفون في انتظاره.

- هل تحتاج إلى شيء؟

- لا شكرا. نامي. سأتبعك بعد قليل.

- ألست في مزاج جيد؟...

ترددت، كادت تلفظ اسمه عندما تنبهت أنه خرج أساساً، لم يجب. «مزاج جيد» يا للكلمة الغريبة. أعليه ارتداء المنامة والمعطف المنزلي لكي يفكّر بفرنسا بشكل أفضل؟

في قضية كهذه، كان يلزمه الصالون الذهبي الكبير. رواق طويل جداً عليه أن يقطعه مع خطر أن يلتقي فضولياً ما في هذا القصر المزعج! وسيلاحظون الأضواء وسيبدأون بالتأويلات. التواري هو أفضل الخيارات. الحجرة الصغيرة الملتصقة بغرفة إيفون تكفي تماماً. حجرة فيها طاولة من طراز أمبير وكنبات طراز لويس - فيليب، وطاولة ألعاب عادية ولكن كيف يمكنه أن يلعب هذا المساء في مواجهة نفسه بهذا الرداء المذيّل

وهذا النهر من الدماء الذي يثقل صدره؟

فتح الشباك نصف فتحة، تفحص عتمة الحديقة وراء مساكب الورد، وإلى الشمال أشجار كستناء وأسيجة وأعمدة الإنارة في جادة غابرييل. ضوء الثريات الباهر الذي لم يطفأ بعد، ينعكس على المرجة الخضراء. ليل منعشٌ يميل إلى البرودة. استمع للحظة إلى هدير المدينة، تناول لكسبرس، عن الطاولة التي تكدست فوقها الصحف وارتمى على الكنبة.

ساعة من الوحدة حسّنت مزاجه. نهض وبدأ يذرع أرض الغرفة.

التعب لا يخفف من حدة تفكيره. فعقله لا يبدو بهذا الصفاء إلا بعد أن يحطم التعب جسده. الهدوء، السكون، هذا ما يرجوه أحياناً؛ يتمنى مساءات شبيهة بمساءات كولومبه. هناك، وبعد العشاء، يجلس ويشاهد التلفزيون، وهذا ما يفعله هنا أيضاً عندما يخصص لنفسه بعض الوقت الحر. أو إن كان البرنامج مملاً جداً، فإنه يكتفي بلعبة ورق فردية. هناك، شغل الصنارة أو تطريز إيفون، نعيق البوم، القط الذي يحتك به. ما عادوا تقريباً يذهبون إلى كولومبه. فإيفون لا تحب المروحية، كان يقترح عليها أن تلحق به في القطار ولكنها كانت تحب أن تشاركه في كل شيء. كما أن كولومبه ما عادت كسابق عهدها. ما عادا يستمتعان فيها بالنزهات مشياً على الأقدام في البواسري. ففي كل زاوية ثمة اليوم عسكر. عليهما الصعود في السيارة والتنقل ضمن موكب، وعندما يصلان إلى الغابة يمشيان كأنما في حفلة صيد. اعترض مراراً على حضورهم، وكانوا يتظاهرون بالاختفاء ولكنه كان دائماً يرى الحرس محتبئين وراء الأشجار.

يا للوحدة، يا للسلام! ولكن كولومبه أمست سعادة زائفة، حتى القطّ

ما عاد يبدي اللطف نفسه، فهو لا يخفي فرحته بلقائه ولكن أتراه تأثّر بفترات البعد الطويلة هذه على الرغم من أنه ما زال يعبر ويلاطف. في البواسري التي يشغلها تقريباً وحده كان القطّ يتساءل إن لم يكن عليه أن يستسلم للسيادة على الخادمات في المنزل الفارغ. لأن ايفون ما كانت لتجد من المناسب نقله إلى الأليزيه في حين أن... القط غريغوري على كنبة ملكية من طراز جيروم، وسيكون عليهم إزعاجه لكي يجلسوا سفيراً أو يقيموا المراسم الملكية للتعرف على مجلس الوزراء. كم من الرجال يمكن تشبيههم بالكلاب والقطط! كم هناك من المناصرين الذين لا يتحدثون سوى عن الوفاء؟ علينا الحذر من هؤلاء كما أولئك الذين تحذر منهم الحيوانات. أوفياء هم أولئك الذين لا يتعبونك بتعبيراتهم عن وفائهم. بونيفال. من أيضاً؟ دوبريه؟ إنه حالة خاصة دوبريه. من هم بحاجة للرفض، لا يهانون من الرفض أساساً، يعاودون الارتماء أمام قدميك، وإن جرحوا فهم يلعقون جرحهم. أو أيضاً مالرو، ولكن مع نظرات لجوجة. دائماً إلى يمينه في مجلس الوزراء يترصد حركته المسعورة في عينيه ووجهه المنهك، في الوقت الذي فيه نجوماً وزهوراً. هذا المساء على طاولة الشرف، ضائعاً بين زوجات الوزراء، كم كان يبدو ضجراً من هزّ رأسه!

ظلَّ ندمٍ حرك مشاعره. هل أخطأ بأن استبدل باكراً بومبيدو بدوبريه في رئاسة مجلس الوزراء. فحفيد الحاخام[1] هذا لديه فكرة عن الدولة يفتقدها وريثه. ليس لدى بومبيدو صلابة روحه، سيخونه بومبيدو. دوبريه تبع درب آلامه وعُلق على صليب استقلال الجزائر بعد أن أمل بجزائر فرنسية.

(1) ميشال دوبريه هو فعلاً حفيد الحاخام اليهودي الفرنسي الشهير والكاتب سيمون دوبريه. وكان ديغول قد عين دوبريه رئيساً لمجلس الوزراء من يناير 1959 حتى أبريل 1962، عندما استبدله بجورج بومبيدو.

لا يمكننا أن نطلب منه المزيد. لقد خضع لكل شيء، الإنكار والبصاق والجلد. قتل جوهو هو عقاب لرئيس الوزراء. بقاء غراسييه جوهو، كان يعني بقاء بومبيدو، يا للأسف.

لم يصل بعد إلى نهايته، ديغول. أن يكمل حكمه فذلك شأن الرب أكثر مما هو شأنه. هل يؤمن سالان بالرب؟ فحتى اللحظة والواقع الذي كانا فيه هو وسالان، لم يكنّ له ديغول مشاعر شخصية عدوانية. سالان نجا للتو من الموت وبقي له السجن مدى الحياة، ولكن جوهو... لأنه إن كان بإمكان الإنسان العادي أن يبدي الرحمة فالأمير لا يملك هذا الخيار. سينفذ أحكام الغفران كما في باقي الأحكام، التي يقررها القضاة باسم الشعب الفرنسي.

في فنسان[1]، كل شيء جاهز.

هذه المرة يثقله الذنب والياقة تضغط على رقبته. بالتأكيد، لن ينام باكراً. الصباح بدأ يقترب والشائعة سقطت على المدينة. كما دائماً في لحظة كهذه، على الرغم من أنه يشعر بشيخوخته وتعبه، فإن هدوءاً ما يسكنه. لحسن الحظ، لن ينظّم فراي كما في ليلة الانقلاب عزفاً تحت نوافذه.

عاد ليجلس واستراح على مسند الكنبة. في هذه الساعة، بدا وكانه انفصل عن الواقع وتبدل الضباب إلى بخارٍ أحاط بالمصابيح.

«ألن تنام؟».

أدار رأسه، لم يسمعها تدخل.

(1) أي سجن فنسان الواقع في مدينة فنسان الفرنسية.

«لقد أخفتني».

بالطبع ليست السيدة بومبادور[1]، ولكن ما كان ليريد من السيدة بومبادور أو من سواها؟ لكان سمع ارتطام ساقي السيدة بومبادور بطيات تنورتها.

- أتريد أن تشرب شيئاً؟

- لا، شكراً.

لا جرعات دواء ولا كبسولة. هناك ما يلزم للأرق وليس لحالات الهلع هذه. عليه أن يواجه من أجل سلطته وجهاً لوجه. بالطبع، إيفون تخمّن ما يحبسه في داخله. هل تشبه شقيقة الإمبراطور كارولين، التي سكنت هي الأخرى هذا القصر؟ بما تبقى له من حميمية، خوفه أيضاً كان مستهلكاً. لا يمكنه أن يحتفظ بشيء لنفسه في أعماقه، فهي تساعده على طريقتها بمقاسمته قلقه وأرقه. أسئلتها «ألستَ بحاجة إلى شيء؟» تغضبه ولكنها كانت ضرورية. أحياناً يقبل فنجان الشاي. ربما كانت جوزفين تقترحه على نابوليون. الرقيقة، الملتهبة والنشطة جوزفين التي تم التنكر لها بحجة السلالة غير المناسبة. نساء الجزر[2] هاتي الخفيفات قليلاً اللواتي سنضجر منهن.

«حاول أن تستريح»، دمدمت.

كانت إيفون لترغب بقوة أن يتوقف. ألم يقدم الكثير لفرنسا؟ لَمَ عليه

(1) السيدة بومبادور وكما عرفت في فرنسا بـ madame de Pompadour التي كانت سيدة البلاط في عهد لويس الخامس عشر والتي كانت تنحدر من عائلة عريقة وكانت معروفة بنبلها وثقافتها ورقتها وجمالها، وما زال لها في الشانزيليزيه غرفها الخاصة.

(2) في تعبير «نساء الجزر» عودة على الأرجح إلى العبودية الفرنسية في الجزر التي كانت تحتلها ومنها العبودية الجنسية. أو ما يعني نساء المتعة أو العلاقات السرية بما تعنيه «الجزر» من مكان ناء ومغرٍ.

أن يناضل؟ لم ينهوا يوماً شيئاً ما. كل شيء كان يجب البدء به من جديد. على القناع المغشى بضوء اللمبة والأشبه بحقل محروث للتو، تفحصت إشارات الألم؛ العينان شبه مغلقتين على النار التي تخفيانها، التجاعيد الكبيرة التي تسقط عبر انحدارات الوجنتين. ألن يتعب إذن يوماً؟ يريد أن ينتصر ولا يعرف كيف يصبر. وذلك كما كل عفيف نفس، لأنه كان عفيف نفس مخيف ولذلك هو يحب الحيوانات، وكانت لديه رجفة في اليد وهزة في الرأس. عندما كان ما يزال شاباً... هي في الحقيقة ما عادت تحتمل. اكتسب وجهها سمنة وعندما ينعكس عليه الضوء فإنه يفضحه، كما كان مليئاً بالخضوع الوديع.

قام بحركة مطمئنة ونهض ليجعلها تعتقد أنه تنازل فانسحبت.

هذه المرة مرّ بالحمام ليزيل ما يسميه عدة الكبرياء، التي تليق به جيداً، وهي الوسام الرفيع الذي يحلم به الكثير من صغار الطامحين، هذا اللاشيء الذي لا يفعل شيئاً سوى ستر عري روحه، غمد للسيف، وفي الحقيقة ليس سوى فزاعة تمنع العصافير من أن تغطّ عليه؟ على أية حال ها قد خلع حذاءه وأغرق كتفيه في نعومة الصوف. شعر بالتحسن. وأخيراً تحسّن مزاجك، ستقول إيفون.

بطريقة شبه آلية، سحب من رف المكتبة كتاباً لم يفارقه منذ أن قدم له كهدية عام 1942، المخطوط الآتي من سانت – إيلين بطريقة مجهولة، الذي نشر في لندن لدى دار جون موراي، شارع ألبير مارل. الغلاف الخلفي للكتاب من الجلد الأحمر. اعتقد بعضهم أنه نص من الإمبراطور نفسه. فلديه الأسلوب الوجيز، المحدد، مع ميل للتحليل، ولكنه يحكي عن الكثير من الأخطاء في مسيرة الشاب بونابرت، في التعليق السياسي وحتى

في السرد التاريخي. من المفترض أنه لكاتب إن لم يكن معروفاً، فعلى الأقل هو ذو موهبة كبيرة: بنجامين كونستانت أو مدام دي ستال. لا يهم. كما في ماشيافيل، وسانت سيمون، وكاردينال دو ريتز، يضم الكتاب خلاصة عن فن الحكم. الطريقة التي تطورت فيها أفكاره بسبب إيفون تذكره بما ذكره كاتب المخطوطة عن جوزفين. خمسة سطور فقط في الكتاب كله ليبرر نكرانه لها: «كنت محبطاً من الألم الذي سببه لي فراق أكثر امرأة أحببتها». لقد قال كل شيء في بداية الكتاب: «مدام دو بوهارنيه وعدتني بالزواج من ابنتها، وإن عشت أوقاتاً سعيدة، فالفضل يعود لها».

إن كان هناك...

هل كان عليه أن يعرف من خلال نابوليون أن حاكماً لا يمكنه أبداً أن يخضع أو يلين؟ إن خضع في موضوع جوهو، فليس بسبب حجج بومبيدو، الذي تم أساساً إبعاده، وإنما بسبب ضعف وزير العدل. في هذه الحالة سيضحي به لأجل الدولة وليس لأي سبب آخر. قد يقول له مالرو إنه يجب قتل بومبيدو الذي سيغضب الرأي العام، والوزراء الذي بإمكانهم التهديد بالاستقالة، لن يتنازل. «قيصر» لا يجب أن يمتلك قلباً.

بالطية الطبيعية التي اتخذها الكتاب، وقع على المقطع الذي أراده: «كنت محاصراً بالمغريات. كل نساء باريس وأطفالها كانوا في أجواء ما يجري. طلبنا مساعدة الجميع. تسامحت بإرسال بعض المذنبين إلى السجن في الوقت الذي كان عليّ إحقاق العدالة. وحتى إني ألوم نفسي اليوم على مساحة التسامح هذه لأنها، لم تكن في الجزء الكبير منها، سوى ضعف مخز. ليس هناك سوى واجب واحد يجب القيام به تجاه الدولة، وهو تطبيق القوانين. كل تسوية مع الجريمة تتحول جريمة من قبل العرش. لا

يجب أن نطبق قانون الرحمة أبداً على المذنبين...».

وضع الكتاب على الرف وعاد إلى الغرفة. أطفأت إيفون المصباح من جهتها هي لكنها تركت له ذلك الذي من جهته. بعد انحناءة غامضة، اندس في الفراش وتمدّد ومسد بيده وجهه وعينيه.

لا أصدقاء لديه، ولا حتى من بعيد. جوان[1]، ذلك الغليظ من الأقدام السود، يحقد على سياسته وقد كتب حماقات حول منظمة الجيش السري. أساساً هل يمكن لمارشال فرنسا أن يكون صديقاً؟ أن يقف على قدم المساواة معه، هو الذي صنع منه بوصفه الأمير ما هو عليه؟ ليس أن الصداقة لم تكن يوماً ضرورية لأمير. وإنما المشاعر التي يثيرها تفسر خطأً. أيمكنه أن يطلب النصح؟ إن كان كرهاً أو حباً، فهذا هو نصيبه. وعلى الرغم من ذلك، فهو يتمنى جواً يشبه إلى حدٍ ما جو القربان، قاعدة نقاش سامية حيث الأشياء الصغيرة تتغير من تلقاء نفسها بطريقة مقدسة. لذلك لن يحصل يوماً سوى على مالرو بحواراته الحالمة تلك. أما سر القلب، ألغاز الروح وأعماقها؟...

غريبة هذه الافكار التي تأتيه. دون أي رابط مع أي شيء، سوى تناقضها مع حساسية رئيس بحاجة لأن يظهرها. كم مرة بكى في حياته؟ عند موت ابنته آن، الألم الوحيد الذي لم يسمح له يوماً بأن يتسلل إلى قلبه. في المرات الأخرى كانت انفعالات وطنية. الحادي عشر من يونيو 1942، عندما علم بانتصار الالمان في بير حكيم[2]. أقفل الباب بعد خروج

(1) Alphonse Juin (1887 – 1967) هو مارشال فرنسي من «الأقدام السود» ولد في الجزائر.

(2) معركة بئر حكيم الشهيرة في الصحراء الليبية التي كانت معقلاً للفرنسيين والحلفاء والتي تمكنت خلالها الفرقة الأولى لفرنسا الحرة (التي كان قد أسسها ديغول لتحرير فرنسا =

المبعوث، بقي وحيداً، ترك رأسه ينهار بين يديه. يتذكر سطراً: «آه، أيها القلب الذي يدق مستثاراً، شهقات النصر، دموع الفرح...». انفعالات زواجه من طرف واحد من فرنسا. شعوره بأنه فريد. مرة أخرى، بتاريخ لاحق، في أحد مساءات مايو 1958 حين ناشده رؤساء مجالس النواب باحترام أصول الدستور: أن يترأس مجلس الوزراء وألا يطلب الاستقالة قبل مدة ستة أشهر. وفي محاولة لإقناعه، قال له مونرفيل إنه بالنسبة لكل شعوب وراء البحار، كان هو «رجل البرازافيل» ذلك الذي حرر العبيد. تلك الانتفاضة جاءت في الوقت المناسب. وبغية إنجاح الإصلاحات وإقامة الوحدة، رضخ. لا يجب أن يخذل هذه الجماهير المتواضعة. وفجأة شعر بأنه معني بها وفاجأته دموعه التي خبأها تحت جملة ملتبسة. «في نهاية المطاف، أنتم تعرفون، فرنسا ستدفننا جميعاً. وهي وحدها الأزلية. إن كانت عودتي مستحيلة، فسأعود إلى قريتي مع حزني...» آه! لو. لقد تذكر مرة أخرى بكى فيها، مرة قبل ذلك التاريخ.

أطفأ النور.

في إحدى ليالي أغسطس 1945، في نيويورك. عندما، وبعد الاستقبال المشرف في المدينة، أُستقبل في الحديقة العامة بالصوت الرائع والمدهش للمغنية الفاتنة البديعة السوداء ماريان أندرسون التي أنشدت النشيد الوطني....

ما إن التفت إلى يمينه ووضع رأسه على كتفها، حتى غفا.

= من السيطرة الألمانية) من الصمود لأربعة عشر يوماً في معارك مع الألمان، مما أتاح للقوات البريطانية التي كانت في حالة سيئة، التمركز في مدينة العلمين المصرية ومنع الالمان من التقدم نحو السويس.

4

هكتور، في مزرعة سيدي موسى، يتحدث عن وهران المشتعلة. الطبيب، إميلي وآل روندا رحلوا إلى فرنسا. «لا يكفي أن تولد هنا لتحسب نفسك من الأقدام السود»

– وهران، قال هكتور، لابدّ من أنك قرأت ذلك في الصحف، ما زالت مشتعلة.

– للحصول على الصحف، قالت كارمن، يجب الذهاب إلى القرية، فساعي البريد لا يمر من هنا.

– إذن، سمعت ذلك في المذياع. مخازن الوقود الكبيرة التي فجرها جيش النظام السرّي في المرفأ.

– شاهدنا الدخان، من هنا أيضاً.

– في وهران، كقنبلة نووية. اسودّت السماء تماماً وما عدنا قادرين على رؤية سانتا– كروز[1]. وما زالت مشتعلة حتى هذا الصباح.

جالسةً تحت البندول، ويداها على ركبتيها، بدت آنجل شاردةً، غائبة، نظرها ضائع بين أشجار الجوز التي يمكن تخيل أشجار البرتقال خلفها، وفي مكانٍ أبعد أشجار السرو. في الأعلى، وقد تلونت بالزرقة بعد عملية كبرتتها الأخيرة، تمتد كروم بنيجان ثم كروم أورفيلا، بيلاغري، شمبري، تلك التي لها أسماء خاصة بها، وبعد ذلك، السهل الواسع الذي يلاعبه هواء البحر والذي يمتد حتى تيبازة، مليء بعناقيد سانسو وأرامون وكارينيون الحمر وكلاريت وساميون البيض، وعنب شاسلا والمسكات... فبعد شهر

(1) سانتا– كروز هي كنيسة أنشئت عند هضبة منطقة وهران في الجزائر في العام 1850.

ونصف، يكون عيد صعود العذراء ومعه يحل موعد القطاف. ثروة كهذه لا يمكن إضاعتها. ولكن من يقوم بالقطاف إن رحل المستوطنون؟

هل تعتقدون أنه بقي هنا الشيء الكثير؟ سألت كارمن. ربما كانت مدينة الجزائر أقلّ خراباً ولكن كله سيان. ما عدنا نملك شيئاً، والعرب ما عادوا يعملون معنا. مفتاح، مثلاً، بات عقله في مكانٍ آخر. وقريباً سيحصدون كما يشاؤون، من سيمنعهم؟ كل شيء لهم. ها هي الجزائر التي أردتموها؟

الطبيب رحل إلى أنتيب[1] حيث تملك إميلي شقة بثلاث غرف. حتى آل روندا تركوا مزرعتهم وانتقلوا إلى منزلهم في إكس–أون– بروفنس[2].

ذهبت كارمن إلى المكتب وسحبت علبة مفاتيح لتريها لهكتور.

– خيل لهم أنهم وإن تركوا هذه المفاتيح بعهدتي... وكأن ذلك سيغير شيئاً. لقد حذروا: كل ما هو شاغر.. تخيل. ستقول لي ربما يا قريبي العزيز أننا شغرنا بأرواحنا المكان منذ وقتٍ طويل...

– ليس الصحافيون هم من يحققون الفوز أو الخسارة في الحروب. فهم يكتفون برواية ما يحدث.

– العرب ما كانوا ليقدروا يوماً على الجيش. ولكن الجيش يخضع للرأي العام. وما كان الرأي العام؟ ما قرأناه في الصحف. يعني أنتم. الموافقة على اتفاقيات إيفيان التي أهدت فيها فرنسا الجزائر للعرب. في الربيع الماضي، كنا أقوياء وكان العرب يرتجفون من الخوف. بعد الاستفتاء تبدّل كل شيء. بسبب مقالات كمقالاتك.

---

(1) Antibes مقاطعة فرنسية.

(2) Aix-en-Provence أيضاً مقاطعة فرنسية.

كيف تريدنا أن نقاتل عندما نعلم أننا سنرحل؟ في البداية جبهة التحرير الوطني أجبرت المستوطنين على دفع مليون، مليونين أو أكثر. بعد ذلك كانت التهديدات بالموت. مارتل نفسه كان عليه أن يهرب إلى إسبانيا. ربما تسمع تصريحات تونس التي تطالب ببقائنا: لن نسبب لكم الأذى، سنكون متساوين مع إخواننا المسلمين. أخواننا المسلمون يستغلون أقل غياب ليحلوا مكاننا. في القرية، يصرخ صغار العرب تحت نوافذ الأوروبيين: «سوف نذبحكم ونرميكم في البحر...». أنت تعلم أنهم خطفوا الكاهن. ويقال حتى إنهم قتلوه. فمن أجل رؤية هذا أنت أتيت؟ أنت سيصدقونك لأنهم يعرفون أنك ولدت هنا.

كانت تتحدث مثل قاضٍ. كارمن العنيدة خليفة نساء أيام زمان القويات اللواتي يتصدين للمحن. كانت المتحدثة باسم الأطفال الذين جلسوا حولها صامتين، والأم التائهة في أحلامها، والملاكين القدامى الذين فروا.

– لا يكفي أن تولد هنا لتكون واحداً من الأقدام السود، مضت تقول. كان يجب أن تعيش هنا، لكنك رحلت. قبل أن تعطوا للعرب ما ليس ملككم أساساً، كان يجب أن تتقاسموا ما لدينا واختبار ما نختبره وتحمل ما نتحمله. لو بقيت هنا، لكنت فكرت بطريقة أخرى. هل يرحلون، هم أيضاً في وهران؟

– بدأوا في مرحلة متأخرة عن الباقين، ولكنهم يتسابقون على الرحيل.

– إذن ما عادوا يملكون أي أمل.

– في وهران، قال هكتور، الكثير من شظايا الزجاج إلى درجة أن المرء يخاله ثلجاً. يرحلون ولكن هناك من يبقون، جالسين عند أرصفة المقاهي، صامتين، مع فتيات.

– أرأيت؟

عند المساء، في فندق مارتينيز، وجد رسالة من ماريني «خطر عليك. اهرب». طلب حسابه ورحل. أكوام من النفايات تحترق وقطط تبحث عما تأكله بين الدخان. وفي المساء، ولكي تسير في الجادات الفارغة، يجب أن تكون في سيارة عسكرية مدججاً بالمدافع الرشاشة التي بإمكانها أن تزيح الحواجز الحديدية عن الطرقات. مدينة مخربة نحت النجوم. لو رأى كامو هذا...

«في وهران، الأحياء الأوروبية باتت في قبضة الأحياء العربية. الخراب، الحرائق، آثار القذائف، العفونة، البؤس. في المستشفيات الأطباء كالجزارين. لا يجب الحديث عن هذا أمامهم»، أضاف ملتفتاً للأطفال.

ردت كارمن بابتسامة متعبة.

– لماذا نخفي عنهم الحقيقة؟ فهم يعلمون أنني لن أرحل.

– نحن لسنا خائفين، قال أنطوان.

– يريد أن يصبح صحافياً مثلك. ربما لأنه فهم أن الصحافيين يقررون كل شيء، أو ربما يريد أن يصبح شاعراً، تخيل، فمنذ أن دخلوا المدرسة يتعلمون رامبو. يقال إنها مهنة كغيرها من المهن. أتساءل أين يمكن أن يعمل المرء بمهنة كهذه؟ بالنسبة لماري تريد أن تقاتل.

هل يشبه الشاب أنطوان الجدّ الأكبر الذي شارك في احتلال الجزائر في 1830 وماري الجديدة تشبه نساء بوفاريك اللواتي كن يطلقن النار

على الطرابيش. لها فم آل باري العريض ونظرتهم المجنونة بعض الشيء. بوجهه الناعم البارد، يبدو أنطوان وهو ما زال في الخامسة عشرة، رجلاً.

– صحافي، قال هكتور، بهذه الحالة عليك أن تسافر. ليس هناك من معارك سوى هنا. شاعر، ما عاد يهم أحداً. لكي تعيش، ستكون مضطراً إلى القيام بعمل آخر. في وهران، تابع يقول، ما عدنا نجرؤ على شيء سوى في مدينة الجزائر.

– إنهم إسبان في وهران، قالت آنجل.

– لديك حق أيتها الأم، إنهم معتادون على القتال.

– في كل الساحات، موتى غطيت رؤوسهم بالصحف...

وهران مدينة لا مكان فيها للرحمة. الدم في كل مكان. القطط تلحس الدم، الجادات تحولت إلى خرائب، المنحدرات العامودية تطلق منها القذائف على صهاريج المازوت في المرفأ. وفوق كل هذا سماء صافية مبهرة. وفي الليل روائح الجيف والحرائق.

كم بقيت من الوقت، هناك؟

– يومين، ولم أصدق كيف عدت.

عند الفجر، نجح في أن يستقل طائرة نقل عسكرية. وداعاً وهران، وداعاً أيها الجحيم. مدينة الجزائر كانت تقريباً بمثابة النعيم. لكنه فكر رغم ذلك بأنه ما عاد فيها فتيات جميلات، في حين احتفظت وهران بفتياتها. جميلات يخطفن الأنفاس.

«في وهران، إنها المذبحة»، أضاف لكي يحبط عزيمة ماري.

أيكون السبب أن ديغول، وعكس ما كان ينتظرون، وافق على العفو عن جوهو؟ لذلك استعادت مدينة الجزائر هدوءها. عادت إليها الحياة.

كومندوس دلتا[1] ارتدوا من الجهة الأخرى من البحر، وانتشر الحديث عن اتفاق بين جبهة التحرير الوطني وبين منظمة الجيش السري التي قدم لها وعد بالعفو مقابل هدنة في أعمال العنف. في برنامج محظور على التلفاز، قال سوزيني[2]: «نتمنى من كل قلبنا أن يحمل السلام...».

في ميزان بلانش[3]، وجد هكتور ماريني الذي كان قد سبقه إليها. أخبره عن اغتيال دانيال، الذي مضى عليه ثلاثة أشهر. موت دانيال الذي علم به برسالة من إليز يبدو أنه أثّر به كثيراً إلى درجة أن ماريني فوجئ ببراءته. كيف يمكن بعد الإيمان بالتعايش بين الجماعتين؟ قادة جبهة التحرير الوطني يريدون طرد المحتل وتغيير النظام السياسي. فالجزائر ستنقلب إلى الاشتراكية مثل روسيا بعد ثورة أكتوبر أو الصين مع ماو. ماذا كانت ستفعل فرنسا في 1789 إن كانت قد ظهرت الاشتراكية؟ لماذا سينزعج الجزائريون من جماعة الأقدام السود الرافضين بالكامل للماركسية؟ بالنسبة لحفنة الليبراليين، فقد كانوا عائقاً بالنسبة للجميع.

قبلت سيارة أجرة نقله؛ أوروبي سأل إن كانت المزرعة بعيدة عن الطريق: «لأنني لا أتحرك خارج الأماكن المأهولة...» بالنسبة إليه فقد حل

(1) كومندوس دلتا كانوا الجناح التنفيذي في منظمة الجيش السري، والذي تولى عمليات التقتيل والترهيب والتفجير بحق من اعتبروهم خونة لقضيتهم الجزائر الفرنسية، وبحق الجزائريين عموماً وخاصة بحق العاملين مع الثورة الجزائرية.

(2) Jean-Jacques Susini هو مؤسس «منظمة الجيش السري» الفرنسية التي عملت ضد خروج الفرنسيين من الجزائر وكانت مسؤولة عن الجرائم التي ارتكبت بحق الجزائريين، والذي اضطر وبعد انتصار جبهة التحرير الوطني إلى طلب الحوار معها.

(3) Maison – Blanche أي الدار البيضاء، وهي مدينة تبعد 16 كلم فقط عن العاصمة الجزائر والتي استعادت اسمها «الدار البيضاء» بعد زوال الاحتلال الفرنسي للبلاد.

الأمر لكنه قد يتدهور فجأة. عليه أن يكون حذراً. فوجئ هكتور بأن سائق التاكسي لا يعرف مزرعة آل باري. فهو يعرف المزارع الأخرى الكبيرة، بنيجان، شامبري، بيليغري، روندا. وليست بالمزرعة الصغيرة جداً كهذه مع سقوف من القرميد الصناعي وشجرة ليمون صغيرة... كان هكتور يتخيل في صغره، أنه بها يسيطر على قطعان من الثيران وحدائق اصفهان وكروم الأندلس. تذكر نفسه في مأتم جدته وهو في بدلة المدرسة الإكليريكية ويتذكر الفونوغراف وعرابه يشده إلى وسامه الحربي الأحمر الذي على شكل وردة، فيستنشق رائحة التبغ والكولونيا في لحيته وشعره الشائب «عدني ألا تكون مؤذياً...» كان على عرابه أن يقول له العكس «حاول أن تتحول من هذا الولد الشيطان إلى رجلٍ محنك... فتنجح...» ثم عينا مارغيت بالقرب من حوض الناعورة، والدته هو، مع نطاق حريري ومشبك من العقيق، والعجوز مفتاح بين الكروم مع العم فكتور. فبعد غياب طويل كهذا، تعرف على إطار الصورة: الغرف هي الكواليس، الخدع البصرية في سراب التينة، أما المسرح الخلفي فهو الجبل. آنجل كانت محقة: لا يكفي أن نولد هنا. حتى أنه لم يدخل آنجل التي تذكّره قليلاً بوجه أمه الطويل، أمه هو، في إطار الصورة.

وعلى الرغم من أن كل شيء بدأ من هنا، هنا تنشق هواء البحر وسمع عويل بنات آوى لحظة سطوع النجوم. بمَ تنفع الطفولة إذا كانت هي التي تزرع هذا النهم الذي يعذبه للحقيقة؟

طاولة أيام زمان الكبيرة اختفت، ربما وضعوها في المستودع، فكارمن تفضل خزانتها وكراسيها من غاليري بربيس. ولم يبق من أثاث زمان سوى المكتب والبندول، ومع كل ثانية التماعة نحاسية.

- ستشرب بعض القهوة، قالت آنجل. إنها جاهزة، ليس عليّ سوى أن أسكبها لك.

- لو تمكنا من التفاهم، تابعت كارمن، ومن دون مزايدات: فأنا كنت أفضل ذلك.

في مرسيليا، رأى حشوداً من الأقدام السود المصعوقين، المنهكين، المربكين بين الأطفال والحقائب والاستمارات، المشدوهين من الألم، يهرولون في طرقات لا يعرفونها، كان آخر الربيع، تجمع الناس حولهم، وأخذوا يصورونهم، إنهم الحدث: دموع النساء ووجوه الرجال المنهكة.

«ليس لدى الطبيب متسع ليسكّن أحداً. ماذا إذن؟ المنفى؟ مخيم اللاجئين؟ لقد جمع الجيش العرب في قرى جديدة، أعرف. ولكنها بلادهم، يا قريبي العزيز. إنها أرضهم، سماؤهم. في حين أننا نحن... ترانا جالسين فوق حقائبنا؟ والأم حتى ما عادت تريد العودة إلى مدينة الجزائر. هنا، حسب الأيام، تنتظر إما زوجها وإما دانيال. وفي المزرعة يمكننا دائماً أن نجد ما نأكله. ستعود إلى أرضك وتجد شقتك وأغراضك وأصدقاءك، وأحد لن يطردك. كما أنك رجل. فالمنزل أقل أهمية. ولولا فكرة أن يترك منزله، أبي... لقد دفناه منذ شهر. أنت لا تعرف؟ أنا لن أعيش لدى الآخرين مبدلةً بيتي كل يوم. فما أملكه هنا هو حياتي. إن لم أملكها... لا تتخيل أيضاً أنني سأترك دانيال وحده لدى العرب؟

أشارت بعينيها إلى البندقية المعلقة على الباب.

«يمكننا الاحتفاظ بكل هذا. بالنسبة لك، ما هو، يا قريبي العزيز، الوطن؟».

لم يجب. أساساً ما عاد يقاتل ضد فرنسا، المملكة التي لا يمكن استبدالها، والتي استعادته.

– كيف هي فرنسا؟ سأل أنطوان.

– كان صغيراً جداً عندما زارها، قالت كارمن. ما عاد يذكر.

– باردة في الشتاء، قال هكتور، مع هطول للثلج في بعض المناطق، خريف ذهبي جميل، الكثير من المدن، الكثير من السيارات والكثير من الطرقات والكاتدرائيات.

– وتجمعات سكنية شعبية أيضاً، قالت كارمن. شتاء. أناس لا يفهموننا، لقد جربنا ذلك منذ سنة مع دانيال. سألونا إن كنا نسيّر عربنا بضربهم بالسياط كالعبيد. يحسبوننا فاحشي الثراء، وسيكونون سعيدين برؤيتنا مذلولين.

– والبحر؟ سأل أنطوان.

– آه، هذا. البحر. إنه أمر آخر.

أعاد أنطوان الكلمة التي كان قد قالها:

«هذا لا يخيفني».

عندما وزعت آنجل الأكواب، نهض فكتور فجأة.

«خمس دقائق»، صرخ لسائق سيارة الأجرة.

ذهب باتجاه الناعورة حيث كان آل مفتاح القدامى يقيمون كوخهم. فآل مفتاح اليوم يقيمون في المنزل القديم لفكتور قبل زواجه، بالقرب من الآبار، تحت أشجار البرسيمون التي أصبحت عملاقة. مفتاح كان يعزّق رقعة الفليفلة ليس بعيداً من هناك. صافحه هكتور بالعربية وقال له إنه ابن

ماتيلد، أضاء وجه مفتاح، لمس يد هكتور وحمل إصبعه إلى شفتيه.

كانت الشمس قد مالت إلى الغروب، باتجاه جبل شنوة، والضباب الذي تعلق بالجبل انسحب. في السهل، هواء لطيف، عاصف بعض الشيء. وخلف حاجز أشجار القصب التي تحجب المنزل عن الرؤيا، ترتفع صيحات نسوة. السحر ينبثق من جديد: رائحة التراب، الهواء الذي يحمل رائحة الكينا، شجرة ليمون ما زالت تحمل ثماراً. عبر هكتور بفتح يديه:

«كل هذا سيكون لك قريباً. *كل متاعك قريب*».

هز مفتاح رأسه الشبيه برأس حصان ومسح العرق عن جبهته بيده. هل هذا الرجل يسخر منه؟

«لا، لا. ليس لي بل للعرب. إن شاء الله. للثورة».

ثم وفي التماعة مكرٍ في العينين:

«أو لك، إن جئت معنا».

أهو مجرد تعبير عن التهذيب، كلمة بلا معنى، أم العكس؟...

يتذكر هكتور واحدة من أكثر الجمل التي أدين بسببها قبل أن يأخذها آخرون على عاتقهم. كلمة أثارت الاستهجان وقتذاك، في بداية الصراع، والتي تبدو في الوقت الحاضر، عادية جداً: «لو كنت مسلماً، فسأكون من المقاومين...» ضابط سابق يبرر الثورة.

لماذا آل مفتاح، الذين ومنذ قرن، يحملون على أكتافهم أولاد أسيادهم، ويهتمون بثيرانهم، ويسرجون جيادهم، ويحرثون أرضهم وينقلون دلاء المياه من الآبار إلى بيوت أسيادهم، لماذا العمال الموسميون الذين ينزلون من الجبال لكي يحصدوا العنب ويقطفوه، لماذا القناصة الذين يعودون من

الحرب لكي يجدوا مشتاهم محروقاً، لماذا العرب المهانون الذين يسمون بالشمام أو الرعاع، الذين قلصت أدوارهم إلى حفاري جحور ومكسري حصى وبوابين وشحاذين وندل مقاه وماسحي الأحذية ومرافقين، وفي أفضل الحالات إلى تجار خضار وسائقي حافلات وجباة في عربات الترامواي، موظفي بريد أو أساتذة، أو بأعجوبة إلى ضباط وأطباء في الصيدلة ومحامين ولكن رغم ذلك سيسمون شماماً أو قوادين أو جذوع التين، لماذا كل آل مفتاح الذين هزموا من قبل السيد دو بورمون ومنذ قرنٍ سحقوا بسبب خضوعهم مثل الحصى، لن ينزعوا عنهم خزي أن يكونوا دائماً هم الخدم لا السادة؟ لماذا لن يريدوا هم بدورهم أن يحصدوا العنب ويقطفوه ليبيعوا نبيذهم وقمحهم إلى الروس والبلغار وأن يسكنوا منازل الفرنسيين بعد أن استولى الفرنسيون على قصور البحارة والأتراك؟ وأن ينتقموا للمعارك التي تقدم خلالها الفرنسيون فوق جبال من القتلى، والحرائق والمذابح، وأن ينتقموا لبلاد القبائل المنهوبة والمحروقة لعدة مرات مثل الأوراس، لماذا لن يقتلوا، وبسلاح الفقراء، رجالاً وصلوا بكل نزاهة لما وصلوا إليه، وأن يذبحوهم بدورهم ويحرقوا ويقطعوا أشجارهم وكرومهم، وأن يروّعوا ويغسلوا بالدم مساوئ ومحاسن أكثر من قرن؟

5

يطلب هكتور من سائق سيارة الأجرة أن يمر بسيدي موسى، ليكتشف المقبرة وقد انتهكت

عاد هكتور إلى صالة الطعام، وشرب فنجان قهوته.

- علي أن أذهب، فهم بانتظاري.

- ألن تبقى على الغداء؟ قالت آنجل. يمكننا أن نتغدى باكراً وندعو سائقك أيضاً.

- سأعود يوم الأحد، بعد ثلاثة أيام.

- ماذا هناك الأحد، هناك عيد؟

تبادل هو وكارمن النظرات. ما عاد هناك أعياد. ولن يأكلوا بعد اليوم المونى على الشاطىء، بالكاد انتبهوا إلى أنه عيد الفصح. عيدا الصعود والعنصرة مرا دون أن يشعروا بهما، مثل العيد الكبير وعاشوراء لدى العرب. الأحد القادم سيكون يوم الاستقلال، لأنه عيد، ولكنه ليس لهم.

بسرعة، أخذ السائق مرة أخرى طريق الجزائر. كان عداده قد سجل رقماً كبيراً متسائلاً إن كان سيُدفع له. سابقاً، كان سيتردد لنقل مراسلٍ خاص من لكسبرس، وكان سيفرض شروطه. بالنسبة إليه ما عاد يقصي أحداً، أم أنه نوع من التحررية الجديدة؟ الأحداث التاريخية تحظى بالأفضلية وكل الصحف تضع قضية الجزائر على صفحتها الأولى بعناوين كبيرة. ينقلون في كل مكان أناساً على عجلة من أمرهم. أحياناً مراسلون من العاصمة أو أجانب يقترحون عليهم عملات لا قيمة لها أو شيكات. لا، لا سيدي، ليس من هذا. تدبر أمرك مع فندقك. وفي الوقت ذاته يتساءلون إن لم يكونوا مخطئين. من يعلم؟ خلال بعض الوقت، قد يهنئون أنفسهم لامتلاكهم شيكات من باريس أو من مكانٍ آخر. اليوم ليس لديه ما يشتكي منه فزبونه ناوله للتو ورقة مالية.

وتعبيراً عن شكره، استأنف حديثه:

– هل هي هنا عائلتك، في المزرعة حيث كنت الآن؟

– من بقي منها. لم يرحلوا. وأنت؟

ألقى السائق نظرة على الورقة المالية، إنها خمسة فرنكات فرنسية، من تلك الجديدة.

«هل تتحدث عن الأحد[1]؟ إنه بعيد، بعد ثلاثة أيام. ما عاد الأمر يتوقف علينا. العلم الأخضر مكان العلم المثلث الألوان، هذا ما لم لن نقدر على تحمله. فنحن ما زلنا على أية حال في أرضنا. إن طردونا، إن أخذوا منا كل شيء... الشيء الوحيد الذي لن يأخذوه منا: هو رفات موتانا».

ترك السائق للحظة مقوده لكي يؤشّر له باتجاه البحر:

– فلنر الأحد، إنه القمر الجديد، ربما سيغير كل شيء.

– اسمع، قال هكتور، أريدك أن تسدي لي خدمة، نريد أن نمر بالقرية. ليس لأكثر من دقيقة. أريد...

لا يريد أن يذهب بهذا الشكل. أن يعود إلى باريس ومقالاته ونسائه ليروي الأيام الأخيرة له في الجزائر الفرنسية، ويتبادل الانطباعات مع بليز وماريني. زيارة أخيرة إلى حيث بدأ كل شيء. فالأحد المقبل لن يكون الوضع نفسه.

خفّف السائق السير، قطب جبينه كي يستدير إلى الوراء، إذ يكره أن يستدير عند المفترق، وبالضبط مفرق بلدة براقي حيث يمرون بأقصى سرعة كون البلدة مليئة بالعرب. ولكن يجب أحياناً أن يرضخوا للزبائن الكرماء. فسيدي موسى لم تتحول بعد إلى بلاد للعرب ولو أنهم طردوا

(1) الأحد هنا يوافق يوم إعلان الاستقلال الجزائري في الخامس من يوليو 1962، في نفس تاريخ الاحتلال في العام 1830.

كاهنها. بقي فيها بعض مظاهر التمدن، إذ قد تمر من وقتٍ لآخر سيارة مصفحة أو موكب مظليين.

– وصلوا حتى المنازل الأولى ثم إلى الساحة.

– هل تتذكر الاعتداء الذي حصل هنا ضد طبيب منذ بضع سنوات؟ وقد أحدث ضجةً كبيرة. أين عليّ أن أقف؟

– في مكانٍ أبعد، عند أشجار الكينا.

– ولكنك مجنون. هل هو مكان يمكنك أن تذهب إليه، عشية الاستقلال؟ من الواضح أنك لست من هنا، سيدي. أنا لن أبقى هناك. سأنتظرك، مثلا في المقهى. لقد قرأت اسمه. لسبرانس...

ترجّل فكتور كونيغ في حين ابتعد السائق وركن سيارته. لم تكن تنقصه المساحة إذ ما عاد هناك أحد على الطرقات. عامل سكك الحديد توقف عن العمل والمدرّس ما عاد لديه صف. لقد هربت القرية. الرجل المتحدر من أورفيلا والذي ما زال يدير حانته يتساءل إن لم يكن من الأفضل أن يقفل محله ولكن يمكن للعرب أن يجدوا في ذلك تعبيراً عن العدائية، وكأنهم يجهلون أن عائلته تنتظر باخرة في ميناء الجزائر. سأل سائق سيارة الأجرة عما يريده. قديماً كان ليطلب كوباً من الأنيستون. اليوم الصودا أو البرتقال. جلس السائق بعد تردد على الرصيف الخالي وقال إنه جاء لينقل متحدرٍ غامضٍ من آل باري إلى مزرعته، والآن...

وأشار إليها. لا يمكن رؤية شيء من هنا. تغضن وجه المتحدر من مزرعة أورفيلا.

بدت المقبرة وكأن قذيفة أصابتها، كانت القبور منبوشة والنعوش مرمية بين الممرات، والأسيجة مكسرة ملوية، والمعابد مهدومة والصلبان

محطمةً والأشجار مقطوعة وعظام الموتى مبعثرة في المكان. من حيث كان واقفاً، لم يستطع أن يميز إن كان قبر أهله المفتوح فارغاً.

العرب إذن أمسوا أسياد كل شيء. فما كانت تقوله أمه صحيحاً: فهم لا يحترمون شيئاً. ربما دنسوا الكنيسة أيضاً. هذا ما قاموا به هم أيضاً عند الاحتلال، فقد جرفوا قبور المسلمين لكي يشقوا الطرقات، ورموا الجثث في مكب النفايات واحتلوا المساجد... لا يمكن للجيش أن ينتشر في كل مكان ويحمي كل شيء، الدنيوي والروحي، الأحياء والموتى. وعلى الرغم من ذلك، عندما اقترح عليه مفتاح أن يتقاسم معه، إن صفّ مع العرب، لم يتردد. هز رأسه. لا.

وفجأة صعقته الضربة.

6

الثاني من يوليو، كان الجيش أمام حصن الإمبراطور، هناك حيث يتواجد اليوم دو رواي

مقارنة مع أننا في الثاني من يوليو، فما زال الطقس بارداً.

نسيم الشرق يهب من الياريس على كل المتوسط. الكولونيل دو رواي يتحمل جيداً ما يحمله بالإضافة إلى هذه الوخزات في الصدر...

من فوق الكتف الأجرد والأصحر لهضبة القطار، أخذ يتأمل البحر الداكن أكثر من العادة حتى يكاد يكون بنفسجياً. في 1830، الأمواج الصاخبة نفسها هي التي أخّرت الأسطول الحربي للسيد دو بورمون والأميرال دوبريه وجعلت القيادة العامة تتردد في النزول. الثاني من يوليو

1830، كانت الشعب الثلاث وسلاح المدفعية أمام حصن الإمبراطور، تقريباً في المكان نفسه الذي يقف فيه هو والملازم أول بيرسيفال. فقد كان متوتراً قليلاً من الرسالة التي تلقاها بالأمس من أمه: «بني الحبيب، لم أتلقَ أخبارك منذ وقتٍ طويل. قلت لنفسي إنك في مزاج سيء جداً. يبدو أنك تعاني، أتخيل وأفكر أنني بعيدة عن مشاركتك آلامك، لا يمكنني أن أفهمها... تخيل أني...».

هذا الأسلوب القديم الممزوج أحياناً بتعبيرات تعتبرها هي جديدة. «فتشت بين أسلافك. فأنت فعلاً دو رواي...». هذا بهدف طمأنته، كي لا يتحسس منها هي الفخورة رغم ذلك بأن يكون له أعمام كالأميرال فيشر كيلفرستون، اللورد جون أربوثنوت، مخترع باخرة دريدناوت واللورد الأول للبحرية بعد أن قاتل في حربي القرم والصين. فلن يشعر بالخزي من أن يكون في دمه بضع قطرات من آل فيشر ولكن في النهاية... «ما يميز أسلافك ليست الفخامة ولا الرتبة ولا النجاح إنما جنون ما، يتم مكافاته لو حظى بالظروف والأشخاص المناسبين وإلا... فإن ديغول الذي خدمته لبعض الوقت، والذي، وإن كنت قد فهمت جيداً، لا تحبه بالطبع، يمكننا إلى حدٍ ما، أن نصنفه، من خلال احتقاره لمسأله الرضا العائلي، في عائلتك دو رواي...».

هي تمزح، أمه!

«أرغب»، تابعت، «في أن أعلمك بأنه حتى أصغر أسلافك لم يكن بلا أهمية. فإن شقيق والد جدك، جنرال الفرقة الذي أنهى مسيرته في العتمة لأنه رفض أن ينفذ أوامر تافهة، عمل من أجل سعادة امرأة سخرت جيداً منه. إنه دو رواي حقيقي لكنه قليل الحظ وأنا أحترم كثيراً شخصيته. لا

تكن، رغم ذلك، بتلك الخفة التي كانها في بعض الجوانب. فكر جيداً قبل أن تترك نفسك لبعض الانفعالات التي قد لا تجر عليك سوى الندم. سر على خطاه إن كان يعجبك ذلك. فسوف ترضى بمكان صغير في ذاكرة حفنة من الناس. وحتى هذا ليس أكيداً. فأنا أنصحك بالأحرى أن تتزوج من فتاةٍ تعجبك وأن تؤسس من حيث أنت، لتصبح وزير دولةٍ أو مؤسس إمبراطورية حتى لو كانت الإمبراطورية بربرية...».

دائماً تناقضات أمه، التشوش العقلي، المغالطات الممزوجة بالتفاصيل الحقيقية. الجنرال دو رواي هذا الذي تعبر عن احترامها له مع اقتراح ألا يتمثّل به، يبدو أنه ذكرها بابنها هي.

هذا الجنرال التي يتذكره في ألف مناسبة، ما كان اسمه؟ يشعر نحوه بعاطفة جياشة. في قلب ما يبدو إهمالاً، هذا الاهتمام البعيد، غير الواقعي من أم لا تبدي الكثير من الأمومة، وتذكر سلف مهجور، يبدو كل ذلك وكأنه متعلق بالمصادفة الزمنية. غرائب ربما عرفها الآخرون في يوليو 1830 في مدينة الجزائر في اللحظة التي كان فيها العلم المثلث الألوان يحل مكان علم أزهار الزنبق فترة الإصلاح. أهذه الصدفة سخرية أم غمز من الحياة؟ منذ ذاك الزمن، سلفه؟ هذا الرواي قال لا. مثل البرنتصور، ولكن في لحظة أخرى من التاريخ وفي ظرفٍ آخر. سلفه لم تكن لديه هو الآخر غطرسة الانتماء إلى فرنسا. فقد اكتفى بمغادرة الجزائر دون فضيحة ولكنه تألم. إذن كانوا يتألمون في ذاك الوقت من أجل أهدافٍ نبيلة ويتصادمون مع الكسل وال...

«كزافييه– ماري، هنا بابا فوكس – ترو يناديك. تسمعني؟».

في ذاك الوقت لم يكن هناك راديو. وكان بإمكان سلفه الاحتفاظ

لنفسه بكل شيء.

لماذا تتذكر أمه ديغول بهذا الإلحاح؟ ليس بين ديغول ودو رواي أي قاسم مشترك. فهو من عرقٍ آخر، ناري، ساخر، متعطش للمجد، محقِّر، فظ، جاف، دون أي شيء محبب في غطرسته. لم يكن هو من سيتردد في ذبح بعض القبائل كما في سطيف في 1945. لقد تصرف على حريته بالجيش، ولم يمدح الجيش إلا بهدف العودة إلى السلطة ثم كذب عليه. في مايو 1958، عندما استقبل المبعوثين من سالان في كولمبه، قال لهم: «إن لم يريدوا الجنرال ديغول، قوموا باللازم...» واليوم، لا يمكن القيام بما هو لازم ضد الجيش. ما عاد هناك جيش.

لقد قُضيَ على البراءة، أفضلهم أحبطوا أو أودعوا السجون، والأكثر سوءاً هم من استلموا السلطة. كل فرنسا استقالت ومعظم الأقدام السود هربوا. الجميع خضعوا وتنازلوا. لا تحليل وقائع. يعتقدون أنهم متأكدون من أمرهم، يؤمنون بحقيقة وبعدالة، يعتمدون على أحكام ومفاهيم، على صيغٍ وافتراضات، يتبنون طريقته بعمىً كامل وفجأة ينهار كل شيء. سقوطه الأكثر مرارة: رفاقه الذين قادهم منذ عشر سنوات من مصيبة إلى أخرى، ليجدوا أنفسهم غارقين في الخزي. غراس تجرجر إلى بايون. بيجار الذي لم يرفع يده تأييداً لحظة الانقلاب يتباهى أمام زنجيات في أوبانغي – شاري. هؤلاء المحاربون الأقوياء الذين أبعدوا إلى آخر الصف ينتظرون مطأطئي الرؤوس، أن يتذكر الأستاذ ويناديهم. كيف يمكن لمجرد قائد فوجٍ مظلي أن ينقذ وحده الوطن الذي لا يظهر حماسةً إلا على الطرقات السريعة؟ خمسة عشر عاماً من السجن لشال، لا يهمنا شال، ولكن عشر سنوات للومير. لقد عبر لومير عن احتقاره أمام المحكمة العسكرية العليا

ومنع محاميه من استدعاء رفقاء قدامى للشهادة، ربما لكي لا يؤثر ذلك على حظوظهم. الناجون من معركة ديان بيان فو يلعبون الكرة الطائرة في ساحات سجن تول.

من يمكنه بعد أن يتحدى البرنتصور؟ فما كان يسميه فينيي ذراع الأمة لم تعد تفعل سوى ضربها. فما عاد أمام المجدفين في مستنقعاتهم، سوى الانتحار. إنها على الأقل إشارة رمزية لكي يتمكنوا من النظر بعدها في المرايا، محاولة.

عشية استقلال الجزائر، الكولونيل دو رواي ما عاد يريد أن يفكر بشيء. احتفظ بالقرار لنفسه. ضابط واحد تمكن من أن يخمّن. مساعده الميداني، ملازم صغير في الخامسة والعشرين كان ديغول بالنسبة إليه عدواً للمسيح. قال: «ماذا لو رحلنا، سيدي الكولونيل؟»، مشيراً إلى الراية في خزانته الزجاجية «وماذا لو حملنا معنا هذه؟».

لابدّ من أن دو رواي كان يشبهه حين كان في عمره. أين يمكن الذهاب بحماسة كهذه؟ ضحك الملازم باستهزاء. «إلى مكانٍ ما، وهل نعلم؟». أولاً، إلى المزرعة حيث كانت الامرأتان. ثم إلى الجنوب حيث ما زالت هناك مكاتب. ومن بعدها نؤسس مملكةً من الصعاليك. ما الذي دفع ماو إلى تنظيم المسيرة الطويلة؟ الفكر الثوري، ولكن على الأخص بهدف النجاة من الإبادة. ما الذي ساعد ماو على مجابهة الصعاب، وقهر التعب، والخيانات والجوع، والبرد؟ ألم يطرح على نفسه أسئلة؟ لكي ينجح المسيرة الطويلة، يجب أن نبدأ وألا نتوقف أبداً. هنا ننتظر أن يستفيق أحد ما.

– هيا. لا تهذي يا صديقي الصغير.

يجب العودة إلى السخافات والأفكار العامة والشعارات التي وبفضلها سار غراس وبيجار ولسنوات بين الأدغال ونجوا من الفيتناميين. «من يتجرأ ينتصر» أو «الايمان بما لا يمكن تصديقه». في شبه الجزيرة الهندية الصينية، الجرأة أو الإيمان هو ألا نرتجف تحت ضربات مدفع الهاون وأن ندفن الرفاق دون أي دمعة، وأن ننام في الحفر، ونأكل فيما أقدامنا غارقة في الغائط وأن نمشي خمسين كيلومتراً في اليوم.

طلب دو رواي من الملازم أن يهدأ. وسيرى. يوم غد. «لماذا الغد؟ حالاً، سيدي الكولونيل، فسأتبعك».

وبذلك انطلق الكولونيل والملازم مثل خيالين سرحا من الجيش. وحدهما دون أحد. أحدهم أكثر جنوناً من الآخر. دون اتجاه بعد أن أعادا معداتهما إلى المستودع. الحصان، ليس بعد. واحتفظوا بسيارة عسكرية لأنه لا يمكن رؤية كولونيل يتنقل دون سيارة عسكرية وجهاز إرسال لتلقي الاتصالات على موجة القائد. سيعتقدون أنهما ذاهبان للتسكع مع الفتيات، لما لا؟ هذه الأوضاع الكارثية، هذه الهجرات الجماعية، هذا التدفق البشري، أي هبة هذه! فلديهم ليلٌ إضافي. فلن يتنبهوا لغيابهم سوى في الصباح. سيعتقدون أن الكولونيل كان في جولة، أو أنه استدعي إلى اجتماع في مكتب المندوب العام الفرنسي، في روشيه – نوار. لأنه لم يعد هناك لا حاكم ولا وزير مقيم وقريباً مجرد سفير سيجد أن الوضع بلغ من السوء مستوى غير مسبوق، وأن تجارة السلاح ما عادت تعود عليه بالمردود نفسه وأن السفن والطائرات باتت تقلع بأعدادٍ أقل. وإن قيل إن العرب وجهوا إهانات إلى القنصل الفرنسي الجديد في الجزائر

الذي يحمل، كما ذاك الذي كان في العام 1830 اسم عائلة ديفال، في دارة تيلاملي، فهذا سيغضبهم حتى أقل من أن يكون قد شارك في حفل لهو. ومن ثم سيتعرف السفير الجديد على تاريخه وعلى سي الداي حسين وحملة شارل العاشر. ولن تعلن حينئذ الحرب ثانية بسبب سخافات، كلمات أو حركات لا يفكر أحد في الاغتياظ منها في بلادٍ كهذه. لن يحشدوا الشرطة الوطنية من أجل كولونيل فقد وعيه في الطبيعة مع راية، لأن الكولونيل كزافييه - ماري لف راية فوج مظليي المستوطنات حول صدره، كنطاقٍ حريريٍ ناعم بلون صارخ، مع تيجان من الغار وأوراق السنديان عند زواياه الأربع. اثنتان عند الشريط الأزرق وأثنتان عند الشريط الأحمر، وفي الشريط الأبيض كلمتي «الجمهورية الفرنسية» مرسومتان بالأحرف الكبيرة فوق الرقم 13 (رقم الفوج) وعلى الجهة الأخرى، الانتصارات: كاو بانغ، هانوي، ناسان، تول، أسماء لها رائحة الأفيون واللوتس. لكي يكتبوا انتصارات الجزائر: إيفرحونن ولاربعاء، كان عليهم أن ينتظروا كي تطلى بالذهب. ما كان يزعج الكولونيل هو حاشية الشراريب التي تحف بجسمه، في الوقت الذي كان يبحث عن أقل احتكاك ممكن. ولكن كيف يمكنه أن يبقى دون حراك؟

حركته تسبب له احتكاكات مزعجة، نوع من التهيّج، وخاصة عندما يضاف إليها حفيف النياشين. كان عليه أن يخلع هذه البدلة ويرتدي غيرها، هذا الثوب المقدس، هذا الكنز الفاخر، عدة الترهب والتبجيل هذه، حيث يتفجر، ما إن يظهر في الضوء، التماع النحاس والطبول والأناشيد الوطنية، وفرقعة البنادق والخبط الاحتفالي الكبير للتعبيرعن الاحترام لمن يمثلون الشرف. أين كان الشرف؟

أزلج الملازم الأبواب، وقطعا بحذر، هما الاثنان، بالموس الشرائط التي تربط العلم بالقضيب. الراية. يا لهذا الإنجاز، إنها عجب العجب! ألا تتحلل أبداً الراية؟ في المواقف البائسة، وخلال الانسحاب من روسيا، في القرم أو في حرب العام 14، كانت الأعلام تحترق أو تختفي. لذلك ما عادوا يرفعونها خلف الموسيقى والطبول. في الصحف، ما عادوا يعرضون أعلاماً ممزقة بالقذائف بل أعلاماً ترفرف جديدة، تخفق في الهواء، تنحني عند مرور رئيس الجمهورية أو لا تنحني. لقد فعلوها لأجل ديغول في ستراسبورغ[1].

جذع العلم، كان عليهما نشره. وبالنسبة إلى حديد القضيب، والذي يحمل صليب لورين بعد ان كان بالنسبة لآخرين نسراً إمبراطورياً وزهرة زنبق، تم إخفاءه تحت علبة القفازات في الجيب، كما أخفي جيب المسدس المصنوع من القماش المشمع تحت المقعد.

«كزافييه - ماري، هنا بابا فوكس - ترو...».

في المذياع، الصوت الرتيب للضابط الثاني.

«كزافييه - ماري...».

لن يتعب من تكرار الجمل نفسها. لن يتوقف. فهو يعرفه. ضابط دون مشكلات ولا أسرار. جملته المعتادة: «أنا، أنت تعلم...». وحينئذ سنعرف أنه يجهل كل شيء، ما عدا واجبه، والتعليمات والأوامر. قادر على الوحشية، ولكن في قرارة نفسه متسامح. مع سيف في غمده، أهو

(1) المقصود على الأرجح هنا الاحتفال الذي أقيم في 23 نوفمبر 1944 عندما رفع العلم في ستراسبورغ باسم ديغول، عند الحدود مع ألمانيا في آخر نقطة حررها الجيش الفرنسي فوق كاتدرائية ستراسبورغ، ليكون رمزاً واحتفالاً بتحرير الأرض من الاحتلال الألماني.

متسامح؟ هل يمكن أن ننتظر من سلطة أن تجادل أو تتحايل؟ السلطة لا تطلب منا أن نحبها ولكنها تتصرف كقانون وعلى امتداد الساعة، يمكن لبابا– فوكس أن يكرر لازمته. هل تصرف من تلقاء نفسه أو طُلب منه أن يوجه النداء؟ هل هو وحده من شك بما حدث أم أنهم استفاقوا؟

تظاهر دو رواي بعدم السماع.

«اسمع، برسيفال[1]. الرابع من يوليو 1830، تفجر حصن الإمبراطور. وفي الخامس منه كان الهجوم الكبير، ودخل الجيش إلى مدينة الجزائر، لم يكن هناك أحد تقريباً في الطرقات. أكنت تعلم ذلك؟ علينا أن نكون حيث كانت شعبة لوفردو عندما كانت تتحضر للهجوم، عند الطريق القديمة للبليدة التي تمر بالأبيار. بالطبع فإن قسم الهندسة قام بتفجيرات هائلة، لأنه كان لدى الأتراك سلاح مدفعية جيد. من الجزائر يجب أن نرى كما من هنا، بالضبط أعلى القصبة وقصر الداي، البحر لجهة الجنوب الشرقي، وحدبة بوزريعة هذه التي تخفي عنا الشمال...».

لا جواب من الملازم أول الذي لولاه لما كان الكولونيل تجرأ. ولا أي كلمة. الملازم أول مقفل على نفسه في درعه، غير آبه بالقصة القديمة. قديماً كانت ريفاً، مملكة لبنات آوى، لقد تبدلت بشكل غريب مذ ذاك. كل ما بنوه، المدن التي تثقل على الهضاب بكتلها الباطونية ومعاملها. لن يتركوه ويرحلوا كالجبناء.

مرر دو رواي يده على قميصه، تحسس حرير الراية. عند الصدر هذا الأحمر، القرمزي، الأرجواني الكاردينالي. كم يمكن لهذا أن يحرق، وطن

(1) برسيفال (Perceval) في الأسطورة الأرتورية هو أحد الخيالة. وفي الأدب الغالي اسمه بيريدور، وهو معروف على الأكثر بمشاركته في البحث عن الكأس المقدسة.

عندما نحمله في القلب، كم يمكنه أن يخنق! هل هو ضيق جداً؟ سيعالج ذلك في الليل. سيتحسس هذه الراية التي لثمتها آلاف الشفاه. عندما كان يتوقف رئيس الجمهورية أمام العلم، كان يحمل طياته، الحمراء تحديداً، إلى فمه مثل دو رواي عندما تسلّم قيادة الفوج. لماذا إذن يوضع في صناديق رفات الأموات مع خطر أن يلتقط رائحة النفتالين، لماذا لا يعيش فقط مع شبابٍ بالريش الأحمر والقفازات البيض، لماذا لا يكون للرايات رائحة الفراولة وتوت العليق مثل الفتيات الشابات، البهار الأخضر أو النعناع البري؟

هو الذي يعرف أن جزائر أخرى كانت منطقية وضرورية، هو الذي أدخله الحب في المغامرة – ولكنه نجا منها؟ أي ضابط لا يزرع في داخله زهرته السامة، حبه الملعون، شغفه المخزي؟ – كيف أمكنه أن يفكر للحظة أن بإمكانه أن يموت من أجل شيء آخر غير الجزائر الفرنسية؟ أن يترك الفوج حاملاً معه الراية، لأن قيادته أجبرته على ارتكاب الخيانة التي لا تغتفر، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تبقت له ليقف إلى جانب لومير. هل يمكن لرفيق أن يكون أقوى من كل شيء؟ قديماً عندما أرسله غراس إلى الجنوب لحظة الانقلاب، هل ارتابوا إلى هذه الدرجة من إخلاصه للسلطة وضعفه أمام المتمردين! هل أرادوا عزله إلى هذه الدرجة! صحيح، أنه كان لديه حينذاك فكرة أخرى عن كل هذا الخراب، وفي خضم حبه لجزائرية، حلم بجزائر وهمية، بنظرة مثالية، طوباوية، بأخوة ليست موجودة سوى في الأحلام.

ما هو إذن هذا الصوت الذي يستقر في داخله؟

... هذه الأرض، سيدي الرئيس[1]، ليست سوى كلمة بالنسبة إلى الكولونيل دو رواي. فالمتحدر من العديد من المارشالات اللامعين، ذهب أبعد من أسلافه. فقد تعلق بالصخور والسماء ورائحة المونة في البيوت، النساء اللواتي يبتهلن للقمر الجديد مع القليل من السميد والملح في اليد ويعرفن سر إنزال هلاله في حوض ماء يتحول إلى شراب عشقٍ. وتعلق بالرمال وبأسراب الأوز البري الكبيرة وعطر الريح وعقود كبش القرنفل، بالعنبر الأسود، بالعيون اللوزية لبنات جبال الأوراس، عيون العسل، عيون الفهد بالرموش السميكة الأشبه بالأوراق الميتة، تعلق برائحة طين المنازل، بالشعور الخشنة قليلاً ووحشية القلوب. لماذا أقول لك ذلك، سيدي الرئيس؟ لأن المثقفين ليسوا على حق بل الشباب الذين يقدمون أنفسهم للهب كبير. لماذا الحديث عن الحب الذي يسبب الألم ويكتبل؟ لأنه حب عليه أن تتحكم به. السعادة التي تعني الكثير في عقول مواطنينا يعيشها الجنود بطريقة أخرى. فهم لا يتساءلون مثلنا إن كانوا يحبون. يحبون ويتنفسون هذه البلاد ومن يعيش فيها، ويتذكرون الأحلاف التي أقسموها راكعين «لا، ليس من أحلاف»، صرخ أحد المتآمرين مثل مارس في يوليوس قيصر لشكسبير. ولكن متى أقسمت؟ عندما لا يمكنك أن تنفصل لا عن الراية ولا عن البلاد التي طلب منك أن تؤمن بها بأنها وطنك؟ هؤلاء الرجال الذين يقتلون أو قتلوا قد أقسموا. أين هو الغباء؟ أين هو المنطق؟ سيدي الرئيس. بالنسبة إلى الملازم أول برسيفال الذي يرافق كولونيله، فإن القضية العادلة الوحيدة التي آمن بالقتال لأجلها

(1) هنا يجري حديثاً متخيلاً في جلسة محاكمة افتراضية للكولونيل دو رواي، بسبب هروبه من الجيش ومخالفته الأوامر. وذلك لأنه لم يتمكن من تقبل فكرة الرضوخ لأوامر الجيش بالتخلي عن الجزائر.

كانت دائماً الجزائر. هو أيضاً اعتقد أنه وفيٌّ لشيء ما. فإن نزع الملازم أول سلاحه لا يمكننا أن نطلب منه أن يحمله مجدداً. يمكننا أن نرسل له الشرطة أكثر مما أن نرسل موسيقى الحرس الجمهوري.

الكولونيل دو رواي ما عادت لديه أوهام سادتي القضاة. فبعد سلسلة من الآمال الخادعة، يريد مسلمو الجزائر جمهوريتهم الجزائرية. كان الجيش يأمل أن ينتخبوا نوابهم ويرسلوهم إلى الجمعية الوطنية، وأن يتم كل شيء بالطريقة الشرعية. وبعد ذلك، وخضوعاً للإرادة الشعبية، كان بإمكان الجزائريين أن يسحبوا نوابهم، وبمساعدة الجيش، ومن دونه، أيّ فوضى! أن يؤسسوا جمهوريتهم. ولكن أي عدالة إن لم يحارب الجيش سوى من أجل جماعةٍ واحدة! بالطبع، في اليوم الذي سيكون فيه على خمسمئة من فرنسيي الجزائر الوجهاء أن يرحّلوا كي يمكن إرساء عدالة ما، ستتطاير سدادات الشمبانيا في حفلات العشاء. ولكن الآخرين الذين ما زالوا يحبون بيوتهم وهذه الهبات الأبدية التي هي السماء والأرض الحمراء والبحر، هؤلاء المذنبون تقريباً دون أن يعوا، بحق من يعتبرونهم أقل درجةٍ منهم، يتحولون فجأة إلى مستبعدين، هل يجب تركهم؟ هل يمكن ترك النساء اللواتي لا يتخيلن الحياة خارج أوطانهن؟ نساء دون تعليم، متعلقات بقبرٍ، بسقفٍ وبعض أشجار يقدمن المثل للرجال والعسكريين الذين تلتقي أحلافهم مع أحلاف السيناتور دوبريه. يجسدن الجهل الذي لولاه لن يكون هناك ذكاء. وهل تتخيلوا أن يجمع شيء ما بين واحدة من تلك النساء والكولونيل دو رواي.... لا شيء بينهما، يا سادتي. بالرغم من كون هذه المرأة، وبصدفة الولادة، قريبة الجزائرية الشابة التي تعذب من أجلها الكولونيل كما نتألم من شظية قذيفة أو صاروخ لم يتمكن الجراح

من انتزاعها، فالكولونيل لا يشعر نحوها سوى بالإعجاب بالبطلة التي فيها، فهو حتى لا يراها جميلة. بل يلومها، بطريقة ما على خلطها بين القضايا العامة ومأساتها الشخصية، ولكن ضابطاً في الجيش الفرنسي، من آل دو رواي، سادتي، سيترك نساء لمصيرهن؟...

«فوكس - ترو الذي يناديك... تسمعني؟».

ولكن لا، لا أسمع، فوكس - ترو. إني أسدّ أذني. أعرف جيداً أن ثوار المنشريس[1] انتهوا مشتتين. لست من منظمة الجيش السري. وهل أعرف من أنا؟ أصغر الأشياء. ساذج. فاقد للوعي.

من كان المظليون الذين قتلوا في المعركة، الذين قدمت لهم التحية العسكرية مع اطلاق رشقات من الرصاص في السماء؟ جنود مهنة، يدفع لهم كما كان يدفع زمن مرموز وبسيشاري[2] للمثقفين لكي يتفرغوا لتأملاتهم. رجالٌ أحبوا المعركة والألم والعرق والرفاق ورائحة نار الغابات ولون الصباح في الجبال، مكمن الصيد والحوش والمشاتي الفقيرة حيث تختبئ الماعز والفتيات. هل يعرف لماذا ولد، لماذا اختار مهنة القتال، وفي النهاية، لماذا اختار مزرعة صغيرة في متيجة ولم يختر أملاكاً كبيرة مثل أملاك بورجو وروااندا، لماذا مزرعة لا قيمة لها على الإطلاق مع بعض أشجار برتقال وهكتارين من الخرشوف، أثرت في قراره[3]؟

نظر إلى البحر، فإذ بكل شيء يختلط. التماع الضوء يصبح شمساً

(1) المنشريس تعني «أعلى» بالأمازيغية، سلسلة جبال في شمال غرب الجزائر. تبلغ ذروتها بسيدي عمار (1985 م).

(2) Jean Mermoz طيار فرنسي وفي الوقت ذاته من مؤسسي الحزب الاشتراكي الفرنسي في 1936. أما Ernest Psichari فهو عالم فرنسي بفقه اللغة.

(3) هنا الإشارة إلى مزرعة آل باري في سيدي موسى، حين زارها وشهد هناك الحديث عن التمسك بالمزرعة وأعجب بقوة كارمن وصلابتها.

منصهرة. ما عاد هناك بحر وإنما بحيرة ذهبية واسعة، فوهة بركان تغلي فيها نار مصطنعة تغذيها عربات الجحيم. تقاتلوا، وما زال الدم على البلاط، وما زالوا يتقاتلون، وقتل هكتور كونيغ أمام مقبرة سيدي موسى دون أن يعرف من الذي....

7

يرى هكتور نفسه في شقة أهله، في مدينة الجزائر، يحاول أن يتمسك بشيء ما ثم يقع على الحصى

بالنسبة إلى هكتور، كانت صدمة رهيبة، مم؟ جرح كان يخنقه. أليس من صنيع خياله، والنتيجة المنطقية لما يشعر به في عمق روحه؟ ولكن ليس لدرجة أن يتحمل في جسده ما يطعنه في الروح، وإنما ألم قاسٍ جداً، قوي لدرجة أنه متفاجىء أنه ما زال معه حياً. لقد حصل فعلاً. كان يريد أن يبدأ من جديد، ولكنه ما عاد يمتلك الشجاعة. كان حصاناً منهكاً.

أفكار غامضة تتذبذب في داخله. شكٌّ: وإن أخطأ، وإن حسبه شخصاً آخر؟ «في النهاية، إن كان هذا هو الموت، فإنه أقل صعوبة مما يعتقد الناس...» لقد سئم. اكتفى من كل شيء وما عاد هناك ما يرغب في معرفته.

في رأسه، صورة غريبة، صغيرة، الرسم الكبير لتفصيل صغير كان يرفضه دائماً والذي كان ليراه أيضاً هذا المساء عند إليز: بوفيه هنري الثاني، الذي يتصدر المنزل في مينرفيل بعد أن تربع في غرفة الطعام في شارع مونتيني، على ذلك البوفيه الأثر الذي تركته ضربة عصا أخطاته فحفرت

موضعها في خشب الجوز الزائف. كان إذن ولداً لا يحتمل، في ذاك الوقت؟ غير منضبط ووقح إلى هذه الدرجة، ثائر لحد أن أهله انتقموا مما فرض عليهم؟ فإن لم يكن خطؤهم هم، هو تجسيد الخطيئة التي لا يمكنهم تخفيفها، رغم أنهم اختاروا أن يعاقبوا أنفسهم عليها. ماذا يقول هذا الذي كان يسبب لهم هذا القدر من الغضب؟ العمر البشع، لقد كان في العاشرة. لم يكن عمره مبرراً. كان يستخدم كلمات لا يفقه معناها، ويتعلم من أنذال ولدوا مثله من عمليات زنى رخيصة، سفاح قربى، من يعلم؟ من عرب عابرين أو عمليات اغتصاب في الاصطبلات، على القش، بين رائحة الزبل واجترار الثيران، أشياء تخبأ، صراصير تسحق؟ نعم إنه يتذكر بعض العبارات التي كانت تستعملها عصابات صفه، المستعدة دائماً لخلاعة ما في المناطق الخالية أو ورش البناء حيث كانت تبنى الأحياء الجديدة لباب الواد، أو ما يصرخون به لفتيات مصنع سجائر باستوس، تيك العاهرات الصغيرات اللواتي كان يرميهم «البيكو» بنظرات جانبية.

قريباً من نهاية حرب 1914، في ذاك الزمن الذي كان فيه الموت يجتاز البحر عبر الخطوط التلغرافية، جعله أهله يصدق، وبعد أن أحبطوا من ربطه بقدم السرير ومن الوعيد، خيل لهم بأنهم قادرون على جعله يصدق بأنهم سيودعونه السجن. فصاح: «في بربروس؟». بربروس كانت في أعلى القصبة، القلعة الضخمة بجدرانها التي تحميها أبراج مخروطية الشكل وطرقات عليا دائرية، حيث يسجنون العرب وسجناء الحق العام. «ليس هناك سوى بربروس» أجاب أبوه. في البداية، حجز في أقبية قصر العدل. وهنا وفي نهاية بعد ظهر اقتيد تحت أروقة شارع القسنطينة ثم أنزل على أدراج من الرخام حتى قاعة المحكمة المكسوة بألواح من الخشب الداكن،

حيث لعب شماس من أصدقاء والده مسرحية محاكمة. لكن شيئاً لم يكسره. قال: «لا بأس». وعندما حدثه الحاجب بثوب القاضي عن الفئران التي تغزو السجون قال: «سأركلها برجلي...». فأعادوه إلى شارع مونتينيْ، وتمترس في غرفته، وما عاد يرد على الأسئلة التي يطرحونها عليه. ولد ما عاد أهله يرغبون به. وبالطبع كان ذلك السبب الذي دفعه لاحقاً إلى قبول دخول المدرسة الإكليركية.

تمسك بالقضبان، لكنه وقع قبالة الباب الكبير الصدئ، وغرق في مياهٍ ناعمة دافئة، كمياه شواطئ الصيف. لم يعد يرى حياته. أي مزحة، أي فكرة سخيفة هذه! عندما نموت يكون أمام ناظرينا صورة واحدة أو اثنتين لنفكك الألغاز. على البوفيه الأثر الذي لم يتحدث عنه أبداً، والذي يشير إلى أنه حمل في جسده ندب عقوبة، رفضاً، قدراً من الطرقات الوعرة العنيفة، كما الكثير من الأشياء الأخرى. مثل مارغريت وأورتينس، مثل الكولونيل الصغير دو رواي، حسن وأهل حسن. وفي النهاية علم لماذا كان ليفضل رفقة الكلاب ولماذا أراد العدالة للعرب.

وقع على حصى المدخل أسفل البوابة الكبيرة للمقبرة التي كانت الآن بالكاد مفتوحة لكي يقال إنه كان هنا، إنه التحق خلال حياته والآن في العالم الآخر، بأولئك الذين اعتقد أنه افترق عنهم والذين يشدونه إليهم كما لو كانت أبواق يهوشافاط[1] رجرجت الأرض فطارت الأشباح في كل مكان وقادت وأمرت. الوصمة على البوفيه، وأمامها الزجاج المنتفخ

(1) يهوشافاط هو الملك الرابع على مملكة يهوذا، أما أبواقه فتعود إلى ما ذكرته التوراة عن احتفاله بعد انتصاره على أعدائه: «ثم ارتد كل رجال يهوذا واورشليم ويهوشافاط براسهم ليرجعوا إلى اورشليم بفرح لان الرب فرحهم على اعدائهم. ودخلوا اورشليم بالرباب والعيدان والابواق إلى بيت الرب».

للميدالية مع صورة في داخله، الصورة الممحوة لعزيز رحل، كما لو كانت صورته هو الشخصية في مرآة مشوهة: وجه متفاجئ ولكن هادئ، مسترخٍ ويكاد يكون سعيداً. لماذا كانوا يقولون له دائماً إنه يشبه أمه؟ جراء العادة. حتى لا يتسبب له ذلك بالمشكلات. جانبياً، نعم، يشبه أمه. ولكن بشكل مجابه، هاتان الوجنتان الدائريتان، المنخران الواسعان، هذه الجبهة المسحوقة عند منبت الأنف، هذه النظرة بعينين نصف مفتوحتين، هذه الشفة العليا المرتفعة، هذه الجبهة المزروعة بالتجاعيد، من يكون سوى وجه بروسي أو ملامح وجه فارسٍ روسي من الغزوات؟

كان ذلك والده، تلك الشخصية السيئة، الذي هرب من قريته الحقيرة شامبانيْ ليخفق في روفيغو، وقضاء لاربعاء، ومستديرة بوفاريك، ودائرة الجزائر مثقلاً ببيانو لا يجيد العزف عليه ولكن الذي أغرى به زوجة شرطي سابق تحول إلى مالك خان. والده هذا الشبق العجوز غير النادم، الذي كرس حياته كلها لوهم وصوله يوماً ما إلى الثراء، في حين أنه لم يعرف سوى العوز، لا يرتدي، ما عدا في الأعياد، سوى ثيابٍ رثة وأحذية يصلحها بنفسه بعدة حذاءٍ خاصة به، لا يصعد يوماً في الترام من دون أن ينشل شيئاً ما، ينقع أعقاب القناني لكي يصنع منها الرم، يعربد لدى المستوطنين مقوضاً في الوقت ذاته آلة الاستيطان. لماذا حارب الكهنة كل حياته لكي يرسل ابنه في النهاية إلى المدرسة الإكليركية؟ لماذا كل هذه الخطابات الأخلاقية لكي يتسكع بين مواخير حي لامارين؟ لماذا كان ينتقد السياسة المالية للحكومات وهو غير قادر على إدارة حياته الشخصية؟ لماذا كل هذا التفاخر بالاهتمام بالأدب وهو الذي لم تنشر له الصحف يوماً المقالات التي أرسلها لها، لماذا عليه تسجيل وقائع حياته في مدوّنات،

لكي يرميها في النار مخافة أن يُتّهم بالجنون؟

لقد انتفض والده سدىً، دون أن يحصد أي نتيجة سوى احترام نجار له، ابن مرحّل في العام 1848، وكولونيل متقاعد، ذاك المجنون قليلاً. ولم يغفروا له آثامه سوى لأنه حقق شهرة كبيرة في امتحانات الشهادة الرسمية: إذ نجح فيها كل طلابه. حتى ذلك العربي من الرعاع الذي قدمه إلى دار المعلمين أوصله إلى رتبة جيدة ومن ثم إلى شارة السعفة الأكاديمية ووسام نيشان الافتخار[1]. انتصاره الحقيقي حصل بعد وفاته. هذا الكاتب الفاشل لم يعرف يوماً أن واحداً من أنذاله كان يكتب مع الأكاديمية؛ هذا المعدم الذي لم يكن يصعد إلى الترام إلا عندما يكون أكيداً أنه لن يدفع، لم يخيل له أن هكتور سيسكن الأحياء الغنية في باريس وسيدعى إلى التجارب الأخيرة للمسرحيات قبل عرضها وإلى...

هكذا كانت كلمة النهاية للمضطجع أمام الباب، مع ثقب في الصدر أحدثه سيف ملاكٍ ربما، في حين أنه على رصيف مقهى أسبيرانس، بالكاد سمع سائق سيارة الأجرة وذاك الرجل المحترم المتحدر من عائلة أورفيلا صوت الطلقة.

السلام لهكتور، السلام لأخوانه وأسلافه. السلام لروحه.

ولكن ما كانت إذن حركته الأخيرة؟ لماذا كان يكشط الأرض؟ لماذا كان يسحق التراب بين أصابعه؟

(1) نيشان الافتخار هو وسام أسس أيام حكم البايات 1837 واستمر العمل به حتى العام 1957.

8

في قاعة محكمة، يظن دو رواي أنه سمع المحامي يذكّر بأنه في الرابع من يونيو 1958 استدعي دو رواي من قبل رئيس الجمهورية شارل ديغول الذي قال له: «اختر دائماً الطريق الأصعب»

حسب التحقيق[1] - ولكن أي تحقيق يمكن إقامته في ظروف كهذه؟
- فرضية أن هكتور كونيغ قتل على يد كوماندو فرنسي أخير كان يطلق النار وأوقفه أعضاء من جبهة التحرير الوطني أول من أمس في البليدة. أما سائق سيارة الأجرة فلم يرَ شيئاً، حاول ببساطة أن ينصح زبونه بالعدول عن الذهاب إلى القرية.

كان من الطبيعي، في الحالة التي وصلوا إليها، وإن كان القبر ما زال قادراً على قول شيء، كان بالإمكان دفن هكتور في مقابر آل باري. فاليوم يتشارك الناس القبور كما يتقاسمون طاولة الطعام. إذن كان عليه هو أن يعلم السيدة بن عامر ليعفيها من أن تعلم بشكل مفاجئ ومن خلال الصحف بموت الرجل الذي كادت تتزوجه قديماً، وأن يحمل إليها كلمة إلى الشقة التي زارها فيها يوماً لطلب يد ابنتها للزواج...

«كزافيه - ماري، كزافيه - ماري، هنا بابا فوكس-ترو..».

هذا الصوت الذي يعذبه. أريد أن أقضي عليك، من فوكس - ترو بابا...

- هل أقطع الاتصال سيدي الكولونيل.

- لا.

(1) هنا ايضاً يتابع الكاتب تخيل وقائع محاكمة افتراضية لدو رواي.

ما عاد هناك بحر، لا شيء سوى أتون، نواح مكتوم تحت البخار الذي يتصاعد في غيمة هائجة، والعرق يتصبب على صدغيه، ولا شيء آخر. ولا دموع خاصة، لا دموع، لا مياه براقة، فالضابط لا يبكي. بابا فوكس – ترو، الصوت الأخير الذي يذكره بالعالم، ضابط ثان يناديه كي يجترا معاً الألم الذي لا يزول. آه! لقد كان جميلاً، الجيش الفرنسي، وكان للرمل رائحة جميلة، جيش بورباكي[1]!

«تجديف» سيفكر المدعي العام وهو يضع على كتفيه جبة الصدر من الفرو. «غطرسة، كفر من ضابط مساعدٍ قديم لدى الجنرال ديغول...».

هذا صحيح سيدي الرئيس، الكولونيل الموجود أمامكم على مقعد الاتهام، استدعي مساء الرابع من يونيو 58، من قبل رئيس الجمهورية الذي سأله عماً يعتقده بخصوص الجزائر. فعرض له الكولونيل لوحة عن التفاوت الفظيع بين الجماعتين، وأوضح له طموحات الجيش. أكان يمكن له أن يشك بالمكان الذي جر إليه الجنرال الجيش؟ سيدي، في الليلة التي استدعاه فيها الجنرال، سمع الضابط الماثل أمامك من رئيس الجمهورية: «اختر دائماً الطريق الأصعب. وبذلك ستكون متأكداً تقريباً من أنك لن تخطئ». كانت الإشارة واضحة: كما بالنسبة إلى ديغول نفسه في 1940. فقد تبع الكولونيل دو رواي النصيحة. لم تكن الجزائر بالنسبة إليه رؤيا ولا وطناً سماوياً وإنما وطناً ملموساً...

(1) Charles Denis Bourbaki (1816–1897) هو ضابط فرنسي تميز في جيش أفريقيا وأصبح جنرالاً.

«... من فوكس - ترو الذي يناديك، تسمعني؟»).

... سيردد هذا كل النهار وكل الليل. بابا- فوكس - ترو.

... جعل الحب فوق كل اعتبار، أراد أن يحمل الوطن معه في المملكة الدنيوية الضائعة. أو أنه كان علينا أن نقول إن الجزائر التي طلب منا اعتبارها مثل فرنسا، لم تكن وطناً؟

من يجرؤ، سيدي الرئيس على لوم الكولونيل دو رواي على ذلك؟ من يجرؤ على القول إنه أخطأ في الايمان بكلام فرنسا، أو إذن، من يجرؤ على لومه لأنه لم يكن على علم بأسرار الدولة؟ هل كان الجنرال ديغول نفسه يعرف إلى أين هو ذاهب؟

الجيش بلا شك هو مفارقة تاريخية، سيدي الرئيس. ولكن بقدر ما ستكون الأمم بحاجة للتفكير بدفاعها، لن يكون الجيش أبداً جمعية أطفال كورس. وبقدر ما سيكون هناك جيوش، ستكون هذه الجيوش دولاً داخل دول، مجتمعات سرية يمكن لأعضائها أن يحلفوا على الكتاب المقدس بحجب الحقيقة عن الآخرين، وأن يكون هدف الحياة هو الذهاب إلى أقصى الأشياء كلها. سيرهب الجيش دائماً المثقفين، هذه الضفادع التي يمكن أن ترتجف عند أول نسمة. وطن هؤلاء ليس فرنسا السفسطائيين، المولعين بالجدل المجردين من المنطق، ولا مكاتب تبديل عملة أو علماء اقتصاد بحقائب صغيرة محشوة بخلاصات وإحصائيات، وإنما فرنسا العقيدة والأمل، عندما لا يعود هناك عقيدة وأمل. هنا أيضاً، ضابط سمعتموه، مرافق عسكري للكولونيل دو رواي، يتقدم لكم: «نحن فكرنا بشرفنا الضائع...». سيداتي، اعذروني، لماذا لا يصلكم صوت المساجين؟...

لا يمكن للمحامي أن يقول ذلك لمحكمة. سيعتمد صيغة أخرى: لماذا لا يمكن للشرف أن يكون قائداً؟ من هم الرجال المكرسون لما كانوا يسمونه قديماً البحث عن الكأس المقدسة، تلك الكأس المقدسة التي كانوا يعتقدون أنه جمع فيها دم المسيح والتي يجب أن تستعاد من الكفار؟ ما هي الكأس المقدسة سادتي القضاة، سوى رفض السهولة والتخلي والخزي؟ لا نحمل الكأس المقدسة على عجل، بل ننقلها فوق قلوبنا. ليس هناك سوى الكأس المقدسة. هناك غانيافر[1]، وغانيافر الكولونيل دو رواي أدانت النهب والمذابح والإذلال والتحقير.

لقد قلت، سيدي المدعي العام، إن هناك تناقضات عند هذا الرجل. لنتساءل كيف يمكن لضابط قاتل في ديان بيان فو واختاره رئيس الجمهورية مساعداً له أن يصل إلى هنا. ولكن أين المنطق عندما نتألم؟ كم هناك من الضباط في الجيش كله يوافقون على السياسة الجزائرية للجنرال ديغول، حتى لو اعتبروها قدرية وواقعية؟ هل يمكن فقط أن نجد عشرة؟ كم هو عدد من لم يحاولوا، على الأقل، أن يثوروا عليه وعلى القدرية التي يجسدها؟ في قضيته الخاصة، قال الجنرال شال: «هؤلاء الذين رفضوا أن يتبعوني، يمكن أن نعدهم على أصابع اليد...» لماذا إذن لم يعلنوا جميعهم التمرد لحظة الانقلاب؟ لأنهم لم يكونوا أكيدين من نقاء نوايا جنرالات التمرد؟ رئيس الجمهورية ليس المدير العام الذي يصفي مجتمعاً في عجزٍ مالي. هذه

(1) Geneviève هي زوجة الملك أرمور، ولكنها كانت تحب لانسلو دو لاك الذي انحرف عند البحث عن الكأس المقدسة بسبب غرامه بغانيافر.

الوحدة حيث يصفّر الهواء الحارق، هذه الوديان المعزولة، أو التي حيث يجري النفط والماء، أو حيث ينبت القمح، فإن هجرناها، أي ندم كاذب سنحمل؟ سيدي الرئيس الرجل الذي أمامكم لم يتخيل نفسه في فرنسا، يحضر للدراسات العسكرية العليا، يتقافز في شان - دو - مارس، يهتم بمنزله، يطعم ولده، يحضر الحلوى، مراقباً حركة فوائد بيناي في الصفحات الاقتصادية في لو موند. كما يتخيل نفسه أقل أيضاً في الجهة الأخرى، مع جزائرية بالعلم الأخضر والنجمة الحمراء. الرجل الذي ستحكمون عليه لا يمكنه لا أن يترك رفاقه ولا أن يتبعهم. لا أن يلتزم ولا أن يخون. لا أن يدير ظهره للأرض التي يحبها ولا أن يلف علمه الخاص في حزامه وأن يرحل، كما فعل الآخرون إلى السويس.

لو رأيته عندما اعترض على قطع الملازم بيرسيفال للإرسال. ما عاد يعرف ماذا يفعل. في حركة غضب إلهي، قطع رابطه بكل شيء وها هو يتيم. بالنسبة إليه أمه الجيش ما عادت سوى جسم كبير فارغ حتى من الحشرات. لا يمكنه أن يبقى على هذه الهضبة، حيث، ومنذ لحظة قاده تفكيره إلى ما قبل قرنٍ إلى جيش الأشباح الآخر، حيث كان شقيق والد جده، وهو ضابط شاب، تابع للقيادة العامة للسيد دو بورمون. ما عاد يعرف. فهو يشك فقط إن كان بلغ قمة حياته، الأكثر خطورة مما كانت في ديان بيان فو، أكثر وعورة من صخور الأوراس. شعر بالدوار. حضور كولونيل معزول مع ملازمه على هضبة القطار التي تكسوها قطع من الطين على شكل هلال وجرار مكسرة، ليس بعيداً عن القلعة القديمة التي شاهدها سلفه تتفجر والتي أمست اليوم نوعاً من مدينة محصنة للقيادة، وجوده هنا أمر شاذ. يجب أن يبدأ حياة خيالٍ شارد. ولكن كيف يمكن

أن يُنتزع من هذه المدينة دون وداع، دون أن يذهب إلى المرفأ حيث شد إليه الراية الحزينة لآخر الأقدام السود الذين رحلوا، غابوا، فصلوا عن كل شيء؟ وبعد سيذهب مع مرافقه إلى المزرعة.

«لقد نجونا، برسيفال».

9

على رصيف الميناء، أسفل كومة منحدرة من الصناديق المجهزة للترحيل، يرى دو رواي صندوقاً كبيراً موجهاً لهكتور كونيغ: البيانو. وإذا بحشدٍ كبير يتدفق باتجاه البحر. بروح انتقامية، لوح دو رواي برايته. ليبدأ السراب الملحمي الذي مشى باتجاهه ملايين الرجال والنساء من الجزائر

تجهز الملازم.

مع أول منعطفٍ، عند طرف الأسوار القديمة من القرميد، يظهر أسفل القرية مع الحي القديم القذر للا مارين الذي أزالته الجرافات. هناك حيث ذهب هكتور كونيغ لرؤية أصدقائه من الشباب الكاثوليكي، شارع القناصلة، حيث كان يتردد أبوه على حانات حقيرة، وحيث كان يسكن الكولونيل غرييه في خان الريس الذي استأجره من السيد بكري، تكدست علب من الغسيل. هناك حيث كان يسكن بالعشرات أناس في ظروف متواضعة، وكان بإمكانهم رؤية البحر يرتطم بالسفوح، البواخر، الجامع الكبير، الحوض والبحرية، نصب دوق أورليانز، وفي المقابل مدينة

السكان الأصليين فوق كتلتها بلون الكرمة المخفوقة، القصبة، حيث طبع غراس وبيجار حرفاً ورقماً عند كل عتبة، وهناك حيث تقاتلوا كما في كل مكان، حيث عُذبوا وصنعوا المفجرات، حيث طارد المظليون الإرهابيين في متاهة الأزقة؟ وبعيداً خلف حواجز الميناء، مرتفعات بلاد القبائل، حدبة بوزقزة، مرتفعات جبل جرجرة نصف المخبأة في شبه كرات من الصوف.

إنها صورة بطاقة بريدية بالألوان.

السعادة كانت هنا، ولا شيء يمكن أن يوقظها: اسم بار، تقاطع شارعين، ذكرى بلون العنبر. وسط قبر مفتوح، وكأنه يلاحق شيئاً ما، كان «الجيب» يلتهم الهضبة المقدسة، وإطارات العجلات تولول في المنعطفات. لا أحد تقريباً. هاربون مشتتون على الأرصفة بين النفايات التي فاضت. وعلى الشرفات رايات من القماش القطني الأخضر مع هلال ونجم أحمرين. قديماً كانوا يطلقون النار عليها. الشمس تضرب الواجهات المقشرة التي ما زالت تحمل كتابات قديمة:

«منظمة الجيش السري ستنتصر».

«كزافيه – ماري، كزافيه – ماري...».

وهنا بين الساعد الأيسر ونصب دوق أورليانز على حصانه، غرزت سارية علم أخضرٍ، وبيده اليمنى، كان دوق أورليانز بقبعته ذات الكوزين يحيي مدينة الجزائر والشمس بسيفه. يده اليسرى تقبض على علمٍ أخضر. انتهاك للحرمات؟ الدوق أورليانز يعلن عن حقبة جديدة. لماذا؟ لقد شاهد الدوق أوليانز رايات أخرى وحصد غنائم أخرى في ساحات القتال.

«أسرَع من هذا»، أمره الكولونيل.

اندفعت السيارة العسكرية بسرعة على جادة فرون- دو - مير، ونزلت باتجاه الحوض، حيث كانت تتهادى مئات السفن الصغيرة ووصلت حتى رصيف ميناء سفن الصيد التي لن تذهب بعد اليوم إلى الصيد ثم مباني الترانزيت والمحطة. فوق صواري البحرية وقبة مقر المحافظة، عند رصيف مركز البلدية وفندق ألّتي، فوق البواخر الراسية، كان العلم المثلث الألوان ما زال يرفرف بين الرايات الخضراء.

«أنت تمزح، سيدي الكولونيل، سيهربون جميعهم إلى البحر، وسترمى رايتنا في المراحيض».

الكولونيل لا يتكئ حتى على مسند السيارة. من ياقته، تطاير حرير أحمر بأهداب ذهبية. بلباسه المبهرج الألوان، مع قنزعته القرمزية وهذا الفيضان من الدم الذي ينفر من قلبه، من يكون؟ طير جارح من الجبال ضلّ بين الرجال، حيوان يصعد من البحر قبل أن يختفي في الجنوب؟

صحراء، بابل كبيرة تسير فيها بعض الحافلات بصرير معدنها وضجيج عوادمها وصرير عجلاتها التي تتلاشى، في آخر الأفق كما خلف المدينة نصف الميتة، في...

- هل تسمع، بيرسيفال؟

- لا.

... ضجيج البحر الهائج. رغم ذلك، فإن الموجة التي تكسرت على أرصفة الميناء لم تنتج سوى غيمة من الزبد وارتداد خافت للدوي.

سيدي الرئيس، ها هما يقفان أمام كومة عالية من صناديق الترحيل والرزم. بالصدفة، وهل هناك مصادفات في هذا اليوم؟ شد نظر الكولونيل

دو رواي لصيقة على صندوق أشبه بنعشٍ كبير باسم هكتور كونيغ. وعنوان تحت الاسم: 61 جادة بوسيجور، باريس، 16. لم يكن هكتور كونيغ مقفلاً عليه في الترانزيت في معبد فاخر للموتى، في مواجهة ضريح عادي لآل باري، لأن أحدهم سيطالب بالجسد أو سيكون بانتظار أن تقدم له أرض أجداده الملجأ. لا على الصندوق، شرائط «قابل للكسر» كما لو كنا في ظروف تسمح لعمال الميناء باتخاذ احتياطات من هذا النوع وتوصيف الشيء بخط نسوي بحروف كبيرة: «بيانو». شقيق هكتور كونيغ نفذ وعيده، وأرسل لشقيقه الذي لم يعد موجوداً بيانو المدرّس، وهذا، كان بغاية الهزل والغرابة مما جعل الكولونيل ينفجر بضحكة لم يفهمها الملازم أول.

وفجأة عقد الكولونيل حاجبيه. من كل جهة، من كل السلالم التي تهبط باتجاه المرفأ، لأن المصاعد تعطلت، حشود تتدفق. كل القصبة، كل فريه–فالون وفور–دو–لو، بئر مرادريس والقبة تتقدم. كم كانوا؟ خمسمئة ألف؟ مليوناً؟ واستسلموا. المظليون لم يخرجوا من أحيائهم والشرطة ينتظرون الأوامر، والبنادق القصيرة في حمالاتها. كيف ترك الكولونيل نفسه يقع في الفخ؟ عليه أن يقوم بنصف التفافٍ ويهرب.

تأخر كثيراً.

في المقدمة، النساء، الجزائريات اللواتي نزعن أوشحتهن، حاملات اسم فاطمة[1] اللواتي استعدن الاسم الجليل لوالدة النبي، حشد من الأطفال، وخلفهم، غابة من السنديان الأخضر يهزها الهواء، جنود ببزاتهم بلون

(1) وهنا يقصد الجزائريات عموماً نظراً لشيوع اسم فاطمة بينهن، وأيضاً نظراً لاختصار الفرنسيين للفتيات الجزائريات باسم فاطمة.

الزجاج وقبعاتهم الدغلية كما في ديان بيان فو، ثم جيش المجهولين وغير المعترف بهم، سائقو الحافلات، والشغيلة، كناسو الطرقات وجامعو النفايات، المعماريون، البقالون، الطلبة، السمكريون والميكانيكيون، عمال الزراعة، السباخون، بائعو الخضار، بائعو السردين، بائعو الكعك، مسؤولو المجهولين مثل فئة غير المسجلين، الأساتذة، الأولاد، المدلكون في الحمامات المغربية، عمال الفنادق وندل المقاهي، باعة الأقمشة، في شارع لا لير، سائقو سيارات الأجرة، ما أدراني؟ الضواحي جاءت لتزيد هذا الطوفان، الجميع يصرخون بالكلمة نفسها مقاطعها الخمسة، ثلاثة سريعة واثنان طويلان: تحيا الجزائر كما الآخرون عندما كانوا يبحون أصواتهم من أجل جزائرهم الفرنسية، يضربون على كسرولاتهم ويطلقون أبواقهم. هؤلاء يرددون بلا نهاية الكلمة نفسها، وتعاد وتعاد دون كلل في نوع من اللاتينية المسعورة، التعويذة البربرية، تكرار المجانين. روح انتقامية حملتهم، حولتهم، أثملتهم. كانوا سكارى، ولكن مم؟ لا خمور ولا نبيذ. من وقتٍ لآخر، أحدهم يركض إلى أنبوب ماء، يزيل الماسورة ويشرب منها ويغرق وجهه بالماء. فيقلده آخرون. إن كانوا ثملين، فهم ثملون بالشمس وبهذا اليوم الذي أمكنهم فيه أن يجاهروا وللمرة الأولى بامتلاكهم وطناً موجوداً وهم موجودون فيه، ويذهبون لملاقاة البحر؛ أمواج ليس في مقدور أحد وقفها. كل الجزائر التي خرجت تدفقت هنا وفاضت. الأقدام السود في بهو ترانزيت الطواش حملوا حقائبهم وركبوا الزوارق التي كان أحدها يحمل اسم الجزائر ونظروا بذهول إلى مدينتهم وهي تبدل روحها، والهمهمة تصبح عجيجاً، ضوضاء، تخيف النوارس وتسقط عصافير الخطّف من الأعلى. عاصفة ستنفجر.

– برسيفال، هل خسرنا معركة أزينكور لأن الخيالة كانوا غارقين في المجون، أو لأن...

– كزافيه – ماري، كيف تلقيتني؟

– .. أو لأن أقواس جند المشاة الإنكليز كانت أكثر ليونة من أقواسنا؟

هنا، برسيفال لم يكن موافقاً. إنه تقني من الطابور، برسيفال وليس مجرد ساذجٍ. متخصص في ملاحقة المتمردين عبر الجبال والوديان، وفي الشجاعة والتفاني هو معلم. يحب سيده الكولونيل لكل الأسباب، ولكن هنا، يبالغ الكولونيل، يخرج عن الخط. بعض رشقات رشاشٍ ثقيلة ستعيد لهؤلاء الرعاع وعيهم.

– لقد خسرنا لأنا أردنا أن نخسر، سيدي الكولونيل. لأن فرنسا خانتنا. لأننا كنا سذجاً إلى هذه الدرجة لكي نسبب الثورة.

– برسيفال، نحن جميعاً أبناء الثورة...

وهنا، ومن بين النساء اللواتي يتقدمن... لقد أخطأ مرة أخرى، كان يحلم. هذه المرأة التي تبكي بين الفاطمات الكبيرات، مارغريت المتكئة على رئيسة. الاثنتان رأتا الكولونيل دو رواي.، لم تتساءلا عما يفعله هنا هذا الرجل المكرس للاستثناءات والممزق بالتناقضات؟ أي مصطلح بالتحديد يجب استخدامه؟ هذا البطل، القديس، المجنون؟ الذي حاول أن يختار بين سببين للحياة تحطّم بينهما. أخرج من قميصه رايته الخاصة، ببياضها المهيب حيث طبع وجه الوطن، بسطه ولوح به كما يلوح الكاهن بوعاء القربان المقدس، مثل راهب صليبي يلوح بالصليب، مثل شهيد يقدم

نفسه طواعية إلى الحيوانات أو مثل مصارع ثيران يتقدم مع المرهقة[1] تحت خطم الثور. أو أيضاً، ولكنه ليس سوى جلاد نفسه، مثل الجلاد الذي يخرج إلى الحشد رأس الملك ويتوقف للحظة، ماذا ينتظر؟

ماذا يسكن هذا الرجل، ليس فقط يا سادتي، الأحكام، بل صورة امرأة ترددت في الزواج منه. كيف يمكن أن يحطمه حب بربرية ويقضي على مهنته من أجل أفكار أو سعادة وهمية؟ امرأة يفكر فيها في وحدة الأوراس، يقول لها: «صرخة العصفور تجعلني أفكر بك، ولكن هذا العصفور لا اسم له، ولا أعرف بما يصرخ...» لو تزوجا، ما كان للألم اليوم أن يكون قاسياً بهذه الطريقة. على الأقل بالنسبة إليه. وكانت لتنجح أعراس فرنسا والجزائر، بطريقة ما، ويرتفع دويّ الطبول وتلعلع الزغاريد. امرأة لم تزرع الأمل في قلب لانسيلو[2]؟ هي التي سأل عن أخبارها في الصحراء ها هي أخيراً هنا... في جلبة الشمس والعواصف الجافة، هناك أمواج متكسرة، عاصفة رطبة، تدفق غيوم. لكي تبتسموا، عليكم سادتي القضاة، ألا تكونوا قد عشتم عواصف ولا طعنات متوحشة يمكن لعزاء أن يسببها. عزاء ماذا؟ عزاء الوطن، عزاء الحب الضائع. أين هو الزمن،

(1) المرهقة هي قطعة قماش حمراء يستعملها مصارع الثيران لإرهاق الثور قبل القضاء عليه.

(2) لانسلوت هو ابن بان ملك بنواك وهو إقليم في إحدى نواحي غرب فرنسا. مات بان والد لانسلوت في معركة عندما كان صغيرا فاختطفته سيدة البحيرة من أمه وربته في قصر مسحور فسمي بالبحيري وعندما بلغ الثامنة عشر أرسلته إلى الملك آرثر. أصبح لانسلوت أكبر أنصار آرثر، ومنقذه في المآزق، لكن مأساته كانت حبه لغوينيفير زوجة آرثر فنسب كل شهرته ونجاحه إلى قوة حبها الملهمة لكنه عاش صراعاً بين وفائه لمليكه وحبه لزوجته مما حرمه من الفوز بشرف الظفر بالكأس المقدسة وقاده في النهاية لأن يتحارب مع القائد الذي أخلص له.

عندما عاد سلفه بعد ثلاثين عاماً من الحملة، ليقود دائرة الجزائر، ويكسر سيفه حتى لا يشوهه في القمع؟ حباً بالرب! لقد كان ذلك اسوأ بكثير من هذا!

الأكثر صعوبة بالنسبة إليه، ما كان؟ أنا أسألك، سيدي الرئيس. أكان العدالة، الإنصاف، رفض كل شيء أم أعراس الريح والسراب؟ الأكثر صعوبة، هو ما مارسه ماسو[1] في عمليات التعذيب، الرعب والكراهية، ثم في الخضوع، غراس عندما غادر الجيش، وبيجار عندما ينجح في إدهاش الوزراء والشعب، في إلصاق نجمة بعد أخرى على كتفيه وفي مواجهة منتصرين سذج على شرفة شارع سانت دومينيك. كان رئيس الجمهورية والذي يسميه الكولونيل البرنتصور، قوة تسحق كل شيء: لم يحب كل هذا ولهذا السبب تمكن دائماً من تحقيق المستحيل. هو كزافيه – ماري دو رواي، الذي لا يخجل من شيء، لا يعرف أن قوته الشخصية كانت أكبر من كل ذلك لأن الايمان هو الذي يجعل الجبال تتحرك، وقام بحركة ما كان لأحد أن يفهمها. تحيته الوحيدة – ولكن من يتحدث عن التحية؟ – كانت في جنون التلويح بالعلم. كان يجسد فرنسا التي يقتلع قلبها. أما مارغريت فقد علمت لماذا وجدوا هكتور مع قبضة تراب في يديه. عدالة أو لاعدالة، نعم، أي معنى لهذا؟ الحقيقة هي الأرض التي لا تترك نفسها تُمتلك إلا لكي تَمتلك لاحقاً. هكتور كونيغ جمع وطنيه ولم يبتعد إلا ليراهما بشكل أفضل: الموتى الشباب والموتى في الغبار، الأساطير، الأسلاف المنسيون الذي يذوبون في غابة أشجار جافة نصف مقطوعة،

---

(1) المقصود (Jacques Massu) وهو جنرال فرنسي دافع عن استخدام وسائل التعذيب في الجزائر وشبه الجزيرة الصينية الهندية.

كل ذلك تم شراؤه من جديد طهر من الخطيئة بالفرح، بالغضب، والحب وحتى غضب المجدفين، غير القادرين على تدمير ما يعود للوطن المشترك: الشمس والدماء التي ستزهر في الأبدية.

هنا قدم الكولونيل دو رواي رايته وقدم نفسه، مع الملازم برسيفال، دون أي كلمة للكتيبة التي كانت تمثل الجيش الفرنسي.

في اليوم التالي، الثالث من يوليو، في اليوم الأول للاستقلال، ارتفع القمر فوق لسان رأس ماتيفو، هلاله بالضبط فوق النجمة. يكاد يكون من أجل عيد دخول جيش السيد دو بورمون إلى مدينة الجزائر، رأينا عروض شرطة خلف مقاود سيارات مغلفة بالأعلام بالألوان الفرنسية والجزائرية. أين هم؟ لا أراهم في صندوق المتهمين. رجال شرطة فرنسيين يخبطون بأيديهم على هياكل السيارات الطائرة، مأخوذين بالفرح الأبدي للمد الإنساني الذي ينزل من الجبال ويندفع عبر السهول...

لقد كانوا على حق، سيدي الرئيس، لأنه في هذه المغامرة، من البداية وحتى النهاية، كل شيء بدا هائلاً، مدوياً، مذهلاً.

هذا الأحد هو في الحقيقة عيد عظيم، مدوٍ، بديع.

مثل هجمة جياد مجنونة في فورة أمل وألم، بين الأحياء والموتى، باتجاه البحر الباقي دائماً هنا.

التسلسل الزمني

قرنان من الزمن من الحكاية الفرنسية – الجزائرية

وضعه غوي دوغاس (جامعة باريس 12)

1770– يؤسس الأخوان ميشال كوهين ويعقوب بكري، مع يهودي جزائري هو نفتالي بوجناح الملقب ببوشناق، مؤسسة بكري أخوان وبوشناق.

1794– بأمل التجارة مع الجمهورية الفرنسية الفتية، أوصى داي الجزائر حسن باشا، وهو تحت وصاية العثمانيين، أمام مجلس الأمن الوطني، بيعقوب بكري كوكيل له.

1796– 1799 عبر وساطة مؤسسة بكري – بوشناق، قام الداي ببيع الحبوب إلى جيش بونابرت، خلال حملتي إيطاليا ومصر، وهي ديون لم يتم الوفاء بها يوماً.

1808– النقيب بوتين، الجاسوس الذي أرسله بونابرت إلى الجزائر، يضع خططاً سرية لإنزال مفترض على شبه جزيرة سيدي فرج واصفاً بالتفاصيل ضواحي مدينة الجزائر.

1826– الداي حسين الذي خلف الداي حسن، يتوجه إلى شارل العاشر ويطلب منه أن يسدد، من دون تمديد ولا تأخير، ديون فرنسا، التي وصلت مع لويس الثامن عشر إلى سبعة ملايين فرنك ذهبي.

1827– التاسع والعشرون من أبريل، وخلال محادثة غاضبة مع الداي، ادعى القنصل الفرنسي بأنه تلقى منه ثلاث ضربات بالمروحية.

هدد بترك مهامه إن لم تنتقم فرنسا له. في فرنسا، حيث بدت الحكومة مربكة، أدارت الصحافة القضية. شاعران مرسيليان، ماري وبارتيليمي، نشرا تحت عنوان «الباكرياد (من بكري) أو حرب الجزائر» قصيدة ملحمية ساخرة:

كل باريس تعلم أن الداي المتعجرف
صفع فرنسا على خدها الملوكي.
لترتفع كل الأصوات
من كل التراب الفرنسي مستنكرةً.
با ع البارونات أملاكهم القديمة،
وفي العروق عاد الدم القديم للصليبيين يغلي
وحمل كل شجا ع في زنزانةٍ رايته،
الجميع غاضب والجميع يتسلح ولكن أحداً لا يذهب للحرب.

يونيو: أسطول حربي يرسو قبالة مدينة الجزائر طالباً من الداي الاعتذار والإعلان أن فرنسا سددت كامل ديونها! هذا الإنذار انتهى برفض حاسم ونهائي. فخضعت ولاية العرش في الجزائر إلى حصار بحري.

1830 - يونيو بعد فصول عديدة من سوء التفاهم والضغوط، وبعض الفرص الضائعة للتحاور، ينجح الفريق الداعي إلى الحرب في باريس.

14 يونيو: أسطول الأميرال دوبريه - برفقة وزير الحرب الكونت دو بورمون - يقوم بالإنزال في المكان نفسه الذي اقترحه الجاسوس بوتين.

4 يوليو: ترسو أخيراً قافلة الجياد والمعدات الثقيلة، ويتمكن الجيش من

مهاجمة حصن الإمبراطور ومدينة الجزائر.

23 – 25: يوليو، هزيمة المارشال دو بورمون أمام البليدة.

27 – 29: بعد «الأيام المجيدة الثلاثة»، شارل العاشر يتخلى عن السلطة لدوق أورليان لويس فيليب.

1831– يحتل الجنرال دامرومون – الذي مات في 1837 عند احتلال القسنطينة – وهران ولكن ليس من دون مقاومة.

1834– الثاني والعشرون من يوليو، أمر ملكي بإرساء نظام التملك الفرنسي في شمال أفريقيا، يدعم توسيع الاستيطان، ويأتي بعد الكثير من المواجهات العسكرية.

1840– الجمهورية الفرنسية تعلن الجزائر مقاطعة فرنسية. زيادة عديد الجيش الفرنسي، وتسمية الجنرال بوجو حاكماً عاماً.

1843– دوق أومال ولاموريسيير يلقي القبض على عائلة عبد القادر الجزائري، والذي وعلى امتداد خمسة عشر عاماً قاد كافة حركات المقاومة ضد الاحتلال.

1847– استسلام الأمير عبد القادر والذي لم يكن نهاية المقاومة: ففي شرق وجنوب القسنطينة العام 1852، وفي منطقة القبائل من العام 1854 وحتى 1859، وفي وهران بين 1858 – 1859، ثم مرة أخرى في منطقة القبائل عامي 1864 و1865، حدثت انتفاضات قمعت غالباً بعنف.

1852– إعلان الإمبراطورية الثانية.

1857– الأول من يوليو، يطلق الحاكم العام راندون حملة دموية في إيفرحونن، التي كانت عائقاً أمام «فرض السلم» في منطقة

القبائل، وبتلك المعركة يتمّ الفرنسيون سيطرتهم على بلاد الجزائر.

1858– الرابع والعشرون من يونيو، استحداث وزارة الجزائر والمستعمرات، وأول الشاغلين لها هو الأمير جيروم نابوليون. هذه الوزارة لم تدم طويلاً، وأعاد مرسوم 24 نوفمبر 1860 تعيين دوق مالاكوف المارشال إيمابل بيليسيه، حاكماً عاماً للجزائر.

1860– من السابع عشر وحتى التاسع عشر من سبتمبر، يزور الإمبراطور نابوليون الثالث والإمبراطورة أوجيني ليومين مدينة الجزائر. الإمبراطور الذي عاد بانطباع جيد جداً عن السكان الأصليين، يمكث لفترة أطول في زيارة لاحقة العام 1864 (الثالث من مايو – السابع من يونيو).

1863– للمرة الأولى، مرسوم من مجلس النواب يضمن لسكان البلاد الأصليين حق امتلاك أراضيهم، يقول «إن القبائل الجزائرية تمتلك الأراضي التي تقيم فيها وتستغلها..». ولكن من دون تجريم كل عمليات القضم التي حصلت منذ العام 1830.

1865– الرابع عشر من يوليو، مرسوم نيابي أيضاً يحدد الوضع القانوني لمسلمي فرنسا: «المسلم من سكان البلاد الأصليين هو فرنسي، غير أنه يبقى خاضعاً للقانون الإسلامي. يمكنه أن يتجند في المشاة والبحرية، ويمكنه أن يشغل وظائف مدنية في الجزائر. ويمكنه بناء لطلبه أن يطلب الانضمام لفرنسا والخضوع لقوانين المواطنين الفرنسيين، وبهذه الحالة عليه الخضوع للقوانين المدنية والسياسية الفرنسية».

1870- انطلاق الكثير من الزواويين إلى الحرب ضد بروسيا مما أضعف سلطات الاحتلال في الجزائر.

سبتمبر، هزيمة سيدان وانهيار الإمبراطورية الثانية وإعلان الجمهورية الثالثة. نهاية النظام العسكري في الجزائر.

نوفمبر، مرسوم كروميه يمنح الجنسية الفرنسية وبشكل جماعي ليهود الجزائر، وهو المرسوم الذي اعتبره المسلمون تمييزياً وغيرعادل.

1871 - انتفاضة جديدة في منطقة القبائل وفي «الهضاب العليا» التي يديرها الباش آغا مقراني، أحد إقطاعيي مجانة، تضغط على السلطة، فيستغل الجيش الفرصة لإثبات قوته. مصادرات أراضٍ وغرامات عالية. المقراني يقتل في مايو.

1881- 1883- رجال «أبو عمامة» يهاجمون المراكز العسكرية غرب وهران وجنوبها قبل أن يلتجئوا إلى المغرب جارة الجزائر.

1898- الاضطرابات العرقية ضد اليهود في شهر يناير تعطي لإدوارد درومون الفرصة بالتقدم للانتخابات التشريعية. ينتخب في الثامن من مايو نائباً للدائرة الانتخابية الأولى في مقاطعة الجزائر، ويستمر حتى العام 1902 رئيساً للحزب المناهض للسامية.

1901- في مارغريت، مستوطنة صغيرة، مجموعات من الفلاحين الثائرين يبثون الرعب بين المستوطنين.

1911- مئات من وجهاء المدية يرفعون عريضة إلى مجلس النواب من أجل تحسين أوضاع المسلمين، الذين أصبحوا خاضعين للخدمة العسكرية الاجبارية. ونتيجة للمطالبات يتم إدخال سبعة

وثمانون ألفاً وخمسمائة جندي إلى السلك العسكري من أصل مائة وثلاثة وسبعين ألف جندي من السكان الأصليين شاركوا في المعارك.

1914– الأول من أغسطس، الأمر بالتعبئة العامة يثير بقوة المناطق في الجزائر، ويسقط في المعارك أكثر من خمسين ألفاً من السكان الأصليين، واثنين وعشرين ألفاً من الفرنسيين الجزائريين.

1919– قانون كليمنصو (الذي أعلن من العام 1915، كان في البداية أكثر جرأة، إنما أجّل تنفيذه لغاية انتفاء معارضة تدخل المجلس الأعلى في الجزائر)، وهو منح الجنسية الفرنسية لعدد قليل من الجزائريين من المؤيدين للفرنسيين.

نوفمبر، الأمير خالد، الابن الأصغر لعبد القادر، يحقق انتصاراً في الانتخابات البلدية في الجزائر، حيث اكتسحت لائحته جماهير السكان الأصليين وبعد تدخل رئيس لائحة منافسة، الطبيب بلقاسم بن تامي، يقوم مستشار محافظ ولاية الجزائر بإلغاء نتائج الاقتراع بحجة أن المتنافسين الخالديين انتهكوا المبادئ العلمانية للجمهورية بمرافعات مرابطية! نفي الأمير العام 1923.

1929– الجمعية التأسيسية للحزب الأول المستقل بشكل كامل، «نجمة شمال افريقيا». في العام التالي أسس بمبادرة من فرحات بلعباس اتحاد المنتخَبين الجزائريين، والذي يقوم برنامجه على التساوي في الحقوق والواجبات بين سكان المستعمرات أياً تكن جذورهم وديانتهم.

1930– مئوية غزو الجزائر. في تونس والجزائر وبحضور الرئيس غاستون دوميرغ، أقيمت احتفالات باذخة تؤكد على السلطة الكولونالية المطلقة شمال أفريقيا.

1931– بما أنه كان بالنسبة لفرحات عباس «لا وجود للوطن الجزائري» أسس الشيخ بن باديس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» والتي كان شعارها «العربية لغتي، والجزائر وطني والاسلام ديني».

1934– أحداث خطيرة بين الطائفتين المسلمة واليهودية في القسنطينة: 27 قتيلاً، وتدخل الجيش وفرض حظر التجول.

1936– إنشاء الجبهة الشعبية.

يونيو، اندماج بين اتحاد المنتخَبين وجمعية العلماء لتأسيس المؤتمر الإسلامي الجزائري.

نوفمبر، «مشروع فيوليت» المدعوم من قبل ليون بلوم الذي يسعى إلى دمج أفضل للجزائريين في الجمهورية، والذي يواجه برفض كبير من قبل معظم المستوطنين.

1940– إبطال مرسوم كروميو 1870. ثم إعادة العمل به مع زيارة ديغول للجزائر.

1942– الإنزال البريطاني – الأمريكي في مدينة الجزائر.

1943– مايو، وصول الجنرال ديغول، الذي أعلن بسرعة عن إصلاحات في الجزائر: فتح الباب بشكل أوسع أمام إعطاء الجنسية الفرنسية وحقوق التصويت، وفي مرحلة ثانية لكل الجزائريين ما فوق الواحد والعشرين عاماً (خطاب القسنطينة).

1945– الثامن من يونيو في سطيف وقالمة وقسنطينة، تظاهرات تقمع بقوة وتوقع آلاف الضحايا. هذه الأحداث التي وقعت في اليوم نفسه الذي كانت تحتفل فيه أوروبا بالنصر على النازية، ولدت وعياً اكبرمن ذي قبل لدى الأجيال الجديدة.

1946– أبريل، فرحات عباس يؤسس «الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري»، ومصالي الحاج «حركة انتصار الحريات الديمقراطية».

1947– يقرّ مجلس النواب قانون إنشاء مجلس جزائري تشريعي يتكون من 120 عضواً تشكله جماعتان. وهو القانون الذي لاقى رفضاً جماعياً من قبل النواب المسلمين الجزائريين.

1954– مارس تأسيس «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» والتي كان هدفها التحضير للانتفاضة المسلحة. وبضمها في الخريف قيادات من الحركة الوطنية، أصبحت في نوفمبر ما يعرف بـ»جبهة التحرير الوطني».

ليل 31 أكتوبر، الأول من نوفمبر، سلسلة من الاعتداءات ضد المؤسسات العامة. وفي اليوم التالي اغتيال مدرس شاب وقائد في منطقة باتنة: «يوم عيد جميع القديسين الدموي» الذي أعلن انطلاق النضال المسلح من أجل الاستقلال. فرنسا تحل «حركة انتصار الحريات الديمقراطية» وتعتقل العديد من القادة الوطنيين.

1955– يناير الوضع في الجزائر يسبّب أزمة سياسية في فرنسا، إذ رفض مجلس النواب إعطاء الثقة لبيار مندِس فرانس وفضل إدغار فور. جاك سوستيل، الحاكم العام الجديد يصل إلى الجزائر مع ثلة من الإصلاحات التي عارضها معظم المستوطنين.

في الجزائر تكثفت الاعتداءات (123 قتيلاً في فيليبفيل) وعمليات القمع
تحصد أكثر من ألف من الضحايا. اعلان حالة الطوارئ في
أبريل وانتقال الأزمة الجزائرية إلى الأمم المتحدة.

1956 فبراير، في حين تم استدعاء سوستيل إلى باريس، تم استقبال الجنرال
كاترو، المعين في وزارة الجزائر الجديدة، بالغضب وبقذف كل
أنواع الخضار في وجه الزائر الجديد: إنه «يوم الطماطم».

استقالة كاترو الذي خلفه لاكوست.

زيادة عديد القوات العسكرية إلى أكثر من أربعمائة ألف عنصر في الصيف.

مفاوضات سرية مع جبهة التحرير الوطني في دول ليست
أعضاء في الاتحاد الاوروبي، قطعت بعملية اختطاف طائرة
قادة الثورة بن بلة، آيت أحمد، بوضياف، خيذر، لشرف في
22 أكتوبر، مما أدى إلى إضراب عام للتجار المسلمين.

1957- يناير ومرة اخرى في الربيع، سلسلة من الاعتداءات في المقاهي
في مدينة الجزائر وكازينو لا كورنيش، والتي رد عليها مظليو
الجنرال ماسو بعنف. بدء التوقيفات الاعتباطية، والتعذيب
والإعدامات السريعة في العاصمة.

1958- الثامن من فبراير الطيران الفرنسي، ورداً على عمليات هجوم
انطلاقاً من الأراضي التونسية، يقصف القرية الحدودية ساقية
سيدي يوسف. ردة الفعل الكبيرة تؤدي إلى تدويل الصراع.

13 مايو، تظاهرة شعبية دعماً لفرنسا أمام مبنى الحاكم العام في الجزائر.

يوم «الصداقة» يبدأ بنهب المبنى وإحراق المكتبة.

4 يونيو، الجنرال ديغول رئيساً للوزراء مدعوماً بكامل سلطات رئيس

الجمهورية، يزور الجزائر ويطلق خطابه الشهير: «لقد فهمتكم!».

19 سبتمبر، جبهة التحرير الوطني تعلن إنشاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية تحت قيادة فرحات عباس.

3 أكتوبر، من القسنطينة، يعلن ديغول، وبأمل إعادة إطلاق العملية السياسية والإدارية، خطة خمسية لإجراء تغييرات عميقة.

1959 الثامن من يناير، الرئيس رينيه كوتي يخلي كرسيه لديغول، وتعيين ميشال دوبريه رئيساً للحكومة. الجنرال ديغول وبول دلوفرييه يتكفلان كل في مجاله بإيجاد حل للأزمة الجزائرية.

في الخريف، تعلن الحكومة الجزائرية المؤقتة استعدادها للتفاوض. ديغول يعد الشعب الجزائري باستفتاء لتقرير المصير وهو ما قوبل برفض شديد من قبل مؤيدي الجزائر الفرنسية، أدى استفحاله إلى استدعاء الجنرال ماسو إلى فرنسا. دعم محدود لاقتراح باستقلال الجزائر في الأمم المتحدة.

1960– يناير، «أسبوع المتاريس». الجيش المقسوم التحق بوقت متأخر برئيس الجمهورية. ديغول يقصي شال المتهم بالخداع.

يونيو، محادثات ميلون تتوقف بشكل مفاجئ.

1961– استفتاء يعطي ديغول الصلاحية الكاملة لحل الصراع بشكل عاجل والحكومة الجزائرية المؤقتة تعلن استعدادها للتفاوض. انقلاب الجنرالات شال وزيلر وسالان وجوهاد (21 ابريل) وضع الجمهورية في خطر ويؤدي إلى عودة الاعتداءات. محادثات في إيفيان ولوغرين، تنطلق بصعوبة في مايو، وتؤجل مراراً.

سالان على رأس «منظمة الجيش السري».

1962 – تصاعد الاعتداءات على جبهتي المتوسط. الرأي العام الفرنسي، التعب من الحرب والمصدوم بدموية منظمة الجيش السري يؤيد سلاماً فورياً.

مارس، المؤتمر الثاني في إيفيان والذي يؤدي في النهاية إلى اتفاق بين حكومة الجزائر المؤقتة والحكومة الفرنسية. توقيع اتفاق لوقف إطلاق النار ولكن منظمة الجيش السري تصعد عملياتها.

في السادس والعشرين، يطلق الجيش النار على حشود أوروبية تتظاهر في شارع إيسلي في الجزائر.

الثالث من يوليو، اليوم الأول من الاستقلال الجزائري. فرنسيو الجزائر، بأغلبيتهم العامة، يغادرون الجزائر.

نبذة عن المترجمة:

ولدت ضياء حيدر في جبيل، لبنان. درست الإعلام والتوثيق في الجامعة اللبنانية، وعملت في الصحافة اللبنانية بين عامي 1996 و2005، قبل أن تنتقل للعمل والعيش في الإمارات، حيث تعمل في مجال الترجمة والصحافة الإلكترونية. لها في الترجمة: "سلاحف بوليلنغا"، "في بلاد تيتو"، "زيبولين الصغيرة جداً"، وغيرها.

الملائكة والعاصفة

تبدو تخوم الأوراس تحت السماء الشاسعة، معدنية هي أيضاً، بلور أزرق قد يرنّ إذا لمسناه، نهاية هذه الكتل التي أغرقها مطر الربيع وعواصف الشتاء حيث دفنت كل شيءٍ تحت ثلجها، بلاد الحزن التي تحضن دائماً الثورات، والدليل: في 1954 بدأ أهل الشاوية من جديد ثورتهم، كيف يمكن الإمساك بهؤلاء الرعاة بجلدهم المحمص الذين يدفعون أغنامهم عبر الحجارة الرمادية وهذه البرانس التي بلون التراب؟ وهؤلاء العنيدون المفطورون على الرفض، هؤلاء الذين لا يقهرون ولا يتميزون بشيء عن تيوسهم، الذين ينامون في ظل صخرة منحوتة ويقتاتون من لا شيء، من الهواء والرمال ومن حصاد شعير بائس، هذه الأجساد التي لا تتعرّق، هذه البطون الغائرة، الرجال- البنادق، هؤلاء البدائيون الذين لا يسلكون أبداً الطرقات ولا يريدون الحضارة ولا الضرائب ولا المدارس ولا السيارات.. لا تستطيع التقاء واحد منهم إلا بالخطأ.. إذاً الحجارة تصبح رجالاً يتحدثون بلغة يلزمك مترجمين خاصين لفهمها، ونساء ينبثقن من العدم، متدثرات بالسواد، حاسرات الوجوه.







المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة